

لعبة الأمم

- إذا أردت أن تفهم لعبة الأمم فعليك أن تضع نصب عينيك القواعد التالية:
- ١- أن من أول أهداف أية أمة أن تبقى في اللعبة ولا تخرج منها.
 - ٢- رغالباً ما تنصرف الأمة بصورة لا تهدف معها إلى احراز أي نجاح في داخل اللعبة بقدر ما تهدف إلى استمرار التأييد الجماهيري لزعيمها.
 - ٣- ومن النزاهة الخاطئة بمكان أن يُفترأ أن تصرّح رسمي حول السياسة الخارجية بصفاة النية وفلوسف السرية . فالمنافرة شرط أساسي لأي زعيم في اللعبة فهو يظهر ما لا يظن ويقول شيئاً ويعني به شيئاً آخر

تقديم : مروان خضير

الترجمة الصّحيحة الكاملة

مايكلز كويلاند

The Game of Nations
Miles Copeland
Weidenfeld & Nicolson
London 1969

نشر هذا الكتاب بإذن رسمي من المؤلف
وكافة الحقوق لترجمة وإصدار هذا الكتاب باللغة العربية
محفوظة للأنترناشنال سنتر - بيروت
ص.ب ٤٦٤٥

الطبعة الاولى ١٩٧٠ التوزيع في لبنان : مكتبة الزيتونة - شارع احمد شوقي
- بيروت هاتف ٢٢٤٥٧٧ في العالم العربي ص.ب (٥١٦٩)
بيروت- تليفون ٢٤٤٧٣٩

ماينز كونفلات

لعبة الأمم

الأخلاقيات في سياسة القوة الأمريكية

تقديم
مروان خضير

الترجمة الصحيحة الكاملة
مع تقديم مشاكل السلطة

إهداء المؤلف

إهداء المؤلف

بكل احترام وتقدير ، أهدي كتابي هذا الى السادة :

جيفرسن كافري
وريموند هير
والفقيه جورج وادسورث

الذين كانوا ابرع سفراء عصرهم ، والذين لن يسمح عصر الاستشارات
الدبلوماسية السريعة لامثالهم بالبروز ثانية .

مايلز كوبلاند

لعبة الأمم

انها لعبة تختلف عن غيرها من أنواع اللهو واللعب - مثل البوكر أو الحرب أو التجارة - في عدة نواح مهمة وهي :

أولا : لكل لاعب في هذه اللعبة أهدافه الخاصة التي تختلف عن أهداف الآخرين ، كما أن تحقيق هذه الاهداف هو مقياس نجاحه .

ثانيا : وكل لاعب في هذه اللعبة مجبر بطروفه داخل بلاده على القيام بأعمال وتحركات ضمن مجال اللعبة دون أن يكون لها علاقة بأسباب النجاح بل يمكن أن تقلل من فرصة النجاح نفسه .

ثالثا : وفي « لعبة الامم » لا يوجد فائزون البتة ، بل الكل خاسرون . لهذا لم يكن حرص كل لاعب على النجاح بقدر ما هو على تجنب الضياع والخسارة .

ان الهدف المشترك لجميع اللاعبين في « لعبة الامم » هو رغبتهم في المحافظة عليها مستمرة دون توقف . ذلك أن توقف هذه اللعبة - « لعبة الامم » - لا يعني سوى شيء واحد الا وهو « الحرب » .

من محاضرة القاها زكريا محي الدين

نائب رئيس الجمهورية العربية المتحدة

في الكلية العسكرية المصرية في ايار (مايو) ١٩٦٢

ملاحظة للقارىء

تعني عبارة « لعبة الأمم » ذلك النشاط الذي بدأت وزارة الخارجية الأمريكية في واشنطن بغية وضع المخططات المناسبة لبسط النفوذ الأمريكي على بلاد العالم عن طريق السياسة والخداع بدل اللجوء الى الحرب المسلحة .

وهكذا يقترب معنى هذه الجملة من « التخطيط السياسي للصراع على مناطق النفوذ في العالم عن طريق الحرب الباردة » .

المترجم

تعاقب الأحداث

ان فصول الكتاب غير مرتبة حسب تسلسلها التاريخي ، ولذلك نثبت هنا تسلسل هذه الحوادث حسب تاريخ وقوعها .

- ٢١ شباط (فبراير) ١٩٤٧ : السفارة البريطانية في واشنطن تقسم مذكرتها حول اليونان وتركيا لوزارة الخارجية الامريكية والتي تعني نهاية الوصاية البريطانية في الشرق الاوسط .

- ١٢ اذار (مارس) ١٩٤٧ : اعلان مبدأ ترومان

- ٥ حزيران (يونيو) ١٩٤٧ : اعلان مشروع مارشال .

- تموز (يوليو) ١٩٤٧ : الانتخابات السورية .

- ١٤ ايسار (مايو) ١٩٤٨ : اعلان قيام دولة اسرائيل وبدا الحرب العربية الاسرائيلية الاولى .

- ٣٠ آذار (مارس) ١٩٤٩ : قيام حسني الزعيم بانقلاب في سوريا .

- ٢٦ كانون الثاني (يناير) ١٩٥٢ : حريق القاهرة من قبل الرعاع او ما يسمى بالسبت الاسود - كيرميت روزفلت يذهب الى القاهرة لينظم الثورة السلمية بقيادة الملك فاروق .

- آذار (مارس) ١٩٥٢ : تنازل كيرميت روزفلت عن فكرة الثورة السلمية بقيادة فاروق واجتماعه بالضباط المصريين الاحرار .

- ٢٢ تموز (يوليو) ١٩٥٢ : قيام جمال عبد الناصر بانقلابه في مصر .

- ٥ آذار (مارس) ١٩٥٣ : اجتماع ايزنهاور ودالاس مع ايدن وقيامهم باول دراسة لفكرة منظمة الدفاع عن الشرق الاوسط .

- أيار (مايو) ١٩٥٣ : وزير الخارجية دالاس يقابل جمال عبد الناصر .
- آب (اغسطس) ١٩٥٣ : الاطاحة بمصدق في ايران .
- شباط (فبراير) ١٩٥٤ : عبد الناصر يطيح باللواء نجيب ويستلم السلطة علنا في نفس اليوم الذي اطيح به بالرئيس اديب الشيشكلي في سوريا .
- نيسان (ابريل) ١٩٥٤ : الاتراك والباكستانيون يوقعون الاتفاقية التي أدت الى ايجاد حلف بغداد .
- تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٥٤ : توقيع اتفاقية الجلاء عن قناة السويس بين بريطانيا ومصر .
- تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٤ : الكولونيل ايفلاند والكولونيل جيرهارت يزوران الرئيس جمال عبد الناصر وبيحثان معه ترتيبات الدفاع المشترك .
- كانون الثاني (يناير) ١٩٥٥ : اعلان حلف بغداد رسميا وتعيين السفير بايروت بدلا من السفير كافري في القاهرة .
- شباط (فبراير) ١٩٥٥ : بعض الزعماء ، ومنهم : تيتو ونهرو وايدن ، يزورون عبد الناصر - قيام اسرائيل بغارتها على غزة مما اضطر عبد الناصر لانهاء اعتداله فيما يتعلق بقضية اسرائيل .
- نيسان (ابريل) ١٩٥٥ : عبد الناصر يحقق نجاحا في المؤتمر الآسيوي الافريقي في باندونغ - اندونيسيا .
- تموز (يوليو) ١٩٥٥ : شيبيلوف يزور القاهرة ليمدد عرض الاسلحة 'السوفييتية' على عبد الناصر .
- ايلول (سبتمبر) ١٩٥٥ : عبد الناصر يقرر على صفقة الاسلحة السوفييتية وآلن يفقد أمله واحلامه في القاهرة .
- آذار (مارس) ١٩٥٦ : الملك حسين يقبل الجنرال جون غلوب بعد الاضطرابات التي قامت بها العناصر الناصرية وضغطت بها على الملك .

- تموز (يوليو) ١٩٥٦ : دالس يعلن انسحاب الولايات المتحدة من المساعدة المالية لبناء السد العالي ، وعبد الناصر يعلن تأميم الشركة العالمية لقناة السويس .
- تشرين اول (اكتوبر) ١٩٥٦ : وقوع الغزو الاسرائيلي الانكليزي الفرنسي على مصر وقضية السويس .
- تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٦ : السوريون يعلنون اكتشاف مؤامرة دبرتها المخابرات الامريكية للاطاحة بالحكومة .
- كانون الثاني (يناير) ١٩٥٧ : اعلان مبدأ ايزنهاور .
- نيسان (ابريل) ١٩٥٧ : احباط محاولة انقلاب ناصرية للاطاحة بالملك حسين .
- شباط (فبراير) ١٩٥٨ : قيام الوحدة بين سوريا ومصر ونشوء الجمهورية العربية المتحدة .
- ايار (مايو) ١٩٥٨ : بدء الازمة اللبنانية .
- حزيران (يونيو) ١٩٥٨ : احباط مؤامرة ناصرية ثانية في الاردن .
- تموز (يوليو) ١٩٥٨ : قيام انقلاب في العراق ضد نوري السعيد واغتياله مع بعض اعضاء حكومته والعائلة المالكة (انقلاب قاسم) - نزول مشاة الاسطول الامريكي في لبنان ، والقوات البريطانية في الاردن لمنع حدوث انقلابات فيهما .
- آذار (مارس) ١٩٥٩ : فشل محاولة اتباع ناصر في العراق للاطاحة بحكومة قاسم .
- ايلول (سبتمبر) ١٩٦١ : انفصال سوريا عن مصر وانتهاء الوحدة .
- ايلول (سبتمبر) ١٩٦٢ : قيام انقلاب في اليمن وتاليف حكومة جمهورية - المصريون يدعمون الجمهوريين والمملكة العربية السعودية تدعم الملكيين .
- شباط (فبراير) ١٩٦٣ : انهيار حكومة قاسم في العراق .

- من تشرين أول (أكتوبر) ١٩٦٥ الى تشرين أول ١٩٦٦ : سيطرة زكريا محي الدين في الجمهورية العربية المتحدة .
 - حزيران (يونيو) ١٩٦٧ : حرب الايام الستة بين العرب واسرائيل .
- لقد أغفلت ذكر عدة حوادث بالرغم من أهميتها التاريخية بسبب ندرة ورودها في فصول الكتاب .



هذه هي قائمة بالسفراء الامريكيين الذين خدموا في السفارة الامريكية في القاهرة أثناء الفترة التي وقعت فيها أحداث هذا الكتاب :

جيفرسون كافري (لغاية كانون الثاني (يناير) ١٩٥٥)

هنري بايرود (لغاية تموز (يوليو) ١٩٥٦)

فريدريك رينهارت (لغاية نيسان (ابريل) ١٩٦١)

جون بادو (لغاية تموز (يوليو) ١٩٦٤)

لويس باتل (لغاية أيار (مايو) ١٩٦٧)

ريتشارد نولته لعدة أيام من أيار (مايو) ١٩٦٧ لغاية قطع العلاقات الدبلوماسية بين مصر والولايات المتحدة الامريكية نتيجة حرب الايام الستة بين العرب واسرائيل .

مقدمة المؤلف

يرى سكوت فيتز جيرالد في رواية مسرحية له ، تجلى فيها الذوق الاجتماعي وقواعد الاتيكيت بأبهى مظاهرهما ، أن بعض المصادمات التي وقعت بين كرام القوم ، كانت تصل الى طريق مسدود لاعتقاد الجميع أن مواقفهم هي الحق ولن يحدوا عن سلوكهم الاخلاقي فيد انملة . وفي خضم هذا التزمّت الاخلاقي والتشبث بقواعد « الاتيكيت » ، كان ينبغي بعض السوفة لفض النزاع ، وانهاء الخلاف بطريقة لا تشجع السيدة اميلي بوست على استحسانها في كتابها الشهير باسم « الاتيكيت » . غير أن أمثال هذه الحالة شائع جدا في الاجواء الديبلوماسية عامة . فكم من أزمة سياسية بين دول عديدة تعقدت وطالتر ، نتيجة اصرار تلك الدول على مواقفها ، خشية مخالفة المبادئ السامية والحصافة الديبلوماسية . وكم من مرة أيضا انتهت تلك الازمات الحادة ، الى سلام ووثام بفضل وسطاء طارئين ، دون أن يفقد زعيم ماء وجهه أو تهدر كرامة شعبه .

ولا تزال تجول في خواطر كثير منا - ولا شك - أسئلة عديدة عمن كان وراء زحزحة المصريين والبريطانيين عن مواقفهم المعتنة أثناء مفاوضات الجلاء عن السويس عام ١٩٥٤ ؟ ومن الذي أطاح بحكومة الدكتور مصدق في ايران ؟ وكيف ثبت الناصريون اقدامهم في لبنان عام ١٩٥٨ على مرأى ومسمع مشاة الاسطول الامريكى السادس ، الذين كانوا ينعمون بشمس لبنان وشواطئه الدافئة ؟ ولماذا أحجم عبد الناصر عن ضرب اسرائيل في وقت كان مستعدا لذلك ودفع بشعبه لحربها وهو في أقل حالات الإستعداد لها ؟

فالمؤرخون عندما يؤرخون العوادث ، يهملون الجواب على مثل هذه التساؤلات ، ويمتنعون عن الغاء الاضواء عليها لانهم نادرا ما يعلمون عن خفاياها شيئا . وكذلك يهملها الديبلوماسيون في مذكراتهم مدفوعين باعتبارات الامن تارة ، وبالرغبة في عدم الايقاع بين الحكومات وشعوبها تارة أخرى . وهكذا تبقى حقيقة الاحداث مدفونة لا تعرف منها خافية ، ولا ينكشف للجماهير منها سر ، الا ما كان بمحض الصدفة . بينما يقع الذين أنشرفوا على وضع تصاميمها ، وقاموا بتنفيذها ، خلف جدران دواوينهم الرسمية ينتظرون الفرصة السانحة

ليزبحوا الستار عنها ويظهروها عارية على حقيقتها أمام شعوب هذا العالم
لمخدوع .

وهذا ما حدث معي فعلا . فلقد دفعت بمسودة هذا الكتاب الى ديبلوماسي
صديق لي ، عله يقلب صفحاته ، فيشدني الى الاخطاء والهفوات فيه . ولكنني
فوجئت به يزجرني لمحاولتي كشف النقاب عن كثير من الاسرار التي يجب
- برأيه - أن تبقى في زوايا النسيان حتى لا تشوه سمعة الحكومة الامريكية
وغیرها من الحكومات أمام شعوبها دون حاجة لذلك أو ضرورة .

وكنت لاحظ بوضوح ، تملل كثير من مواطنينا الاذكياء ، وشكهم حيال
ما ينشره رجال دولتنا الرسميين ، من تفسيرات للعديد من الازمات السياسية
التي مرت بها بلادنا ، ومنها تلك التي نشرها روبرت كندي حول الأزمة الكوبية
عام ١٩٦٢ . فلقد حاول السيد كندي فيها أن يضفي مسحة شاعرية على أولئك
الرجال الذين اتخذوا تلك القرارات ، بعدما أمضوا ساعات طوال وهم سجينو
احدى قاعات البيت الابيض ، يتأملون تراثنا المجيد ومبادئنا الاخلاقية السامية ،
وقد انتابهم الاسى حيال الغدر الروسي في كوبا (وكأنه قد بان لهم ذلك فجأة
دون أن يحسبوا له حسابا !) . ولكن المستر كندي نسي أن كثيرا من المواطنين
الامريكيين يتطلعون بشغف الى معرفة خفايا تلك الوقائع ، وسيجدون متعة
فائقة عندما يعلمون أنه لم يكن في تلك الغاعة من قاعات البيت الابيض ، في
ذلك اليوم من أيام عام ١٩٦٢ رجل واحد استطاع أن يفكر لمدة طويلة بغير ذلك
الغدر السوفييتي

ان رجال دولتنا يبذلون كل ما في وسعهم لاطهار أنفسهم - في كتاباتهم -
بمظهر المتفائل المستبشر . ولكنهم ليسوا كذلك ، وما كانوا ليبقوا حيث هم الآن ،
لو كانوا جاهلين بحقيقة الوضع الانتهازي للعالم الذي نعيش فيه . وأصر على
هذا عندما أذكر انهم كانوا باستمرار يناعون كل ملخصات تقارير مخابراتنا
السرية ، وبدون انقطاع . وألفت نظر مواطنينا الى أن يكونوا على اطلاع تام على
ما يعبرون عن اعجابهم به ، أو يعربون عن امتعاضهم ونفورهم منه ، مهما
كانت نظرتهم لحكومتهم وشعورهم نحوها . انهم يولونها ثقتهما ، مستمدين
تصورهم لها من تلك السير والتراجم الرومانتيكية ، التي خطها بعض قادة هذه
الامة . لقد صور السيد كندي مثلا كثيرا من الشخصيات الوطنية بانها على
فسط وافر من الذكاء والشجاعة والشهامة ، وأنها دائما نعمة مرهقة من كثرة ما
خاضت من صراع مع ضمانتها من جهة ، ومع بعضها بعضا من جهة أخرى ،
بغية الوصول الى نتائج وقرارات ذات تأثير كبير على مستقبل بلادهم ومستقبل

الانسانية جمعاء . ولقد يجد تصويره هذا بعض الترحيب في نفوس الذين اعتادوا التحليق في أجواء الخيال والمثاليات . ولكنه بدكس ذلك سيتمحض له اولئك الذين يدركون تماما أن زعماءهم - ولحسن الحظ - ليسوا ملائكة أو قديسين ، وأنهم مجرد افراد طالما ترددوا في اتخاذ القرارات النهائية . ان غالبيتنا تعيش في بقعة من العالم يسيطر عليها الاقتصاد الغربي من خلال مؤسساته الضخمة مثل جنرال موتورز ومجلس اتحاد التجارة . الكنيسة الكاثوليكية . ولهذا فان لهم فرصة أعظم للوصول الى صورة أكثر دقة وأقرب الى الحقيقة دون أن يفقدوا ثقتهم في الوسائل المتبعة .

ولم يكن بمقدور الساسة اتخاذ كثير من تلك القرارات الهامة لوحدهم ، فقد كان يشاركونهم فيها ، وبصورة رئيسية ، رجال على قسط وافر من المعرفة والخبرة ، مثل رؤساء ومدراء وزارات ضخمة ، تملك في متناول يدها كل وسائل التحقيق والاستقصاء ، مهما بلغت القضايا من الاهمية وتاهت في مجاهل التعقيد . ولقد اتصفت تلك الوسائل بالموضوعية المطلقة ، والمومية الشاملة ، والفعالية المؤكدة ، حتى كادت تعطينا أفضل الحلول لمشاكلنا مترفعة عن اتباع الاهواء الشخصية الى حد تلاشى معه احتمال شطط كبار المسؤولين أو انزلاقهم الى مواطن الهوى .

كانت ادارة المخابرات للشؤون الخارجية تظهر ما يواجهنا من صعاب ، وتبين مكامن الاخطار فيها ، وتقترح عددا من الحلول لها ، وتنصح بكثير من التحفظات حيالها . وبنفس الوقت كانت ادارة المخابرات للشؤون الداخلية تستقرىء الرأي العام ، مرجحة بعض الحلول ، ومبينة اتجاهات الشعب وما يميل اليه من تحفظات وردود فعل . وهكذا كانت تنحصر مهمة كبار متخذي القرارات العليا في الموازنة بين ما يصلهم من تقارير وآراء ، مرجحين أفضلها ومتبينين أصلحها لمشاكلنا العديدة المتنوعة .

وقد يقع أحيانا ، تضارب بين نتائج استقصاء كلا الإدارتين ، الخارجية والداخلية . فيعمد رئيس الجمهورية ، مثلا ، بقيادته الناجحة ، وشخصيته القوية ، الى ترجيح كفة العلاقات الخارجية على حساب الاتجاهات الداخلية . وهكذا يمكن لرئيس الجمهورية أن يعدل بعض الاتجاهات الداخلية حتى لا تقف حجر عثرة في طريق المضي قدما للمحافظة على نوع وحجم علاقاتنا الخارجية . وأوضح مثال على هذا ، عندما زج الرئيس روزفلت بالشعب الأمريكي في الحرب العالمية الثانية ، مع سبق تمنعه عن التورط فيها ، واصراره على الوقوف بعيدا عن جميعها . ولكن ان كانت الاحداث الداخلية خاصة بنا ، ومن حقنا تعديلها

وتحويرها حسب عهدنا . فليس الامر كذلك في علاقاتنا الدولية . والاسلوب
الأنف الذكر يصبح متسرلا في مثل هذه الاحوال ، ولا يمكننا عندئذ جعل
السهولة المعتادة أن نتصدى لكثير من القضايا المصرية التي يرتبط بها وجودنا
من أساسه بصورة حيوية . ففي مثل هذه الاحوال ، يصبح اسلوبنا السابق
عاجزا كل العجز عن التصرف حيالها أو تعديلها حسبما تهوى أنفسنا وتحقق
مصالحنا . ويصبح من الضروري جدا أن نبتكر وسائل جديدة تختلف كليا عن
وسائلنا التقليدية لمعالجة مثل تلك القضايا المصرية . ونتيجة لهذا سنقف
حيارى حيال مبادئ النزاهة والاستقامة التي الفناها منذ زمن بنيامين فرانكلن .
ونبقى مضطرين الى سلوك مسالك جديدة لا نتورع فيها عن استخدام كل
وسائل الغدر والخداع حتى يذهب مواطنونا الى أسرتهم ليلا وهم على يقين تام
بأننا نقابل الغدر والخداع السوفييتي بمثله أو بأبشع منه . وعندها تصبح كل
مقاييسنا النزاهة الثابتة ، في بناء علاقاتنا الدولية ، هباء منثورا عند أولئك الذين
يمضون الساعات الطوال في قاعات البيت الابيض متظاهرين بالدهشة حيال
الغدر الروسي . ويصبح على حكومتنا سلوك طريق لا مفر منه : ففي الوقت
الذي ترفض فيه علنا التدخل بشؤون الدول الاخرى ، نجدها تبحث عن اساليب
مبتكرة خارج جهازها التقليدي لتفعل ذلك . وليس على الحكومة عندئذ الا أن
تشرع بتحديد معالم وحدود القضية المعنية ، ومن ثم تقوم باطلاق العنان لعدة قوى
خفية ، تتكفل بتصفيتها كليا ، أو ازالة اخطارها ، دون أن تتورط الحكومة
رسميا في أي جانب من جوانبها . وتبدأ اللحظة الحرجة عندما يبدأ الصراع
المستتر بين هذه القوى ومثيلاتها في الدول الاخرى وكلها تعاني من نفس المشكلة
المشتركة بينها ألا وهي : اظهار النزاهة والاستقامة ، واضمار الغدر والخداع
ونية التلاعب بالامم والشعوب . وهكذا نصل الى موضوع كتابي هذا وهو ما
سميته « لعبة الامم » .

ولئن كان معظم هذا الكتاب يدور حول منطقة الشرق الاوسط عامة ،
والدولة المصرية خاصة ، فإن مرد ذلك الى بضعة عوامل ، منها : أن هدف هذا
الكتاب كهدف كلية ادارة الاعمال - في أية جامعة - عندما تقوم بتدريس تاريخ
احدى الشركات الناجحة لطلابها ، كمثل حي على مادة ادارة الاعمال . ومنها أنه
قد أتاحت لي الفرصة تمضية زمن لا بأس به ، امارس كثيرا من تلك الادوار
المستترة بصفتي وسيطا طارئا لن يكون بين المدعويين ثانية ، وهذا هو ما يسمى
بديبلوماسية ما وراء الكواليس . ولهذا النوع من الدبلوماسية أثر كبير ، ظهر
في سلوك حكام تلك المنطقة في علاقتهم بالغرب ، وعلاقات الغرب معهم ، والذي
كان يبدو لأول وهلة ، أنه سلوك يمحّه الذوق السليم ويرفضه المنطق الصحيح ،

• ويبدو في ظاهره خطوط متقاطعة متباعدة لا يتوازي منها اثنان .

واعتبر هذا الكتاب نموذجاً حياً للتاريخ يهدف الى ازالة الستار عن حقيقة ارتباطات الدول الكبرى بالدول المحدودة الامكانيات التي بجحت احيانا في احرار نصر ديبلوماسي على بعض الدول الكبرى ، وتمكنت مع الايام من ممارسة دور اكبر من طاقاتها في السياسة العالمية . ووضح مثال على هذا دور عبدالناصر رئيس الجمهورية المصرية .

وارجو ان لا يتبادر الى ذهن القارئ ان الاخطاء والهفوات التي طرات على علاقاتنا الدولية ، كانت نتيجة قرارات حمقاء ، ولكنها في الحقيقة ليست اكثر من سوء فهم عند بعض كبار المسؤولين لجوهر الامور ، أو سوء استعمال للوسائل المتكررة لمعالجة امور استعصت على الوسائل التقليدية ، وهذا واضح من معاملة الحكومة الامريكية للرئيس عبدالناصر .

وليس هذا الكتاب اكثر من مجهود شخصي ، استعنت لاجراجه بالكثيرين من اصديقائي المنخرطين في السلك الديبلوماسي أو أجهزة المخابرات لدول عديدة حتى اتأكد من بعض منسياتي . ولكن ذلك لا يعني اطلاقا أنني أحاول القاء بعض التبعات على كواهلهم نتيجة فضلهم هذا - وقد يجد القارئ ، ومؤرخو تاريخ العالم ، بعض المتعة في قراءة هذا الكتاب . وسوف ترتسم ابتسامة السخرية على شفاههم عندما يتفحصون الوسائل التي اتبعتها حكومتنا في اقامة علاقاتنا مع الدول الاخرى ، وفي النتائج التي انتهت اليها على مسرح العرائس والتي لا يزال ينظر اليها الرأي العام العالمي على أنها أحداث ووقائع هامة .

وحتى لا احيد عن هذه الغاية الموضوعية من كتابي ، فأنني لم آت على ذكر المعلومات التي تتعارض واعتبارات الامن في كل من امريكا وبريطانيا ، الا ما تسرب منها الى الدول الاخرى عن طريق بعض العملاء المزدوجين (من أمثال كيم فيلبي ، الذي شغل منصب مسؤول في جهاز المخابرات البريطاني ، وهو يخدم المصالح الروسية) . وكذلك ذكرت كل ما تسرب الى الصحفيين ونشرته صحفهم ومجلاتهم .

وسأبقى - ما استطعت الى ذلك سبيلا - صادقا في وصفي للاحداث ، بطيئا عند منعطفات تاريخ الشعوب ، مبتعدا عن اختلاق الاخبار مهما كانت واجباتي وارتباطاتي .

المؤلف

الأنظمة الثورية ومشاكل السلطة

رفع هذا التقرير الى الحكومة المصرية في
عام ١٩٥٣ جيمس ايغلينجر خبير وزارة
الخارجية الامريكية بالانظمة العسكرية في الدول
النامية .

- ١ -

مقدمة

ان جوهر الحكم هو القوة . فالحكم ليس مجرد اقتراح اجراءات عامة أو
اصدار احكام قضائية ، ولكنه « اضطلاع » بهذه الاجراءات و « تنفيذ » لتلك
الاحكام . ولهذا كانت المحافظة على السلطة هدفا في حد ذاتها ، لا يختلف في
هذا نظام عن نظام ، مهما تعددت الاسماء وتبدلت الصور . وأما النجاح فسي
تحقيق ذلك فيبقى رهينا بانتقاء أكثر الوسائل ملائمة وأضمنها نتيجة .

ففي الانظمة الدستورية تلعب التقاليد و « القوانين الاساسية » دورا هاما
في فرض القيود على الوسائل المتبعة للمحافظة على السلطة . فالحكومة فسي
النظام الدستوري لا تملك أن تقوم بالقضاء القبض على زعماء المعارضة لمجرد أسباب
سياسية . ولكن الانظمة السائدة ليست كلها من هذا القبيل . فهناك انظمة
لا تخضع في تصرفاتها لقيود واضحة المعالم محددة المعاني . بل ولا تجد حرجا
في اتباع كل المسالك التي تضمن لها السلطة ، وتؤكد لها البقاء . ويشتهر
هذا النوع باسم « حكومات الثورة » أو « الانظمة الثورية » .

ويعرض التاريخ لمبدأين اساسيين للمحافظة على السلطة وتجميعهما في يد
الحكومة .

● فالمبدأ الاول يقول باعتماد السلطة في بقائها على اجراءات القمع والارهاب،
أو باعتمادها على سياسة البناء والاصلاح . ويتجسد هذان القولان في شكلين
متناقضين من اشكال انظمة الحكم . فالقول الاول يتمثل في نظام ظالم وحكم

مستبد ، يفرض نفسه على الشعب عنوة ، ويرسم للمواطنين ما عليهم أن يسلكوه وينجزوه ، دونما رأي منهم أو مشورة • وأما القول الثاني فيتمثل في نظام شعبي وحكم مقبول (دون اشتراط الشكل الديمقراطي له) ، يستمد قوته في التنفيذ من رضى الامة به وتأييد المواطنين له •

الا أن القولين السابقين لا يمثلان سوى نوعين من أنواع الحكم التي هي على طرفي نقيض • بل واننا لا نجد في التاريخ ذكرا لنظام حكم التزم حرفيا بواحد منهما واتخذ سنة له وهديا ، دون شذوذ أو خروج • ولذا فان من أولى المهام التي تواجهها أنظمة الحكم الثورية ، هي انتقاء مسلك معتدل لا افراط فيه ولا تفريط • فاختيار أنسب المسالك وضمن الوسائل مهمة غير يسيرة ، وعلى أهداف الثورة وغاياتها أن تحدد ذلك وتقرره •

فالثورة التي لا تطمح أن تكون مجرد نظام حكم ديكتاتوري ساذج ، والتي تطمح ، في الوقت نفسه ، أن تكون أكثر من مجرد دسائس ومؤامرات تحاك في ردهات القصور ودهاelizها ، يتوجب عليها أن تحدد أهدافها على أسس من النقطتين الرئيسيتين التاليتين :

- (١) فمن واجبها أن تجد الحلول لكل المشاكل السياسية والمعضلات الاجتماعية الملحة ، التي اقتضت قيام الثورة نفسها ، وجعلت نجاحها ممكنا • وبهذه الطريقة ، دون غيرها ، تتمكن الثورة من ازالة آثار نظام الحكم السابق ، الذي أخفق في تشخيص الداء ووصف الدواء •
- (٢) ومن واجبها أن تكون قادرة على تطوير نظام دستوري جديد يخلد منجزاتها ، ويحافظ على مكتسباتها ، دون خوف من ردة ، أو خشية من عودة الى سيئات الماضي وآثامه •

فعندما تتوفر هذه الغايات ضمن الاهداف الاصلية للثورة ، فان النظام الثوري لن يجد نفسه مضطرا الى الاعتماد كليا على وسائل القمع والارهاب لبقاء حكمه اذا ما تبنى وسائل الاصلاح وسياسة البناء ، ما استطاع الى ذلك سبيلا • فالقمع - بكل ما يعني من مخاطر ومباحث وأمن عام - لا يمكنه البقاء طويلا ، وان كان أحيانا ضروريا • ويجب أن تحل الاصلاحات محل تدريجيا وان تطرده أعمال البناء أمامها نهائيا ، دون رجعة أو عودة •

● والمبدأ الثاني الذي يذكره التاريخ لنا ضمن وسائل المحافظة على السلطة وبقائها ، هو أن كافة اجراءات الحكومة ومنجزاتها تؤثر - عاجلا أم آجلا - على « قاعدة الحكم » التي تتخذها أساسا لها ومرتكزا . فمن ناحية أولى ، فإن عبارة « قاعدة الحكم » تعني مدى قدرة الحكومة على الصمود في وجه المعارضة وكبحها لجماعها ، ومن ناحية أخرى ، فإنها تعني مدى رضى الشعب بالحكومة وتأييده لها . وتتجسد قدرة الحكومة في الوقوف ضد المعارضة في قاعدة القمع والارهاب التابعة لها . في حين يتمثل رضى الشعب بالحكومة وتأييده لها في قدرتها على ممارسة حكمها عليه دون اللجوء الى وسائل القمع والارهاب . وبعبارة أخرى ، فإن قبول الشعب بالحكومة يتجسد في قاعدة الإصلاح والبناء التابعة لها . وهكذا يتضح الآن ما ذكرناه سابقا من أن كافة اجراءات الحكومة ومنجزاتها تؤثر - عاجلا أم آجلا - على « قاعدة حكمها » . فسياسة الحكومة واعمالها الادارية تقرر - مباشرة أو غير مباشرة - مدى حاجتها الى استعمال وسائل الشدة والارهاب وتحدد كل زيادة فيها أو نقصان .

ان الاجراءات الحكومية التي لها تأثير مباشر على « قاعدة الحكم » تهدف أساسا الى المحافظة على السلطة وعلى ضمان استمرارها . وكمثال على الاجراءات المباشرة التي تخص قاعدة القمع والارهاب فإننا نذكر تلك الاجراءات التي من هدفها زيادة فاعلية الجيش ، ورفع درجة ولائه ، وضمان اخلاص أجهزة المخابرات والامن العام ، وغيرها من الاجهزة الحكومية التي لها صبغة عسكرية . وكذلك تلك الاجراءات التي تنص على اعتبار بعض اصناف النشاط السياسي غير قانونية وبالتالي يتعرض العاملون فيها الى الاضطهاد والتعذيب . وكمثال على الاجراءات المباشرة التي تتصل بقاعدة البناء والإصلاح ، فإننا نذكر تلك الاجراءات التي تشجع على ممارسة بعض اصناف النشاط السياسي ، مثل تشكيل المنظمات الشعبية والاحزاب السياسية الموالية للحكومة ، ويعتبر من هذا القبيل أيضا اصدار بعض التسهيلات الدستورية مثل قانون الانتخابات الذي يجب أن يمنح بعض الميزات والمنافع للفئات والطبقات الموالية لنظام الحكم لقائم والمؤيدة لاهدافه .

ان كل ما يتخذه نظام الحكم القائم من تدابير ذات أهداف بعيدة - مثل

تقوية الحالة الاقتصادية عامة - له تأثير غير مباشر على « قاعدة حكمه » . كما لا ينكر مدى تأثيرها على الوضع السياسي العام في البلاد . فمتى تقوم الحكومة بوضع الصعاب في طريق احدى الفئات المتمتعة بوضع اقتصادي قوي بغية شلها أو تصفيتها ، فإن هذه الفئة تصبح بحكم الواقع منبوذة ، بل وخارج « قاعدة الحكم » ، الموالية للنظام القائم . كما تصبح أيضا مرتعا خصبا لنمو الشعور المعادي له . وبالمقابل فإن أي تحسن في الوضع الاقتصادي لاحدى الفئات أو الطبقات نتيجة تدابير حكومية (سواء تحقق ذلك آنيا أو كان على شكل وعود مأمولة الانجاز) فإن تلك الفئة أو الطبقة تنتقل تلقائيا من صف المعارضة الى صف الموالين « لقاعدة حكم » النظام القائم حتى ولو كانت منبوذة سياسيا في العهد السابق ومعادية له . ومع أن الغاية الرئيسية من انشاء المشاريع العامة ليست سياسية ، لكنه لا يجوز اغفال ما لها من آثار سياسية هامة ، فتكتيلها للفئات الشعبية في المناطق التي تنفذ فيها حول النظام القائم يعتبر مددا حساسا « لقاعدة حكمه » ودعما جيدا لوضع حكومته . ولا يقل عن هذا أي اصلاح أو تعديل في نظام فرض الضرائب أو في الانظمة الادارية الاخرى . ولا يخلو أن يكون لبعض الاجراءات تأثير مباشر على « قاعدة الحكم » ، وفي الوقت نفسه ، تأثير غير مباشر ولكنه مضاد للأول . فمثلا ، وجود أعداد كبيرة من أفراد الجيش والامن العام ، أعضاء في تنظيم سياسي غير قانوني ، له تأثير مضاد وغير مباشر ، على متانة ولاء أجهزة القمع والارهاب للنظام القائم .

وعلى وجه التقريب ، فإن كافة التدابير الادارية والاجراءات الحكومية تتمخض عن نتائج سياسية مهما كانت غايتها الاساسية . ولذا فإن عبقرية زعماء الثورة وقادتها تنعكس دائما في الدقة المتوخاة عند محاولتهم تقرير سياسة الحكومة حسب حاجات الشعب الذي يبقى دائما وأبدا مصدر الدعم الرئيسي للثورة . ومع أن زعماء الثورة لا يميلون الى اتساع سياسة غير سياسة البناء والاصلاح ، فانهم لا يتأخرون لحظة واحدة عن اللجوء الى أقصى وسائل البطش والارهاب حال احساسهم بضرورة ذلك .

فاذا استوعبنا ما سبق ذكره ، وأدركنا مقاصد معانيه ومراميها ، وجدنا ان الاحتفاظ بالسلطة وضمأن بقائها يتطلب الالتزام بقاعدتين أساسيتين هما :

- (١) على حكومة الثورة أن لا تضع سياسة ما ، أو تزمع على اتخاذ اجراء ما ، حتى تحدد تأثير ذلك المباشر وغير المباشر على « قاعدة حكمها » .
- (٢) وعلى حكومة الثورة أن تعطي الاولوية لانشاء « قاعدة حكم » متينة لدعم سلطتها ، حتى لا تجد نفسها مضطرة ، تحت ضغط الجماهير ، لاتباع سياسة الانجراف والمساومات .

ومن الصعب العثور على أية نظرية محددة المعالم ، مضمونة النتائج ، لتساعد قادة الحكومات الثورية في معرفة الاجراءات والاعمال التي لها تأثيرات سياسية مطلوبة ، أو لتساعدهم في تكوين « قاعدة حكم » تلائم النظام القائم وتحافظ عليه . ان نجاح الحكم الثوري في خطواته وامتلاكه « قاعدة حكم » متينة ، يرتبط ارتباطا وثيقا بالوضع السائد في داخل البلاد ، كما يعتمد على بعد نظر القادة أنفسهم ، واتساع أفقهم ، وخصوبة مخيلتهم . وفوق كل هذا وذاك ، فان سرنجاحهم في هذا كله ، يكمن في قدرتهم على الاخذ بزمام المبادرة . وفي مواجهة المواقف بجرأة وشجاعة . ومهما كان فالمرء لا يعدم أن يرسم بعض الخطوط العريضة العامة ، ومنها :

- (١) ان اللجوء لاساليب القمع أمر لا بد منه ، وخاصة في المرحلة الاولى للثورة .

(٢) يجب أن لا يكون من ضمن أهداف النظام الثوري مجرد الحصول على التأييد الشعبي . فالتأييد الشعبي أمر مؤقت بل وزائل . ودخول النظام القائم في ميدان منافسة كهذا ، مع بعض الفئات (أو حتى الافراد) الذين لا يعدمون فرص دخوله ، سيجعل الثورة في خطر أن تجد نفسها تابعة غير متبوعة . ان الشهوة الجارفة في نفوس قادة الثورة لمجرد الحصول على تأييد الجماهير وضمان هياجها لصالحهم ، تعتبر بادرة خطيرة ، بل وقاتلة . فهي لا ترمز الا الى الضعف والانهياء في « قاعدة الحكم » التي يعتمد عليها النظام القائم .

- (٣) ان نظام الحكم الذي يود كسب تأييد الشعب له ، بناء على سياسته في الاصلاح والبناء ، يجب أن يعتمد على دقة تخطيط سياسة الحكومة وعلى حسن تطويرها (وهذا عكس مجرد الحصول على الشهرة

الشعبية) ، مستخدمة في ذلك كل وسائلها وأجهزتها ، مباشرة وبصراحة ، لاثارة عواطف العنات والطبقات الكبرى من الشعب لصالحها ، والظهور بمظهر الحريص على مصالحها والمحافظة على حقوقها .

(٤) ان لاجراءات السلطة تأثيرات غير مباشرة على « قاعدة حكمها » لا تقل أهمية عن تأثيراتها المباشرة عليها .

(٥) ان للتنظيمات الشعبية ، غير التابعة مباشرة لنظام الحكم ، أهمية خاصة في انشاء وتكوين « قاعدة الحكم » المؤيدة والعاملة في سياسة الاصلاح والبناء اثناء عهد الثورة القائم ، واثناء مرحلة الانتقال الى الشكل الدستوري للدولة .

(٦) ان الشكل الدستوري الجديد للنظام يجب أن يعتمد مباشرة على قوة سياسة الثورة في الاصلاح والبناء .

(٧) ان قوة أجهزة المخابرات والمباحث ، وحسن تنظيمها ، وابتعادها عن الارتشاء والعبث ، عوامل جد. أساسية لتنفيذ تدابير قمع فعالة ، وللقيام بتحليل دقيق للقواعد الجماهيرية المؤيدة لنظام الحكم .

- ٢ -

العهد الثوري

بعد كل هذا الاستعراض للخطوط العامة ، أصبحنا الآن في وضع ملائم لبده تفحص المشاكل التي تواجه النظام الثوري في احتفاظه بالسلطة واستمراره بالحكم كما هي على الطبيعة حقيقة . ولا مانع من القاء نظرة عميقة على المعطيات التي يحاول النظام الثوري الاعتماد عليها في تصرفاته المباشرة ، أو غير المباشرة . ولقد سبق أن أبرزنا أهمية هدفين أساسيين لكل ثورة تطمح أن لا تجمل من نفسها مجرد حكم ديكتاتوري ساذج ، وهما :

(١) عليها أن تقوم بايجاد الحلول للمعضلات السياسية والاجتماعية الملحة التي قضت بوقوع الثورة .

(٢) وعليها أن تطور وضعا دستوريا جديدا ليحافظ على منجزات الثورة
ومكتسباتها أو ليخلدها .

ومع ان هذين الهدفين يقتضيان وجود مرحلتين للثورة ، فمن المستحيل
تحديد نهاية الاولى وبداية الثانية . وبوضوح أكثر ، فالتمييز بين هاتين
المرحلتين لا يتضح الا من خلال التباين في طريقة اظهارهما والتشديد عليهما .
فنهاية العهد الثوري تتداخل بصورة غير ملحوظة مع بداية عهد النظام الدستوري
الجديد . والحقيقة انه لا فائدة من تحديدهما بوضوح الا لهدف المناقشة
وتحليل الأحداث . وسنقترب من هذا (في سياق تقريرنا) دون ان ننسى ان
مرحلة وضع الدستور الفعلي تبدأ مع أول مراحل سياسة الإصلاح والبناء التي
تقوم بها الثورة ، وان استمرار بعض اجراءات القمع والارهاب ، لفترة طويلة
بعد تدشين العهد الدستوري الجديد ، أمر لا بد منه . وسنرمز الى المرحلة
الأولى للثورة باسم « العهد الثوري » ، وللمرحلة الثانية باسم « عهد ما قبل
الدستور » .

ولا بد للثورة من أن تقوم بالقضاء بعض أو كل المؤسسات السياسية المنتشرة
في البلاد التي ثبت عدم قدرتها على حل المشاكل السياسية والاجتماعية الملحة
التي اقتضت قيام الثورة . وهذا هو أنسب الاوقات وأصلحها لاحداث تطورات
سريعة ، تفقد بموجبها بعض الفئات والطبقات قوتها كمؤسسات سياسية ،
وتوضع في موقف حرج تضطر معه الى الدفاع عن نفسها وذلك بسبب
التيار الجارف لطبيعة الانقلاب الجديد التي تقف وراءه القوات المسلحة . كما
أن النجاح السريع لنظام الحكم ، في تكتيل الجماهير الفوغائية المؤيدة له تحت
شعارات الإصلاح والبناء ، له أكبر الأثر في تدعيم الخطوة السابقة . ثم لا تلبث
مرحلة « التدعيم والتميز الثوري » أن يأتي دورها بعد تلك الخطوات السابقة
وبعد أن يكون الحكم الثوري قد اتخذ شكلا أوليا يؤهله لان يخوض هذه المرحلة
بكل ما يكتنفها من صعاب فعلية في نواحي الادارة وتخطيط السياسة .

وفي أثناء هذه المرحلة ، تبرز الاخطار المضادة للثورة في أقوى مظاهرها ،
وتنتج من أحد المصادر الثلاثة التالية :

(١) من أولئك الذين كانت لهم مصالح ضخمة في نظام الحكم السابق ، أو

من مؤيديه ، أو ممن تطفئ عليهم عاطفة جامعة في تأييده ،

(٢) من أولئك السياسيين الانتهازيين الذين يحاولون الاستفادة باستمرار من الاتجاه الطبيعي نحو الاضطراب وعدم الاستقرار الكامن في الوضع الثوري .

(٣) من أولئك الساسة الهدامين الذين يحاولون سرقة الثورة وتسخيرها لاهدافهم ومآربهم ، كالشيوعيين مثلا .

ومن هذه المصادر الثلاثة - مجتمعة أو منفصلة - تبرز الاخطار الثلاثة التالية :

(١) انقلاب عسكري يقع نتيجة ارتباطات بين عناصر في الجيش وقوى الامن الداخلي ، وبين بعض الزمر والجماعات الموجودة داخل حكومة الثورة نفسها .

(٢) انقلاب عسكري مضاد يحدث نتيجة ارتباطات بين بعض العناصر من الجيش وقوى الامن الداخلي ، وبين القوى السياسية في الخارج وخاصة تلك التي تملك القدرة على اثارة هياج ومظاهرات شعبية .

(٣) تسلل عناصر مناوئة لاهداف حكومة الثورة ، ونجاحها في الوصول الى احدى النتائج التالية :

أ - تحريف خبيث لبرنامج حكومة الثورة .

ب - اتلاف كامل لبرنامج حكومة الثورة .

ج - اضعاف قدرة الحكم على الاحتفاظ بسلطته وبالتالي التحضير للاطاحة به نهائيا .

وبالضرورة ، فليس هناك من وسيلة لمجابهة مثل هذه الاخطار ، سوى استخدام سلطات الحكومة - علنا ودون تحفظ أو تقصير - لقمعها أو الحيلولة دون وقوعها واستنفال شرونها . ولقد نوهنا سابقا ، أن اللجوء الى اجراءات

القمع والارهاب أمر لا بد في المرحلة الاولى للثورة ، على أن تحل سياسة الإصلاح والبناء محلها فيم بعد كأساس لاستمرار سلطة النظام القائم . وهذا هو التعاقب الصحيح لمراحل تقدم الثورة وتطورها . ومن العجب أن يتبع عدد غير قليل من الثورات عكس هذا الاتجاه . فمن الخطأ أن تعتمد الثورة ، في مرحلتها الاولى بافراط على سياسة الإصلاح والبناء ، ومن ثم تلجأ الى اجراءات القمع والارهاب كعامل حاسم لسحق أعدائها . ان هذا السلوك ، بعينه ، هو ذلك المرض الخبيث الذي تعاني منه الثورات ، وهو الكفيل بالقضاء عليها قضاء مبرما .

والتحليل الموضوعي لما سبق ذكره هو كما يلي : يضطر قادة الثورة الى انتهاج سياسة الانجراف والمساومات شيئا فشيئا ، لان الثورة لا تتمكن من احكام قبضتها على أجهزة الدولة في بداية عهدها ، ولانها لا تملك منع ثقتها لاجهزة القمع والارهاب لشكها في كفاءة تلك الاجهزة ونفوذها . وستحاول قيادة الثورة أن تحافظ على السلطة عن طريق كسب الشهرة الشعبية ، واثارة أزمة نفسية لا تنتهي حيال طريقة توجيه شؤون الدولة ومصالحها . وهكذا تكون الثورة قد وضعت أهدافها جانبا ، أو تركتها تحت رحمة الظروف والمناسبات نتيجة جهودها الخاطئة في المحافظة على السلطة وفي ضمان بقائها ولكن سرعان ما تفقد سياسة الانجراف والمساومات فرصها كلما اتضح افلاس الثورة ، وبأن للبيان فشلها . وهنا تضطر حكومة الثورة الى اللجوء الى وسائل القمع والارهاب ، كما تضطر الى تشكيل الاجهزة المنفذة له وتطويرها بسرعة وطيش . ولو افترضنا أن التطوير السريع لاجهزة القمع والارهاب كان ناجحا ، اضطرت الثورة عندها للاعتماد على القمع والبطش بافراط . ولكن يحدث ذلك في الوقت الذي يجب على الثورة أن تكون منصرفة فيه نحو منح البلاد عهدا دستوريا جديدا . وهكذا تكون الثورة قد تفسخت حقيقة ، وانقلبت الى مجرد نظام دكتاتوري وحكم مستبد . اما في حال عدم نجاح قيادة الثورة في تطوير اجهزة للقمع بالسرعة الضرورية وبالكفاءة اللازمة (وهذا ما يحصل عادة بسبب التأخير) ، فإن حكومة الثورة ستجد نفسها مضطرة الى الانتقال انقلابيا الى نظام دستوري جديد ، دون أن تكون قد استكملت بعض أو كل مقوماته ، أو حققت بعض أو كل أهدافه . وهذا هو أهون الشرين وأخف الضررين . أما اذا جرت

الرياح عكس ما تشتتبه الثورة وتتمناها ، فان النظام الثوري بأكمله سيقع ضحية ثورة مضادة لا تبقي ولا تذر .

ويتضح من هذا كله ، ان سياسة الانجراف والمساومات هي حليفة الثورة المضادة ، كما انها جرثومة فتانة في داخل جسم الثورة نفسها . فعندما يتذكر المواطنون ان سياسة حكومة الثورة لا تختلف عن سياسة حكومة العهد البائد التي كانت السبب المباشر لقيام الثورة ضده والاطاحة به - هذا ان لم تكن نسخة مماثلة له - فانه يصبح مؤكدا ان سياسة حكومة الثورة الحالية ستشكل دافعا مشجعا لكل أولئك الذين يتطلعون الى نسف الثورة وسحقها دون رحمة أو هراة .

ان قاعدة القمع والارهاب التي يجب على حكومة الثورة أن تلجأ اليها عند الضرورة تتألف في هيكلها مما يلي :

- ١ - الانظمة والقوانين
- ٢ - قوى الامن الداخلي
- ٣ - أجهزة المخابرات والمباحث ذات الكفاءة العالية
- ٤ - وسائل الدعاية
- ٥ - قوة عسكرية بكفاءة عالية أو الجيش .

● الانظمة والقوانين :

ان الاستعانة بالانظمة والقوانين لتحقيق الاستقرار السياسي خلال الفترة الاولى من حكم الثورة أمر ضروري لا بد منه . وليس الهدف من ذلك تحريم النشاطات السياسية المنظمة التي لا ترغب السلطة الحاكمة بها فحسب ، بل الهدف منها أيضا اضعاف صبغة اللاشعورية على كل النشاطات الهدامة والداعية الى الشغب والفوضى . وأفضل الاجراءات في هذا المضمار ، هي مراجعة كافة الانظمة والقوانين القائمة التي لها علاقة بتلك الموضوعات ، وتعديل ما يلزم منها حسب الظروف الجديدة ، ثم توضيحها وجمعها في مرسوم واحد (أو مجموعة مراسيم) وتعميمها على أوسع قدر ممكن . وهكذا تصبح هذه التشريعات أساسا للمحافظة

على أمن الدولة • كما أنها تقوم بتحديد مهمة قوى الأمن الداخلي وأجهزة المباحث (وزارة الداخلية) ، وتوضح كذلك واجبات المواطنين وحقوقهم • وفي الوقت الذي يجب أن تكون هذه التشريعات واضحة قدر المستطاع ، فإنها يجب أن تبقى أيضا عامة حتى لا تعيق الحكومة نفسها ، وتسلب رجال السلطة حرية التصرف المطلوبة • كما يجب أن لا تظهر هذه التشريعات على أنها لصالح فئة - أو طبقة - وضد أخرى ، أو أنها تعطل بعض الحريات العامة كحرية التعبير والانتقاد وغير ذلك • ولكنها بنفس الوقت يجب أن لا تكون عقبة كأداء في وجه سلطة النظام القائم ، أو أن تحول دون اتخاذها الإجراءات اللازمة لحماية نفسها • وعلى هذه التشريعات أن تحقق غايتها المرجوة ألا وهي اعتبار كافة أعمال التآمر - كقلب نظام الحكم ، أو تأييد الذين يفكرون بهذا والدفاع عنهم ، أو ترويع الشائعات الكاذبة ، أو بث الذعر بين الناس ، أو إشاعة جو الكآبة مما يعرض الناس على أعمال العنف ، أو الإدلاء بأسرار الدولة الرسمية ، أو القيسام بأعمال التجسس والتخريب - أعمالا غير قانونية تستحق العقوبة والجزاء • كما يجب عليها أن تمنح قوى الأمن الداخلي الحق في تحريم الاجتماعات العامة والتجمعات التي تبلغ حد الخطر في الشوارع ، وتفرض الحصول على إذن مسبق لاقامتها • ومن المسلم به جدلا ، خضوع السلطة القضائية برمتها - دون استثناء - لارادة حكومة الثورة • كما ان كافة الاحكام الصادرة بحق المخالفين لانظمة أمن الدولة ، يجب أن لا تكون - بأي حال من الأحوال - مخالفة لرغبة حكومة الثورة وانسراح صدرها •

● قوى الأمن الداخلي :

يجب على قادة حكومة الثورة اعطاء أجهزة قوى الأمن الداخلي (الشرطة والمباحث والأمن العام) الأولوية على سائر الاجهزة الاخرى في الدولة • فقوى الأمن الداخلي تعتبر بمثابة الدرع الحامي لنظام الأمن في الدولة وضمان استتباب الأمن والنظام في الازمات التي لا تبلغ حدا خطيرا يتطلب معه استدعاء الجيش • ولهذا يتوجب القيام بتفحص وتحري كامل هيئة قوى الأمن الداخلي وعملياتها باستمرار حتى يضمن ولاؤها ، ويحافظ على حسن أدائها لمهامها • وعلى قيادة الثورة منح رئيس قوى الأمن ومساعديه نقتهم التامة ، كما عليهم أن

يولوا تطوير فاعلية تلك الاجهزة في حفظها للامن عنايتهم الشخصية والمباشرة ، وهذا يعني بالضرورة اصفاء الصبغة السياسية على كافة اجهزة قوى الامن الداخلي ، لتكون عند الضرورة يدا موالية لحكومة الثورة بصفة شبه عسكرية .

ان من مهمات اجهزة المباحث التابعة لقوى الامن الداخلي ما يلي : تجميع كافة المعلومات الماسة بوضع الامن في الدولة عن طريق انشاء شبكة واسعة للتحريرات ، واجراء التحقيقات السريعة في قضايا الامن بممارسة الطرق العادية للمراقبة والاستنتاج والتسلسل الى المستويات الدنيا لكافة الجماعات المشكوك في ولائها للثورة . كما ان عليها القيام بتطوير جهاز فعال ضد المظاهرات والاضطرابات .

● اجهزة المخابرات :

ان دماغ كافة اجهزة الامن لنظام حكم ثوري (او حتى لاية دولة اخرى) ، والمركز الحساس لها ، هو ذاك الجهاز الذي هو على غاية من السرية ، والذي لا يعرف تفاصيل وجوده سوى رئيس النظام الحاكم ومن حوله من زعماء الثورة القياديين . ويطلق على ذاك الجهاز اسم « المخابرات » . وتقع على عاتق هذا الكيان المتغلغل في كافة ارجاء اجهزة الحكومة ودوائرها (وحتى خارج اجهزة الحكومة) مسؤولية تزويد رئيس الدولة بالمعلومات الهامة والضرورية للقيام باجراءات فعالة وفورية ضد الاخطار المضادة للثورة . كما يجب على هذا الكيان ان يزود رئيس الدولة وكبار رجالها بالمعلومات الكافية لتخطيط سياسة أمن عامة . ومن مهام هذا الكيان ايضا معرفة كامل النشاطات المعادية للدولة والضارة بأمنها ، سواء القائم منها فعلا أو المبتدئ حديثا ، وسواء الواقع داخل نطاق الحكومة أو خارجها ، وسواء الشامل منها لوزراء الدولة أو لضباطها في القوات المسلحة والامن الداخلي .

ولتحقيق هذه الاهداف وانجاز تلك المهمات لا بد لهذا الكيان ان يتمتع بالحرية المطلقة في الاطلاع على كافة انتاج اجهزة الامن الداخلي واجهزة المباحث والمخابرات الاخرى (ويسمى عندئذ هذا الكيان باسم الجهاز الخاص) . كما يجب أن تكون لديه القدرة على الاشراف - عن طريق وسائله ، المعروفة منها أو السرية - وبصورة خاصة ، على أهم اجهزة الامن الداخلي . وفوق كل هذا

وذاك ، فان من أخص مهام أجهزة المخابرات عامة امتلاك المعطيات اللازمة والقدرة الكاملة بغية التسلل الى أعلى المراتب والمناصب في كافة النشاطات المشكوك في ولائها للثورة .

● الدعاية والاعلام :

من الخطأ اعتبار الدعاية سلاحا أساسيا لضمان أمن الثورة . فالدعاية في حد ذاتها لا تعدو كونها سلاحا مساعدا لاستمرار السلطة وبقاء النظام . كما أن الاعتماد على الدعاية كليا يعتبر مخاطرة غير قليلة ، وذلك لأنها تدفع بسياسة الحكومة الى وضع تجد معه نفسها موجهة من قبل احتياجات الدعاية بدلا من أن يكون العكس . وهذا هو أقصر الطرق المؤدية بالثورة الى سياسة الانجراف والمساومات . وعلى حكومة الثورة أن تقوم بشن حملات دعائية مركزة تهدف الى اعطاء تبرير مقنع لاستمرار استخدامها لوسائل القمع والارهاب . كما أن من أهداف تلك الحملات كشف النقاب عن أعداء الثورة وفضح النشاط اليساري .

ويجب أن تستحوذ مسألة الدعاية المضادة - التي تقوم القوى المعارضة للثورة ببثها - على اهتمام خاص ، بسبب ما يمكن أن تثيره من مشاكل ، مثل مطالبتها بحرية الصحافة والتعبير عن الرأي . كما انه يتعذر ايجاد حل لمشكلة مراقبة الصحافة خلال العهد الثوري دون أخذ بعض المشاكل والظروف الأخرى بعين الاعتبار . ومهما كان ، فعلى حكومة الثورة أن تكون مستعدة لفرض المراقبة على الصحافة حال احساسها بضرورة ذلك . الا انه يمكن ضبط الصحافة في غالب الاحوال من خلال ممارسة بعض الضغط من قبل الحكومة ، بأشكال عديدة ، ودون اللجوء الى المراقبة الصريحة . فيكفي مثلا تعيين مستشار لكل هيئة من هيئات تحرير المجلات والصحف ، وذلك بقصد ابداء الرأي بكل ما هو معد للنشر كالقصص والاخبار ، ولاعطاء النصيحة والتوجيه بخصوص المواد الصحفية التي تعالج القضايا العامة المهمة . ويمكن اصدار بعض المراسيم - التي يمكن أن توصف بأنها مرتبطة بوضع الامن داخل الدولة - بغية تدعيم سلطة أولئك المستشارين عند الضرورة . كما يمكن تحقيق ذلك عن طريق التهديد بتنفيذ بعض الانظمة المتعلقة بآثار الشغب وتهديد الامن ، وكذلك

بالتهديد بزيادة الضرائب والرسوم على الصحف والمجلات ، وفرض غرامات مالية
كبيرة عليها .

● القوة العسكرية :

في الوقت الذي لا يجوز التقليل من أهمية وجود قوة عسكرية ذات
كفاءة عالية وولاء تام للنظام الحاكم ، فإنه لا يجوز أيضا اعتبار وجودها ذا
أهمية مسلم بها جدلا . فمن أكثر الأمور أهمية ، توفر جهاز فعال جدا
للمخابرات ضد التآمر والنشاط الهدام في داخل القوات المسلحة . ومن
المستحسن وضع برامج ثقافية سياسية وتلقينها لكافة أفراد الجيش . ومن
المهم ، فوق كل هذا وذاك ، ادخال التحسينات على أسلحة ومعدات وتدريب
القوات المسلحة ، كما يجب دفع المرتبات بانتظام وسخاء حتى تكون أحسن
المرتبات في الدولة ، وحتى يصبح ذلك الجيش - باختصار - « جيشا مواليا
تملا القبضة قلوب أفراد ، ويفخر السرور نفوس ضباطه » .

ان اجتماع كل هذه الاجهزة التي استعرضناها آنفا ، يعطي الثورة جهازا
ضخما لحماية أمنها ، وتأمين استمرارها . واذا ما تم استخدامه بحكمة كافية
وعقل راجع فإنه لا يوفر حماية كافية للثورة ضد أعدائها فحسب ، بل ويزود
حكومة الثورة برصيد مهم يؤمن لها حاجتها من الاستقرار السياسي ،
والضروي للبدء بتنفيذ سياسة الإصلاح والبناء . وفي مثل هذه الظروف فقط ،
تتمكن الثورة من ارساء قواعد جديدة للحياة السياسية في الدولة ، وذلك على
اساس من تلك الإصلاحات الاقتصادية والاجتماعية الهامة التي تنجزها نتيجة
اجراءات مباشرة أو غير مباشرة . وهكذا ، فإن ارساء مثل هذه القواعد للحياة
السياسية المقبلة - ويمكن أن تبدأ الثورة هذا ارساء منذ أيامها الأولى - هو
بعينه « فترة ما قبل العهد الدستوري » الذي تطمح الثورة لبلوغه بصحة
ونشاط .

عهد ما قبل الدستور

يجب على زعماء الثورة أن يتطلعوا منذ اليوم الاول لحركتهم الى تطوير الثورة وتحويلها الى نظام دستوري جديد . فالثورات الاصيلية والمنبثقة من ضمانات الشعب لا تنوي اطلاقا اقامة أنظمة ديكتاتورية مستبدة ، بل تعمل جاهدة لاعادة الوضع الدستوري والحيوي لاستقرارها ، في اقرب وقت ممكن - وعلى الاقل - عن طريق اعطاء المهود وبذل الوعود . ولكن تبقى هناك مشكلة التعاقب بين العهد الثوري والعهد الدستوري ، والطريقة التي يخلف العهد الثاني الاول بها ، ويحل محله دون تقهقر أو هزيمة . فزعماء الثورة لن يخلدوا ، وحماسة الشعب للثورة لن تبقى للابد بل ستضعف وتذبل . ولهذا كانت أنجع الوسائل لاجراء عملية التعاقب بشكل منتظم ومستقر (ودون الحاجة للقيام بشورة أخرى) ، هي تلك التي تستخدم أي نوع من أنواع « الانتخابات النيابية » ، التي غالبا ما تقود الى عهد ذي صبغة دستورية مهما كان مشوه الحقيقة ممسوخ الفاعلية .

وبما أن زعماء الثورة والمؤيدين لها ، يرغبون في تخليد منجزاتها ، فمن الضروري اذن ، التنبؤ بمصادر الخطر الجديدة والتنبيه لها . ويحدث ذلك ، كنتيجة لمحاولة اعداء الثورة التسلط ثانية على السلطة السياسية في العهد الدستوري الذي يعقب العهد الثوري . وغالبا ما يتم هذا بسهولة تامة اذا ما أخفقت الثورة في تدعيم دور تلك الفئات والطبقات - التي حققت الثورة خدمات ومنافع لها - وتقوية فاعليتها . كما يقع نفس الشيء اذا ما عجزت الثورة عن تطوير نظام دستوري جديد ، يضمن لتلك الفئات والطبقات أكثرية عظمى . وها هي بعض تلك الاخطار :

(١) ان الاحزاب السياسية القديمة سوف تتمتع ثانية ، ولا يستبعد ان تملك القدرة اللازمة لاعادة اعداء الثورة الى السلطة ،

(٢) ربما تظهر الى الوجود احزاب سياسية جديدة ، وعن طريقها ستعود الشعارات القديمة والاهداف السابقة للتداول ، وعندما تمتلك هذه

الأحزاب القدرة اللازمة لإعادة أعداء الثورة إلى السلطة ، فإنها لن تتأخر في فعل هذا أبدا .

(٣) ربما تتم السيطرة لبعض السياسيين (الذين يخالفون الثورة في أهدافها) على أي حزب ثوري يمتد وجوده إلى العهد الدستوري . وذلك نتيجة ما لديهم من قدرات وخبرات سياسية فائقة خلفت عندهم من العهد البائد قبل الثورة أو اكتسبوها حديثا . وهكذا ، فمع وجود حزب ثوري على رأس السلطة فإن مصالح أتباعه وأشياعه لن تكون موضع اهتمام حقيقي أو تنفيذ بناء .

(٤) ويجب على النظام الدستوري الجديد أن لا يتخذ شكلا يشجع ظهور عدة أحزاب متعادلة القوة تقريبا . ذلك أن وضعا كهذا ، لن ينتج عنه سوى عدم الاستقرار السياسي لوجود أحزاب بشعارات قديمة ولكنها في موقف قوي لا يجار غيرها على اتباع سياسة المساومات والحلول الوسطى . وبهذا يتحقق لها الانقراض على بعض منجزات الثورة أو كلها .

ومن الممكن تفادي كل هذه الأخطار إذا قامت حكومة الثورة بالاستفادة من الميزات الفريدة - التي يمنحها إياها احتكارها الكلي للنشاط السياسي القانوني في أوائل عهدها - في وضع أسس لنظام دستوري جديد ، يسود فيه حزب واحد ، هو وحده وريث الثورة الشرعي في العهد الدستوري الجديد ، وله وحده الدور الحاسم في تسيير دفة الأمور .

وللوصول إلى وضع نموذجي كهذا ، يتوجب على حكومة الثورة أن تخلق منظمة شمسية تتدرج بدقة وانتظام حتى تصبح نهائيا حزبا سياسيا ، وهي بنفس الوقت ، توفر للمنتخبين لها من المقترعين والسياسيين الثوريين مجالا جيدا لأجراء التمرينات والتجارب على الحياة السياسية ومعضلاتها . وعندما يحين الوقت لمنح البلاد الدستور الجديد ، فإن على حكومة الثورة أن لا تنسى أن تصوغه بصورة تعطي الحزب الثوري فرصا مطلقة لا منافسة فيها .

المنظمة الشعبية

● ماهي :

مهما تمددت الاسماء واختلفت ، فان النوع الذي يعيننا في مجال المنظمات الشعبية هو ذاك النوع الذي يبقى خارج نشاط الحكومة الرسمي . ففي هذا النوع من المنظمات الشعبية يقوم زعماء الثورة ، بالتعاون مع بقية موظفي الحكومة ومستخدميها ، بانشاء منظمة شعبية تشترك فيها جماهير غفيرة من المواطنين غير الرسميين ، وتدعي هذه المنظمة اهدافا وشعارات مثل تلك التي تنادي بتدعيم الثورة والحفاظة على مكتسباتها وزيادة منجزاتها . وعمل هذه المنظمة أن لا تظهر بمظهر حزب سياسي اثناء الفترة التي تكون الانتخابات فيها معلقة ، والاحزاب السياسية منحلة ومحركة قانونيا ، دون أن يؤدي هذا الى اغفال تنظيمها على غرار حزب سياسي ، لتكون مستعدة لانتخابات تجري في المستقبل عاجلا ام آجلا . وكنتيجة لهذا يجب أن تكون لها قيادات محلية ، اقليمية وقطرية ومسؤولون متفرغون لرسم مختلف احتمالات سيرها وتخطيط سياستها . كما يجب أن يتوفر لها جهاز اداري عامل وآخر للانضباط . وعلاوة على كل ذلك ، فان قيام امانة عامة لها ، متفرغة لشؤونها ، مع لجان متعددة لمختلف المهام ، مثل الدعاية والنشر ، أمر حيوي لبقائها في الطليعة متماسكة ومهيمنة .

● غايتها :

لا يجوز الانفصاح عن الغاية الحقيقية لانشاء مثل تلك المنظمة . وكل ما يشاع عن اهدافها هو أنها وجدت لتوثيق الروابط الاخوية بين العناصر المؤيدة للثورة واهدافها . ولكن هدف انشائها حقيقة ، ايجاد جبهة للدعاية لصالح النظام الحاكم ، ومن ثم تطورها الى حزب سياسي - الحزب الثوري - يصارس مهام الحكم في المستقبل . ويتم ذلك عن طريق استقطاب قواعد وطبقات جديدة من الشعب ، وغمسها في نشاط سياسي مدعم وبدون انقطاع ، وتوفير التدريب الضروري لها على هذا النوع من النشاط ، ومحاولة اقناعها بفائدته وبأهميته في

حصول الفرد على أحسن مردود لحياته (داخل مجتمعه ودولته) عن طريق
تطهير وقائع عملية ملموسة لتلك الفائدة والأهمية .

● كيف يمكن تحقيق هذه الغايات

ان سر نجاح هذه المنظمة هو بقاؤها بقرب السلطة الحاكمة . واستمرار
اشراف الثورة عليها ، اشرافا غير رسمي . كما أن مفتاح بقائها هو عدم سماح
الثورة بظهور أي منافس لها . فهي وحيدة في الميدان ، عزيزة على قلب الثورة
التي تصبر عليها ، وتتقبل النقد منها بكل رحابة صدر وسعة . أما كبار قادتها ،
فيجب أن يكونوا نموذجا طبق الاصل عن كبار زعماء الثورة ، وقادة الحكم ، في
معظم نواحي تفكيرهم وحياتهم . وعندما تتوفر مثل هذه الظروف في المنظمة
الفتية ، فإن جماهير الشعب ، التي قامت الثورة برعاية مصالحها ، وتأمين
حاجاتها ، ستظهر عواطف جياشة تنم عن ولاء تام للثورة وقادتها . ثم لا تلبث
أن تجد نفسها تحت تأثير اغراء متزايد يجذبها للانضمام الى عضوية المنظمة
والانخراط في سلكها . وتشكل الخدمة المدنية معينا لا ينضب للملاكات
(الكادرات) العاملة في هذه المنظمة . وكمثال على هذا ، فإن التحاق موظفي
الدولة ومستخدميها بالنشاطات التابعة لهذه المنظمة ، كشرط لاستمرار خدمتهم
في سلك الحكومة ، يمد المنظمة بأفواج ضخمة من المنتسبين اليها والعاملين
فيها . وعلاوة على كل هذا ، فإن ما تتمتع به الحكومة من حرية ادارية واسعة ،
وسلطات غير محدودة في مجال انجاز المشاريع العامة ، توفر لها طاقة ضخمة ،
سهلة التسيير والتسخير ، لخدمة أهداف المنظمة الشعبية وغاياتها ، (كما
تعتبر هذه فرصة رائعة للعمل غير المباشر في مجال بناء المراكز الشعبية
للثورة) . ويجب أن تكون المناصب في المنظمة بمثابة المكان الذي توضع فيه
الجماعات والافراد الراغبون في التأثير على النظام القائم موضع المراقبة والامتحان
- ضمن حدود ادارة فعالة وسياسة وطنية صحيحة - وحتى تعرف طريقة
تعاملهم مع كبار الرسميين المسؤولين عن الشؤون العامة ونوعية الصفقات التي
ينوون الدخول معهم فيها .

ان الحكومة تملك نمعا كثيرة تستطيع من خلال تسييرها لشؤون الدولة

الادارية الروتينية اسبأها على العاملين في مثل هذه المنظمة ولا سيما عندما يقع بعضهم في ورطات يصعب التخلص منها اثناء تنفيذ القوانين والانظمة المختلفة، ولهذا يجب أن يكون واضحا (دون أن يعلن عن ذلك رسميا) أن التأييد النشط للمنظمة والدعوة المتواصلة لها هما من أضمن الطرق للحصول على المغائم السالفة الذكر . وفي مقابل الخدمات التي تقدمها تلك المنظمة الشعبية ، فإن أنظار العديد من أفراد الشعب ستتجه اليها ، وستستحوذ على اهتمام اولئك الذين قلما يثير فضولهم أهر ما . وعن طريقها أيضا يمكن الحصول على التبرعات المالية بسهولة أكثر ويسر أوفر . وعندما يتضح المفهوم الاساسي لمثل هذه المنظمة الشعبية في الاذهان فإن الشكل الدقيق لنشاطها ، بحدوده العملية كلها ، سيكون مناظرا تماما لحالة الثقافة العامة داخل البلاد . كما سيكون وجه النشاط في انسجام مع الحالة الاقتصادية والاجتماعية للفئات والطبقات التي تؤيد المنظمة وتساندها . وسيتصاعد نشاط المنظمة اطرادا مع مدى تشرب أفرادها أفكار الثورة السياسية ، ومدى انفعالهم عاطفيا معها ، ومع التسهيلات التي تقدمها والمساعدات التي تبذلها الحكومة لهم . ان قائمة نشاطات منظمة كهذه ستحيط بعدد كبير من المشاكل والواجبات . ويشمل ذلك النشاط الثقافي (كالفاء التوجيهات الاولية في الحقوق المدنية والتربية الوطنية والاجراءات الانتخابية وتنظيم جهاز الحكومة والتاريخ السياسي الخ) واصدار الصحف وتنظيم المظاهرات والمؤتمرات الجماهيرية . كما يشمل تقديم العون المباشر للحصول على وظيفة في سلك الحكومة ، والى غير ذلك من النشاطات التي لا عد لها ولا حصر .

ويجب أن لا تغيب عن البال قطعا تلك الحقيقة الهامة وهي، أن هذه المنظمة الشعبية جزء من المرتكزات الشعبية لنظام الحكم الثوري ، وأنها ستبقى على المسرح بعد انتقال امتيازات الحكم الخاصة بحكومة الثورة الى النظام الدستوري الجديد . كما أن هذه المنظمة ستصبح الحزب السياسي الوحيد ، الذي سيفضطلع بحمل تقاليد وأعراف الثورة للأجيال المقبلة التي لن تنظر اليها بعين الرضى، ولن تتردد بمعاكستها على شكل ردود فعل ضدها .

الدستور الجديد :

ان نفس الصعوبة التي برزت سابقا عند محاولة شرح وتحديد هيكل ونشاط المنظمة الشعبية بالدقة اللازمة ، ستبرز ثانية عند محاولة رسم صورة دقيقة للنظام الدستوري المثالي الذي يجب أن يخلف عهد الثورة . ولكن هناك ظاهرتين هامتين جدا يجب أن تتوفرا في الدستور الجديد اذا كانت القاعدة الشعبية لنظام الحكم الثوري رغبة بالبقاء لمدة طويلة ودون نقص في فاعليتها ، وهما :

(١) يجب أن يتألف الدستور الجديد المدون من نصوص ومبادئ عريضة، مع ترك الترتيبات الجزئية للقوانين العادية لتوضيحها والتفصيل فيها . وحيث أن الحزب الثوري سيكون القوة السائدة والمسيطرة ، فمن الضروري اذن ترك المجال واسعا امامه لكتابة الدستور وتعديله حسب مقتضيات زمانه وخبرة زعمائه ، وترك مرونة كافية للمواجهة الظروف والحالات الطارئة حديثا .

(٢) ويجب أن يفسح الدستور المجال أمام ظهور سلطة تنفيذية قوية ، تتمتع بشعبية واسعة نتيجة انتخابها من قبل الاغلبية ، كما يجب على الحزب الثوري أن يتأكد من سيطرته على السلطة التنفيذية كشرط أساسي لاستمرار تفوقه العددي وفاعليته التنظيمية الى أقصى الحدود الممكنة . وبالوقت نفسه فعل السلطة التنفيذية أن تكون في مركز قوي تجاه السلطة التشريعية .

ومن المستحسن التذكير ثانية بأهمية الاقتراحين السابقين : اولهما أن الدستور المدون يجب أن لا يتضمن اكثر من مبادئ عامة وخطوط عريضة ، وثانيهما أنه يتوجب على الدستور أن يتيح ظهور سلطة تنفيذية قوية . ان الدستور المدون يجب أن يبقى وثيقة دائمة هدفها تحديد وتنظيم طبيعة وشكل النظام السياسي للبلاد . ويجب على النظام القائم ، بعد الموافقة على الدستور وتبنيه رسميا ، أن يضفي عليه صبغة من القدسية يصعب معها التغيير فيه والتبديل . ان لم يكن هذا مستحيلا . وعندما يتضمن الدستور مجموعة من التفاصيل الدقيقة الى جانب المبادئ العامة ، فمن الواجب عندئذ اظهار تلك

لتفاصيل ايضا بنفس مستوى قدسية المبادئ العامة . ومهما يكن ، فان لهذه النقطة خطورة خاصة لسببين : اولهما ، يجب أن تتمتع تفاصيل نظام الحكم بمرونة كافية لتبيح تعديلها عند تغير الظروف . وثانيهما فعندما يتضمن الدستور المدون هذه التفاصيل ، فان هذه الاخيرة تكتسب صفة ديمومة الدستور نفسه مما يجعلها صعبة التغيير والتعديل . وعلاوة على هذا ، فان وجود فقرات مفصلة ونصوص مشروطة في الدستور يترك سلاحا في يد الاقلية غالبا ما تتمكن به من هزم ارادة الاكثرية وخاصة في بعض القضايا السياسية الحيوية . والمثال التالي خير توضيح لما سبق ذكره . فغالبا ما يظهر انشاء مناقشة الدستور للموافقة عليه وتبنيه رسميا اتجاه نحو اشتراط تأمين اغلوية ثلثي الاصوات بدل الاكتفاء بالاغلوية البسيطة في المجلس النيابي (البرلمان) عند التصويت بالموافقة على اصدار بعض أنواع خاصة من القوانين والتشريعات . ولكن قد يحدث ، مع مرز الزمن وتبدل الظروف ، أن نوعا من انواع تلك القوانين والتشريعات لم يعد يتلاءم والاضاع الجديدة ، وأن هناك ضرورة لتعديله أو تغيير . ولكن ، في حالة كهذه قد تنبري الاقلية البرلمانية (وربما بدافع أهداف خاصة) لتتقف في وجه ارادة الاغلبية محتجة بتفاصيل الدستور وشروطه . فلو كانت تلك التفاصيل مجرد قوانين لا أكثر - وليست نصوصا في وثيقة الدستور - لما كان هناك داع لظهور مثل هذه المضلات .

ان الاعداد لقيام سلطة تنفيذية قوية وقادرة - بحسب الدستور - له أهمية فائقة . ان أشد الارزاء التي تصيب الحكومات ، التي تواجه سلطة تشريعية متفوقة عليها بسلطاتها وصلاحياتها ، هي عدم الاستقرار السياسي ، الذي ينتج عن تشرذم البرلمان الى عدة أحزاب وتكتلات صغيرة . وحيث أن الحزب الواحد (ولو كان الحزب الثوري) لا يتمكن من فرض سيطرته على كل شيء باغلبية مطلقة الا نادرا ، فان السلطة التنفيذية تبقى دائما تحت رحمة اتجاهات الائتلافات البرلمانية ، والتي غالبا ما توصل الى سياسة الانحراف والانجراف . وبالمقابل ، فعندما تكون السلطة التنفيذية أقوى من السلطة التشريعية - أو على الأقل بقوتها (وهذا ما يحدث في الحالات التي تكون السلطة التنفيذية منتخبة انتخابا مباشرا وليست معينة من قبل البرلمان ، مثل انتخاب رئيس الجمهورية من الشعب مباشرة) - فان الوضع يكون عمدئذ متوازنا . وعندما تتوفر

سلطة تنفيذية قوية كتلك ، فان الحزب الذي يملك أغلبية أصوات الناخبين يتمكن عندئذ من السيطرة على كل من السلطة التنفيذية والغالبية البرلمانية . وبهذه الطريقة ، دون سواها ، يتهيأ للبلاد جو من الاستقرار السياسي ، ملازم لطبيعة النظام السياسي وتركيبه .

وخلاصة الكلام : ان على نظام الحكم الثوري تقديم دستور للبلاد يتصف بالواقعية . فالوثائق الرسمية الصادرة عن لجان وضع الدستور والمؤلفة من اساتذة الجامعات والقضاة ، غالبا ما تُسَوَّد فيها وجهات النظر المعروفة في كتب القانون التي تهتم بالمفاهيم المعقدة لأجهزة الحكومة ، والتفاصيل الدقيقة لنظريات القضاء . الا أنها نادرا ما تتطرق الى النواحي العملية والواقعية للحياة السياسية الحقيقية في داخل البلاد ، والتي لأجلها ، دون سواها ، تسن الانظمة ، وتوضع الدساتير .

٤

الخاتمة

لقد كان واضحا تماما منذ بداية هذا التقرير، أن المحافظة على السلطة هي هدف في حد ذاتها ، لا يختلف في هذا نظام عن نظام . ولكي يتيسر هذا فلا بد من توفير القوة السياسية لهذا النظام ليصبح حكما ذا فاعلية جيدة . وتتوفر عادة هذه القوة السياسية في كل المجتمعات مهما كان وضع تنظيمها وحالتها ، الا أنها اما أن تكون علنية ، أو تبقى كامنة في المجتمع مدخرة فيه . ولكن النقطة الحاسمة في هذا المجال هي أن القوة الكامنة تبقى في معظم مراحل الحكم أكثر بكثير من تلك التي تظهر علنا وتصبح أمرا واقعا . ففي الدولة الدستورية، تحد اعتبارات الشرعية أو القانونية نشاطات الحكومة في تشكيلها للقوة السياسية، بنفس النسبة التي تحد نشاطات أولئك الذين تتعارض مصالحهم مع النظام القائم . أما نظام الحكم الثوري ، فانه لا يقيم وزنا لمثل تلك الاعتبارات ، وذلك لان اسم « الثورة » نفسه وتعريفها لا يملكان أيا من معاني الشرعية أو القانونية . وهذا هو مصدر ضعف الثورة باستمرار ، وكما أن عدم شرعية الثورة وقانونيتها

لا يضمن أي قيود لنشاطها لتوفير القوة السياسية اللازمة لها ، فان كل مسا عجزت الثورة عن تجنيده وتسخير من القوى السياسية المدفونة في المجتمع لا يخضع اطلاقا في نشاطه وتفجره لاعتبارات الشرعية أو القانونية ولذلك يبقى بحقيقته خطرا كامنا يهدد باستمرار أمن الثورة وبقامها .

وهكذا يبقى أمام نظام الحكم الثوري طريقان لا ثالث لهما لمعالجة هذا الخطر المهدد لكيانه . فأول هذين الطريقين ذو نهاية خطيرة ، مع أن بدايته تبدو للوهلة الاولى على أنها أساس النفعية ، والنزوع الى جر المغامرات باينة وسيلة كانت وهذا ما أطلقنا عليه آنفا اسم « سياسة الانجراف والمساومات » التي غالبا ما تحرض عليها بعض الحكومات الثورية ، بغية توطيد أركانها عن طريق الظهور بالمظهر الشعبي ، الذي تلتف حوله الجماهير الفوغائية ، وذلك بدل جعل قوتها السياسية أمرا واقعا ومحققا .

وثاني الطريقين هو ذاك الطريق الذي نصحنا آنفا باتباعه ، وهو الذي يقود حقا الى ثورة فعلية تدرك بعين كاف النظرية الاساسية التي يقوم عليها الحكم الثوري . وبعبارة أخرى ، فان على نظام الحكم الثوري أن يتخذ كل ما يراه ضروريا من التدابير لايجاد قوة حقيقية له سواء أكان ذلك باللجوء الى اجراءات القمع والارهاب أم الى سياسة الاصلاح والبناء . وعليه كذلك أن لا يغفل عز تلك القوة الكامنة في المجتمع ويتركها دون السيطرة عليها وتجنيدها له .

ومن المأمول أن يكون هذا التقرير مفيدا ومساعدًا للثورات في اتقسان عملها ، وأن يكون مقدمة لها الى ما يسمى « الضرورات » وفن تنفيذها .

مركز « لعبة السلم » في واشنطن

لا يمكنك ان تربح المباراة دون ان تكون لاعباً ضمن الفريق

بعد ظهر أحد الايام الباردة في أوائل عام ١٩٥٦ ، انتشر خبر في واشنطن مفاده أن جهاز ارسال كهربائي صغير على شكل « صدفة » قد اكتشف « دسوساً » تحت إحدى مناخد الاجتماعات في دوائر وزارة الخارجية الاميركية في واشنطن . كان ذلك في يوم جمعة ، وكانت السماء تنذر بعاصفة ثلجية ، والموظفون يستعملون للانصراف باكراً يتشوق ولهفة . وفجأة صدرت الاوامر لأقل عدد ممكن من الموظفين بالبقاء في الاقسام التي تضم معلومات سرية لمساعدة رجال الامن الذين أخفوا يجوبون جميع غرف الوزارة بحثاً عن المزيد من هذه الاجهزة الحساسة . واثار هذا الحادث موجة من القلق والحذر . فالجهاز المكتشف لا يتجاوز في حجمه علبة عيدان الثقاب ويعمل دون الحاجة لتمديد أي أسلاك كهربائية . كما يمكن لصقه تحت أي منضدة من قبل أي من أولئك المستخدمين أو صفار الموظفين الذي لا يعيرهم الانسان أي اهتمام أو انتباه .

جرى تفتيش « مركز اللعب » (١) عند حوالي الساعة الثامنة مساءً وهو وقت انتهاء الجلسة المبكرة . فالدوام الرسمي في المركز يبدأ من الساعة الخامسة والنصف بعد الظهر ويمتد حتى منتصف الليل . وفي تلك اللحظات كان المشتركون في تلك الجلسة المبكرة ينظرون من خلال نوافذ الطابق الثاني عشر الى تلك الصفوف من السيارات المتلاحقة في شارع « كونيكتيت » ، وهم مرتدون لباس السهرة ، ويتبادلون أطراف الاحاديث التي تدور أثناء سهراتهم في جورج تاون . وفي تلك الاثناء أيضاً ، كان أفراد الفريق الآخر الذين وصلوا لتوهم لحضور الاجتماع المتأخر لمركز اللعب ، يخلعون معاطفهم ، ويشمرون عن سواعدهم استعداداً لمساء حافل بالعمل المضني والجهد المستمر . وفي خلال ساعة من الزمن كان رجال الامن قد أنهوا تفتيش كافة أرجاء بناء الوزارة دون

(١) مركز التخطيط السياسي

أن يعثروا على أجهزة أخرى • إلا أن احتمالية العثور على أنواع منها بقيت قائمة •
وإثار هذا الحادث - العثور على جهاز الإرسال تحت المنضدة - فينا ميلا إلى
التندر حول تلك المعلومات التي يحرص أحد أجهزة المخابرات الأجنبية على
الحصول عليها ، عن طريق دس ذاك الجهاز المرسل تحت تلك المنضدة بالذات
- لا غيرها - وما عساه أن يستفيد منها •

كانت الأوراق مبعثرة بين الملفات الكثيرة التي غطت سطح المنضدة •
وحول تلك المنضدة بالذات ، كان يجلس مجموعة من الموظفين تملكهم السام
والملل • تارة يهيمسون في آذان بعضهم البعض ، وأخرى تهز أصواتهم أرجاء
القاعة وهم يتبادلون الأدلة والبراهين • كما تجدهم أحيانا غارقين في صمت
عميق ينصتون بشغف وذهول إلى أحدهم وهو يلقي عليهم بعض البيانات أو
التقارير • وفي زوايا القاعة انتشرت أجهزة الهاتف بعيدا عن منضدة
الاجتماعات ، بعضها ترن أجراسه دون التفات من أحد أو انتباه ، وأخرى تمسك
أيدي بعض الرجال بساعاتها وهم يرتدون أكماما إضافية على سواعدهم ،
ومجموعين أكفهم حول الجزء اللاقط للكلام منها علهم يتمكنون من استماع المتكلمين
معهم وسط ذاك الهرج والمرج • كما ترى المساعدين وأمناء السر مقبلين ومدبرين
وبين الفينة والأخرى تجد أحد المجتمعين يدعى للرد على الهاتف أو يضطر لمغادرة
القاعة ليحل محله آخر ما يلبث أن ينزل في مقعده وينثر الأوراق أمامه بكل
خفة ورشاقة •

ولن تتعدى المقتطفات التي تتسرب من القاعة عن طريق ذلك الجهاز
اللاسلكي المدسوس تحت طاولة الاجتماعات النماذج التالية :

« هل قام أحد منكم بمراجعة تلك الامور مع اولاد الكرملين ؟ »

« أين ذلك السمع ديقول ؟ كان يجب أن يكون حاضرا هنا منذ ساعة من
الزمن » ، « سنكون قد اضعنا نصف أوروبا قبل أن يفتن تيتو الى آثار
زيارة ناصر لموسكو » •

ومن الصعوبة بمكان أن يفتن أولئك الذين ينصتون الى ما ينقله اليهم هذا
الجهاز الى أن « تيتو » هذا ليس أكثر من انسان يرتدي بذلة أمريكية الصنع ،
ويقص شعره على طريقة البحارة ، وله في ياقة قميصه بكلة أمريكية الشكل
والصنع • كما أن « ديقول » هو انسان اسمه « بيتر سيلسر » ، و « انتوني
ايدن » هو « سيدني غرين ستريت » ، و « كونراد أديناور » هو تلك الفتاة

الجميلة التي تسرح شعرها للخلف ، وتمعده بشكل حزمة ورد أو كعكة جميلة ، وتضع على عينيها نظارات واسعة ذات إطار عريض . وأما أولاد الكرملين فقد وصلوا مؤخرا وفي أيديهم حقائب جلدية فاخرة ، وهم أفراد من الجوقة الموسيقية لجامعة « بيل » ، وعلى وشك أن يحجزوا غرضا في فندق « ستاتلر » بغية تضيعة عطلة الاسبوع في مشاهدة احدى مباريات كرة القدم .

كان كافة العملاء والجواسيس الاجانب متشوقين للتقصص على ما يدور في جلسات « لعبة السلم » ، وسرعان ما قاموا بعد سنوات بمحاكاة تلك الاجتماعات والمناقشات ولكن بشكل مضحك وهزيل وتحت اسم « تقرير من جبل الحديد » . وفي « مركز اللعب » ، كانت هناك مجموعة منتقاة من أبرع الخبراء الذين تعاقدت معهم حكومة الولايات المتحدة للقيام بتمثيل اتجاهات السياسة العالمية وأزماتها ، محاولين معرفة نتائجها وتقييمها على حقيقتها . وبلاستعانة بالتقارير والمعلومات التي كانت تصل تباعا من وزارة الخارجية ، والمخابرات المركزية ، والبنتاباغون (وزارة الدفاع) ، وغيرها من المؤسسات والوكالات الاميريكية ، كانت عمة مجموعات من الخبراء ، كل يمثل دولة من دول العالم ، تحاول تحديد مراقف تلك الدول ، والخروج بحلول مناسبة للازمة الطارئة على الموقف بشكل اقتراحات عمل على مستوى الامة والدولة . وتنقل تلك النتائج والاجراءات المقترحة بشكل مذكرات تذكر أن ذاك اللاعب (خبير أو مجموعة خبراء) الذي يمثل دور تيتو أو ديغول أو عبد الناصر يظن أن تيتو الحقيقي (أو ديغول أو ناصر) سيتحركون تحت ظروف مماثلة في هذا الاتجاه أو ذاك ، وستكون ردود أفعالهم في الشكل هكذا أو كذلك . ويحاول ذاك اللاعب (الخبير) أن يذكر أيضا في سياق تقريره ان كان يتوقع أكثر من حل واحد للقضية الواحدة مع احتمال أسبقية حل على آخر . وتوضع هذه الاقتراحات والحلول ضمن ذلك السيل من المعلومات الواردة لتوزع بدورها اما الى العقول الالكترونية ، أو تترك فوق مكاتب بعض المسؤولين الذين أتقنوا دراسة صفات الشخصيات العالمية ، وأجادوا تمثيل أدوار الزعماء والقادة الى الحد الذي لا يخطئون في توقعات أفعالهم وردود فعلهم الا نادرا جدا .

أما القواعد والاسس المتبعة في هذه « اللعبة » فهي :

أولا : الالتزامات الاخلاقية التي تؤخذ بعين الاعتبار هي تلك التي لا

تتعارض مع القواعد الاخلاقية لمختلف الدول المثلة في « اللعبة » . أما قواعدنا الاخلاقية فلا نعيمها اهتماما الا عندما نحاول تحديد اتجاهات حكومتنا وردود فعلها . وليس للقاعدة الشهيرة « ان الخير هو الخير اينما ذهبت ، وان الشر هو الشر اينما حللت » التي يرددها رجال الكنيسة أي اعتبار في تخطيئتنا هذا . لقد انفقنا الساعات الطوال محاولين التعرف على الاسس الاخلاقية التي كانت تكمن حقا خلف اتجاهات وتحركات أي من الزعماء الوطنيين ، فما كنا لتتكلم فقط على أقوال رجال الدين والسياسة أو تكهنات رجال الصحافة . ومع كل هذا فلم نكن لنهتم بهذا كثيرا كما لم نكن لنفكر في نعمت هذا « بالخير » ووصم ذلك « بالشر » .

ثانيا : وكان الرأي السائد أن أول اهداف أي زعيم وطني هو البقاء في السلطة ، وفي حال تعرف ذلك ، فانه يحاول أن يعتزل الحكم بأقل ما يمكن من التضحية بسمعته وشهرته الشخصية . الا أن هذا المقياس لا ينطبق على تلك الحفنة من الزعماء المخلصين الذين يضغون بأرواحهم ، وحتى بشهرتهم ، دون تردد في سبيل مصلحة أوطانهم العليا . الا أنهم نزر يسير لا يسبب لنا أي ارتباك في دراساتنا وتقديراتنا . وغالبا ما تعطينا النظرة الواقعية لزعامة الانسان نتائج أفضل من تلك التي تعطينا اياها النظرة المثالية لها .

ثالثا : ونفترض - الا اذا ثبت العكس - أن تصرفات أي زعيم وطني تصدر عن اعتقاده المطلق أنه بهذا انما يخدم وطنه ويحقق اهداف امته . كما يظن مخلصا أن قضيته قضية عادلة ومحقة ، وعليه أن ينقلها للعالم الذي سيصفى اليه باهتمام وانتباه . ولعل القاري يذكر أحد أعضاء الكونغرس الاميريكي عندما طفت العاطفة الوطنية عليه وهو يلقي إحدى خطاباته ، فأتهم ويقول بأنه « غير اميريكي » . وهكذا يجب أن يكون العرف السائد حول ديفول ونحن نمارس « اللعبة » . ان نعمت ديفول بهذه الصفة لا يعني تصنيفه في عداد « الاخيار » أو « الاشرار » . فمفاهيم الخير والشر لا تحظى بأي اهتمام منا ، إذ ليس عندنا رجال « اخيار » وآخرون « اشرار » . وكل ما يراه المرء هو مجموعة من خبراء التخطيط (اللاعبين) ، منهمكين في رسم خططهم ، واحراز النجاح بالطريقة التي تليها عليهم ظروف تلك الدولة الممثلين لدورها أو مفاهيم ذلك الزعيم الذين يلعبون دوره في « مركز اللعب » .

ولا أظن أننا نحتاج لقواعد أكثر من ذلك . فالخبير الممثل للدولار (اللاعب) يزود بكافة الحقائق والمعلومات - التي يفترض معرفتها من قبل الدولة التي يمثل دورها - حول وضع ما . وبناء على هذه المعلومات المتوفرة لديه ، وضمن القيود المفروضة عليه ، فإن الخبير الممثل سيقترح اجراءات محدودة واضحة لاتخاذها في مثل تلك الظروف . وقبل أن يصدر الخبير رأيه النهائي ، فإن عليه أن يكون قد ألمّ تماما بنقاط القوة والضعف عند ذاك الزعيم ، كما يكون قد أدرك تماما خفايا سلوك ذاك الزعيم ، وتقصى جميع الحقائق اللازمة لانتحال دوره في « مركز اللعب » . وتصدر الآراء النهائية بشكل تقارير ومذكرات ، ومن ثم تخضع للتنسيق مع المعلومات الاخرى الواردة باستمرار من وزارة الخارجية ووكالة المخابرات المركزية ، ووزارة الدفاع ، وغيرها من المؤسسات الرسمية ، لتكون كلها جاهزة بشكل « حقائق ومعلومات للقرارات » يعتمد عليها الخبراء أنفسهم لاستكمال خطواتهم اللاحقة .

ومن الصعوبة بمكان الادعاء بصحة كامل المعلومات والدلائل الناتجة عن هذه « اللعبة » . ان بني الانسان ، ومنهم كبار رجال الدولة والسياسة ، يسلكون مسالك يصعب على الآخرين التنبؤ بها مسبقا ، كما انهم قد يتحولون عن سلوك طرق يترأى لغيرهم أنه لا مناص لهم من سلوكها . لقد أعطت « لعبتنا » هذه نتائج جيدة حيال توقع وتقرير نتائج تحركات السوفييت في أوروبا، والتحركات المضادة لها من قبل الشعوب الأوروبية . كما كانت « لعبتنا » موفقة في تحديد معالم الصراع الروسي الصيني ورسم أبعاده : هكذا ستتحرك الصين ، وهكذا سيكون الرد السوفييتي عليها ، وهكذا ستكون ردود الفعل العالمية تجاه كلا التحركين . وعلاوة على كل هذا ، فإن نسبة النجاح والتوفيق في « لعبتنا » لا تتجاوز ٨٥ بالمئة (وهي نفس نسبة نجاح تنبؤات مرصد غرينتش للتقلبات الجوية) ، وهذه النسبة كافية لتضع دراساتنا في طليعة غيرها من الدراسات التي نحصل عليها بطرق شتى .

كانت كامل دراساتنا لتحركات الدول الأوروبية ، وتوقعاتنا لردود فعلها - ومن ضمنها الاتحاد السوفييتي - سهلة وموفقة . لقد اقتصر عملنا في هذا المضمار على تغذية العقل الالكتروني بكافة المعلومات الحديثة والصحيحة حول الشؤون الاقتصادية واتجاهات الرأي العام السائدة في تلك البلدان ، وحول

بعض العوامل المتغيرة باستمرار ، ثم تركه يتمثل تلك المعلومات ليصدر اقتراحات وقرارات . ولكن الامر كان عكس ذلك تماما بخصوص دراساته وتخطيطنا للاوضاع في الدول الافريقية والاسيوية . فلم يكن الاعتماد على العقول الالكترونية سهلا ، وذلك لافتقار عنصر العقل والنظام في هذا الجزء من العالم . وكان اللجوء الى تعبيرات العواطف والنزعات الفطرية لبني الانسان التي لم نوفق للآن الى طريقة توضعها في شكل يمكن نقله للعقول الالكترونية أمرا ضروريا لا بد منه لرسم معالم المستقبل .

لقد كان انهيار نظام نكروما فوق طاقة أي عقل الكتروني للتنبؤ به . فاعتقدنا أن الجيش الفاني أضعف من أن يقوم بحركة كتلك) . وكانت الادلة كلها تشير الى أن حكومة نوري باشا في العراق تتمتع بمناعة ضد انقلاب كالذي قام به عبد الكريم قاسم ، كما كانت تشير الى عدم قدرة الفيتكونغ على الاستمرار في القتال . وظلت النتائج خطأ بخطأ حتى بعد تزويد اللاعبين المثليين لادوار أولئك القادة – الأنف ذكرهم – بكامل المعلومات المتوفرة حول عواطف ونزوات شعوبهم . ومع أن الدراسات التي أنجزت في « مركز اللعبة » لم تخرج بنتائج صحيحة ، إلا أنها كانت من العوامل الرئيسية المساعدة لنجاح محلي وكالة المخابرات المركزية في ايجاد الاسباب الرئيسية لهذه الاحداث . ان رجال وكالة المخابرات المركزية يملكون أدق المعلومات وأحدث التفاصيل السرية حول الكثير من شؤون قادة العالم الحاليين وتحركاتهم ، وحول نيات زعماء المستقبل . إلا ان هذه المعلومات السرية لم تكن تحت تصرف اللاعبين في مركز التخطيط ولهذا فلم يكن في وسعهم الوصول الى نفس النتائج الدقيقة التي وصل اليها رجال وكالة المخابرات ، والتي كان ينبغي أن ينتهي اللاعبون اليها قبلهم .

وعلى العموم ، فلقد أخفقت أحسن الوسائل المعروفة لتحليل المعلومات في الوصول الى دراسة عميقة تساعد على التنبؤ الصحيح حيال نيات وتحركات زعماء بلدان افريقيا وآسيا وأميركا الجنوبية . لقد كانت تواجه هذه الوسائل - أمثل المخابرات المركزية ووزارة الخارجية وجهاز « اللعبة » وما شابه ذلك - أوضاعا اقتصادية يائسة في تلك البلدان وهوة سحيقة تفصل بين الحقائق والاماني لا يمكن ردمها . كما ان شعوب تلك المناطق من العالم تعاني من خيبة أمل مريرة تجعل بقاء الزعماء في الحكم أمرا غاية في الصعوبة ، إلا اذا اعتمدوا

على الاساليب الفوغائية ، أو ابتكروا أساليب جديدة لابتزاز المساعدات من الدول الغنية . وباستثناء أولئك الزعماء الذين يقولون كليا على الاساليب الفوغائية وبالتالي يسهل التنبؤ بتحركاتهم فإن البقية الباقية من زعماء شعوب تلك المناطق من العالم لا تخضع ممارستها لأدوارهم في « اللعبة » لاية قواعد ثابتة وانما يختلقون قواعد خاصة بهم ومميزة لأوضاعهم . وعلى سبيل المثال ، فإن الرجل الذي يمثل دور ديفول في مسرحيات « اللعبة » ظن مرة أنه يلعب الشطرنج (وهي لعبة تعتمد على التفكير العميق والقواعد العلمية الثابتة) مع أحد زعماء الدول النامية (المتخلفة) ، ولكنه أدرك فجأة أن خصمه يلعب معه بعقلية مختلفة تماما . انها عقلية لعبة « التشكن » (لعبة الجبان) وليست عقلية لعبة الشطرنج . ففي لعبة « التشكن » يتسابق الاحداث المراهقون بسيارتين تتجهان نحو بعضهما البعض على طريق واحدة وبالسعة القصوى . والفائز في هذه اللعبة هو ذاك المراهق الذي يبقى مسيطرا على أعصابه حتى اللحظات الاخيرة دون جبن أو خوف . وعندما يدرك تصميم الآخر على المواجهة ، ينمطف بسيارته جانبا قبل الاصطدام به بلحظات مغلخا له الطريق بأكمله . ففي هذه اللعبة تنعدم الفرص بالنسبة للاعب الذكي الاستراتيجي ، وتبقى ساحة بأكملها لذك المجنون المعتوه ، الذي قرر أن يركب رأسه ويستمر بالمغامرة حتى لحظات الاصطدام . وهكذا فإن ديفول « اللاعب » يبقى حائرا حتى يكتشف هو وأمثاله من المشتركين في « اللعبة » طرقا جديدة للنجاح عندما تكون الاطراف الأخرى (خصومهم) من نوع لاعبي لعبة « التشكن » ، التي - على عكس غيرها من الالاب كالبوكر والحرب والتجارة - ليس فيها أي مجال لاستخدام فن الخداع والمناورة .

ان السبب السابق كان في طبيعة الاسباب التي تقلل من جدوى « اللعبة » كوسيلة فعالة في معالجة القضايا التي تمتُ بصلة الى المناطق الواقعة خارج مجال « العالم الغربي » ، وفي تحديد التحركات فيها . وأما السبب الثاني فهو أن سيطرة الحقد والتحيز والجهل على بعض كبار المسؤولين تؤثر تأثيرا بالغا على قراراتهم النهائية ، مما يجعل أفعال حكومتنا وردود فعلها ، صبة التوقع ، شاقة التحديد ، عسيرة الفهم . فقد يستحيل على جهاز « اللعبة » أن يطرق موضوع النزاع العربي الاسرائيلي أو مشكلة فيتنام أو روديسيا بنفس اعتبارات

الهدوء والاهتمام التي يتدبر بها التحركات السوفياتية في مناطق نفوذها .
وكمثال على هذا ، فإنه من الصعوبة بمكان استخدام العقل الإلكتروني (الذي
يعمل وفق قواعد علمية ثابتة) للوصول الى نتائج واضحة لمباراة تجري يسمي
جون فوستر دالس وجمال عبد الناصر بنفس الطريقة التي يستخدم بها للتنبؤ
بنتائج مباراة تجري بين جو لويس ومحمد علي كلاي (أبطال ملاكمة) .

ومما يزيد في غموض الطريق وتمقيد الأسلوب عند معالجتنا لشؤون
العالم الأفريقي والآسيوي هو ازدياد شكننا في طبيعة تحركات حكومتنا ورددودها
تجاه ما يظهر من تصرفات زعماء دول ذلك الجزء من العالم والتي لا تخلو من
الحيرة والارتباك . وعلاوة على كل هذا ، فإن أسبابا أخرى تمنعنا من اتخاذ
المواقف الصحيحة التي تملئها علينا الدراسات التي يقوم بها جهاز « اللعبة »
في مواجهة أمثال المشاكل السابقة الى حد يدفع باعتباراتنا للمصلحة الوطنية
الى المرتبة الثانية بدل أن تكون في الطليعة . ان مسامرة الرأي العام ، والخضوع
لضغوط بعض الفئات الانتهازية ، واضطرار رجال الكونغرس الى كسب تأييد
دوائرهم الانتخابية عن طريق الإباحة بالمعلومات الحرجة أمامهم أو تركها تتسرب
الى رجال الصحافة ، كل ذلك يدخل ضمن عداد تلك الأسباب الموقرة والمرقطة .
ولهذا يجب علينا أن نأخذ بعين الاعتبار كل التصرفات الخاطئة لحكومتنا عند
تحديد نتائج دراساتنا وتحركاتنا المقترحة . ومن هنا ننتقل في تحديد مدى
تأثير تحركاتنا على غيرنا ، وفي التنبؤ بطبيعة ردود فعلهم تجاهها ، وفي اقتراح
الإجراءات المضادة التي على حكومتنا القيام بها ، وبالتأكيد فإننا ننجز كل ذلك
أخذين بعين الاعتبار والاهتمام تلك المفاجآت التي تثيرها الأسباب الأتفة الذكر ،
وقاطعين عليها فرص افساد مخططاتنا في اللحظات الأخيرة الحرجة .

ومهما كانت العقبات التي تقف في سبيل كبار المسؤولين من « صانعي
القرارات » (كذلك التي يثيرها الرأي العام الجاهل أو الضيق أو التي تصدر عن
بعض الفئات بدافع من مصالحهم الخاصة أو التي تنشأ عن تمسك رجال
الكونغرس بمناصبهم) فليس في نيتهن على الإطلاق ترك مستقبل وجودنا في
أفريقيا وآسيا وغيرها من مناطق العالم تحت رحمة أولئك الزعماء الذين أجادوا
ممارسة لعبة « التشكن » ، وتفوقوا فيها . ان النظام الديمقراطي يضع قيودا
عديدة على سلوك حكوماته تجاه العوائق الداخلية وعلى الأساليب التي تنتهجها

الحكومات لمالجتها ، ولكن ليس هناك أي شيء من هذه القيود على السلوك أو الأساليب المتبعة خارج بلادنا . ولا يبقى في هذا المجال سوى قيد واحد ألا وهو « اعتبارات الفاعلية والنجاح » . فكل ما تتوفر له فرص النجاح فعلناه ، والا تخلينا عنه . وعندما يأتي دور « المبادئ الأخلاقية » على مسرح الأحداث ، فإن تعديلات طفيفة تطرأ على ذلك القيد دون أن تقتلعه من جذوره أو تطيح به بعيدا ، وعندها يتخذ التساؤل هذا الطابع : « هل يمكننا أن ننجح بالتنفيذ دون أن نخوض غمار معركة افتضاح وتعري ! » . ان كافة التوجيهات التي يزود بها رجالنا في السلك الدبلوماسي تبرز أهمية اتباع وسائل تعكس المبادئ الديمقراطية والقيم الأخلاقية للأمة كعامل أساسي لنجاح أية محاولة من محاولات الضغط على الحكومات الأجنبية .

ان الكشف عن نياتنا صراحة وعدم الدخول في معاهدات لا نزمع على الالتزام بها يجب أن لا يعني سوى حقيقة واحدة وهي أننا لم نعثر على أية مصلحة لنا في اتباع مثل هذا السلوك . وبالمقابل فإننا سنبدل المستحيل لكم نياتنا الحقيقية أو للتحايل على نصوص أية معاهدات وقّعناها سابقا اذا ما لمسنا أن ذلك يحقق لنا مآربنا ويوصلنا الى غاياتنا ، شريطة أن ننجح في هذا دون الوقوع في مآزق محرجة أو التورط في مواقف فاضحة .

انني لا أحاول البتة أن أقف موقف المدافع عن مثل هذا النفاق والخداع ، فالحقيقة أنني لا أملك شعورا واضحا حياله وان كنت متأكدا من وجوده تماما . ان كلا من اللعبة التي نمارسها في « مركز اللعب » في واشنطن تحت ظروف مقفلة ، و « لعبة الأمم » التي يقوم رجالنا في السلك الدبلوماسي وجنودنا بتنفيذها عبر البحار - باستمرار وكيفما اتفق - تعتبران من أبرز الشواهد على صدق كلامي . ولعل أبرز مثال على سلوكنا المزدوج ، واستراتيجيتنا ذات الوجهين « الأخلاقي واللاأخلاقي » هو تلك الطريقة التي تعاملنا بها مع عبد الناصر ، رئيس الجمهورية المصرية .

ان من أول العناصر التي لمسنا ضرورة وجودها في مسرحيتنا توفر شخصية ما مثل عبد الناصر بالذات . وبعبارة أخرى ، فإن « ناصرا ما » كان من ضمن العناصر الحيوية للمسرحية التي عزمنا على إخراجها . ولقد تأكد هذا

الشعور جليا عندما بدانا نؤدي أدوارنا حول طاولة الاجتماعات ، وكنت يومها أقوم بتمثيل دور ناصر نفسه . لقد بان لكل من يملك احساسا مرهفا أن غياب دور ناصر سيفقد المسرحية توازنها ، وستبدو عندئذ كتمثيلية « هملت » وقد اختلفي منها دور « بولينوس » .

كان يملكني شعور خاص ، وأنا أجمع شتات قصة ناصر وأعمل جاهدا لوضعها في صيغة قوانين ذات تطبيق عالمي ، ان نموذجا كجمال عبد الناصر كان من الأهمية بكان بخصوص « اللعبة » واننا كنا ملزمين بالبحث عن مثيل له فيما لو لم يكن على قيد الحياة . أو أن زعيما مثله ، لا محالة ، سيبيرز الى الوجود عاجلا أم آجلا ، وعلى الأقل ، لاستكمال أدوار « اللعبة » . ولقد تملك ناصر نفسه هذا الشعور بالذات عندما تحدث في كتابه « فلسفة الثورة » عن « دور على المسرح ينتظر لاعبا ليؤديه » ، وعن محاولته لتأدية ذلك الدور . . وسألته مرة عن رأيه في نتائج محاولته تلك فأجابني : « انني لم أنجح بعد في تأدية ذلك الدور » . ومع أن جوابه كان صحيحا فإن المهم هنا ليس نجاحه في تأدية الدور قدر نجاحه في تحديد معالم الدور نفسه . ولقد قطع ناصر شوطا بعيدا في محاولته لتحديد معالم ذلك الدور بالرغم من اعطائه وصفا مضللا في كتابه « فلسفة الثورة » . ومهما كان فإن معالم الدور قد أصبحت الآن في وضع لا لبس فيه ولا ابهام .

والأمر الثاني هو أن « ناصرا » واحدا لم يكن يكفي لسد الفراغ على المسرح . فقد كانت « اللعبة » تقتضي ظهور أكثر من زعيم واحد من « طراز ناصر » وذلك لتأدية جملة أدوار في عدد من الدول الافريقية والآسيوية . ولم يخامرني شك في أن أي تقدم نحرزه في مسرحيتنا سيبقى رهينا لمدة غير قصيرة بتوفر لاعب من هذا النوع . فقد كانت النتيجة الطبيعية لهذا التخلف المريع في جميع أبعاد الحياة في البلدان الافريقية الآسيوية هي إما ظهور قائد وطني رافعا نوايا التحرر من الاستعمار ، معتمدا على الفوغاء لضمان البقاء في السلطة في الوقت الذي تتجه كافة الأوضاع داخل القطر نحو الانهيار والخراب ، أو ظهور قائد من النموذج العملي فيحاول الاعتماد على المساعدات والحماية الأجنبية له . الا أن الفوغاء ستنتعته بشتى الصفات وأبسطها « أنه عميل للاستعمار » أو « صنيعة لموسكو » . ومنذ عام ١٩٦٠ ، كان يستبعد بقاء أي زعيم من هذين

النوعين السابقين في الحكم لمدة طويلة . فبعد أن شهد العالم سقوط نكروما وسوكارنو وفشل العديد من القادة السوريين والعراقيين ظهر أن العامل المؤثر في صعود أي من أولئك القادة في ظروف قاسية كالظروف السائدة في أقطارهم يعتمد على النسبة المثوية لتشابه أنظمتهم مع « طراز ناصر في الحكم » . وكمثال على هذا ، فإن ناصر نفسه كان متمثلاً « لطراز ناصر في الحكم » بنسبة سبعين بالمائة وهي نسبة أعلى من تلك التي تتطلبها ظروفه الخاصة التي كان يحاول الصمود فيها . وأما نكروما فلم يتمثل أكثر من سبعين بالمائة من « طراز ناصر في الحكم » . إلا أن ظروفه كانت في حاجة إلى نسبة أعلى من تلك ، ولهذا لم يتمكن من الصمود أمامها . ومن هذا النوع ، كان كل من سوكارنو في اندونيسيا ، وعبد الكريم قاسم في العراق ، وكثير غيرهم . وأما الملك حسين في الاردن فإنه لم يحاول أن يتمثل أكثر من أربعين بالمائة من « طراز ناصر في الحكم » ، إلا أن ذلك كان أكثر مما تتطلبه ظروفه الخاصة ، وهذا ما ساعده على البقاء في السلطة حتى كناية هذه السطور . ومع أن المثال الذي يتمثل مائة بالمائة من « طراز ناصر في الحكم » لم يتحقق بعد على الإطلاق ، فقد أظهرت الدراسات (التي شملت ناصر نفسه) أن مدى تمثل الزعماء « لطراز ناصر في الحكم » يؤثر كثيراً على قدرتهم على البقاء في الحكم ، وعلى استمرار مشاركتهم الفعالة في « لعبة الأمم » . والأهم من ذلك أن طريقة ممارستنا للعبة مع ناصر نفسه (وحتى هذه اللحظة) يجب أن تلقننا دروساً قيمة في استراتيجيتنا لمعاملة أمثاله .

والأمر الثالث هو أنه بالرغم من الاعتراض الذي أظهره الوزير جون فوستردالس على الزعماء الذين عليهم مسحة من « طراز ناصر في الحكم » ، فقد اقتنعت حكومتنا أخيراً أن وجود هذا النوع من الحكام في السلطة أخف ضرراً على مصالحها من وجود أي نوع آخر منهم مهما كان شكله .

لقد اعتادت حكومتنا على احترام استقلال الدول الأفريقية والآسيوية إلى حد كانت تتفاضى في كثير من الأحيان عن سلوك بعضهم الطائش ما دام ذلك لم يمس مصالحنا بسوء . أما إذا كانت نتائج التزامنا بالمبادئ الأخلاقية خسارة مصالحنا وضياعها فإن موقفنا سيكون العكس ، وستكون التضحية ، بـ « شوك » على حساب تلك المبادئ الأخلاقية وليست على حساب مصالحنا .

وبصراحة أكثر ، فعندما كنا نضطر في بعض الأحيان لازاحة حاكم ما ثبت أن وجوده يقف حجر عثرة في سبيل تنفيذ مخطط لنا في أحد تلك البلدان الافريقية أو الآسيوية (وهذا ما كان يحصل فعلا في مركز « اللعب » في واشنطن في أحوال تفرض حتمية وجود جميع أولئك الحكام الأصدقاء منهم والخصوم) فإننا كنا لا نتردد في اللجوء لمثل هذه التدابير مهما كانت فداحة المخالعات الأخلاقية .

ومن البديهي جدا أن يكون خليفة الحاكم المخلوع على استعداد تام للسير وفق الخط الذي يضمن مصالحنا هناك . ولقد اتفق الأمريكيون والبريطانيون على معالجة شؤون الدول الافريقية والآسيوية من خلال هذه النظرات والمواقف . فكان الحكام من « طراز ناصر » يعطون الأولوية على غيرهم لأن استيلاءهم على السلطة يوفر أفضل الفرص - أو أقلها سوءا - لنجاح « لعبتنا » . فكننا لا نعتبر نجاحنا في استمالة أي من أولئك الحكام الفوغانيين الذين جاؤوا الى السلطة في سوريا أكثر من مجرد نصر أجوف ، ذلك أنه سرعان ما يطاح به ليعقبه من هو أسوأ منه . الا أن ناصراً كان من نوع آخر تماما . لقد اعتاد أن يتأقلم الى حد ما مع كل « ربح » نجنيه لصالحنا من خلال عدم اعتباره على أنه « خسارة » له . وعلاوة على هذا ، فإن لدى ناصر القدرة على أن يتخذ قرارات حاسمة في المواقف الحرجة ، تحقق لنا وله ، بعض المكاسب والمغانم دون أن يدع المجال لجماهير شعبه أن تراها على حقيقتها . وكمثال على هذا ، احتمال التوصل الى اتفاق ما مع الاسرائيليين . فالمبدأ القائل إن عدوا عاقلا (كيفما كان ذلك) خير من صديق جاهل هو ذاك المبدأ الذي نحرص عليه كل الحرص بل ونعضُّ عليه بالنواجذ .

لقد أثار تمثيل دور ناصر في اهتماما وتعلقا وليس فقط بالشكل الذي كنت أؤدِّيه في ناطحة السحاب بواشنطن (وزارة الخارجية) بل وبالشكل الذي كان ناصر يؤديه بنفسه على الطبيعة في العالم . لقد قمت بتمثيل دوره في « مركز اللعبة » في واشنطن مرارا وتكرارا وعلى فترات امتدت من صيف ١٩٥٥ وحتى ربيع ١٩٥٧ ، وكنت أثناءها أزاو مهام منصبي كمستشار للجنة تخطيط السياسة الأميركية في الشرق الأوسط في وزارة الخارجية . ولقد أتاح لي منصبي هذا أن أقوم بزيارات عديدة الى القاهرة وبعض عواصم الشرق

الأوسط ، توفرت لي خلالها الفرصة لمقابلة ناصر نفسه - وغيره من زعماء المنطقة المعجبين به - واستعرضت معه تحركاته وتصرفاته . الا أن صلتى بناصر كانت أقدم من هذا التاريخ . فقد كان لي معه صلات عديدة في ظروف جيدة كما كان لي نفس الشيء مع عدد من زعماء الشرق الأوسط بنوعهم الموالي لناصر والمناوئ له . ومع أن ناصرًا كان يتصف بمسحة من القوغائية (كغيره من باقي زعماء الشرق والغرب) الا أنه كان يتمتع الى جانب ذلك بموهبة أخرى جعلته يفوز في « اللعبة » على جميع اللاعبين بما فيهم الولايات المتحدة نفسها والاتحاد السوفياتي ، باستثناء اسرائيل .

وكانت تعتريني الدهشة عندما كنت أقارن بين القرارات التي اتخذتها في « مركز اللعبة » بواشنطن وبين قرارات ناصر نفسه التي كان يصدرها على الطبيعة فعلا ، فاجد أن الأولى « أسوأ » من الثانية من وجهة نظر المحافظة على المصالح الغربية . وحدث هذا فعلا قبل أسبوع واحد من بدء أزمة قناة السويس عام ١٩٥٦ . فقد استشارني يومها نائب مدير المخابرات المركزية فيما اذا كنت أتوقع أن يقوم ناصر بتأميم قناة السويس اذا أقدمت الولايات المتحدة على سحب عرض تمويلها لبناء السد العالي . وأجبتة يومها أنني قد قمت بتأميم قناة السويس منذ بضعة أشهر استنادا الى دور ناصر الذي كنت أمارسه في « جهاز اللعبة » ، الا أن ناصرًا الحقيقي لم يفعل ذلك حتى ذلك الوقت ، ولهذا لا أدري ما الذي سيفعله ناصر حقيقة في تلك اللحظة ! وعندما أتيت لي الفرصة مؤخرًا أن أبحث مع ناصر نفسه قضية قناة السويس ، تبين لي أنه كان يتوقع ردود فعل انكلو - أمريكية على مستوى أقسى بكثير من التي راودتنا نحن فعلا في واشنطن . لقد كان بإمكان ناصر أن يكون أجراً بتحركاته لو أنه كان يحتل مكاني في مركز اللعبة في واشنطن وقد تجمعت أمامه على طاولة الاجتماعات كل المعلومات والدراسات التي كانت تحت تصرفي يومئذ .

لم تكن نهتم بالعثور على صيغة لمعادلة توصلنا الى نجاح مستمر الا مع « طراز ناصر » من الزعماء . فلو أننا اكتشفنا فعلا طريقة محددة للتعامل مع ناصر فسيمعني هذا أننا قد أحرزنا تقدما ملموسا في مضمار علاقاتنا مع كثير من حكام دول افريقيا وآسيا وأمريكا الجنوبية ، بل ومع كثير من الزعماء المتوقع ظهورهم حتى أواخر هذا القرن . ولا مانع الآن من أن نحاول اعطاء تفسير واضح لمسا

نعميه بعبارة « نجاحنا » .

كان ناصر وضباطه يميلون للاعتقاد أن « لعبتنا » هي من النوع السفلي حاصله دائما مساويا للصفر . وبعبارة أخرى ، فإن أي ربح يجنيه الطرف الأول انما يعني خسارة تكبدها الطرف الثاني بالتأكيد . وعليه فإن حاصل عملية الجمع يكون دائما مساويا للصفر . ففي لعبة البوكر - وهي من النوع الذي حاصل الجمع فيه مساويا دائما للصفر - يكون حاصل جمع الأرباح (كمية موجبة) والخسائر (كمية سالبة) لكل اللاعبين وفي أية لحظة من لحظات استمرار اللعبة مساويا للصفر تماما، وبنفس الطريقة ، فعندما بدأت الحكومتان الأميركية والمصرية لعبتهما حول المساعدات المالية ، كانت الأولى تظن أن المبلغ سيكون في حدود أربعين مليوناً من الدولارات ، في حين كان ناصر يحلم بمبلغ أكبر من ذلك . فلو أن ناصر أنجح في الحصول على سنتين مليوناً من الدولارات من الحكومة الأميركية ، فيكون في هذه الحالة قد حقق ربحاً صافياً في حدود عشرين مليوناً من الدولارات . وبنفس الوقت تكون الحكومة الأميركية قد تكبدت خسارة محققة في حدود نفس المبلغ . وهذا ما كانت عليه نظرة ناصر لمبدأ الربح والخسارة ، وللحاصل المساوي للصفر دائما .

الا أنه حقا لم يكن يخطر ببالنا مثل هذه الهواجس . فقد كان اعتبارنا لهذا النوع من « اللعب » على أنه شبيه بحالة مجموعة من رجال المظلات ، الذين هبطوا خلف الخطوط وفقدوا الاتصال فيما بينهم ، ويحاولون إعادة تنظيم تشكيلاتهم بإجراء حساب للسلوك والتفكير المحتمل لكل منهم . كما يمكن اعتبار هذا النوع من « اللعب » على أنه مماثل لحالة رجلي أعمال يتفاوضان على صفقة يستفيد منها الطرفان معا .

ولا تقتصر « اللعبة » على هذا النوع من التشبيه وضرب الأمثال . فقد عبر أحد رجال الأعمال الأميركيين عن طبيعة هذه « اللعبة » عندما خاطب وزير صناعة ناصر بفظاظة قائلا : « انها شبيهة بالصراع الذي يقوم بين الأم التي نحرص على أن يشرب طفلها الحليب ، وبين الطفل الذي يأبى ذلك ويرفضه بأصرار » . الا أننا لا نعتبر « لعبتنا » سوى من ذلك النوع الذي ، مهما اشتد واحتد ، تخرج منه جميع الأطراف في النهاية غانمة سالمة .

ان أي تقصُّ موضوعي لسلوكنا في « لعبة الأمم » يظهر بكل سهولة أن

الحقيقة ليست الى جانب أي منا . فعندما منحنا ناصرًا أربعين مليوناً من الدولارات كمساعدة مالية له ، فاننا لم تكن لنبخل عليه بأكثر لو كان ذلك في استطاعتنا . لقد فكرت وزارة الخارجية برفع قيمة المساعدات الى حدود المئة مليون دولار ، الا أن تحوفها من هبوب عاصفة من الاحتجاجات ضدها في الكونغرس قد أثنى عزمها هذا .

وبنفس الوقت ، لم تكن نظرتنا الى موضوع حصول ناصر على مبلغ الستين مليوناً أو الأربعين مليوناً من الدولارات على أنه خسارة لنا وزبح له ، بل كانت نظرتنا للمساعدة على أنها فائدة للطرفين معا . ومن جهة أخرى ، فإن دفع مثل هذه المبالغ ما كان ليتم لولا أملنا في أن يحقق لنا بعض المصالح ولو بخسارة محدودة يتكدها الشعب المصري . ومع أن هذه الخسارة لن تكون فعلاً جسيمة ، الا أننا قد اصررنا على اخفائها بل وانكارها لضرورة دبلوماسية . فالحقيقة الكامنة وراء كل هذه المساعدات هي تحقيق مصالحنا بالدرجة الأولى ، وهذا ما نأخذه دوماً بعين الاعتبار عند تخطيط استراتيجيتنا في أبراج وزارة الخارجية في واشنطن . ان أية مفانم يحققها الطرف الآخر ، سواء أكانت خيالاً أم واقعاً ، لن تكون مقصودة أبداً ، كما أنه لا يستبعد أبداً أن تكون طعماً في يد صياد يغري بها فريسته حتى تقع في شراكه .

لا أن زكريا محي الدين (وهو أذكى رفاق ناصر وكان قبل فترة قصيرة نائب رئيس الجمهورية العربية المتحدة) دافع عن مبدأ « اللعبة » ورأى أنه حتى في الحالة التي يكون فيها حاصل مجموع الخسائر والأرباح مساوياً للصفر ، فإن فوائد كثيرة تجنيها كل الأطراف المشتركة في اللعبة . فالجميع راغبون في تجنب الحروب ، وفي تحسين الأوضاع الاقتصادية وتنمية العلاقات الاخوية بين شعوب بني الانسان . وهم في حالتهم هذه يشبهون الى حد كبير مجموعة من لاعبي البوكر الذين تجمعهم الرغبة العامة في تسلية أنفسهم والترفيه عنها ، متجنبين اتباع أساليب القش والخداع ، أو الاحتكام الى منطق القوة عند نشوء خلافات بينهم . كما قال أيضاً ان البشرية المتحضرة تشترك بأهداف جامعة واحدة . الا أن اجتهاداتها المختلفة حول الطرق الموصلة الى تلك الأهداف هي التي أوجدت التفاوت بينها في وجهات النظر . (وقد ألقى هذا الكلام على طلابه في كلية أركان الحرب المصرية) . وهكذا حقاً كانت طبيعة الخلافات المصرية

الأميركية وطبيعة « اللعبة » التي دارت بين الزعماء المصريين والأمريكيين .
ومهما تحدثت الزعماء المصريون عن طبيعة النزاع بينهم وبين الأمريكيين
ومهما أضفوا عليه مسحة من الأخلاق والميرة ، وصوروه على أنه يضم فسي
طياته كثيرا من المصالح المشتركة للشعبين معا ، فإن حقيقة الأوضاع كانت على
عكس هذا تماما . لقد لمس هذا عديد من رجالنا في السلك الدبلوماسي ورجال
الأعمال الأمريكيين الذين كانوا على احتكاك مباشر مع المصريين أنفسهم . فلم
تكن النظريات التي وضعتها كل من أجهزة توماس شيلنغ ومورتن كابلان
وغيرهما (لتستخدم في رسم قواعد لعبة الشعوب واستراتيجية الصراع)
تنطبق على هذا الجزء من « لعبة الأمم » . فالنزاع المصري الأمريكي هو من
النوع الذي يظهر فيه بوضوح لا إبهام فيه ، تضارب المصالح ، وإصرار كل
طرف على تقديم مصالحه على الآخر ، واتباع أكثر الوسائل حيلة ودهاء للوصول
إلى الغايات والقيام بتضليل الآخر ما استطاع إلى ذلك سبيلا . وهذا ما دفعني
إلى نشر هذا الكتاب . إن كل ما كتبه الأمريكيون والبريطانيون حول علاقاتهم
بالدول الأفريقية والآسيوية غير المستقرة لم يلق ضوءا على خفايا هذه العلاقات
أو على أساليبها المتنوعة والمتطورة لاستمالة حكام تلك البلدان ، وسبب ذلك
هو تعارض هذه الأساليب مع ما اعتادت حكوماتنا أن تطرحه على شعوبها ،
وعليه فإن هدف نشر الكتاب هذا هو محاولة سد النقص في كتابات غيري وتلافي
عجزهم في عرض الوقائع والأحداث .

وفي ختام هذا الفصل الأول أرجو أن لا ينظر إلى هذا الكتاب على أنه
يختص بعلاقاتنا مع ناصر بالذات دون سواء . فالكتاب مليء بالعينات التاريخية
لتعطي دروسا ذات تطبيق عام في العلاقات بين الولايات المتحدة وبين أي زعيم
خارج العالم الغربي يتوقع أن يلعب دورا ليس قليلا في العلاقات العالمية في
المستقبل . ومع أن الحديث حول ناصر قد شغل مساحة لا بأس بها من صفحات
هذا الكتاب ، فإني قد بذلت قصارى جهدي في معالجة نواحي سلوكه التي
أتوقع أن تكون مشتركة مع غيره من الحكام في الأقطار الأفريقية والآسيوية
شريطة أن يكونوا « النموذج الناصري » ، وأن تكون الظروف السائدة في داخل
أقطارهم اقتصاديا واجتماعيا كذلك الظروف البائسة السائدة في مصر ، وأن
يتفاعلوا بالضرورة مع التحركات التي تقوم بها كل من الولايات المتحدة وبريطانيا
ضمن نطاق « لعبة الأمم » .

مخططاتنا قيد التنفيذ في سوريا

١٩٤٧ - ١٩٤٩

الآن لم تروح المباراة فقط اللاعبين

بعد ظهر أحد الأيام الباردة من شهر شباط (فبراير) سنة ١٩٤٧ اتصل
السكرتير الأول في السفارة البريطانية في واشنطن ، وكان يومها « سيشل » ،
بـ «لوي هندرسن» مساعد وزير الخارجية لشؤون الشرق الأدنى وأفريقيا وطلب
منه مقابلة لسبب هام . وقد حدث هذا قبل سنه واحدة من تأسيس « مركز
اللعب » في واشنطن . وفي تلك المقابلة ، قام سيشل بتسليم هندرسن رسالتين
على جانب من الأهمية صادرتين عن « القسم الأجنبي » في السفارة البريطانية .
وكانت الأعراف الدبلوماسية تقضي أن يقوم السفير البريطاني نفسه بتسليم
أمثال تلك الرسائل الى وزير الخارجية مباشرة . الا أن جورج مارشال -وزير
الخارجية يومها- كان قد غادر مكتبه مبكرا لقضاء عطلة الأسبوع خارج واشنطن
ولهذا فقد اقترح سيشل أن يقوم بنفسه بتسليم هاتين الرسالتين الى هندرسن
ويتباحث معه بشأنهما حتى يكون أمام موظفي وزارة الخارجية وقتا كافيا
لدراسة الرسالتين خلال عطلة الأسبوع ، وتقديم لمحة عن مضمونهما لوزير
الخارجية قبل التقائه بالسفير البريطاني صباح الاثنين .

وصل سيشل الى وزارة الخارجية والموظفون يستمعون للانصراف لقضاء
عطلة الأسبوع . واعتاد هندرسن أن يبقى لوحده في مكتبه حتى ساعة متأخرة
من المساء . وهكذا كان الهدوء المخيم على جو المكتب ملائما تماما لتسليم أمثال
تلك الرسائل التي كانتا تتضمن أنباء صاعقة .

وهذا ما حدث فعلا . فقد كانت أخبار الرسالتين تشير الى عزم بريطانيا
على إنهاء وصايتها (التي دامت ما لا يقل عن قرن من الزمن) على بعض أرجاء
العالم . فحكومة جلالة الملك تواجه أزمة مالية ، ولهذا فانها لن تتمكن من تحمل
أعباء مقاومة المد الشيوعي في كل من تركيا واليونان ، والتي تقدر ماليا

بخمسين مليوناً من الدولارات . وتخشى بريطانيا في الوقت نفسه أن يتمكن الشيوعيون من فرض سيطرتهم على اليونان عن طريق حرب العصابات ، وعلى تركيا عن طريق هجوم عسكري مباشر . وكان على الولايات المتحدة الأمريكية أن تبادر الى سد هذا الفراغ قبل أن يسبقها الاتحاد السوفياتي اليه . الا أن هندرسن لم يكن ليحتاج الى أيام عطلة الأسبوع حتى يدرك ما تعنيه أنباء هاتين الرسالتين وما يترتب عليه أن يفعله بعد ذلك . فالخطر الشيوعي لا يهدد بالزحف على اليونان وتركيا فقط بل وعلى كل أوروبا الجنوبية خارج الستار الحديدي وعلى شمال افريقيا والشرق الأوسط . ومع أن أخبار الرسالتين قد سببت بعض القلق لهندرسن - وقد اعتذر سيشل له على ذلك - الا أنها قد أشعلت الضوء الأخضر أمام الحكومة الأمريكية لتصبح دولة ذات تأثير فعال في شؤون العالم . كما أظهر الاتحاد السوفياتي على أنه سيكون مصدر تهديد متزايد للسياسة العالمية ، وربما سيفوق ألمانيا النازية في هذا .

لم تكن بروكس ذلك اليوم بسبب رداءة الطقس فحسب ، بل شاركت في ذلك رداءة الأحوال الاقتصادية التي باتت تهدد فرنسا وإيطاليا الى جانب بريطانيا بسيطرة الشيوعيين . ففي شتاء ١٩٤٧ عانت بريطانيا من نقص فادح في موارد الفحم بسبب سوء الأحوال الجوية ، وتراكمت الثلوج الى حد أعاق وسائل النقل كليا ، وتسببت في اتلاف محصول الشتاء من القمح . ونتج عن هذا كله توقف معامل عديدة عن العمل ، وترك حوالي خمسة ملايين عامل بدون عمل . وزادت مشكلتنا التأمين الاجتماعي وتخفيض ساعات العمل الحكومة البريطانية ارهاقا ففدت أعجز من أن تعالج مشاكلها الداخلية . وكانت نتيجة كل ذلك أننا أصبحنا وحيدين على مسرح الأحداث العالمية نواجهها بالطريقة التي تتطلبها « لعبة الأمم » حديثا . ولم يكن بمقدور بريطانيا أن تقدم أكثر من اسداء النصيحة لرجائنا في السلك الدبلوماسي وفي مجموعة المخابرات المركزية .

ومن عجيب المفارقات ، أن وزير الخارجية جورج مارشال كان قد قصد برينستون ليلقي أول خطبه، أمام حشد من الشباب الأمريكي ، موضحا الدور الذي بات على الولايات المتحدة أن تلعبه في العالم بعد أن تغلغت في كل أركانها جغرافيا ، وماليا ، وعسكريا ، وعلميا . ودعا الأمريكيين ، حيال وضع كهذا ، أن يرتفعوا الى مستوى مسؤولياتهم لضمان أمن وسلامة العالم . وانتهى

النوزير مارشال من القاء خطابه صباح ٢١ شباط (فبراير) ١٩٤٧ وهو لا يدري شيئا عن مضمون تلك المذكرتين الدبلوماسيتين اللتين أرسلتا الى وزارته في اليوم السابق . وفي اثناء ذلك ، اتصل لوي هندرسن بوكيل وزارة الخارجية « دين اتشيسون » واستدعاه من مأدبة عشاء في احدى سفارات دول أمريكا الجنوبية ليعرض له مضمون الرسالتين ويتباحثا في الامر . وأمضى الاثنان وقتا طويلا في دراسة القضية وبقيتا حتى وقت متأخر من الليل . وفي صبيحة اليوم التالي عقدا اجتماعات ومباحثات مع معظم رؤساء دوائر وزارة الخارجية وكبار موظفيها . وعندما حل يوم الاثنين ، كان مرؤوسو وزير الخارجية جورج مارشال قد أمضوا يومين من العمل المضني في دراسة مختلف جوانب القضية . وقام بعدها وكيل الوزارة دين اتشيسون بدعوة جورج كينان ، الى وزارة الخارجية ليقوما معا بتشكيل لجنة خاصة مهمتها وضع الخطط التي تتناسب والظروف الجديدة المفروضة عليهم . وكان جورج كينان يومها يمضي بعض الوقت في الكلية الحربية الوطنية بعد مهمة رسمية موفقة في موسكو احتل فيها منصب نائب رئيس البعثة الدبلوماسية الأمريكية هناك .

لم تهتم وزارة الخارجية بإبلاغ أبناء الأزمة هذه الى مجموعة أجهزة مخابرات أسلحة وزارة الدفاع (الجيش ، البحرية ، سلاح الجو) والى جماعة المخابرات المركزية (التي اثبتت منها وكالة المخابرات المركزية فيما بعد) الا بعد مضي ساعات طوال كانت كفيفة بتسرب بعض اخبارها الى الصحافة . ولكن هذا التأخير سببا في احتدام الصراع ثانية بين مختلف أجهزة الدولة . فمنذ مدة قام البنتاغون (وزارة الدفاع) بحملة مركزة على طبقة رجال المخابرات الذين التحقوا بالمجموعة الجديدة بعد انتهاء خدمتهم من « دائرة الخدمات السرية » السابقة والتي أسست للعمل في اوروبا اثناء الحرب العالمية الثانية . وقد نعتهم وزارة الدفاع بانهم زمرة رجال فاشلين اضطروا للبقاء في سلك المخابرات بعد ان أخفقوا في العودة الى مقاعد الدراسة لرفض الجامعات لهم . ووجهة نظر وزارة الدفاع أن أمورا وازمات كهذه لا يمكن مواجهتها الا على مستوى عملي حال ، وهذا لا يتوفر الا ضمن الذين ينضمون الى نظام عسكري قدير .

ولا أزال أذكر جيدا المشاكل الإدارية التي كانت تثار خلاف في المعركة التي دارت رحاها في واشنطن ، وفي شهر شباط (فبراير) بالذات . فقد كنت

يومها عضوا في اللجنة الاستشارية للشؤون الادارية التي أوكلت لها مهمة السيطرة على القوضى السائدة آنئذ في سلك أجهزة المخابرات واقتراح الحلول لها . كما أنني أذكر تماما ذلك التصريح شبه الرسمي الذي أدلى به أحد كبار المسؤولين عن جهاز المخابرات العسكرية التابع للجيش ويذكر فيه أن الضرورة المفاجئة لتدخل الولايات المتحدة كطرف في الحرب الباردة قد خففت من خطر ابتلاع وكالة المخابرات المركزية الجديدة للعاملين في أجهزة مخابرات الحكومة لما وراء البحار ، وعلى أية حال ، فإن الاميرال سيدني ساورز ، مدير المخابرات المركزية ، قد ربح المعركة في مجال التنظيم الاداري وملاكاته الى حد أن الجهاز الجديد للمخابرات المركزية قد اضطلع بكافة المسؤوليات ، وحصل على كل الصلاحيات . بشكل أصبح معه يتمتع بقدرة جيدة على القيام بكل الاعساء التي توكل وزارة الخارجية له تنفيذها .

ويسهل على من يؤرخ حادثة بعد وقوعها بعشرين عاما ، أن يلم برعونة كل من كان طرفا فيها . فالجميع يقرون بأن الحوادث التي كانت تعتبر في الاربعينيات ذات أهمية تاريخية انما كانت تعالج من قبل أشخاص مدفوعين باعتبارات اقليمية . كما يقرون أيضا بأننا لو لم نظهر ضعفا في مؤتمر يالطا ونسحب قواتنا من أوروبا قبل اتضاح نيات السوفييت ومخططاتهم، لكننا الآن في غنى عن جميع مشاكل الحرب الباردة الحالية . ولكن جميع الأشخاص الذين كانوا مسؤولين عن اتخاذ مثل تلك القرارات بعد الحرب - والتي تبدو الآن وكأنها تصرفات طائشة حمقاء - يتذكرون أنه لم يكن من المستطاع سلوك غير ذلك الطريق تحت وطأة تلك الظروف . ولقد بدأت الآن تتضح معالم لعبتنا « مع السوفييت بعد قرار البريطانيين بالانسحاب من تركيا واليونان الذي أبلغنا عنه في حينه . الا أن قضايا عديدة ما تزال غامضة لمؤرخي تلك الحقبة من الزمن مع أنها هي التي كانت تحول دون اتخاذ القرارات المناسبة .

فمن جهة أولى : كان هناك تناقض ضروري بين سياسة حكومتنا انظاهرة للرأي العام في القضايا الدولية ، وبين وجهات نظر أولئك الذين يقيمون خلف جدران وزارة الخارجية والدفاع . لقد أرسل جورج كينان نائب رئيس بعثتنا الدبلوماسية في موسكو رسالة الى وزارة الخارجية في أوائل ١٩٤٦ لخصت بدقة فائقة معالم وحدود الحرب الباردة التي بدأت تستمر يومها . ولقد منحت

تلك الرسالة كل اهتمام وتقدير ، واعتبرت تحليلا دقيقا لنيات السوفييت ولواقفهم وسلوكهم المحتمل .

وفي خطاب القاء في فولتن بولاية ميسوري ، عبّر ونستون تشرشل عن هذا الوضع بوضوح عندما استخدم فيه عبارة « الستار الحديدي » . وكان حضور الرئيس ترومان لتلك المحاضرة اشارة الى موافقة الحكومة الأمريكية على الموقف البريطاني . وبالرغم من هذه الهفوة فقد بقيت حكومتنا تتظاهر بسياستها الرسمية التي تسير على هدى « روح التفاهم التي سادت مؤتمر يالطا » ، وكانت ترى أن الأمم المتحدة تتمكن من حفظ الأمن في جميع أنحاء العالم بتعاون وتفاهم القوى العظمى المحبة للسلام . الا أن كافة تقارير الحكومة الموهورة بخاتم « سري للغاية » تشير الى عكس ذلك تماما . وبدأ للعيان أننا نتجه بخطى واسعة نحو حرب باردة مع السوفييت . وبدأ هذا ينعكس على جميع نواحي حياتنا الى الحد الذي اضطررنا معه أن نطلق أسماء مفايرة على الدوائر المختصة بشؤون الستار الحديدي اخفاء لها وتمويهها .

وكانت العقبة الثانية هي النقص الفادح الذي كنا نعانيه في عدد الأشخاص المؤهلين لخوض غمار حرب أطلق عليها الاميرال « ساورز » ، مدير المخابرات المركزية ، اسم « الحرب التي لا كالحروب » . وقد واجهنا هذه العقبة فعلا عند محاولتنا الحلول محل المخابرات البريطانية في اليونان وتركيا مع أننا كنا نملك رصيذا ضخما من هذه العناصر في أوروبا . وبقي قسم الشرق الأدنى وإفريقيا في وزارة الخارجية ركيكا وضعيفا جدا . ولم يكن وضع المخابرات المركزية ووزارة الدفاع أصلح من هذا ، فكافة رصيدهم لم يتعد بعض علماء الآثار والمبشرين من مختلف الجنسيات الذين كانوا يتلقون التوجيهات من قبل أساتذة الجامعات المتقاعدین . وكان هناك خليط من رجال الأعمال الذين ينتدبون لبعض مهمات المخابرات الاعتيادية أو لبعض مهمات ديبلوماسية ما وراء الكواليس . وكان علينا إذن أن تبدأ بحملة تجنيد واسعة وسريعة حتى نتمكن من تحمل مسؤولياتنا في تلك الأرجاء من العالم . الا أن تحديدأ واضحا وصريحا لما ننري تحقيقه وتنفيذه يجب أن يتصدر قائمة الواجبات الأساسية . وعلى وجه التحديد : كان سد الفراغ الذي نتج عن انسحاب البريطانيين من اليونان وتركيا والذي بالتالي أوجد فراغا في كل

رجاء الشرق الأوسط من سمن أهدافنا الرئيسية . وقد اقتضى هذا أن نبدا « لمبتنا » التي كانت حكومات دول المنطقة الشاغرة من النفوذ اطرافا فيها . وسبب ذلك أن السوفييت لم يكونوا بعد قد اتخذوا مقاعدهم حول طاولة اللب (لم يكن التدخل السوفياتي قد بدأ يومها) . وكانت هذه « اللعبة » لعبة تعاون من جهة ونزاع من جهة أخرى ، وأصبحت قراراتنا مرتبطة بأهدافنا في المنطقة ومتأثرة بمدى تعارض مخططاتنا مع تطامعات كل من تركيا واليونان وبقية دول الشرق الأوسط . وانتقل هذا التعارض والخلاف الى داخل وزارة الخارجية واللجان المشرفة على التخطيط فيها . فلا أزال أذكر عندما خاطبني أحد المسؤولين عن التخطيط في وزارة الخارجية وهو في أوج غضبه قائلا : « اننا لا نملك أية أهداف واننا لا نواجه هناك سوى مشاكل » . فمن هذه المشاكل ما كان مصدره النوايا الصهيونية لخلق دولة اسرائيل واصرار العرب على رفضها . ومنها ما مصدره الخلاف مع الحلفاء حول الدور الذي يجب أن تلعبه دول الشرق الأوسط في خطط الدفاع للمستقبل ، والدعم السياسي لشركات البترول الأميركية التي كانت في نمو مستمر واتساع متزايد هناك . ومهما كان ، فلقد برزت أهدافنا أخيرا في شكل محدّد وكان منها ما يلي :

- ١ - تجنب أي احتكاك مباشر بيننا وبين السوفييت نتيجة اشتباكات اقليمية في المنطقة .
- ٢ - تقوية حكومات المنطقة عسكري وسياسيا الى حد تمكن معه من المساهمة الفعالة في مجهود العالم الحر للوقوف في وجه الشيوعية الدولية .
- ٣ - خلق ظروف ملائمة تفسح المجال أمام التغلغل التجاري والتوظيف المالي للامريكيين .

لم تكن نواجه في سنة ١٩٤٧ سوى مشكلة النزاع العربي الاسرائيلي . وكنا والسوفييت نرى أنه ما نزال في وضع مبكر لظهور تأييدنا لطرف دون آخر . وفي الوقت الذي كانت الظروف السائدة في منطقة الشرق الأوسط تبدو مناسبة جدا للاستثمارات المالية والتجارية الأميركية ، بدأ يساورنا القلق حيال احتمال رفض الحكومات العربية لتوجيهاتنا السماسية والعسكرية . ولهذا فإن «حارب سكان المنطقة معنا كان عاملا مهما لاحراز أي تقدم في مجال تحقيق

وحياتنا وكان يجب أن يتوفر هنا منذ زمن بعيد لولا وجود عجز في قيادات دول الشرق الأوسط .

كانت مشكلتنا الرئيسية في دول الشرق الأوسط فقدان القيسادات الذكية التي تتمتع بقسط وافر من الخبرة والحكمة في ادارة الأمور وتقديم مصالح بلدانها والتي هي على مستوى رفيع من النزاهة والشجاعة الكافيتين لتحقيق كل ذلك . وبهذه الطريقة دون غيرها يمكننا أن نحقق أهدافنا مهما كان لونها وشكلها . ونتيجة لذلك فقد بدأ تركيزنا على فسخ المجال أمام وصول « النوع الملائم » من القيادات الى السلطة وتسليمها مقاليد الحكم في داخل أوطانها بينما نكون قد انجزنا دراسة مخططاتنا وحددنا أهدافنا في المنطقة بكل دقة ووضوح .

كانت قواعد « لعبة الأمم » تملئ علينا أن نبذل قصارى جهدنا لاحتراز التقدم والنجاح ضد المناوئين لنا ولكن لصالح الموالين لنا . فإذا تسمرت الخطوات وسدت المنافذ كان لا بد بعدها من تعديل اعتباراتنا لأسباب النجاح وطبيعته . فإذا لم تكف هذه الخطوة كان لا بد بعدها من النجوى الى تغيير اللاعبين الذين يشكلون حجر عثرة في طريقنا واستبدالهم بآخرين أكثر انسجاما مع الظروف الراهنة . ومذكرات الحكومة الأميركية عام ١٩٤٧ أشارت بوضوح وتأكيد الى أن أجهزة المخابرات والسلوك الدبلوماسي كانت على وشك القيام بتغييرات في قيادات بعض دول الشرق الأوسط . والمؤرخون الذين يحاولون الوقوف على الدوافع التي كانت خلف مخططاتنا أثناء تلك الفترة من التاريخ كانوا يتفاوضون عن الحقيقة التالية : ان التفكير المثالي ومحاولة الالتزام بالمبادئ لم تختف نهائيا ليحل محلها الأسلوب الواقعي للعمل الذي يتمثل في التجسس والاستفادة من التسهيلات التي يقدمها العمل السياسي السري وذلك لمجابهة الروس بنفس طريقتهم في العمل . ان أي تفحص لوثائق وزارة الخارجية ووزارة الدفاع ومجموعة المخابرات المركزية (التي أصبحت بعد ذلك وكالة المخابرات المركزية) تظهر مثاليتنا في العلن وانتهازيتنا في السر . ولكن كل من شارك في « لعبة الأمم » يذكر أننا لم نكن فعلا انتهازيين كما تصوره تلك الوثائق ، وأن عنصر المثالية كان لا يزال التفكير السائد والصفة الطاغية وذلك في كلا نشاطينا السري والعلني .

وبدأنا العمل بتجنيد العناصر المتبقية من مكتب الخدمات الاستراتيجية بعد الحرب العالمية الثانية . ثم ضمنا اليها اركان قيادة السلك الدبلوماسي الى جانب احتياطيين من الرجال الذين كانوا في الخارج بمهام ثقافية واعلامية . والتحق بنا بعض الدبلوماسيين المنتظمين رسميا في وزارة الخارجية . ومعظم هذه العناصر التي هي من البعثات التبشيرية او من اصحاب الفكر ، وبعض الهواة كانت تعتقد ان تغيير القيادات في دول الشرق الاوسط عامة والدول العربية خاصة لا يستلزم اكثر من مجرد ازالة بعض العناصر والقوى التي اوصلت كثيرا من الزعماء الى سدة الحكم دون ان تتوفر لديهم اية كفاءات او ميزات . وتستمر في مساندتهم ، طالما امتلكت القدرة على هذا . انني لا ازال اذكر تلك المحاضرة التي القاها احدهم في اجتماع توجيهي مشترك لوزارة الخارجية ومجموعة المخابرات المركزية وقال فيها يوما : « يظهر في كل من سوريا ولبنان ومصر والعراق ، ان السياسيين الحاكمين قد استلموا مقاليد الحكم نتيجة انتخابهم من الشعب ، ولكننا نتساءل اية انتخابات تلك ! كان الفائزون بالانتخابات من مرشحي القوى الأجنبية ، ومن مرشحي الاقطاعيين الذين يلزمون الفلاحين والمستخدمين بانتخاب من يخدم اقطاعهم ، ومن الرأسماليين الجشعين الذين يشتررون أصوات الشعب لحساب أعوانهم بنفس طريقتهم المعتادة في الحصول على ما يريدونه عن طريق الخداع والصوصية . ان العرب يرحلون تحت نير اولئك الحكام المرتشين وهم يستصرخون الجميع لرفع هذا الاضطهاد عن كواهلهم . ان لهم ميولا طبيعية نحو السياسة وهم ليسوا اقبياء مغفلين »

لم يكن ذلك المحاضر لينقل سوى وجهة نظر كل اولئك الذين كانت لهم خدمات سابقة في سلك الخارجية او المخابرات . كما ان هذه النظرة قد حظيت بتأييد كل المسؤولين الجدد الذين جاؤوا من خارج سلك الحكومة مثل رجال الأعمال ورجال الجامعات وغيرهم من الذين اعتادوا اخذ دلاء الانسان وحدود طاقته العملية بعين الاعتبار والاحترام .

وفي ١٢ آذار (مارس) ١٩٤٧ ، وبعد ثلاثة أسابيع من العمل الدائم لموظفي وزارة الخارجية والبيت الأبيض ، أعلن عن « مبدأ ترومان » الذي كان يومها بمثابة جواب على المذكرة البريطانية المرسلة الى وزارة الخارجية في ٢١ شباط (فبراير) ١٩٤٧ . ولم يمض زمن طويل على اعلان مبدأ ترومان حتى أعلن عن مبدأ آخر وهو « مشروع مارشال » . ومع أوائل تموز (يوليو) ١٩٤٧ بدأ سيل من التعليقات والافتتاحيات يظهر في الصحافة الأمريكية ، كما بدأ

كبار المسؤولين سلسلة من المحاضرات في الجامعات الأميركية ، وكلها تحدثت بصراحة عن الحرب الباردة وكيف السبيل الى إيقاف الزحف الروسي ، ومع ان عديدا من الكتب الجيدة قد ظهرت في الأسواق تعالج هذه القضايا ، وتفصل فيها ، الا أنها لم تنطرق الى الحملة التي قمنا بها سرّيا بقصد سد الفراغ . وسأولي هذا النوع من النشاط السري كل اهتمامي في كتابي هذا لعجز بقية المؤرخين عن أن يقوموا بهذه المهمة التي لا يمكنهم الوقوف على أسرارها ولا معرفة خفاياها ، فلقد وصفتها وكالة المخابرات المركزية بأدق العبارات وقالت « انها حرب لا كالحروب » .

بدأت « الحرب الباردة » قبل انشاء وكالة المخابرات المركزية بشكلها المعروف الآن . . . وضم الفريق الذي بدأ العمل خليطا من الدبلوماسيين ومن ديبلوماسيي ما وراء الكواليس (١) الذين تم استخلاصهم من وزارة الخارجية ووزارة الدفاع ومن جملة دوائر رسمية أخرى كانت في معظمها من بقايا الحرب العالمية الثانية أو من التي أنشئت حديثا للعمل في الفترة الانتقالية بين فترة الحرب وعهد السلم . وقد برز في هذا الخليط الذي لا ينسى اتجاهان متباينان في فرط الثقة وفي المبالغة في الحذر . فقط تجسد الاتجاه الأول في أولئك الذين كانوا يوجهون نقدا لاذعا للسابقين من « أرباب العمل » - وهم البريطانيون - وتجسد الاتجاه الثاني في أولئك الذين أظهروا ميلا شديدا للتعاون الوثيق معهم وللاعتماد على خبرة كلتي المخابرات والدبلوماسية البريطانية لأكثر حد ممكن . الا أن الاتجاهين قد توصلا الى حل وسط عندما اتفقا على الرأي الغالب : « خير لنا أن نحاول السير قبل أن نفكر بالركض » . وكان القرار الأخير أن تكون أولى مفاوضاتنا محاولة للتدخل في الشؤون الداخلية لدولة مستقلة ، وأن تكون المحاولة متواضعة محدودة ولكنها مؤيدة بتبريرات كافية ودون مساعدة البريطانيين - بل ودون درايتهم بها .

ولكن أين نبدأ ؟ لا يمكننا أن نبدأ في تركيا أو اليونان ، فالبلدان حليفان لنا ويريدان ما نريده نحن ، وقياداتهما تسهران على رعاية أهدافنا المشتركة . ولو كان هناك أي مجال لأن نكون في « لعبة » معهم فستكون « لعبة تعاون »

(١) . الدبلوماسيين الغربيين Crypto Diplomats

وليس « لعبة صراع واختلاف » كما أننا لا يمكننا أن نبدا في ايران لأنفسا في انسجام وتفاقم مع قيادتها ، وكانت نسبة التعاون في « لعبتنا » معها أكثر من تسعين بالمائة (وهذا في البداية على الأقل) ونسبة الخلاف أقل من عشرة بالمائة . وبالتالي فلم يبق أمامنا سوى العالم العربي الذي بدأت الأمور تتفاقم بيننا وبينه ، وزادت شقة الخلاف اتساعا غير قليل . وكان ثانيا أن سبب هذا وجود قيادات طائشة مضللة على رأس السلطة في تلك الاقطار ، وأن استلام مقاليد الحكم من أشخاص ذوي ثقافة أوسع وإدراك أعمق سينقل هذه الاقطار العربية من صف الماواة الى صف الموالاة لنا . كما أن حذر العرب البالغ من السوفييت سيجعل الحماية الأميركية لهم موضع ترحيب . فشركات البترول الأميركية ستجعل منهم أغنياء قريبا . كما أن التوصل الى اية تسوية حول مشكلة فلسطين ستجعل منهم المستفيد الرئيسي لكل ما يتأتى منها . الا أن اصرار حكاهم يومها على رفضهم النظر في الأمور من خلال هذا المنظار (المنظار الأمريكي) كان قد اعتبر مبررا كافيا للإطاحة بهم - أو على الأقل تحريك شعوبهم وحثها على الإطاحة بهم . وهكذا فقد كان وضع القيادات العربية في عام ١٩٤٧ مبررا كافيا للتدخل بشؤون العالم العربي

كان المفروض أن يكون العراق أول أهدافنا ، فحكومته بوليسية مكروهة . وكان من السهل علينا يومها أن نقنع أنفسنا أننا نقوم بعمل فيه خير كثير للعراق عندما نفسح المجال لمجيء حكومة أكثر شعبية وتأييدا . الا أن الفريق المكلف بالتنفيذ في العراق لم يستطع مباشرة ذلك دون علم البريطانيين وموافقتهم . ورفضت حكومة المملكة العربية السعودية كافة اقتراحاتنا لتفسير طريقة الحكم فيها ، وهكذا لم يعد لنا أية فرصة للدخل فيها . كما أسقطنا من حسابنا التدخل بشؤون لبنان والأردن ومصر لاعتبارات شتى . وبحساب البواقي فإنه لم يبق أمامنا الا سوريا . فقد كانت في وضع اقتصادي مريح ، كما أن الحكمين التركي والفرنسي لم يفلحا في اذلال شعبها وترويضه . ولهذا فقد كانت ظروف سوريا ملائمة جدا لاجراء انتخابات ديموقراطية ، تفسح المجال أمام مجموعة من الزعماء على شيء من الذكاء والحنكة والتعاون للوصول الى سدة الحكم واستلام مقاليد الأمور . وأخيرا ، فقد ظهر لنا جليا أن الركانز التي تدعم

بقاء المجموعة السابقة من السياسيين في الحكم ، وهم لا يمثلون الشعب حقاً ،
لا تقوى البتة على مجابهة الوسائل التي عزمنا على اتباعها هناك .

وفي الحقيقة لم يكن هناك مجال لاستخدام أي من أسلحتنا التي علمتنا
التجارب والمحن بعد حين استعمالها لعمليات أكثر دقة وأعمق أثراً . فقد كان
الوضع أضعف مما توقعنا ، وكان يكفي القيام ببعض الوكزات اللبقة هنا وهناك
لتشجيع بعض السياسيين المفضلين ليسيذكوا طرفاً نزيهة في حملاتهم الانتخابية ،
الى جانب القيام بمراقبة عامة غير رسمية على اجراءات الاقتراع ، وضبط الأسماء
على اللوائح ، بنية كشف حوادث الضغط والاحتيال واخبار المرشحين بها
لفضحها والحيولة دون وقوعها . ولم يكن من الممكن توفير كل هذا بواسطة
رجال السلك الديبلوماسي (مع أنه كان لهم القدرة على ممارسته ضغطاً كبيراً
بقصد التنبيه والتحذير) . ولذلك حاولنا أن نوفر ذلك عن طريق رجال
الصحافة الأجنبية الذين وجهت لهم الدعوات بهذا القصد . وقام فريق من
العملاء السريين بالمساعدة في هذا المجال دون الظهور بمظهر المؤيدين للمرشحين
الموالين لنا ، وكان جل دورهم حث الشعب على انتخاب الرجال الوطنيين
المخلصين . ولقد فوتنا الفرصة على الحكام السوريين بخصوص توجيه انتقادات
لتدخلنا هنا وهناك عن طريق قيام القائم بالأعمال الأمريكي بزيارة الى وزارة
الخارجية السورية ، ولقد فلت النظر الى اعتقادنا أن الانتخابات السورية المقبلة
ستكون محط أنظار جميع الأفطار المستقلة حديثاً ، ولهذا فاننا لا نتوقع وجود
أي مائع من مراقبتنا لها . وقامت الشركات الأميركية الخاصة ، بالتعاون مع
أفراد الجالية الأميركية وبعض الإرساليات التبشيرية هناك ، بتوجيه تعذير
لأولئك السياسيين الذين اعتادوا اللجوء الى الضغط والاكراه لحمل المواطنين
على الادلاء بأصواتهم لصالحهم (صالح السياسيين) من مغبة مثل هذه الأعمال ،
أو من الوقوف في وجه اجراء انتخابات حرة نزيهة يصوت فيها المواطنون لمن
يريدون . كما وجهت تحذيرات مباشرة وغير مباشرة الى كل من الاقطاعيين
وأصحاب المعامل وزعماء الأحياء ، وحتى رؤساء مخافر الشرطة ، من اعاقبة
الشعب عن الادلاء بأصواتهم بحرية تامة ، ومن القيام بأي اضطهاد داخلي أو
تحيز لن يترتب عنه سوى استنكار واسع النطاق لا يقل عن ذاك الذي لاقاه
كل من الظلم التركي والتعسف الفرنسي . وتمكن رئيس إرساليات طائفة

الكنيسة الاصلاحية (ميثودية) أن ينتزع وعدا من أكبر اتحاد للمثقفين الاكراد بأنهم وزملاءهم لن يقوموا باستغلال أصوات الأميين الاكراد ويكتبوا لهم على أوراق الاقتراع أسماء مرشحي الاتحاد .

وتضمنت تحركاتنا النقاط التالية :

١ - حملة قامت بها إحدى شركات البترول الأميركية التي تأسست حديثا وذلك بلمصق اعلانات دعائية ضخمة في الأماكن العامة تحضّر السوريين على الادلاء بأصواتهم واختيار المرشح الذي يريدونه لينعموا بالحرية بعد بضعة قرون من السيطرة الاجنبية . ومما أثار دهشة الشعب السوري أن تلك الدعايات لا تدعو الى مرشح دون آخر .

٢ - ترتيبات أعدت مع بعض مكاتب سائقي السيارات العمومية (التاكسيات) ليقوموا بنقل الناخبين مجانا الى أماكن الاقتراع شريطة أن يتفقوا عن أبة هبات مغرية من المرشحين للتأثير على ركابهم من الناخبين أو لنقل المقترعين لصالح مرشح دون آخر .

٣ - تزويد مراكز الاقتراع الرئيسية في المدن بآلات اتوماتيكية لتسجيل الأصوات بعيدا تام على أحدث طراز أمريكي ، حتى تقفد الانتخابات السورية كمشيولاتها في أمريكا تماما .

ومع كل ذلك ، فإن الاجراءات الانتخابية لم تكن مخيبة للأمال . ففي حمص ، لم يكن هناك أية محاولة مكشوفة للتدخل . فقد أوعز الاقطاعيون الى فلاحهم أن يبتعدوا عن الدعايات الشيوعية والامبريالية المنتشرة في الساحات العامة ولا يصدقوها ، وأن بدلوا بأصواتهم حسب التوجيهات المعطاة لهم سابقا . وكانت تلك الانتخابات الحرة الأولى من نوعها في سوريا التي كان يعتقد شعبها أن الحكومة ما هي سوى مطية يتخذها الاجنبي لتحقيق مآربه والوصول الى أهدافه عن طريق الرشوة والافساد التي تملؤها نزعة الفطرية عليه . ومع أنه وقمت بعض المصادمات الدموية وسقط بعض القتلى والجرحى الا أن الناخب للعادي قد وجد في تلك الانتخابات فرصة جديدة لرفع سعر «صوته الانتخابي» أو وجدها فرصة لدعم قريب له عل وصوله الى النيابة يطلب له مكاسب ومغانم . وشكل سائقو السيارات اتحادات باعت خدماتها للمرشح

الذي كان يجزل لهم العطاء أكثر من غيره . ونكت اتحاد المثقفين الاكراد بالوعود التي أعطوها لرئيس الارسالية الاصلحية . وتعطلت آلات تسجيل الأصوات الانتخابية كلها ما عدا اثنتين بسبب عدم انتظام التيار الكهربائي . غير أن المرشحين المنهزمين قد عزَّ عليهم أن يهزموا على أيدي التكنولوجيا الامبريالية فرفضوا النتائج التي أعطتها الآلات الالكترونية وأعاد لهم الكتبة فرز الأصوات نانية بصورة حققت لهم الفوز والنجاح . وكانت حكومتنا الوحيدة من بين حكومات الدول الكبرى التي لم تدفع مساعدات مالية للمرشحين الموالين لها مما دعلم الى الالتجاء الى الفرنسيين والبريطانيين بل والسوفييت أيضا . فقد كانت الأطراف الآتفة الذكر على شيء من الدهاء جعلها تتحايل على القيود التي فرضناها على الانتخابات . ان النزاهة الساذجة التي ظهرنا بها - نحن الاميريكيين - لم تجد لها قبولا في نفوس الفرنسيين والبريطانيين والروس ، بل ولقد اثارَت شكوكهم حولنا . فلقد اعتقدوا أننا تعد في الخفاء حلولا جديدة ومبتكرة للسياسة السورية وأن تلك البساطة المصطنعة ليست سوى مقدمة لإحيل ومؤامرات أخرى ولكنها من نوع جديد لم يعتد العالم القديم على فهمه وتصوره .

لم يكن الاميريكيون ، رسميين وغير رسميين ، بتلك الساذجة وذاك الغباء حيال الانتخابات السورية عام ١٩٤٧ ، ولكنهم كانوا حديثي عهد في هذا الحقل . وفي الوقت الذي لم يكن أي من رجال الحكومة أو رجال الأعمال الذين رحلوا الى الشرق الأوسط ذا خبرة في هذا المضمار ، كان هذا الأمر شيئا روتينيا للروس أو الفرنسيين أو البريطانيين . ونتيجة لهذا بدأت وزارة الخارجية الاميريكية بتعليم أحسن موظفيها اللغة العربية وفامت بإطلاعهم على ثقافات الشرق الأوسط وعلى كل ما يمت لهذا الموضوع بصلة . كما قامت بتمشيط الولايات المتحدة بحثا عن أميركيين ذوي خبرات سابقة في هذا المضمار . وكان باركر هارت ورودجر دافيز وهاريسون سايمس من جملة الموظفين الضليعين بمثل هذه الخدمات والذين كانوا على وشك ترك الخدمة في الوزارة لما أصابهم من سأم وملل . وعندما شعرنا بالحاجة الى أمثالهم في عام ١٩٤٧ - ١٩٤٨ دفعنا بهم الى مناصب ذات مسؤوليات حسام . واستدعسي تشارلز فيركسون الخبير في التعليم السريع للغات - من جامعة هارفرد لبدأ فصولا دراسية في اللغة العربية لبعض الدبلوماسيين الشباب . وكانت نتيجة

هذه الفصول أن قارب عدد الدبلوماسيين الأميركيين المتكلمين باللغة العربية عدد المتكلمين بهما من البريطانيين وأربعة أضعاف المتكلمين بهما من الروس . وأصدرت وزارة الخارجية أمرا بتعيين ارتشيبالد روزفلت (حفيد الرئيس تيودور روزفلت) كمنسق لنشاطنا السياسي الخاص وأرسلته الى بيروت . وكان روزفلت هذا قد أمضى عدة أشهر مع قبائل عربية وكردية وفارسية وكان يتكلم اللغة العربية والكردية والازبكية والروسية والفرنسية والاسبانية وبضع لغات أخرى . وخدم في الماضي في مراكز أظهرت قدرته الفائقة في الجمع بين الثقافة الواسعة والتنفيذ الدقيق . وبحلول عام ١٩٥٢ ، كان رجالنا في السلك الدبلوماسي في الشرق الاوسط من خيرة ما بمقدور حكومتنا تقديمه .

كانت الأعوام بين ١٩٤٧ و ١٩٥٢ أعواما هزيلة بخصوص نشاطنا فني « لعبة الأمم » . وبعزى ذلك لجملة أسباب منها ذلك الاستقلال المفاجيء لعدة دول بقيت تروح قرونا تحت بير الاستعمار ، وهذا الأمر قد أظهر بعض المشاكل التي لم يكن تتوفر اية خبرة عندنا لمعالجتها . ومن جملة الأسباب غضب العسرب لاعتقادهم أننا كنا نساند الصهيونية . وهذا صحيح مهما كان المبرر لذلك . ومن ثم إسرائيل بشكل مفضوح لا تحرج فيه ولا حياة . كما أن سوء التفاهم وقلة التجاوب الذي حصل بين رجال سلكنا الدبلوماسي وواضعي الخطط في واشنطن كان من ضمن تلك الأسباب . لقد كان الرجال القابعون خلف الجدران في وزارة الخارجية بواشنطن تحت تأثير انجاعات رجال الكونغرس ورجال الصحافة الذين لا يظهرون أي أكثرات أو اهتمام للعالم العربي . في حين كان رجالنا في السلك الدبلوماسي تحت رحمة مشاهداتهم اليومية واحتكاكهم المباشر مع المواطنين في العالم العربي مما أدى الى تباعد وجهات النظر وافتراق طرق التفكير حيال الأوضاع في المنطقة .

لقد غشت الدبلوماسية الامريكية في العالم العربي بين ١٩٤٧ - ١٩٥٢ ، مجرد مجموعة علاقات روتينية مع حكومات دول المنطقة . وتجسد جل عمل رؤساء بعثاتنا في تسليم الرسائل التقليدية حول قلق حكومتنا من الاوضاع السائدة . كما كانوا يبذلون قصارى جهدهم لاقتناع وزارات الخارجية في دول المنطقة أن الحكومة الامريكية ليست واقعة تحت تأثير الضغط الصهيوني . واقتصر نشاط الدبلوماسية السرية الامريكية على تقديم بعض المساعدات - كما

يفعل البريطانيون والفرنسيون والروس - الى من تختارهم من المرشحين في كل من سوريا ولبنان والعراق ومصر . وكانت وجهة نظرنا يومها ملخصة بعبارة : « دعنا ننتظر حتى يتبين لنا ما يجب أن نفعله » . وفي « لعبة الامم » كنا أشبه بلعبة البوكر الذي انضم حديثا الى طاولة اللعب التي يحيط بها وجوه لم يأنفها ، فجلس ينتظر لفترة دون أن يجازف بأكثر من مبلغ رمزي بسيط عسى أن يتعرف الى تلك الوجوه فتزول الحيرة والغربة وتنتفتح الآفاق الواسعة أمامه .

الا اننا لم نلتزم بهذه القواعد في سوريا . لقد جئنا الى طاولة اللعب وبدأنا نخوض المغامرات قبل أن نألف الوجوه التي حولنا ونألفنا . وكانت العملية الثانية التي قمنا بتنفيذها في سوريا غريبة عن القواعد السابقة الذكر وجديرة بدراسة خاصة ، ذلك لسببين :

(١) لقد أضحت هذه العملية فيما بعد شغلنا الشاغل ، ومثالا يحتذى في كل الحالات التي ننوي أن نفعل فيها ما نريد دون أن نظهر بمظهر المتدخل بالشؤون الداخلية للدول المستقلة . ولقد أكسبتنا هذه العملية خبرة فائقة في هذا المضمار ، وجنبتنا أخطاء فادحة في تنفيذ مثيلاتها .

(٢) كما أن هذه العملية قد ألقت ضوءا ساطعا على مدى أهمية اختيار الافراد المنفذين (أو عدم أهمية الاختيار) بالمقارنة مع صعوبة إنجاز العملية أو سهولة ذلك .

وفي تلك الايام ، كان الاعتقاد السائد عند كبار موظفي وزارة الخارجية أن الفراغ الذي حدث نتيجة الانسحاب البريطاني من المنطقة ، بالإضافة الى موقعنا المؤيد للصهيونية في فلسطين (والذي لا مفر منه) ، قد حصر أهدافنا هناك ضمن حدود « بذل قصارى جهدنا لتقليل الخسارة وتخفيف حدة الفشل » (١) . وبالتالي فقد كانت التعليمات الصادرة من واشنطن الى مختلف البعثات الدبلوماسية غامضة (غموض ردود الكاهن اوراكن في دلفي على أسئلة الاغريقين حول المغيبات) ، وذلك بقصد ترك الحرية لرؤساء البعثات لتفسيرها كما يشاؤون ويرغبون ، متحملين نتائج أخطائهم لوحدهم . في حين كان يقع

(١) يعني المؤلف أن النجاح الكلي أصبح عسيرا ان لم يكن مستحيلا .

المسؤولون السياسيون خلف الجدران في واشنطن منتظرين نجاح عمل من الاعمال (دونما قصد أو تصميم) حتى ينسبوه لانفسهم . وهكذا تغدو اصالة المسؤولين الموجودين في الميدان لوحدهم ودعاؤهم وجرأتهم أمورا فائقة الاهمية في مثل هذه الظروف .

كان رئيس بعثتنا في دمشق رجلا برتبة وزير مفوض اسمه جيمس ميكائيل كييلي . وقد انتدب لهذا المنصب لكونه رجلا يعتمد عليه في الملمات ، وكان يتصف بحيوية فائقة ويتمتع بقدرة عجيبة على اتخاذ القرارات دون الحاجة للرجوع الى المراجع العليا في واشنطن للوقوف منها على التفاصيل والجزئيات . وأما المسؤول السياسي في البعثة فقد كان الشاب دين هنتون الذي لم يتجاوز الرابعة والعشرين من عمره بعد . وكان على جانب كبير من الاصاله الفريدة والفراسة النادرة وهو يشابه بهذا رئيسه جيم كييلي . رأما رجل التنفيذ في السفارة فكان المجر ستيفن ميد الذي سيشتهر باسم « الكولوتيل ميد » في الفصول التالية . أما المسؤول عن الدبلوماسية السرية (دبلوماسية ما وراء الكواليس) في البعثة الامريكية في دمشق فقد كنت أنا - مؤلف هذا الكتاب .

وصلت دمشق في أيلول (سبتمبر) عام ١٩٤٧ حاملا تعليمات تقضي أن أحقق اتصالا غير رسمي مع الرئيس القوتلي وغيره من الزعماء الرئيسيين في الحكومة السورية . وكان عليّ أن أبذل قصارى جهدي حتى أفلح في اقناعهم بمنح المزيد من الحريات السياسية - ومن تلقاء أنفسهم - حتى يغدو النظام السياسي في البلاد أكثر تحرا وتقدما . وكان القسم الاول من مهمتي بسيرا . فقد أفلحت في اقامة علاقات شخصية مع الرئيس القوتلي ومع أصحاب الشأن حوله من الذين لا مفر من اقناعهم بالفكرة حتى يساعدوا في تنفيذها . الا أنسي سرعان ما اقتنعت أنني :

« كناطع صخرة يوما ليوهنتها فلم يهنتها وأوهن قرنه الوعل »

وعندما وصل كييلي الى دمشق ليتسلم مهام منصبه (وكان ذلك بعد وصولي بسنة أشهر) رفعت له تقريرا عن نتائج جهودي أقنعه بالحقيقة المرة وهي أن الوضع يتجه نحو انفجار سياسي بداب معالمة تلوح في الافق لاصرار القوتلي وأعدائه على مواقفهم ورفضهم القيام بأية خطوات تحررية . وبعدها خاطبني كييلي قائلا : « انه لم يبق أمامنا سوى طريقين أحلاهما مر » . وكان كييلي يعني بذلك انه لا بد لتلك الاوضاع السياسية المتدهورة أن تنتهي الى

نتيجتين : فاما الى ثورة مسلحة دموية يقودها بعض الانتهازيين بدعم سري من السوفييت او الى حركة يقوم بها الجيش السوري بدعم سري منا (أي الأمريكين) بقصد الاطاحة بالنظام القائم والمحافظة على النظام والهدوء حتى يحين الوقت لقيام ثورة سلمية تتمكن من تسيير دفة الحكم واستلام مقاليد الامور .

ولم يكن اشمئزاز كييلي من النتيجة الثانية اقل من اشمئزازه من الاولى ، الا أنه قيلَ بها مرغبا حتى لا تضطر البلاد الى سلك طريق سفك الدماء وازهاق الارواح . كما أن الاطاحة بالنظام القائم على أيدي رجال الجيش سيفسح المجال أمام العناصر الصالحة في المجتمع لتتقدم الصفوف وتضطلع بأعباء الحكم بعدما منعتها نزعة العنف في نظام حكم النقوتلي من القيام بدورها الفعّال في الحكم والمجتمع .

كان انقلاب حسني الزعيم يوم ٣٠ آذار (مارس) ١٩٤٩ مسن اعدادنا وخطيطنا . فقد قام فريق العمل السياسي بإدارة الميجر ميد بانشاء علاقات صداقة منتظمة مع حسني الزعيم ، الذي كان رئيسا لأركان الجيش السوري ومن خلال هذه الصداقة أوحى الميجر ميد لحسني الزعيم بفكرة القيام بانقلاب عسكري اضطلعنا - نحن في السفارة - بمهمة وضع كامل خطته واثبات كافة التفاصيل المعقدة . الا أن تحركاتنا هذه لم تثر أكثر من شكوك عند الساسة السوريين فقد كانت كلها سرية ومتقنة الوضع والتخطيط . وأثارت هذه الشكوك - فيما بعد - فضول رجال الصحافة الغربيين وفئات من الطلبة فقاموا بإجراء مقابلات مع من كان لهم ضلع في العملية كما قاموا بفحص الوثائق التي لها صلة بالموضوع . وكانت نتيجة ذلك أن اعترفوا بصحة شكوك الساسة السوريين ودقتها . بيد أن الانقلاب حافظ على صبغة سورية محضة أمام أنظار العالم الخارجي الى أن بدأت الروائح تفوح منه وأخذت اللسان تتناقل ، ان حسني الزعيم ليس أكثر من مجرد صبي من صبيان الامريكان ،

ومع أنه لا يهمننا هنا استعراض تفاصيل الانقلاب ، الا أنه من الاهمية بمكان سرد بعض الملاحظات العامة التي لها علاقة به ، ومنها :

١ - أخبرت وزارة الخارجية الامريكية بنية القيام بالانقلاب وأنه قد أوشك ان يقع . الا أنها استغنت عن طلب تفاصيل أخرى ولم تر ضرورة التدخل

بها ، بل تركتها لنا نقدبرها في دمشق • وكان السياق العام لرسائلها كما يلي :
• لا نرى داعيا لتثبيط همة حسني الزعيم وثنيه عن القيام بالانقلاب طالما أنه لا يزال مصمما على إعادة الحكم البرلماني الى البلاد متى ما سمحت الظروف بذلك •
• الا أن حسني الزعيم كان قد أكد مرارا وتكرارا أنه لا ينبغي العودة بالبلاد الى الحكم البرلماني بل انه عازم على : (١) الزج بالسياسيين الفاسدين في السجون ، (٢) إعادة تنظيم جهاز الحكومة على أسس أكثر فاعلية ، (٣) اجراء الإصلاحات الضرورية في مجال الاقتصاد والحياة الاجتماعية ، (٤) اتخاذ بعض الإجراءات الايجابية ، • إنهاء النزاع العربي الاسرائيلي • وكانت هذه الفكرة الأخيرة بمثابة المخدر الذي ثنى وزارة الخارجية الامريكية عن عزمها على طلب إلغاء فكرة تنفيذ الانقلاب العسكري •

ويحسن بنا أن نشير هنا الى وجهة نظر وزيرنا المفوض السيد كييلي • كان كييلي من الذين لا يؤمنون بغیر الوسائل الديمقراطية - مثل الانتخابات الحرة وحرية الصحافة وغيرها من الحريات - كما أنه كان لا يشاطر السوريين آراءهم السيئة بأنفسهم • فقد كان السوريون يعتقدون بعدم جدارتهم للاضطلاع بمسؤولية أعمالهم وأن كل ما يقومون به داخل بلادهم من تصرفات شريفة أو دنيسة ، ذكية أو غبية ، يسارية أو يمينية ، إنما يقومون به بناء على ما تمليه عليهم القوى الأجنبية • ولكنه مع كل هذا فقد أصر على اعتقاده أن الوضع قبل الانقلاب قد وصل الى حالة من التدهور والفوضى لم يبق معها أي احترام لقانون أو خضوع لنظام وأن إعادة الأمور الى نصابها ضرورة لا بد منها وبأي ثمن كان • الا أن كييلي قداخطأ عندما ظن أن سلطتنا على حسني الزعيم ستبقى قوية الى الحد الذي ستلزمه بإعادة الحياة الديمقراطية الى البلاد عند أول فرصة ممكنة • وظن أن ذلك أمر يسير لما تتمتع به من قوة اقناع ، أو عن طريق الاستعانة عليه ببعض المساعدات العسكرية التي تخفف من حدة تصلبه • وكان كييلي يكن حب خاصا للسوريين ويرى فيهم ميلا فطريا للحياة الديمقراطية • الا أن الأحداث قد أوجدت عندهم عقدا نفسية وهواجس حيال تسلط الاجنبي عليهم • ورأى أن قيام حكم ديكتاتوري لمدة قصيرة سوف يحررهم من النفوذ الاجنبي كما يحررهم من هواجسهم واوهامهم عنه • وسيساعدهم على اقامة نظام ديمقراطي مستقل جديد دون الاعتماد على أحد أو الاستعانة بانسان •

لقد عبر كييلي عن انطباعاته عندما تكلم بلسان رئيس البعثة في دمشق وقال : « ان معظم السفراء والوزراء المفوضين الذين خدموا في العالم العربي سيشاركونني نفس الرأي وسيقولون لي بصراحة تامة انهم ما كانوا ليقفوا غير الموقف الذي وقفته في دمشق بنفسي لو وجدوا أنفسهم في نفس الظروف التي كنت فيها » . وكذلك فقد عبر دين هنتون عن شعوره عندما تكلم بصفتة ممثلا للشباب المؤمن بالمثل والمبادئ والمتخبط في السلك الخارجي وقال انه لا يزال يعتقد بإمكانية قيام حكومة صالحة في سوريا . وقد طُلب هنتون أن يكون اعتراضه هذا تحريريا وأصر على معارضته لاتباع وسائل غير متالية مع بقائه مخلصا لقيادة كييلي . لقد كان هنتون حديث السن غضا ذا عاطفة مفرطة . الا أن معارضته لكييلي وميد والبقية الباقية من مسؤولي البعثة الدبلوماسية في دمشق بخصوص قضية حسني الزعيم بلغت حدا اضطر معه الميجر ميد أن يطلب من كييلي عزل هنتون عن الاجتماعات المتعلقة بالانقلاب وعدم اعلامه بتطورات حتى اللحظات الاخيرة . وهذا ما جرى حقا . فان هنتون لم يعلم بالانقلاب الا يوم وقوعه . ولقد طلب هنتون ثانية تسجيل اعتراضاته على هذه المخططات تحريريا عندما كنا في جولة استطلاعية في احياء دمشق صباح يوم الانقلاب . ومن بسلة ما قاله هنتون : « انني اعتبر مشاركتكم في عمليه كهذه - عملية حسني الزعيم - من أشد الامور غباء وسوءا تركبها بعثة دبلوماسية مثل بعثتنا . لقد ندانا سلسلة من هذه الانقلابات العسكرية التي لن تنتهي ابدا » . وما لبث أن سجل اعتراضاته في تقرير أرسله الى وزارة الخارجية بالبريد البطيء حيث يقبع الان في قسم الارشيف الذي تتكدس فوقه طبقات كثيفة من الغبار . ومهما كان ، فان ما تنبأ به هنتون قد حدث فعلا .

ظن بعض اعضاء البعثة في دمشق أن الباب قد فتح على مصراعيه امام « السلم والتقدم » نتيجة نجاح انقلاب الزعيم . لقد كان حسني الزعيم رجلا لينا سهل الانقياد قبل الانقلاب ولم يخطر ببالنا أن هذه الصفات الشخصية قد تتغير بعد تغير الاحوال والازمان . وحتى تاريخ صدور الاعتراف الرسمي الامريكي بنظام الحكم الجديد في سوريا لم يبدُ أي تغير يذكر على طبيعة سلوك حسني الزعيم . وفي اليوم الثاني للانقلاب ، أمضى الميجر ميد ساعات طويلة مع حسني الزعيم وهو يحدد له أسماء أولئك الذين يجدر أن يكونوا في مناصب دبلوماسية

من يجدر به ان يكون سفيرا بكفي قاعة سان جيبس ن (البلاط البريطاني) وما هي وجبات الطعام التي يجب أن تقدم الى الرئيس القوتلي في سجنه حتى لا تلهب القرحة في معدته . وما ان اذيع الاعتراف الامريكي بنظام الحكم الجديد حتى بدا حسني الزعيم وكأنه رجل جديد لا يمت الى الماضي بصلة . فقد ابلفني الميجر ميد في أحد الايام فجاء ان علينا ان نمثل له قيانا كلما دخل القاعة ، وانه من الضروري تبديل كلمة « أنت » بكلمة « انتم » في سياق خطابنا له (وكان يتكلم الفرنسية) بل ويستحسن استبدالها بكلمة « صاحب الفخامة » . وباستثناء هذه الامور الثانوية فلقد بقيت علاقاتنا معه ودية لآخر أيامه . الا أنه بدأ يتضح لنا اننا قد اغفلنا أمرا ضروريا جدا عند رسم خططنا ، وأن الوقت قد حان لبدء البحث عن رجل آخر يحل محل حسني الزعيم الذي لا محالة قد اقترب من نهايته .

لقد اكدت حادثة حسني الزعيم لكل من اهتم بدراستها أن عمالة أي حاكم لدولة عظمى - حتى ولو كانت من أقوى دول العالم - لا تكفي لضمان بقائه في الحكم واستمراره في السلطة . وليس هناك أي سحر أو فن في تقرير هذه الحقيقة ، فما كانت ميكانيكية قيادته لتنطوي على أية براءة أو حسن صنعة مع اصراره على طريقته وتشبثه بها . فلم تتح له فرصة ليلم بالنظرية الحديثة لفن القيادة كما أنه لم يقتنع أن مهمة الحاكم الرئيسية هي أن يضع رؤوسيه في ظروف لا يجدون فيها مهربا من تأييده واتباع توجيهاته . لقد امضى حسني الزعيم فترة طويلة من حياته في ظل ظروف عسكرية مشابهة للظروف التي تمر بها البلاد يومها ولهذا فقد اعتاد على حياة تنفيذ الاوامر دون اعتراض . لقد عامل رؤوسيه وحتى أتباعه من كبار الضباط الذين كانوا الدعامة الرئيسية لحكمه بنفس الطريقة العسكرية التي تشأ بها . وما لبثت بعد شهور أن بانث الحقيقة المؤلمة وهي أن حسني الزعيم أصبح لا يمثل أكثر من نفسه سواء في علاقاته مع مناصريه من الامريكيين أو في طبيعة معاملته للشعب السوري .

وفي صبيحة الرابع عشر من شهر آب (أغسطس) ١٩٤٩ قامت مجموعة من اصدقائه الضباط ، بقيادة سامي الحناوي اسما وأديب الشيشكلي فعلا ، بمحاصرة بيته وقتله ثم دفنه في المقبرة الفرنسية . ولقد أخبرني الشيشكلي بعدها أنه كان لبقا معنا ، اذ عامل حسني الزعيم على أساس أنه عميل فرنسي

وليس عميلا أمريكيا . وبعد أربعة اشهر تماما قام الشيشكلي بدوره باعتقال سامي الحناوي وبدأ بإدارة البلاد من خلال واجهات مدنية ممتدة حتى تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥١ عندما ظهر على أنه رجل سوريا القوي . وبقي الشيشكلي في سدة الحكم حتى شباط (فبراير) ١٩٥٤ حيث غادر البلاد هربا من وجه أحد الانقلابات العسكرية العديدة التي تعاقبت على سوريا منذ ذلك الوقت حتى اضحى من الصعب على المرء أن يبقى متابعا للاحداث ويعرف من يمسك بيده مقاليد الامور ، فهما كانت معرفته بالسوريين قوية وخبرته بهم واسعة .

ومع أننا لم نتعظ من تجربة حسني الزعيم حق الموعظة الا أن نقاطا هامة قد استخلصناها من تلك المغامرة ومنها :

● أولا : لم تكن القضية مجرد تغيير شكلي في الحكومة ، وإنما كانت تهدف الى تثبيت هذا التغيير وجعله يستقر نهائيا بشكل حكمه صالحة وذات كفاءة عالية تحافظ على دفع عجلة التقدم والتطور باستمرار . انني لا أزال أذكر تلك الكلمات التي تنفخ بها أحد رؤساء حكومات الاقليات التي تعاقبت على السلطة في سوريا في السنوات الاخيرة متبججا بحضور أحد المراسلين الاجانب وقال فيها انه قد مضت تلك الايام التي كان يتحرك بها أحد الضباط ليحتل العاصمة بضممة دبابات وقيم فيها نظام حكمه . واعتقد ان ذلك الحاكم نفسه لم يبق طويلا في منصبه بعد تصريحه ذاك . فقد كانت نهايته أسوأ من نهاية من سخر منهم في تصريحه ذاك . وما زالت سوريا ليومنا هذا أكثر البلاد عرضة للهزات والانقلابات . وكما يتمنى العالم الغربي أن يرى سوريا تنعم بحكومة مستقرة مهما كان طابعها السياسي بدل أن يراها غارقة في أحوال القلق وغياهب الانقلابات . وإذا سمحت لنا الظروف لتتدخل ثانية في الشؤون السورية فانا سنقبل ذلك بنية إيجاد حكومة تحمل في طياتها طابع الاستقرار والبقاء وتملك فرصة البناء والاصلاح .

● ثانيا : ومهما كانت الحقيقة مرة ، فإن حكم « الصفوة المختارة » في سوريا (وان كان يتعارض مع ديموقراطيتنا المثالية) أمر لا خيار لنا فيه . ولن يكون هذا متيسرا هناك إلا بتسليم مقاليد الامور لمجموعة أفراد يتميزون بكفاءات

وقدورات لا يمكن توفرها لقائد فرد مهما كانت الظروف . ولم تكن سوريا بحاجة إلى زعيم يعيش في عزلة عن الشعب حتى تنجح ثورة اصيلة فيها، بل كانت دائما بحاجة الى «الصفوة المختارة» من ابنائها تليهم قاعدة أوسع لها جنود عميقة في عامة الشعب . فكم من عقيد متجرد من أبسط المبادئ والمثل قد تربع على عرش رئاسة الأركان ولم يكن جل همه سوى إصدار الأوامر للقوات المسلحة للتحرك من مكان لآخر بغية قمع التحركات ضده . لقد أمسك حسني الزعيم بمقاليده السلطة (ولم يدم حكمه أكثر من أربعة أشهر) كما يمسك رئيس عصاة بمقاليده السلطة داخل عصابته . ولقد أضاعها لنفس السبب الذي يفقد رئيس العصاة سلطته . فافراد العصاة يطيحون برئيسهم عندما يبدأ الشك يتسرب الى نفوسهم أن رئيسهم قد غدر بهم وخذلهم . ولم يستمر حكم خلفاء حسني الزعيم لمدة أطول الا لانهم كانوا أكثر مهارة في حفظ توازنهم وهم يسرون على حبل البهلوان المشدود . فقد كانوا يلتزمون الأعذار لانفسهم فيما كان يثار ضدهم من شكوك وظنون . ولم يتحرجوا أحيانا من إيفار صدور ضباطهم ضد بعضهم البعض بغية تأخير اتفاقهم ضد الذين في السلطة . ولم يتعد التقارب بين بعض السياسيين والعسكريين شكل «زواج مصلحة» الذي يمدد طمعا في مفاسد سياسية واقتصادية مشتركة بينهم . وكان السياسيون بدورهم يتظاهرون بتعاطفهم مع الامة بأسرها وباعتمادهم على تأييد الشعب لهم لاشتراكهم وإياه بمقائد سياسية واحدة (لا تمت حقيقة بأي صلة الى مفاهيم الامة ودينها وتراثها التاريخي) . وما كان ذلك الا بقصد الدعاية ليحيطوا أنفسهم بهالة من الشعبية والقدسية . وهكذا فلم يكن السياسيون في سوريا أكثر من مجرد تبّع للعسكريين . فهم يظهرون على المسرح عندما يظهر العسكريون . فلم يكن بقاؤهم في السلطة في يوم من الايام رهن قوتهم الذاتية أو تأييد الشعب لهم وانما كان لسرعة تلونهم واستمرار تذبذبهم . ومن الطبيعي أن نظاما قاسيا من هذا النوع :

(١) لا يمكنه أبدا أن يحافظ على بقائه واستمراره .

(٢) ولن يكون في صالِح تقدم البلاد وازدهارها .

(٣) وسيكون مدعاة لقيام « لعبة أمم » متسمة بطابع الفوضى والغموض .

الا انه لن يتمكن في مثل هذا الخضم من احراز أي نصر على أعدائه
اطلاقا . (وأود أن أشير الى أن كل هذا الصراخ قد جعل مباراة الاسرائيليين
بالسوريين أقل من مباراتهم بالاردنيين) . كما أن بقية اللاعبين في « لعبة
الامم » لن يشعروا بارتياح وهم يؤدون أدوارهم حول طاولة اللعبة
لاستمرار قيام احتمالية تمرد أحد اللاعبين وإن كان من الذين اعتادوا الخسارة
دائما .

● ثالثا : ان الشرط اللازم لبقاء أي حاكم (أو مجموعة حكام مثل « حكومة
الأقلية ») في السلطة في سوريا، واستمرار تقدمه في مجال البناء والاصلاح هو
أن يظهر بمظهر يستحيل القول معه أنه صنيعة لنا ، وأن يتصرف بطريقة لا
تظهر أي انسجام مع أذواقنا وميولنا . وباختصار ، فإن مساندتنا لاي زعيم
للوصول الى سدة الحكم والبقاء هناك حتى يحقق لنا بعض المصالح التي نريدها
لا بد أن ترتطم بالحقيقة القاسية وهي أنه لا بد له من توجيه بعض الاساءات لنا
حتى يتبكن من المحافظة على السلطة ويضمن استمرارها . كما أن هيكل النظام
السياسي الذي يتبع ذاك الحاكم لا بد أن يكون طبيعيا وفطريا وغير مصطنع
وبالتالي يجب أن يتضمن بعض العناصر التي تضمن عداء لمصالحنا . وهذه
نقطة رئيسية في كتابي هذا . فلقد قصدت من خلاله توضيح استراتيجيتنا في
« لعبة الامم » التي نتبعها مع غير العالم الغربي . اننا نقبل انتساب عدد من
اللاعبين ونرحب بجلوسهم معنا الى طاولة اللعب دون أن يكون سلوكهم كما نحب
ونهوئ تماما . الا اننا نعتقد أنه بإمكاننا أن نفوز عليهم بمجرد اتباع طرق
والأعيب خاصة ولكنها تختلف كل الاختلاف عن تلك التي نتبعها في « لعبة
الصراع » مع خصومنا كالسوفييت والصينيين ، أو عن تلك التي نتبعها في
« لعبة التعاون » مع أصدقائنا .

فشل في سوريا وأمل في مصر

١٩٥١ - ١٩٥٢

... ولن تكسب الحرب بالائتم وحدهم ، حتى يسود على الجمهور امرهم ...

كان لفشل تجربتنا في سوريا ، أثر كبير على العديد من تصرفاتنا . فقد آثرنا الانسحاب مؤقتا من مسرح الشرق الاوسط ، وفضلنا الانتظار ريثما يتضح لنا الطريق أكثر فأكثر . وخلال الفترة التي امتدت لغاية ١٩٥٢ كان موظفو وزارة الخارجية منهمكين في العثور على أفكار أنضج ، وطرق أفضل ، لضم أحد الحكام العرب الى طاولة اللعب . وفيما عدا قيامنا ببعض أعمال الحاسوسية المحدودة ، والتدخلات الروينية في الانتخابات البرلمانية ، فقد حافظنا على عهدنا والتزمنا بشعاراتنا طوال تلك المدة . فلم نتدخل في الشؤون الداخلية لاية أمه ذات سيادة . ولا أزال أذكر جيدا ما صرح به أحد كبار موظفي وزارة الخارجية بعد الانتخابات السورية في ١٩٤٧ وأمام مجموعة من المسؤولين الذين انتدبوا لمهام رسمية في الشرق الاوسط اذ قال : « ان أهدافنا في تلك المنطقة لا تتمدى ايجاد ظروف ملائمة تتوفر فيها حرية تقرير المصير لشعوبها من غير أن يكون لأي كان ، ضغط عليها أو تأثير ، وبقي هذا الاعتقاد سائدا رغم الأدلة المتزايدة ضده ، حيث كان يظن أن شعوب الشرق الاوسط جادة فعلا في طلبها للشيوعية أو أية عميدة سياسية أخرى ، تَنَبَّهت مراكز القوة الأخرى على حساب المصالح الأمريكية . فتعميق بذلك سير المنطقة نحو التقدم والازدهار ، والسلام والاستقرار ، التي كانت ، على أية حال ، الاهداف الحقيقية للولايات المتحدة في ذلك الجزء من العالم . وكان غالبية مسؤولي وزارة الخارجية يعتقدون أن نتيجة أية انتخابات حرة في المنطقة ، ستكون ظهور قادة مفكرين لا يتكئون في التعاون مع العالم الحر - وحتى العرب الذين هم أكثر شعوب المنطقة طيشا سياسيا وأمرهم في فوضى الحكم كان بإمكانهم ان يقرروا مصيرهم بأنفسهم إذا ما أتبع لهم ذلك من

خلال ممارسة الشعائر الديمقراطية كما تفهمها نحن في الغرب - وأزيحت عنهم الضغوط الاجنبية والتاثيرات الخارجية .

وعلى الرغم من تعلق وزير الخارجية دين اتشيسون بظاهري بالديبلوماسية التقليدية ، الا انه لم يخف شغفه بديبلوماسية ما وراء الكواليس في مجالسه الخاصة . بل ولقد دفعه اهتمامه بذلك ، لان يطلب من وكالة المخابرات المركزية ، اعارته كيرميت روزفلت لرأس - وبسرية تامة - لجنة ضمت نخبة من الاختصاصيين بالشؤون السياسية في كل من وزارة الخارجية ووزارة الدفاع . كما ضمت أيضا مستشارين من قطاع الاعمال التجارية والجامعات الامريكية . ولم يكن لأحد منهم صلة بوكالة المخابرات المركزية سوى كيرميت روزفلت نفسه . واوكلت الى هذه اللجنة مهمة دراسة شؤون العالم العربي عامة ، والنزاع العربي الاسرائيلي خاصة ، وأن تقوم بنفس الوقت ، بتحديد المشاكل والصعوبات ، وترتيبها تبعا لاهميتها لاقتراح حلول لها ، من أية طبيعة كانت ، سواء تعارضت مع مفاهيم حكومتنا وقتئذ في احترام سيادة الشعوب وعدم التدخل في شؤونها الداخلية أم لا .

وخلال شهر واحد تقريبا ، كانت لدينا عدة حلول ومخططات جاهزة للتداول والتنفيذ ولكن لم يكن أي منها يتلاءم والاعراف السلمية المتبعة يومئذ . ولا ازال أذكر أنه كان من بينها ، فكرة تحريك الشعور الديني للوقوف في وجه المد الشيوعي . ولكننا أدركنا بعد الخطوة الاولى ، أن الفكرة غير مضمونة النتائج . فأي بحث لامثال هذه الافكار والمشاعر لا يعني سوى الكشف عن سلاح ذي حدين يقف في وجه المد الشيوعي والمصالح الغربية في آن واحد ، وهذا ما دفعنا بعد سنوات الى تطويق دعوة الملك فيصل لبعث الشعور الديني .

كما كانت هناك مخططات أخرى تعرفنا من خلال دراستنا لها على ما يجوز على موافقة العرب وعلى ما يرفضون . ولكن لم تكن هناك أية محاولة لتبني حولا مثل حل حسنى الزعيم . وفي أوائل عام ١٩٥٢ أنهت لجنة الاختصاصيين وصف الحالة في الشرق الاوسط وحددت امكانيات « لعبة الامم » آخذة بعين الاعتبار خبراتنا السابقة ، وطاقاتنا الحالية ومواقف كل من أعدائنا وأصدقائنا والمحايدين . وفي مخططاتنا لم نخرج عن أهدافنا المألوفة ،

والتي كانت الاطراف الاخرى قد استحسنتها واتخذتها لنفسها اهدافا . كما
اننا لم نستطع تذليل اية عقبة من العقبات السابقة فبقيت كما هي ولكن مع فارق
كبير . فخيراتنا اليوم لم تعد كما كانت ايام انقلاب حسني الزعيم ، بالاضافة
الى توفر مواهب خلاقة لعدد من المسؤولين والمخططين ، الجديد منها والقديم .
والى جانب تزايد شعورنا بامتلاكنا قدرات كافية لفتح آفاق جديدة ، فقد بدأ
ضغط الحوادث العالمية يتراكم على كواهلنا ، محذرا ايانا من مغبة التأخير
والتسويف من القيام بعمليات جديدة تميدنا الى حلبة الصراع في الشرق
الاوسط بعدما مضى علينا سنوات ونحن خارجها .

ومع اننا قد قتلنا القضية بحثا ودرسا ، فقد كدنا نبدا من منطلقات
خاطئة ، ولكن شامت الاقدار أن لا يكون ذلك ، وكان قرارنا الاخير أن تكون في
مصر أولى خطواتنا الجديدة . وكان لهذا عدة أسباب هامة . فقد وهبت
الطبيعة مصر مكانا يجعل أي تأثير فيها لا ينحصر داخل أركانها بل يمتد
وينعكس في جميع الاقطار العربية الاخرى . ومن الوجهة التنفيذية فقد كان
اعتقادنا أن الخطة مضمونة النجاح ، لا لطبيعة الشعب ومفاهيمه السياسية
فحسب ، بل لاننا كنا نمتلك جهازا تنفيذيا ذا كفاءة عالية ودراية واسعة
بالدولة المصرية . ومن جملة افراده كيرميت روزفلت الشهير . وكانت دراستنا
للمجتمع المصري تفرض علينا مسلكتين لا ثالث لهما . اولهما : أن نستعرض
عددا من المرشحين لان يكونوا زعماء وطنيين مثاليين لبلد عربي ، وننتقي منهم
واحدا ذا مواهب خلاقة وحصافة فائقة ، يستطيع أن يظهر انه الحاكم الفعلي
ولكنه في الحقيقة ليس أكثر من واجهة لحاكم قوي . بينما نبقي نحن وراء
الكواليس . وبنفس الوقت يتم اختيار صفوة منتقاة من كبار شخصيات بلد
ذلك الحاكم لتكون طرفا في كل ما ننوي انجازه . فلها ستقدم الاقتراحات ،
ومعها ستناقش الاجراءات ، وستجري المساومات ، ولكن عليها اخيرا أن
تنصاع لترتيباتنا النهائية التي نخفيها عادة وراء مساعدات اقتصادية وعهود
نقطعها على أنفسنا بأن نتركها تسرح وتمرح في السلطة ، وتتخذ من الاجراءات
ما يحلو لها لتضمن بقاها في الحكم . ونمدها أيضا ، بأن نستبدل ضغوطنا
عليها باقتراحات تتضمن وجهات نظرنا في طريقة ادارة البلاد ، وحفظ أمنها ،
بعد استلامها مقاليد الامور .

وفي المسلك الثاني : كان علينا أن نواجه بشجاعة وحنكة حقائق ووقائع عجيبة تتعلق « بفن السلطة السياسية » . ولقد تطرق الى هذا كثير من فلاسفة علم السياسة المشهورين ، ابتداء من برتراند رسل ، وانتهاء بجيمس بونهام الذي عمل مع كيرميت روزفلت سنة ١٩٥٣ . وكانت هذه الوقائع تتلخص كما يلي :

١ - لقد كنا بحاجة الى حاكم عربي يجمع بكلتا يديه سلطات تفوق كل ما تيسر لحاكم عربي آخر من قبل ، سلطات تمكنه من اتخاذ قرارات تنفر منها الشعوب وتآبها . وكان علينا أن ننشد ضالتنا في رجل متمطش الى تسلم السلطة ، لا يدفعه الى اليها الا حب مطلق وشغف فريد بها . وقد ثار جدل في وزارة الخارجية حول هذه النقطة بالذات ، واستدل بعضهم انها كانت سبب انهيار حكم حسني الزعيم . ولكن دراسة نفسية مجردة لسلوكه اظهرت أنه لم يكن « مجنون سلطة » الى الحد المطلوب ، أو أنه عشقها لاسباب خاطئة وأغراض زائفة . فقد كان يرضى بالمظاهر الخارجية، وما كان ليقلقه أن يبقى تابعا لنا ودائرا في فلك الولايات المتحدة الامريكية ، طالما كنا نتمثل له قايما كلما دخل علينا ، ونخاطبه بلفظ « صاحب الفخامة » . وكان مبتغانا أن ندفع الى سدة الرئاسة حاكما أكثر شغفا بالسلطة . ولكن بإتزان وادراك كاملين لابعادها . ومتى تم لنا ذلك فليس لنا بعدها أي حق في التذمر والشكوى مهما كانت النتائج . وان كنا نفتعل هذا أحيانا ، لاسباب تكتيكية محضة .

٢ - وكنا بحاجة الى رجل يقاسم أتباعه انتصاراته . وقد اعتبر برتراند رسل هذه نتيجة منطقية لمقدمات مهمة ، وهي شعور الطبقة الحاكمة أنهم يؤيدون رئيسهم برغبتهم ، وأنهم يمارسون القيادة الجماعية . فانتصار أحدهم هو انتصار لهم جميعا . ولم تكن دراسة أوضاع زعيم المستقبل تقي بالغرض لوحدها . بل كان يلزم الى جانبها دراسة وافية عن أوضاع كل رجال الصف الاول (الصفوة) الذين يلونه مباشرة وكذلك الصف الثاني ، والقاعدة أو الصف الثالث . وهؤلاء كلهم سيؤلفون وحدة متفقة الاهداف بوحدة الغايات والنيات .

٣ - كان علينا الاعتراف بعدم نجاح أي حاكم في قيادة أحد الشعوب العربية ، ما لم يتمكن من توحيد هذا الشعب للوقوف صفا واحدا ضد الاخطار التي تهدده ، فاسلوب « يجب أن أعرف وجهة الفوغاء لانني أنا رئيسها » لم تعد مرغوبة منا . فللمصريين تاريخ طويل امتد قرونا عديدة تسلطت عليهم فيه قيادات أجنبية وفاسدة ولكنها كلها لم تحظ بثقتهم أبدا . وينطبق على هذا الجزء من العالم ، قول برتراند رسل « ان الخطر الذي يهدد الجميع هو السبيل الاسهل لتحقيق التجانس بين الجميع . . . » وكان قادة العرب يستغلون فكرة الخوف من اسرائيل ليبقوا شعوبهم في شبه وحدة وطنية . ولم يكن امامنا مفر من استغلال الشعارات ذاتها في مصر ، شريطة أن لا نفقد زمام الموقف فتؤدي اثاره هذا الشعور الى عواقب وخيمة . وعلى كل حال ، فاحتمال وقوع هذا الخطا ضئيل جدا لبشاعة هزيمة الجيش المصري على أيدي الاسرائيليين سنة ١٩٤٨ ، بالإضافة الى فقدان الامل في تبني أي زعيم بنجاح ، ما لم يعتمد الى هذه الشعارات فيطرحها الجماهير لتتلهى بها سنوات طويلة .

وهكذا طفقنا نبحث عن زعيم من النوع الثاني - الذي يكون الحاكم فيه مجنون سلطة - ولكن بادراك واتزان . وعند الياس ، كنا نعاود البحث عن حاكم من النوع الاول - أي زعيم الواجهة - .

ورحل كيرميت روزفلت في شباط فبراير ١٩٥٢ الى مصر ، كي يشرف على تنفيذ المخطط الاول عن كذب . وكانت بعثته اول من حاول تنظيم ثورة سلمية في مصر ، تحت قيادة الملك فاروق نفسه ، يصنّف فيها النظام القديم ويشرف على ابداله بنظام جديد ، مطوقا بذلك محاولات الثورة المتكررة ضده ، والتي كانت وكالة المخابرات المركزية على صلة بها قبل أكثر من سنتين . وكان روزفلت مفوضا بأن ينتقل الى المخطط الثاني اذا واجهته صعاب في اخراج المخطط الاول الى حيز الوجود . ولم يكن المخطط الثاني يعني سوى البحث عن زعيم من النوع الثاني وهو « مجنون السلطة » ، أو زعيم من النوع الاول (الواجهة) ، أو الاثنين معا ان أمكن ذلك .

وكيرميت روزفلت - حفيد الرئيس الراحل تيمودور روزفلت - مشهور

برباطة جاشه وشجاعته في الملمات . فهو من النوع الذي يستهوي الفلسفة الشرقيين ويتمتع بميزة فريدة ، ألا وهي القدرة على دعم كسل من الحكام التقليديين والثوريين معا . وكان مولما بالمغامرات . وقد دفعه ولعه هذا الى الالتحاق بوكالة المخابرات المركزية التي خيبت آماله فيما بعد . اذ وجد فيها كثيرا من التقييد لاحلامه . ولم يزل برئيسه الجنرال بيديل سميث حتى وافق على انتدابه الى وراة الخارجية وعمل كمبعوث خاص للوزير دالس لتنفيذ مهمات غير عادية كسلبية آجاكس التي وقعت في آب (أغسطس) ١٩٥٣ ، عندما قاد روزفلت انصار الشاه في ايران ، في مظاهرات صاخبة ضد الدكتور مصدق ، وتخلص من حكمه ، وعاد الشاه من منفاه في روما الى عرشه في طهران . وكان تنظيم الثورة السلمية في مصر ١٩٥١ - ١٩٥٢ أولى مهمات روزفلت الشهير هذا .

كان الملك فاروق معجبا بروزفلت منذ أيام الحرب العالمية الثانية عندما كان البريطانيون يضغطون عليه بالسلاح للتخلص من العناصر المؤيدة للمحور واستبدالها بوجه تختارها بريطانيا . وقد وقف روزفلت ابان تلك الازمة الى جانب الملك ، وتوقع له نظاما مستقلا ذا سيادة بعد انتهاء الحرب الثانية وسيكون الملك اول حاكم مستقل منذ الف عام . ولذلك فقد استقبل الملك فاروق المستر روزفلت استقبالا حارا عندما عاد الى القاهرة سنة ١٩٥٢ . ولكن الملك لم يكن من ذلك النوع من الرجال الذين كان روزفلت يبحث عنهم . فقد كان الملك فاقدا القدرة على تركيز أفكاره . وكم من جلسة أبدى فيها تفهما عميقا لما يدور في مملكته ، ووافق على اتخاذ بعض الاجراءات الاساسية في خطة روزفلت . ولكن كان في اليوم التالي يختفي عن الانظار مفضلا ممارسة هوايته في العريضة والجنس ، وضاربا عرض الحائط بكل ما اتفق عليه في اليوم السابق . ولا يتخرج في الاسبوع التالي من اتخاذ اجراء ينسف خطة روزفلت برمتها . وقد أمضى روزفلت في القاهرة الشهرين الاولين من سنة ١٩٥٢ مع الملك يلهوان بتنفيذ مخطط الثورة السلمية ، وذلك بان دفعا رجلي الحكم القوين : مرتضى المراغي ، وزكي عبد المتعال لخلق أزمة وزارية . بينما أوعز الملك الى البوليس السري لجمع الادلة والوثائق ضدهما ، ليثبت - حين تحين الفرصة - أنهما عميلين للمخابرات الامريكية . ثم قام الملك بتكليف

نجيب الهلالي ذو الشهرة الواسعة والسمعة الجيدة في مصر ليتولى مهام رئاسة الوزراء . ولكن الملك لم يستدعه بلباقة كافية ، مما جعل الهلالي يرفض تسلم رئاسة الوزارة ، حتى اتصل به روزفلت وأسر له أنه لم يتسلم رئاسة الوزارة ، ويقوم بتطهير جهاز الدولة من المرتشين والفاستدين ، ويكون رائدا للثورة السلمية ، فان الثورة لن تبقى سلمية أبدا . ولذلك فقد قام الهلالي بإبعاد المسؤولين عن الفساد وانفوضى في الحكومة ، استبدلهم بأخريين أكثر لصوصية ، ولكنهم من انصاره . فكانت النتيجة أن اضطر روزفلت في أيار (مايو) ١٩٥٢ أن يرفع يديه مستسلما وموافقا على إن الجيش وحده هو القادر على مواجهة الموقف المتدهور في مصر ، وعلى إقامة حكم يستطيع الغرب أن يقيم معه علاقات ود وتفاهم . وكان « كافري » أيضا يعرف مصر جيدا فهو أقدم سفير في السلك الدبلوماسي للولايات المتحدة . ولم يبق بعيدا عن مجرى الحوادث ، بل كانت له وسائله الخاصة التي تختلف كليا عن وسائل بقية أفراد السفارة . فقد اعتمد على بعض الأمريكين من أصدقائه خارج سلك السفارة ، كما اعتمد على أحسن اثنين من رجاله ، وهما : المحقق العسكري المساعد العميد دافيد ايفان والمسؤول السياسي وليام ليكلاند . أما بقية أفراد السفارة فقد كانوا يعتبرون القاهرة والاسكندرية اماكن نزهة مريحة للطبقة الارستقراطية وللسلك الدبلوماسي ولكن ليس لهما أي مستقبل سياسي بسبب تدهور الاوضاع ، الى حد اليأس . وقد اضطر كافري في أحد المرات أن يلفت نظر أفراد سفارته الى الكف عن استعمال بعض الالفاظ النابية بوصف المجتمع المصري بها . ومع أن كافري نفسه يرى أن السياسيين القدامى هم وحدهم الفئة الاليفة التي يجدر بها أن تحضر حفلات الكوكتيل الدبلوماسية . وفي خضم مثل هذه الاحداث لم يكن ليدرك مدى أهمية الدور الذي سيلعبه الجيش المصري ويعيره انتباهها كافيا الا كافري نفسه وبعض المقربين منه .

ولقد كره روزفلت الانقلابات العسكرية ، وخصوصا بعد ما شاهد بأن شيمه الفوضى التي آلت اليها الاوضاع في سوريا . ولكن كان كرهه هذا قبل اجتماعه ببعض الضباط الذين أشارت اليهم وكالة المخابرات المركزية على أنهم القادة المحتملون لتنظيم الضباط الاحرار الذين يزعمون القيام بانقلاب عسكري . وقد حصل هذا في آذار (مارس) ١٩٥٢ قبل أن يقوم عبد الناصر بانقلابه

باربعة أشهر . وعندما علم عبد الناصر بمعرفه وكالة المخابرات المركزية بعظيمه ، وافق على التقرب منها ، وأرسل بعض ضباط التنظيم من الدتبة الثانية للالتقاء بروزفلت في البداية . ولكن في الاجتماع الثالث أوفد عبد الناصر أحد أكثر ضباطه ثقة وأمانة كمبعوث شخصي له . وبومها توصل الضابط الى اتفاق رائع مع روزفلت وجدير بالاهتمام والانتباه .

وتم الاتفاق فورا على ثلاث نقاط جوهرية :

الأولى منها نصت على عدم امكانية جماهير شعب ما القيام بثورة تطيح بالنظام القائم بدافع من سوء الاحوال الاقتصادية . ولقد بذل روزفلت قصارى جهده لاقتناع وزارة الخارجية الامريكية بذلك ، داعما رأيه بشواهد من كتاب كرين برينبتون حول « تشريح الثورة » ، وأن العوامل الاقتصادية لم تشكل في يوم من الايام قوة دفع رئيسية للثورات الكبرى في التاريخ . وأن حكومة الولايات المتحدة لا يمكنها التخلص من نظام حكم قائم بمنع القمح عنه . ولقد استفاد عبد الناصر من هذا الرأي فيما بعد ، عندما هاجم الولايات المتحدة بعد سنوات من انقلابه لانها أوقفت شحن القمح لمصر واتهمها بتجويع شعبه ، وألقى على كاهلها مسؤولية تردي الاوضاع الداخلية وبرا نفسه منها .

وكانت النقطة الثانية تؤكد عدم امكانية جماهير الشعب المصري القيام بآية ثورة ضد أي نظام قائم مهما ساءت الظروف وتردت الاوضاع . وكان في مصر يومها حركتان ثوريتان ، هما : حركة الاخوان المسلمين والحزب الشيوعي المصري . وكل منهما يعتقد أن الشعب المصري بكل طبقاته المثلة في العمال والفلاحين والمهنيين والموظفين في غليان شديد . وأن تفجير الازمة يمكن أن تحدثه نداءات مناسبة للظروف التي تمر فيها الامة . ولكن عبد الناصر لم يوافق على هذا الرأي ، وكان اعتقاد مثليه في الاجتماع أنه بغض النظر عن نوع حكام القطر المصري فان احتياجات الشعب المتزايدة ستضعهم ثانية امام التحديات الاقتصادية الملحة .

ولقد قال أحد كبار مندوبيه في أحد الاجتماعات : ان الشعب المصري لا يرغب في الحصول على الكثير وأنه أمضى آلافا من السنين على كفاف العيش وباستطاعته أن يمضي ألفا آخر من السنين معتمدا على موارده الثانوية . كما

أن الشعب المصري غير مهيا لان يثور بسبب هذه الدوافع • وان ثار فانه غير راضى في عيشة جد وعمل بعدها • وسوف يبدل الضباط الاحرار قصارى جهدهم لبعث هذه المفاهيم في شعبهم ، ولكنهم لا يجدون الوقت الكافي الآن • ولذلك فالجيش المصري سيقوم بالاستيلاء على السلطة في اول فرصة مناسبة تكفل له تأييدا سياسيا من سكان المدن ومن ثم بقية أنحاء البلاد •

وكانت النقطة الاخيرة في الاتفاق تبحث طبيعة التعابير المتبادلة بين حكومة الولايات المتحدة والحكومة المصرية الجديدة • فان الجزء الذي سيكشف منها للجماهير ، يجب أن يحتوي على شعارات للاستهلاك المحلي مثل « اعادة الحياة الديمقراطية » و « اقامة حكومة نزيهة حرة » ولكن يجب أن يكون مفهوما بيننا ، وبصورة أكيدة أنه لا أصل لهذه الشعارات في حقيقة الامر • وأن الشروط اللازمة لتطبيقها غير متوفرة على الاطلاق • ولن تتوفر الا بعد سنوات عديدة وجهود مضيئة تقوم بها الحكومة الجديدة مثل :

- ١ - نشر التعليم وتعميمه •
- ٢ - التشجيع على ظهور طبقة متوسطة كبيرة ومستقرة •
- ٣ - نشر شعور عند الجماهير بأن الحكومة الجديدة هي حكومة الشعب ، منه واليه ، وليست حكومة مفروضة من قبل الفرنسيين أو البريطانيين أو طبقة الاقطاعيين والرأسماليين المصريين •
- ٤ - كل ما سيسود من المثل والمبادئ يجب أن يصبغ بالصبغة المحلية الوطنية حتى لا تكون الانظمة والمفاهيم الجديدة ، محض تقليد لمبالاتها في الولايات المتحدة أو بريطانيا • وقد تأكد لروزفلت وممثل عبد الناصر أن عامة الامريكيين من صحفيين وموظفين وأعضاء في الكونغرس ورجال الحكم وحتى وزير الخارجية بالذات لن يكفوا بسهولة عن ترديد الشعارات القديمة • وبنفس الوقت فلقد أدرك الجميع أن أية محاولة مبكرة لاعادة الحياة الديمقراطية لن تعنى سوى العودة الى الفوضى والفساد السابقين • فالانتخابات ستجرى بين مرشحين تدعمهم الولايات المتحدة وبريطانيا ضد مرشحين تدعمهم السوفييت • ومن أصل ٢٨ مليون مصري ، كان هناك حوالي ٢٤ مليوناً من الفلاحين المصريين لن يدلوأ

باصواتهم الا حسب تعليمات الاقطاعيين وتوجيهاتهم . وستلجأ الجماهير في المدن الى الاضطرابات كوسيلة وحيدة للتنفيس عن آلامها والتاثير على الوضع السياسي ، ولن يجدوا اهمهم سوى الانضواء تحت راية الاخوان المسلمين او الشيوعيين ، المُتَنَقِّسين الوحيدين في ذلك الوقت لفئات الشعب .

وكانت هناك مشاكل عديدة لم يتمكن من الوصول الى اتفاق صريح حولها . ولكنها ساعدت كثيرا في الوصول الى تفاهم مشترك حول الدواضع الاساسية وراء حركة الانقلاب المقبلة . وقد اشتملت على الامور التي يجب علينا أن نبحث عنها تحت المظاهر السطحية للاحداث . وكان بعض هذه المشاكل ذا أهمية لا بأس بها . الا أن واحدة فقط تستلقت انتباهنا فوق العادة وهي قضية فلسطين . فالجماهير العربية على اختلاف فئاتها وطبقاتها تولي فكرة استرجاع فلسطين الاولوية على سائر شؤون الحياة الاخرى بصورة لا تقبل البحث في هذا الموضوع ابتداء . وعبد الناصر نفسه مع ضباطه الذين خططوا للانقلاب كانوا يعتبرون هزيمة الجيش المصري سنة ١٩٤٨ على أيدي القوات الاسرائيلية ، هزيمة مريرة يصعب تناسيها . وأن شعور الكراهية لاسرائيل من العناصر التي لا يمكن التفاوضي عنها كمبررات لاية ثورة تقع في البلاد .

ولكن لم تمض خمس سنوات على تلك انهزيمة في فلسطين حتى كانت احاديث الشككات ، ومناقشات عبد الناصر ورفاقه مع المثات من الضباط قد انتهت الى رأي معاكس . فقد لمسوا أن حشدهم لموارد الدولة المصرية وطاقات شعبها سوف يساعدهم على الوصول الى أهداف أبعد من خدمة القضية الفلسطينية . ولكنهم لن يستفتحوا فترة حكمهم بمثل هذه الشعارات التي لن تفيد الثورة اطلاقا . وقد أخبر عبد الناصر كيرميت روزفلت صراحة أنه مع ضباطه لن ينسوا ذلك الاذلال الذي لاقوه على أيدي الاسرائيليين سنة ١٩٤٨ . الا أن نعمتهم ستتصب بالدرجة الاولى على كبار ضباط الجيش المصري ، ثم على بقية حكام العرب والبريطانيين ، وأخيرا على الاسرائيليين . ولقد توصل روزفلت الى نفس النتيجة من خلال محادثاته مع الزعماء المدنيين في مصر ومن سنهم فاروق نفسه . وكان السفير كافردي قد حصل بدوره على نتائج مشابهة . وبعد كل ذلك الاستعراض لجميع النواحي ، وصلنا الى مسألة أكسر

حساسية ودقة ، الا وهي مشكلة القومية العربية . فلم يكن لدى أي من المسؤولين المصريين يومها ، سواء من العسكريين أم من المدنيين ، أي مفهوم واضح حول « العروبة والعرب » . وكان أول المبادئ المتبعة في صناعة الانقلابات ، في أي بلد عربي ، هي أن ترفع شعارات وطنية اقليمية ، فمصر للمصريين ، وسوريا للسوريين ، والعراق للعراقيين . وكل الكلام عن الاخوة العربية وشعار « كلنا عرب » لم يكن ليتعدى الحدود العاطفية الضيقة ، ولم يكن له أي اعتبار في ميزان القوى لأي انقلاب عسكري ، ويبقى الولاء للانقلاب هو المقياس الرئيسي لنجاحه وفشله . ولقد انطبق هذا الوضع تماما على المصريين عامة ، وعبد الناصر خاصة . فعندما قام بانقلابه لم يكن يعرف الا القليل عن العرب ، بل ولم يكن يشعر أنه عربي . وكذلك لم يكن قد زار أي قطر عربي أو واجه أي شعب عربي . ولكنه أصبح زعيما عربيا بعد أن دخلت كلمة « عرب » القاموس السياسي لشعوب المنطقة . ولم تغلج معرفته المحدودة وقتئذ بالعرب في تحريك محبته لهم . ولم تساعده زيارته لبعض الدول العربية منذ سنة ١٩٥٢ على اكتساب أية خبرة جديدة في هذا المجال ، وانما اكدت له شكوكه السابقة بالعرب . فقد بقي العراقيون في نظره متوحشين ، واللبنانيون مرفشين فاسدين ، (ولم تكن بيروت في نظره أكثر من ناد ليلي مترامي الاطراف) ، والسعوديون قذرين ، واليمنيون أغبياء متخلفين ، والسوريون مخادعين لا يقدرّون المسؤولية ولا يشقون بغيرهم . ولكن عبد الناصر بالتاكيد ، ينكر الآن جميع مواقفه وآرائه تلك ، بل وعلى العكس فهو يعتقد أن في العالم حقيقة ملموسة هي « العالم العربي » (وبدأ هذا بعد عودته من مؤتمر باندونغ) . كما أنه يتمتع بشعبية لا بأس بها في أوساط السوريين واللبنانيين والليبيين والاردنيين . . . الذين سيطرت على مشاعرهم فكرة الوحدة والعروبة وتجاوزت نزاعاتهم الاقليمية بعد تخلصهم من أنظمتهم الفاسدة ، ومن الجدير بالذكر أن رفاق عبد الناصر الذين ساعدوه في الوصول الى السلطة ، ويعود لهم الفضل في بقائه فيها حتى الآن ، لا يشاطرونه رأيه ولا يسايرونه في مواقفه العربية الا ضمن حدود المصالح المصرية المحضة . وقد كانت النزاعات المصرية العربية تعكس نوعا خاصا من التصورات داخل قصور السياسة المصريين ، ساعدت على تأمين توازن مستمر بين الازمات الداخلية

والانتصارات الخارجية • على أن عبد الناصر نفسه سرعان ما يصبح أكثر تعصبا لمصريته وأقل حماسا لعروبه كلما نشبت الازمات داخل مصر • وأما في تخطيطه لاستراتيجيته السياسية فلا يتردد في وضع المصالح المصرية فوق غيرها معتبرا مصالح العرب كلهم تبعا لمصالح مصر •

ولقد أتيت على ذكر هاتين النقطتين : عدم أهمية موضوع تحرير فلسطين وعدم قيام أية علاقة بين القومية العربية ودوافع الثورة المصرية بسبب ما أنارتا من ميوه تفاهم أدى الى تمكيد صفو علاقتنا معه ، وارتكابنا أخطاء فادحة معه ومع الزعماء العرب الذين لهم نفس الاهداف والغايات •

وقد احتل موضوع عدم رضى المصريين عن وضع البريطانيين في مصر وسخطهم عليه ، جانبا مهما من الاحاديث التي دارت بين الضباط الاحرار ومندوب وكالة المخابرات المركزية كبرميت روزفلت • ولكن لم تكن النظرة ذاتها تجاه بعض الشخصيات أو التقاليد البريطانية التي كانت تستهوذ على اعجاب المصريين والضباط الاحرار • ولا أزال أذكر استهزاء عبد الناصر بيزة أمريكية أهديتها له ووصفها بأنها مدعاة للضحك • فسألته أية البزات تفضل ؟ فأجاب : البريطانية طبعاً • ومع أنهم أحبوا الأمريكيين لامتراج المساعدة مع الصداقة ، فقد حافظوا على اعجابهم بالبريطانيين وكان عدم تجاوب البريطانيين مع هذه النظرة سببا في جرح شعور المصريين وانكار خدمات البريطانيين لهم • وقد انتفج هذا عندما قام مراسل الاسيوشيتدبرس ، مستر ولتسون واين ، بمحاولة انتزاع كلمة مدح أو ثناء للبريطانيين من عبد الناصر بعد تذكيره بجهود المسؤولين البريطانيين ، أمثال اللورد كرومر ، في الإصلاح المالي ، ونظام الحكم ، ونظام المجاري ، وحماية الفلاحين من عمل السخرة • ولكن عبد الناصر أنكر فضلهم قائلا : انهم قد جعلوا منا مواطنين من الدرجة الثانية ونحن لا نزال داخل بلادنا •

ولا بد من التنويه الى نقطة مهمة بهذه المناسبة ، وهي أن عبد الناصر (وأمثاله من الحكام) كانوا في ذروة عدائهم للاجنبي (وهو هنا البريطانيون) يصبون حام غضبهم على طبقة السياسيين القدامى (الطبقة المروضة) التي لولا اتخاذها واستكانتها لما امتد نفوذ الاجنبي وتمادى داخل البلاد • وكان هذا الموقف مشابها تماما لموقف قادة الحكومة الأمريكية عندما سخطوا على القادة

العسكريين في موقعة ميناء بيرل هاربر ، بدل أن يسخطوا على اليابانيين .
فَسَخَطُ ناصر ورفاقه على طبقة السياسيين القدامى من الشعب المصري كان
متأصلا دينا . في حين كان سخطهم على البريطانيين لا يلبث أن تذهب ريحه
على أثر معاملة حسنة يلقونها من السفير البريطاني . وكان عبد الناصر (وامثاله
من الحكام) مدركا تمام الادراك لهذه العقدة النفسية . كما أدركها من قَبْلُ
السفراء البريطانيون من همفري تريفيليان الى هارولد بيلي . ولكن لسوء
الحظ لم يدركها الدبلوماسيون الامريكيون أبدا ، باستثناء واحد أو اثنين .

وعندما عاد روزفلت الى واشنطن - قبل شهرين من وقوع الانقلاب في
مصر - قدم تقريرا الى وزير الخارجية الامريكية دين اتشيسون ، تضمن النقاط
التالية :

١ - لم تعد الثورة الشعبية التي كان يسعى اليها كل من الاخوان المسلمين
والشيوعيين - وتخشاهما وزارة الخارجية الامريكية - واردة في
الحساب .

٢ - لم يعد هناك أي أمل في ابعاد الجيش عن القيام بانقلاب قريب ، وإثنائه
عن عزمه على استلام السلطة ، رغم كل التحفظات التي كان يبديها
واضعو مخططاتنا في واشنطن ، من أن تكون النتائج مشابهة لما جرى في
سوريا على أيدي العسكريين .

٣ - ان قادة الانقلاب المحتمل ، يرفعون شعارات قياسية تخالف ما اقترحه
كثير من المراقبين الدبلوماسيين ، وتجعل منهم ، وهم في السلطة ،
طرفا لنا ومرنا في أية مفاوضات نخوضها معهم ، كما أنها تزيد من
فرصتهم في النجاح .

٤ - يجب أن توافق الحكومة الامريكية على إقصاء الملك فاروق ، وربما دفن
النظام الملكي نهائيا في مصر . ولا يمنع هذا من اتباع بعض الشكليات
الدبلوماسية ، وارسال مذكرة احتجاج رقيقة تفسح المجال آمال السفير
كافري لاطهار قلعه المصطنع على سلامة الملك فاروق .

٥ - وعلى الحكومة الامريكية أن لا تفكر على الإطلاق ببذل أية محاولة بعد
وقوع الانقلاب لاقناع العسكريين باعادة الحياة الدستورية واجراءه

الانتخابات وما الى ذلك . . وعليها أن تبني علاقاتها مع العهد الجديد على أساس أن الحياة الديمقراطية ومؤسساتها يجب إعادة بنائها من جذورها ٦ - وعلى الرغم من الاجتماعات التأمرية العديدة التي مهدت للانقلاب ، فمن المستحسن أن لا يحاول أي من المسؤولين الأمريكيين أن يفكر بأن الانقلاب انقلابا ، بل إنه مجرد حدث داخلي متحرر الى حد ما من نفوذنا ، وكل ما علينا أن نقدمه من مساعدة وتأيد هو عدم وقوفنا في طريقه . وأما بشأن الحاجة الى عدد يلتقي الجميع على كراهيته والخوف منه - وفقا لمبادئ برتراند رسل - فإن هذا العدو لن يكون اسرائيل ، بل طبقة السياسيين القدماء والاقطاعيين « الطبقة المروضة » في مصر ، ثم البريطانيين سواء رضينا بهذا أم أبينا .

وقد أفاض روزفلت في حديثه عن صفات الحاكم الذي سيبرز على مسرح الأحداث عاجلا أم آجلا . وأول ما تم الاتفاق عليه في اللجنة التابعة لروزفلت هو الحاجة الى حاكم يستطيع أن يضفي على نفسه صبغة القدسية والانقاذ . ولكن الظروف السائدة في مصر وقتئذ لم تكن بحاجة لاكثر من حاكم يرفع شعارات أضيق ومفاهيم أبسط . وعلى هذا الحاكم أن يتمتع بشيء من قوة السلاطة وسحر الشخصية . ليتمكن على الأقل من السيطرة على مجموعة من الرجال تتمكن مجتمعة من ادارة دفة الامور في البلاد . وكان كل ما طلبناه متوفرا في مجموعة الضباط الاحرار . ثم ذكر روزفلت أنه : « سواء بقي الحاكم مسيطرا على زمرة صغيرة تمكنت من حكم البلاد ، أم تحول الى زعيم ذي شعبية كبيرة ، فإنه يبقى دون مقومات الزعامة كما نتصورها نحن الغربيين . وفي أسوأ الظروف ، فإن لم نحقق أي نجاح من تقاهمنا مع زعيم كهذا ، فلن نخسر شيئا ، وسيكون ذلك درسا نافعا لنا في مواجهتنا لامثاله ، سواء في مصر ، أم في بلاد عديدة أخرى ، تمر في نفس الظروف وتعاني من نفس الصعوبات » .

خليفة المستقل : ناصر في الحكم

... ونجاح مخططاتنا ومن بزيم يتخذ منها اعداء ومبادئ ...

كان كيرميت روزفلت يخشى رفض لجنة المتابعة في الكونغرس لملاوراته . فعندما عاد الى واشنطن لم يفصح امامها عن كل خفايا نشاطه في مصر ، فغدا تقريره لها مريحا غير مخيف . فلم يذكر فيه حقيقة الجهود التي بذلها مع غيره من المسؤولين الاميركيين حتى امكنهم العثور على زعيم متمتعش للسلطة ، بونا برتي الطراز ، ذي قدرة على جمع شمل شعبه حول قضية ما تتوحد فيها مخاوف الأمة وآلامها . اما تقارير روزفلت الشفوية فقد اتسمت بطابع الصراحة والوضوح . فقد اخبر المسؤولين أنه من العسير لرجل ما يتأجج فيه حب جامع للسلطة وحرص بالغ عليها أن يبقى مكتوف اليدين منتظرا أحد عملاء دبلوماسية ما وراء الكواليس الاميركيين ليلهبه حماسا ويدفعه الى تحقيق امانيه . وأوضح أيضا ان صفاته كالتى سبق ذكرها لا يمكن تطويرها وابرازها نتيجة بحث طويل واستقصاء شامل لمواهب وكفاءات بني الانسان ، وانما هي محض فطرية وشخصية . وانتهى روزفلت الى النتيجة ان لقاءاته في مصر أفهمته أن لجميع من قابل من الضباط علاقة وثيقة بضابط ما قد استوعب كليا شروط أي استيلاء على السلطة والمحافظة عليها . وأنه لا محالة مقدم على هذا . ومن خلال الملاحظات والافكار التي أرسلها روزفلت الى ذلك الضابط فقد تأكد له أن الأخير أدرك تماما مقاصدنا ومرامينا وقبول التزامنا بتسديد تكاليف تحقيقها . ونتيجة لذلك، فان قيام أي تعامل متبادل وعلاقات وطيدة لم يعد أمرا عسيرا عندما يحين الوقت المناسب .

ولم تعلم الحكومة الامريكية بوقوع الانقلاب الا من الصحف الصادرة صباح ٢٢ يوليو (تموز) ١٩٥٢ ، ولكن سبق هذا سبيل من المعلومات تدفق من خلال تقارير وكالة المخابرات المركزية ، مشيرا الى ان أحداثا ما ستقع في مصر بدون

تحديد زمانها أو تحركاتها . وأيدت الصحافة المصرية الانقلاب الأبيض بكليتها ، ووقف الشعب مع رجال الثورة بدون أي أسف أو ندم على الإطاحة بالملك الخليف . وظهر اللواء محمد نجيب وديعا أنيسا بغليونيه الجذاب كأنه الأمر الناهي ، وإن لم يكن كذلك حقيقة . كما ظهر مساعده من الضباط الشبان بقاماتهم النحيلة وأجسامهم الرياضية على أنهم آمال الشعب وأحلامه في بناء كيان الدولة المصرية الحديثة . ولم تردد الاذاعات المصرية أيا من البلاغات المثيرة أو البيانات العنيفة التي كانت ديدن الانقلابات العسكرية في سوريا ، وإنما اكتفت بتعريف الشعب عن عزمها على تطهير الحكومة من الفساد وإقامة حكم قادر فعال ، وأصلاح الأحزاب السياسية ، وغير ذلك . ولكن البلاغات كلها لم تطرق البتة الى مشكلة فلسطين أو أي ذكر لإسرائيل ولا على الأقل بكلمة واحدة .

وأما السفارة الأمريكية فلم تقف على تفاصيل الانقلاب إلا من فم علي صبري، أحد ضباط عبد الناصر الذي أصبح فيما بعد من أشد خصوم الأمريكيين . وقد وقع الانقلاب في الساعة الثالثة ليلا . وفي ساعة متأخرة من صباح ذلك اليوم أرسل عبد الناصر السيد علي صبري للاجتماع رسميا بالسفير كافري وتقديم تقرير شامل له عن وقائع وأحداث ليلة الانقلاب الى جانب تأكيد الحكومة الجديدة عن عزمها على إقامة علاقات وطيدة مع الولايات المتحدة . وتلا ذلك تأكيد علني آخر من اللواء محمد نجيب - وكان يعتبر آنذاك انقلاب - أن قضية فلسطين لا تعنيه في شيء . ولكنه سرعان ما قام بزيارة السفير كافري بعد ساعات ، طالبا سحب ذاك التصريح واستبداله بآخر « أقل » تقبلا للرأي العام في الولايات المتحدة ولكنه أكثر انسجاما مع المبادئ والامس التي لا تقفنا وعبد الناصر على أنها ضرورية وهامة لكسب الرأي العام المصري وبيل تأييده للعهد الجديد .

أما المسؤولون في واشنطن فقد غمرتهم موجة من السرور نتيجة هذا الانقلاب ، وأدركوا جميعا أنه أصبح في حوزتهم على المسرح العالمي لاعب جديد من الطراز الذي بذلوا قصارى جهدهم للعثور عليه ، وأن كل ما يسمعونه مما من الخطط سيحظى بنسبة عالية من التعاون المثمر واحتمالية ضئيلة من الخلاف والشجار .

كانت التقارير والتفسيرات الأولية تشير الى أن اللواء محمد نجيب كان رأس الثورة وعلى هذا الاساس بنت الحكومة البريطانية والامريكية علاقاتها مع العهد الجديد . ولكن سرعان ما ذاب الثلج ، وانتزع عبد الناصر زمام الامور منه ، ولم يمض بعد أكثر من عدة شهور على الانقلاب . والغريب ان كيرميت روزفلت قد اقتنع عندما أكد له عبد الناصر انه ليس هو رأس الثورة مع أن وليم ليكلاند المسؤول السياسي في السفارة الامريكية في القاهرة وبعض موظفيها قد أكدوا أن اللواء نجيب لم يكن أكثر من ستار اتخذه عبد الناصر لنفسه حتى يحين موعد ظهوره على المسرح شخصيا . وزادت العلاقات قوة بين ليكلاند والضباط الاحرار عن طريق حستين هيكل الذي كان صلة الوصل بينهم . وقد أصبح هيكل فيما بعد من أقرب المقربين لعبد الناصر في حين لم يكن آنئذ أكثر من محرر في صحيفة سياسية يملكها مصطفى أمين أحد اصدقاء عبد الناصر . وقد هيا هيكل الجو للعديد من المقابلات بين ليكلاند وقادة الضباط الاحرار بما فيهم عبد الناصر نفسه ، واعتاد ليكلاند أن يستقبلهم في شقته المطلة على النيل بترحاب واکرام زائدين .

وكانت نتيجة هذه اللقاءات أن بدأت سفارتنا في القاهرة ترسّخ علاقاتها مع عبد الناصر نفسه كرجل الدولة الحقيقي والأمر الناهي بلا منازع ، في حين بقي الشعب يصفق للواء محمد نجيب ويهتف له في الشوارع والساحات . ولكن السفير كافري لم يقطع علاقاته الرسمية باللواء نجيب وقام بزيارات تقليدية متقطعة له ناقلا بعض الرسائل الرسمية من حكومته في واشنطن التي لم تنطو على أكثر من مجاملات وتقاليد دبلوماسية . في حين كانت العلاقات الحقيقية للحكومة الامريكية مع الثورة المصرية تتم عبر الصلات الوطيدة التي نشأت بين عبد الناصر وليكلاند بفضل جهود هيكل نفسه الذي أضحي ذا دور رئيسي فيها بعد نجاحه في البسج وجهات نظر كل من عبد الناصر والسفارة الامريكية حلة بهية قبل نقلها الى الطرف الآخر .

أمسك كيرميت روزفلت وأعضاء لجنته الخاصة عن الاتصال المباشر بعبد الناصر بعد الانقلاب ، وقنعوا بمراقبة تطورات الاحداث في مصر بدون الانغماس فيها . فقد تطورت الامور بهدوء تام حسب الخطة المرسومة لها . وكان الكف عن الاتصال المباشر بعبد الناصر ضروري لاستبعاد اية شبهة

لتواطئنا مع النظام الجديد . وكانت رغبة جميع المهتمين بشؤون الشرق الأوسط ترك الحرية كاملة لحكومة الانقلاب، لمعالجة مشاكل البلاد وحلها بطريقة الخاصة . ولم نعث على أي مبرر للكشف عن القوى الحقيقية وراء الانقلاب وإظهار اللواء نجيب على أنه ليس أكثر من ستار ما يليث أن يزاح . ولكن لم يكتب لهذا الوضع أن يعمر طويلا فما لبث أن تبدل في عام ١٩٥٣ بعد مجيء الرئيس ايزنهاور الى البيت الابيض وابداء رغبته في العودة الى ممارسة دورنا مباشرة فيما نزمع تخطيطه وانجازه مع نظام حكم عبد الناصر . وكان الدافع الاول لهذا هو اتقان دراستنا لدور هذا اللاعب الجديد في مسرحياتنا والتأكد من تحركاته وفق توقعاتنا . وكان الدافع الثاني ضمان حصولنا بتحركاته هذه على استراتيجية نصر عند نشوب أول نزاع مع أعدائنا . وأما ثالث الدوافع فكان الاستفادة من هذا التقارب والتفاهم لتحقيق تعاون أوسع وأعمق بيننا قدر الامكان . ومع أننا أدركنا أن مساعدتنا لعبد الناصر سوف تزيد من قوة مركزه في مسرحياتنا الدولية ولكننا لم نستبعد تحوّل دوره فيها الى خصم لنا ومنازع . وكل ما بقي لنا وقتئذ هو الأمل فقط في أن نفلح في موازنة خطر خصومته لنا بزيادة طاقتنا وتوطيد عزائمتنا على أن يكون سلوكنا هذا بخدم أهداف ومصالح كلا الطرفين معا .

وبينما كان وزير الخارجية جون فوستر دالس يحزم حقائبه غشية جولة له في الشرق الأوسط في ايار (مايو) ١٩٥٣ أبلغ كيرميت روزفلت عن رغبته في الوقوف على نيات ومطالب رجال الثورة في مصر بعدما استتبّ لهم الحكم ودانت لهم قطوفه . وانتهى الرأي الى قيام روزفلت باقتناء رجل عسكري من طراز ضباط الانقلاب وانتدابه لتلك المهمة . وكان اختيار روزفلت موفقا عندما انتزع من زوايا النسيان المستتر ستيفن ميد ، حيث كان يمضي وقته في الصين الشيوعية بمهمات كانقاذ العلماء الالمان المعتقلين هناك والتواطؤ مع قادة المشائر الكردية على الحدود السوفييتية لاغراض تجسس على الامور الحربية وبمهمات أخرى كالتى عهدت اليه سنة ١٩٤٩ في سوريا (انقلاب حسني الزعيم) وسماها وقتئذ « بالمعهد الحزين » . فروزفلت ضئيل الخبرة بشؤون الضباط في الجيوش العربية الناشئة ، في حين أن تاريخ انسان مليء بالمغامرات كستيفن ميد سيكون له انطباع حسن في نفوس « الضباط الاحرار »

في مصر . وكان روزفلت موافقا في رأيه ذلك، فلم يكذب يمضي على وصول ميد الى القاهرة (وقبل زيارة دالس) أسابيع قليلة، حتى حاز على اعجاب ضباط الثورة وملك عليهم لبثهم . كان مظهر ميد شبيها كل الشبه بمظهر الابطال في الافلام الامريكية . فهو من رجال المظليين المتواضعين الذين انضموا الى وكالة المخابرات المركزية الامريكية نتيجة خطأ في جهاز الفرز الالكتروني قضى بإرساله الى المخابرات مع احتمال نزوله بمظلة في الاراضي السوفياتية، بدلا من إرساله الى جبهة القتال . ويملك ميد قدرة هائلة على التقاط اللغات الاجنبية المعقدة بسهولة فائقة ومنها اللغة العربية . أما سلوكه فكان سلوك ضابط نموذجي في أي جيش من جيوش العالم وحتى في الجيش المصري . في حين كان تاريخ حياته المليء بالمغامرات يشكل مادة شيقة لاحاديث السهرة وولائم الليل . على أن انتداب ميد أثار حفيظة عبدالناصر الذي رأى فيه أن وزير الخارجية دالس ما يزال ينظر الى الثورة المصرية من خلال نفس المنظار الذي ينظر فيه الى الانقلابات العسكرية في دول امريكا الجنوبية . وحدث مرة أن حاول أحدهم التدليل على قيمة ميد وفعاليته بذكره إحدى مناقبه أمام عبد الناصر، وهي أن ميد هو الوحيد من العرق الابيض الذي فاز بمضوية الشرف في منظمة « الماو ماو »، فما كان من عبد الناصر الا أن طرده خارج القاعة .

أما وجهة نظر الحكومة الامريكية وراء انتداب ميد فهي تتمتع بموهبة فائقة في معرفة الناس ووزنهم وتحليل دوافعهم ونياتهم دون اقام نفسه في مناقشة ميولهم السياسية . وبالرغم من صداقته لكثير من العسكريين فسي بلدان مختلفة (بما فيها صداقته لاديب الشيشكلي رئيس الجمهورية السورية)، فانتدابه لم يثر أية شكوك بخصوص التأثير على اتجاهات الثورة المصرية ، الى جانب أنه لم يقم حقيقة بمثل هذه المحاولة مطلقا . وما لبث ميد أن سجل ملاحظات مهمة أثبت التاريخ صحتها وانطباقها ليس فقط على صفوة عبدالناصر المختارة من ضباطه الاحرار ، بل أيضا على أية صفوة عسكرية في بلدان غير غربية ، بما في ذلك فيتنام وافريقيا الغربية واليونان . وبصدد حديثه عن هذه البلدان الناشئة قال روزفلت للوزير دالس مرة : « انه يستحيل صنع ثورة بغير ثوار » وأن الجماهير (على حد زعم بيان كروزيه) لا تتور بدافع سوء أحوالها المعاشية « ولكن الثورة هي التي تولد الثورة » .

وبخصوص استقرار الثورة المصرية ، أخذ ميد يميل -بعد أسابيع من لقاءاته المتكررة مع الضباط الاحرار - الى الاعتقاد أنها لن تكون شبيهة بالانقلابات في سوريا التي كانت تفتقد ميزة الاستقرار والثبات لكثرة الثوار فيها . فالثورة المصرية من تصميم وإخراج عبد الناصر لوحده ، وأتباعه ينقادون له بسهولة ويسر . وبعد مدة لا غير بعيدة كتب ميد الى روزفلت يقول : « ان هؤلاء الفتيان يرون انفسهم كأفراد عصابة » روبن هود « المرحه وهم مسرورون بهتاف الجماهير لهم على أنهم أبطال الثورة ، ولكنني لم أجد واحدا منهم قادرا على شرح ما تريده هذه الثورة لي ، فهم لا يكثرثون للسياسة ولعل هذا من حفظنا وحظ عبد الناصر معا . انهم بحاجة الى من يدلهم الى ما عليهم التفكير به وانجازة ، ولست أرى صعوبة في اعادتهم الى ثكناتهم والاحتفاظ بهم هناك » .

ولم تخل مقابلات ميد للضباط الاحرار من فترات حرجة . فقد حاولوا أن يدفعوه بعد أيام قليلة من وصوله للقاهرة الى اقناع عبد الناصر بنصب صفه طويل من أعواد المشانق أمام قصر عابدين ، الى جانب سرادق خشبي يتسع لمئات المشاهدين ، لتنفيذ أحكام الاعدام بأعداء الثورة . الا أن عبد الناصر وضع حدا لانتشار مثل هذه الافكار الهدامة عندما طلب من رجاله أن لا يتفوهوا بهذا الموضوع ثانية . غبر ، بعضهم استمر في ترديد مثل هذه الافكار الى أن تسربت الى الرأي العام . وكان سبب ذلك وجود خليط ضخم من الافراد اتهموا بأنهم أعداء الثورة وباستغلالهم مناصبهم لأغراضهم الشخصية مما اضطر ضباط الثورة الى مراقبتهم والتضييق عليهم . ومع أن اللسن بقيت تلوك مثل هذه الافكار حتى خشي البعض من تطور الاحداث وتدهورها على غرار ما حدث في سوريا ، لكن ، ستيفن ميد ما لبث أن تحول عن مثل هذا الرأي ومال الى اعتبار مثل هذه الوقائع شيئا عاديا في المراحل الاولى التي تلي الانقلابات والثورات ، فقد شهدت فرنسا مثلها عندما دخلتها قوات ديغول الحرة بعد انسحاب الالمان منها .

واستمد ميد كثيرا من آرائه حول الضباط الاحرار من خلال أحاديثه معهم حول طريقة التحاقهم بتنظيم عبد الناصر ، وتمكن معها من تحديد أبعاد هذا التنظيم السري الواسع ، وكشف الكثير من المهود والوعود التي قطعها الافراد على أنفسهم . ومع مرور الايام وكثرة الاحاديث واللقاءات ، بدأ ميد

يوصم صورة أكثر واقعية - ولكنها أقل جاذبية للعقلية الشرقية - حول ذلك التنظيم للضباط الاحرار . فقد اتضح له أن التنظيم قد أصبح مقتصرًا على البقية الباقية من ضباط الجيش بعدما تم صرف الكثير منهم من الخدمة وتطهير صفوفه من المنتفعين الانتهازيين الذين كانوا وكأنهم خُشبٌ مسندة لهم من القادة انفسكريين اشكالهم ، وعقولهم بريئة من الشؤون العسكرية فهما واكثرانا تطبيق الجيش لانهم وأولاد الذوات، يرثون مناصب أسلافهم العسكريين . إلا أن عبد الناصر انتقى ضباطه من العناصر الجدية والفعالة الذين شغلوا مراكز حساسة في القطعات العسكرية . ولم يحدث انقلابه أية فوضى أو اضطراب، بل ساعد على ترسيخ السلطة واستتباب النظام . ولم يدع عبد الناصر انقلابه أن يحمل طابع المصيان المسلح الذي لا يهدف إلا إلى اغتصاب السلطة ، بل عمد إلى تسليم الادارات المدنية إلى ضباطه المقتنعين بأرائه السياسية والمعاهدين على تنفيذها ليتيح لهم الفرصة لاصدار أوامره وتبليغ تعاليمهم من خلال هذه المؤسسات العامة . وقد حالت رتبته الصغيرة نسبيًا دون تصدره لقيادة الثورة ، واضطراره لدفع اللواء محمد نجيب أمامه إلى الواجهة . ولكن لم يلبث أن ملك مفاتيح الامور كلها وانتزعها من يد اللواء نجيب عندما حان الوقت لذلك .

تابع ميد كافة تفاصيل الانقلاب بحذافيرها وعلم أنه لم يخل من مضاعفات ومتاعب (شرحها عبد الناصر شخصيًا للجنترال كابل الذي كان يشغل نائب رئيس وكالة المخابرات المركزية) . فقد كان أحد ضباطه المكلفين بالسيطرة على مراكز الاتصالات يحضر عرضًا سينمائيًا مع زوجته عندما وصلتته رسالة التكليف . وأوقف شرطي المرور سيارة عبد الناصر وهو في طريقه لموعد هام بسبب خلل في المصابيح الخلفية ، في حين لم يتعرف قائد إحدى قطعات الانقلاب على عبد الناصر بصفته رئيسًا للضباط الاحرار، بل وكاد يهجمه في الشارع . وتسربت أنباء حركته الانقلابية إلى الملك عن طريق والدته أحد ضباطه في سلك الامن العام ، فقد غادر الاخير منزله في ساعة متأخرة من الليل مما أثار قلق والدته عليه ، فاتصلت بالشرطة للاطمئنان عليه خشية أن يكون قد ألم به مكروه ، ولكن ما إن حانت ساعة الصفر حتى كانت الاجراس تفرع معلنة بدء الثورة . وانقلبت بعض تلك الاخطاء إلى عوامل مساعدة في

النجاح . فقد استفاد عبد الناصر من تأخر أحد ضباطه في قطع الاتصالات من الاتصال بالقطعات الصديقة في الاسكندرية وأصدر لها أوامره بالتأهب والتحرك . (ولا تزال هذه العقدة لغزا محيرا : فكيف كان سيتصل بالاسكندرية لو قطعت الاتصالات كلها كما كان مخططا لها) ؟ وانقلبت الوحدة العسكرية التي وصلت لاعتقال عبد الناصر الى وحده مؤازرة له في اللحظة التي حاول عبد الناصر اعتقال ضباط القيادة العامة الذين تداعوا لاتخاذ خطوات مضادة للانقلاب بعد ابلاغهم بأنباء التحركات العسكرية من قبل والدته الملك . فقد اتصلت بمراكز المخابرات والامن العام للهدف نفسه ، فعلمت تلك المراكز وقتئذ بالانقلاب بصورة غير مباشرة وأيدته وأخذت تبليغ عبد الناصر شيئا فشيئا عن التحركات المضادة له .

ان امر تنظيم واعداد قطعات ووحدات عسكرية داخل جيش كبير للقيام بانقلاب عسكري ليس سهلا ويسيرا وخصوصا في التاريخ الحديث . وعبر عبد الناصر عن هذا الرأي خلال لقائه مع الجنرال كابل كما حدثه أيضا عن خطوات الاعداد التي مهدت لقيام الانقلاب ونجاحه . وكان يرى أن الفعالية التامة في العمليات العسكرية لا تكمن دائما في السرية المطلقة ، ولكنه مع كل هذا تبني السرية التامة في التخطيط والاعداد بغض النظر عن عواقبها . واعتقد أنها كفيلة باحراز النجاح اذا ما قورنت باختيار الوقت المناسب ، وترك الشكليات والتفاصيل لانظمة الجيش الروتينية . أما بعض الاخطاء القاتلة التي لا بد منها فان سرعة الاندفاع في تنفيذ الخطة ، وعنفة صدمة المفاجأة عند تحرك الوحدات كفيلا بتلافيتها والقضاء عليها .

وقام ستيفن ميد بجمع شتات أحاديث تلك اللقاءات وما فيها من أفكار مبثورة وبتلويينها وإرسالها لواشنطن بشكل مذكرة قيمة للاستعانة بها كدراسة علمية لانقلابات آتية ، وكان منها ما يلي :

١ - ان قوة أي جيش (دون استثناء جيوش الدول غير الغربية التي لها اهداف غير عسكرية سكم) تعتمد على توفر فرجال اداريين من طراز رفيع على رأس قيادته ، مدركين كل الادراك حقيقة دورهم في اصدار الاوامر وتنفيذها ، وحقيقة كونهم جزءا لا يتجزأ من قيادته وتركيبه العام . ويمود

سبب انتصار عبد الناصر الى ادراكه هذه الحقيقة وسيطرة رجاله الاداريين
الأكفاء على وحدات الجيش وقطعاته . وسواء اكان عبد الناصر واصحابه الاوائل
ثوارا بحق أم لا ، فان بقية أتباعه من الضباط ليسوا كذلك . وكان أتباع
عبد الناصر للأساليب العسكرية في التحضير للانقلاب وفي انجازه ، ضامنا
لفوزه ، لسهولتها المأمونة في اصدار الاوامر وتنفيذها .

٢ - وينبغي أن يكون زعيم الانقلاب من نفس الطبقة الاجتماعية المؤيدة
له ، أو أن يكون قادرا على التظاهر بهذا حتى يتحقق نوع من التقارب والانسجام
بينه وبين أتباعه ليشباركوه انتصاراته ويشاطروه مشاعره . وهذا ما حدث
فعلا : فالانقلاب انقلاب الجميع من الضباط الاحرار وعبد الناصر ، وعبد
الناصر - برأيهم - لم يكن أكثر من منسق لعلاقاتهم ومنظم لتحركاتهم . وخيم
نفس الشعور على علاقات الفئة الاولى من الضباط الاحرار مع الفئة الثانية ،
وكذلك بين الاخيرة والفئة التي تتلوها ، وهكذا دواليك . وكانت هذه طريقة
فنية مكنت عبد الناصر من ضبط أمور الدولة وكسب تأييد ذاك الجزء المهم
سياسيا من جماهير الشعب المصري (والذي لا يتجاوز ١٠٪) وبذلك سلك
أحدث الطرق في ادارة أضخم المؤسسات الصناعية ومراقبة الاوضاع فيها .

٣ - وسيستبدل العديد من أفراد الادارة في النظام القديم بغيرهم بنية
اقامة نظام ادارة العهد الجديد على أساس من الانضباط والنظام الدقيقين ،
وليس على أساس الولاء للأشخاص ، ويتوقع أن يتم ذلك حال استكمال قادة
الانقلاب سيطرتهم على أركان الدولة . ولم يكن ولاء أنصار ضباط عبد الناصر
له مباشرة ، وانما كان ذلك من خلال ولائهم لاحد اولئك الضباط الاحرار
فكانوا يعرفون « برجال زكريا » أو « رجال البغدادي » . وكان على عبد
الناصر أن يتخلص من هذه الظاهرة الخطيرة دون اقضاء اعوانه الرئيسيين
الذين كان لبعضهم دور رئيسي في نجاح انقلابه ، ولكنهم اضحوا عالة عليه
بعثند (وهذه ظاهرة مشتركة بين جميع قادة الثورات) ، واضطروا ذلك الى
تعيينهم في مناصب شكلية . وقام باسناد المناصب الرئيسية الى ضباطه
الموهوبين والموثوقين حتى يشغل عليهم كامل اوقاتهم . في حين قام بنقل من
يدين لهم بالولاء الشخصي الى مراكز أخرى . وأدرك ستيفن ميسد أن هذه
الظاهرة التخطيطية التي بدت من عبد الناصر يجب اعتبارها مبدأ اساسيا

يحتفى به، لتثبيت دعائم حكم قادة الانقلابات العسكرية عامة (وهذا ما أخفق حسني الزعيم في سوريا في تنفيذه بناء على اقتراح ستيفن ميد نفسه) .

٤ - وكان اعتقاد عبد الناصر أن الاعتماد على الجيش ، حتى يقف النظام الجديد على قدميه ، أمر لا بد منه في كافة أرجاء البلاد ، كما أن استرضاء كافة السياسيين المتطرفين ، والمفكرين السوريين والمزمتين من كافة الأحزاب والهيئات لظهور تأييدهم للثورة واعرابهم عن أنها أمل الجماهير لتحقيق الإصلاح والازدهار ، أمر لا يقل أهمية عن السابق . وفي حال منح هؤلاء الافراد أي قسط من الحريات فلن يكون هذا سوى هدف لتشكيل واجهة منهم للرأي العام مهمتها تهدئة هياج الجماهير ، وتبرير كافة تصرفات الحكومة وقراراتها (وعلى أساس اقتصار مهمتهم على هذه الشكليات رفض عبد الناصر اقتراح قبولهم أعضاء مؤسسين في مجلس الثورة) . واتفقت آراء جميع ضباط الثورة من رؤساء ومؤسسين على أن من مهام عبد الناصر تحويل الجيش الى مؤسسة ذات نظام دقيق وانضباط رفيع (كالتي كانوا يحلمون بها قبل التحاقهم به) . كما اتفقوا على الوقوف ضد أصحاب الفكر والاضطرابات العامة وإباحة المحرمات وتفرنج المجتمع والتحلل الجنسي وغيرها من مفاسد حكم الملك فاروق التي تهدد نظامهم المدلل . أما قيام المظاهرات فقد خشي منه بعض أتباع عبد الناصر، واعتبروه ظاهرة خطيرة لتحريك المشاعر وتهيجها ، وبالتالي فتح الطريق امام الهيئات السرية للاستيلاء على الحكم في البلاد . ومع أن عبد الناصر وقف ضد هذه الفكرة في البداية ولكنه حقيقة لم يشذ عن هذا المنحى من التفكير اطلاقاً .

وفي الوقت الذي اعتبر ميد أن الانقلاب في سوريا في ١٩٤٩ كان قطعة فنية نادرة من ناحية تنفيذه بدقة متناهية ، فإن حسني الزعيم مع الأسف لم يعثر بعد نجاحه على خطأ الا واستهواه ارتكابه . ولكن الامر في مصر كان عكس هذا . فلقد نجح انقلاب كان من المفروض أن يفشل لو نفذ في أي بلد آخر لاختفاء عديدة . اما بعد نجاحه فان عبد الناصر التزم بالمبادئ السالفة الذكر ، وأفلح في توحيد البلاد وإقامة حكومة انصفت «بالمناعة ضد الانقلابات» فقد كان عبد الناصر يعتقد أن تقوية مركزه ، وتوطيد سلطته شخصه ، يجب اعطاؤهما الأولوية وتقديمهما على أي هدف آخر . وبسلوكه هذا المسلك ، تمكن

من اتخاذ اجراءات اقلقت يومها المراقبين الغربيين . فدفع عبد الناصر بالعلاقات المصرية - السودانية الى الحضيض مثال لا ينسى على خطته هذه . فقد انتهز بعد ذلك فرصة تردّيها للانقضاض على أحد ضباطه (صلاح سالم) ، وقام بتحميله تبعاتها ، وتوجيه اتهامات مدمرة لسلطانه ونفوذه ، الذي شعر عبد الناصر بتزايد الى حد المنافسة الخطيرة له . وأما ستيفن ميد فقد أدرك سلوك عبد الناصر هذا ، ونوّه اليه في أحد تقاريره لواشنطن ، واعتبره أساسيًا جدا لبقاء واستمرار أي زعيم انقلاب ناجح ، وعلى الأمريكيين أن لا يقلقوا البتة حيال تصرفات كهذه .

ولكن القلق بقي ينتاب المسؤولين عن وضع خططنا في واشنطن بخصوص أفكار عبد الناصر حول « الصفوة المختارة والمؤهلة للحكم فطريا » . وكانت مثل هذه الافكار تصلهم عن طريق هيكل - ليكلاند (بدل طريق ستيفن ميد) ، وتدعي الحق لهذه « الصفوة » في التمتع بنفوذ واسع وامتيازات لا حصر لها ، لكفاءتها العالية ، ولنظرة الشعب اليها على انها « منه واليه » ، فلا يمكنها بعدئذ ولا يثور ضدها . ولم تكن تطلعات عبد الناصر هذه الى « الصفوة المختارة » في بلده الا على غرار وجود مثلها في كل البلدان المزدهرة والمجتمعات المستقرة ، كما كان يشك بقدرة شعبه على اختيار ممثليه للحكم وتقييم كفاءتهم . وعودة النظام الحر بدون أي قيد او شرط لا تعني (في نظره) سوى عودة تلك الشرذمة من السياسيين الانتهازيين للحكم ثانية ، التي صبر عبد الناصر عليها كثيرا قبل قيامه بانقلابه العسكري . وتعرّز اعتقاده يوما بضرورة عزلها مهما كانت الامور ، واحلال « الصفوة المختارة » من العسكريين مكانها ، ولكن مع ضرورة ابعاد الجيش عن الشؤون السياسية للدولة . الا ان النمو المطرد لهذه الفكرة كان مصدر قلق لنا ، فهي لن تقلل من فرصة مشاركته لنا كلاعب في « لعبة الامم » (ان لم يكن العكس) ، ولكنها تضعنا في مواقف حرجية امام الراي العام الامريكي ، بعد أن اتهمت حكومة الرئيس ايزنهاور بأنها تفسيره الديكتاتوريات العسكرية اليمينية ، واضطرونا يوما للرد على أن نساھلنا معها مؤقتا ريثما يستتب النظام والهدوء في اقطارها ، وأنا لا نفعل هذا الا نتيجة اقتناعنا بعزمها على اعادة النظام البرلماني . الا أن تصميم تلك الديكتاتوريات العسكرية الفاشيستية على البقاء ، وتوطيد العزم على ذلك ، كان بمثابة عقبة في

وجه تحركاتنا تعميق مرونة مناراتنا في رسم مخططاتنا . وأما تردد عبد
الناصر في اتخاذ موقف نهائي من شكل التركيب الاجتماعي المقترح لمصر فكان
مصدر ازعاج لنا وخصوصا أنه طلب وقتا أطول للتفكير به ، كما أنه أراد منح
الشعب المصري نفسه فرصة لمناقشته والاعراب عن رأيه فيه . وبعبارة أخرى،
فقد أراد تطوير مكة التفكير عند المصريين في بناء أهدافهم وتحديد مطالبهم
إيجابيا ، ورأى أن منح الشعب حريته قبل الاوان (كما أخبر السفير كافري
بذلك مرة) لا يعني سوى ترك أطفالك في الشارع تحت رحمة الظروف ،
وتحويل البلاد الى ميدان للصراع بين المتطرفين من جهة والسياسيين الانتهازين
والمترزقة من جهة أخرى . كما أن افساح المجال أمام المواطنين للتدخل في
طريقة سيره بالدولة المصرية ، بثقافتهم المحدودة وضيق أفقهم في شؤون
الحياة ، لن يسهل له تحقيق أهدافه البعيدة المدى في مجالات السياسة العالمية .
وباختصار ، فقد كان عبد الناصر يطالب بأقصى الحريات لشخصه ، ولأطول
مدة من الزمن ، ليتمكن من تحقيق ما يأمل به، دون أن يمارس الرأي العام أي
ضغط عليه ، أو يفرض أية مراقبة على سلوكه . واقتضى هذا اللون من تفكيره
تركيبا اجتماعيا هرميا : تتمركز « الصفوة المختارة » الحاكمة في القمة ثم
تليها الفئة الثانية ، فالثالثة ، فالرابعة ، وهكذا دواليك ، على أن تبقى كلها
مترابطة متماسكة مع بعضها البعض عن طريق الوعود تارة ، والمداهنة تارة
أخرى .

وأما ستيفن ميد ، الخبير بدوام الانقلابات وبقاء زعمائها ، فلم تثر هذه
الاعتبارات أي قلق في نفسه أو ازعاج ، ولكنها فعلت عكس هذا في نفس
كيرميت روزفلت ، فعندما أرسل ميد تقريراً الى واشنطن ينوه فيه الى نية عبد
الناصر لاقامة ديكتاتورية عسكرية من وراء تعديل أركان حكمه ، بذل روزفلت
قصارى جهده لاقناع السفير كافري باستدعاء أحد الخبراء في الانظمة العسكرية
في الدول الناشئة وأحد رجال العلوم السياسية فسي وزارة الخارجية
الامريكية لدراسة الوضع في مصر عن كثب ، وكان هذا جيمس ايخلبرغر .
وكان هدف روزفلت أن تساعد دراسة ايخلبرغر للوضع في مصر في تبرير
سياسة عبدالناصر المترعرة أمام الوزير دالس، أو اقناع ناصر بتعديلها ان لم
تخط بموافقة الوزير . وكان هذا مهما لروزفلت بعد أن قدّم توصياته بمنح

مصر مساعدات اقتصادية ضخمة ، وأوشك على تقديم توصيات أخرى بامدادها بالمساعدات العسكرية .

وأما السفير كافري ، فقد طلب من جيمس ايخلبرغر، ان يعمل تحت امرته مباشرة وبمعزل عن كامل جهاز السفارة الامريكية في القاهرة . كما مهد له سبيل الاطلاع على كافة المعلومات الواردة من وزارة الخارجية في واشنطن ومن ملحقي السفارة ومن موظفي وكالة المخابرات المركزية الامريكية ، كما طلب منه أن ينهي دراسته بوضع تقديرات للحالة السائدة في مصر وتقديم اقتراحات بشأن مستقبلها . وبقي السفير كافري يوما ممسكا بزمام الامور ، مراقبا التقارير المرفوعة الى واشنطن بأكملها دون التمييز بين وجهتها (وزارة الخارجية او وكالة المخابرات المركزية او الى بعض المسؤولين فيها مثل كيرميت روزفلت) ، ومتخذاً بنفسه آخر القرارات والتوصيات .

أما جيمس ايخلبرغر ، فقد عقد محادثات طويلة مع أفراد حاشية عبد الناصر ، العسكريين منهم والمدنيين ، وكان منهم المحرر الصحفي محمد حسنين هيكل الذي قيل انه كان وراء كتاب عبد الناصر « فلسفة الثورة » . فقد برع هيكل في التمييز بين ما يجب أن يكون فلسفة حقيقية للثورة ، وبين ما يجب أن يبقى في حيز الاستهلاك المحلي لالهائ الشعب به داخل حدود البلاد . وسأقت الصدفة ايخلبرغر أخيراً للالتقاء بأستاذ هيكل الصحفي المشهور مصطفى أمين ذي الذكاء المتوقد . فقد كان مصطفى أمين من المعجبين بعبد الناصر ، الا انه أقل افتتانا به من تلميذه هيكل . كما اجتمع ايخلبرغر الى الصاغ صلاح سالم ، وزير الارشاد القومي وقتئذ ، والى كثير من أركان وزارته ومساعديه الذين اتى بهم من الجامعات واتحادات العمال وحتى من بعض الاحزاب السياسية السابقة ، ليعطوا له دراسات حول الراي العام واتجاهاته . وأخيراً التقى بعبد الناصر نفسه، وتبادلا وجهات النظر حول سلسلة طويلة من المواضيع والمشاكل ، وتمكن خلالها أن يحدد أبعاد ادراك عبد الناصر لسلور القوى السياسية التي تأتمر بأمره وأهميتها في المعركة داخل مصر . وبعد كل هذه اللقاءات والاحاديث، قدم ايخلبرغر سلسلة من التقارير شرح فيها المصاعب والعقبات التي يتوقع أن تواجهها حكومة عبد الناصر ، وحدد الحلول المقترحة لمعالجتها . ونقلت بعض هذه التقارير من الانكليزية الى العربية وإرسلت لعبد

الناصر للاطلاع عليها والعمل بها ، وكان أكثرها أهمية وأجلها شأنًا ما جاء تحت عنوان « مشاكل السلطة والحكومات الثورية » (ويجد القارىء نصه في أول الكتاب) . وبعد نقله للعربية علق عليه عدد من مساعدي عبد الناصر ونقلوه مع الإضافات الجديدة عليه إلى الانكليزية ثانية ، وأعادوه لايبليغر حتى يعيد دراسته له . وبقي هذا التقرير مدة وهو ينقل من العربية إلى الانكليزية وبالعكس حتى انتهى إلى صيغة نهائية عرفت في خارج مصر على أنها من تصميم وإخراج زكريا محي الدين ، أذكى رجال عبد الناصر وأعمقهم تفكيراً . ولأقرب ذاك التقرير بحالته تلك ، وبالظاهر من معانيه ، قبولا عند رجال النقد والتحليل في وكالة المخابرات المركزية ووزارة الخارجية وفي بعض الدوائر المختصة التابعة لبعض الحكومات الأجنبية . ومهما كانت قيمة فحواه الفلسفي (وقد استخف إيبليغر نفسه بالتقرير فيما بعد ، وأنكر علاقته به) فقد كان التقرير في حد ذاته ذا أهمية فائقة ، إذ كشف النقاب يومها عن أبعاد تصورات عبد الناصر للعلاقة بين أعمال القمع والشدة في الداخل وبين كسب تأييد الشعب والرأي العام له .

وقد أبلغ السفير كافري (وكان كاثوليكي المذهب) إيبليغر بضرورة مراقبته لمسرح الأحداث في مصر بعين الناقد المحذر . فكافري نفسه لم يظهر أي ارتياح لتأكيدات ستيفن ميد أن نظام عبد الناصر أضحى أقوى من أن يطيح به أي انقلاب آخر . وشعر كافري أن نظام عبد الناصر قد دخل مرحلة الخطر لمجرد عام على وقوعه ، إذ أن الحركات المضادة عادة تظهر بعد مرور عام واحد على الحركة السابقة ، وأن الأحداث تشير إلى توقع الخطر من ثلاثة مصادر . أولها : بعض الشخصيات التي عوّلت على النظام السياسي البائد وربطت به مصالحها . وثانيها : بعض السياسيين الانتهازيين الذين يفكرون باغتنام فرصة القلق وعدم الاستقرار . وثالثها : العناصر السياسية الهدامة والمكشوفة كالشيوعيين الذين تظاهروا بتأييد عبد الناصر ولكنهم أخفوا يتحينون الفرصة للانقضاض عليه وتحقيق آمالهم في الحكم . ومع هذا فإن أخطارا ثلاثة محدقة بالوضع الراهن يومها في مصر ستوقف أي ناقد يتعمد كشف الميوب وانتحال انتشاؤم وهي :

(١) انقلاب عسكري شبيه جدا بانقلاب عبد الناصر يقوم به المارضون

والمنشقون من أفراد حاشيته بالتعاون مع بعض ضباط الجيش والبوليس من ذوي المراكز الحساسة ، (٢) انقلاب عسكري ، ولكنه مضاد للثورة ، يعتمد على عناصر من نوعية شبيهة بعناصر الانقلاب المتوقع آنفا ومدعومة بعناصر سياسية من خارج الضباط الاحرار ، وببدها قدرة السيطرة على الشارع ، وتآليب الجماهير ضد النظام القائم . (٣) تغفل بعض القوى داخل حكومة عبد الناصر تحت ستار الصداقة ومظاهر التأييد ، ولكن بأهداف وغايات على نقيض أهداف وغايات عبد الناصر .

كانت الدلائل والمعلومات الواردة من نظام مخابرات عبد الناصر ، الى جانب المعلومات الواردة في كل من وكالة المخابرات المركزية الامريكية والمخابرات البريطانية ، تشير الى أن الخطر الاول ذو احتمالية ضئيلة . في حين كان الخطر الثالث يدفع كلا من السفير كافري وايجلبرغر الى اعتباره الخطر الوحيد الذي يجب الاحتياط له ، كما أنهما أثارا الانتباه الى الاحتمالات التالية : تحريف خبيث لبرنامج الحكومة الجديد يرتكبه أحد كبار الشخصيات الموالية لشخص عبد الناصر ولكنها تعارض آرائه وأفكاره ، أو تخريب عام لمخططات الحكم يقوم به رجل من نفس الطبقة والمستوى ، ولكن من الذين يشك في ولائهم لعبد الناصر ، أو تسلل الى جهاز الحكومة ، وتغلغل فيه ، لا للضغط عليه والتأثير على خطواته بل لاضعاف قدرته على الامساك بزمام الامور ، والسيطرة على أركان الدولة ، مما يؤدي الى قيام حركات ضده بهدف الاطاحة به .

ولم تكن نزعات ضباط عبد الناصر للشهرة ، وحجبهم للظهور ، أقل خطرا من العوامل السابقة . أما ايجلبرغر فقد أشار في أحد تقاريره المرفوعة للسفير كافري الى ما يلي :

« ان عبد الناصر نفسه غير واضح الافكار والاتجاهات . وأدركت من خلال أحاديثي مع كل من صلاح وجمال سالم وغيرهما من أعضاء مجلس الثورة أنهم يسلكون في سياستهم مسالك الانحراف والمساومات . كما أنهم فقدوا اقتناعهم بقدرتهم على السيطرة على أجهزة الدولة أو استمرارهم بسياسة القمع والشدّة . ومع أن نزواتهم لا تتعدى حب الهتاف والتصفيق لهم ، فإن الطرق

التي يسلكونها لتحقيق هذا ، سوف تثير في النهاية أزمة نفسية مستعصية في ادارة شؤون الحكم . أما اذا حاولوا أن يبسطوا سيطرتهم على الحكم من خلال ارضاء فئة حيناً ، وأخرى حيناً آخر ، فإن العاقبة ستكون وخيمة جداً . وستوضع على الرف أفكارهم ومبادئهم حول تقدم البلاد وازدهارها وستبقى الأوضاع تحت رحمة الاقدار وفي مهب الرياح . ولن يمضي وقت طويل حتى يدرك الجميع افلاسهم الفكري وفشلهم الذريع ولن يحالفهم الحظ بعد ذلك في مغامراتهم وسيجدون أنفسهم بعد فوات الاوان مضطرين الى اللجوء الى أساليب القمع والشدّة التي طالما يتندر بها عبد الناصر . وأما النتيجة الحتمية لكل هذا فهي قيام حكومة مستبدة تتسكع أمامنا بكل بشاعة وقذارة .

ولكن ايخلبرغر لم يقدّر عبد الناصر حق قدره، ولم يدرك أن الاخسير قد فهم خطورة « الشعبية الزائفة » وزيفها ، فلم يَسَحْ لها الا بعد أن رسخ دعائم سلطته ووطد أركانها . ولم يتخل عبد الناصر طوال سنين حكمه (وحتى عندما كان في أوج شعبيته) عن شعوره بضرورة الاحتفاظ – على الأقل – بالقدرة على استعمال وسائل القمع عندما تقتضي الضرورة ذلك . وفي أواخر أيار (مايو) ١٩٦٧ اعترف عبد الناصر أمام أحد الدبلوماسيين الاجانب بقدرته على حكم البلاد وادارتها بنفس الطريقة التي يحكم بها « بابا دوفاليه » جزيرة هايتي (في الكاريبي) اذا ما اضطر لذلك ، ولكنه يأمل أن لا يضطر الى سلوك تلك المسالك .

أما ظهور الانحرافات ، وازدياد المساومات ، في نظام الادارة بعد الانقلاب ، فلم يكن نتيجة شكوك عبد الناصر بأهدافه وغاياته بقدر ما كان نتيجة تردده حيال انجازها والوصول اليها . ولم يدرك مراقبو عبد الناصر يومها حقيقة أهدافه حيال شكل حكومته . فهو لم يفكر اطلاقاً في أن يطور حكومته الديكتاتورية الى أخرى برلمانية ، وانما أراد تجاوزها عن طريق الادعاء بوجودها ومن ثم ينتقل الى صيغة بونابرتية يحكم فيها بتفويض من الشعب يحصل عليه عن طريق الاستفتاء أو ما شابه ذلك . وفي بلد كمصر ، فإن تحقيق هدف كهذا يستلزم وضع مخطط معقد ، لكنه على جانب كبير من الخبث والدهاء ، حتى ليببدو للناس الساذج مضطرباً ، وغير واضح الا أنه يكون في حقيقة الامر لهي منتهى الجلاء والتركيز في مخيلة عبد الناصر وتفكيره .

وفيما يخصنا نحن الامريكيين ، فكل ما نطمح اليه لا يتعدى المنشور على لاعب ملائم وماهر ، يشاركنا الجلوس الى طاولة « لعبة الامم » ويؤدي دوره بكل انسجام وهدهد . فملي صعيد السياسة الداخلية ، لم تكن لتتدخل في قرارات عبد الناصر وتصرفاته اطلاقا ، ولم تكن تعيننا شيئا طالما انها لا تضع مخططات سياسته الخارجية موضعها يتعارض مع سياستنا الخارجية ، ويعرض مصالحنا للخطر . وليس لنا ان نوجه أي انتقاد لعبد الناصر بخصوص طريقة توطيده لدعائم سلطته الداخلية ، واتباعه اساليب بونابرتية . فقد كانت وجهة نظره حيال اصدقائه الامريكيين ترتكز دائما على قوله المشهور : « اذا كنتم تعانون وسائل للوصول الى اهدافي فلا تملكوا في اقتراح وسائل افضل . . انني - على الاقل - ساصفي الى ما ستقولون . . » ولم نفكر ابدا بامتحان اخلاصه هذا سوى لانه لم يخطر ببالنا طرقا افضل ، ووسائل أنجح ، ليسلكها بدل وسائله ، ويستخدمها لتحصيل ما يخططه لنفسه .

الطراز الناصري للحكم ووسائل القمع

... وكان بقاءه على مسرح الأحداث معنا أول أهدافه ، مهما كان الثمن .

كم طرح علي ذلك السؤال عبر السنين والايام ، ولم يتغير جوابي عليه أو يتبدل : « لنفترض جدلاً ، أن القدر أحاط عبد الناصر بظروف ما ، وأوصدت دونه جميع الابواب الا اثنين : اما بقاءه في السلطة ودمار البلاد ، أو خروجه منها ونجاة البلاد ، فأيهما يختار ؟ » ولم يكن جوابي دائماً سوى : « ليس لنا خيار في الجواب ، ففي تحليلنا لواقع أي زعيم من فئة عبد الناصر ، يشق السلطة حبا في التسلسل ، يتبين لنا أنه سيفعل كل ما في وسعه للبقاء فيها ولو أدى ذلك الى انهيار البلاد اقتصادياً ، أو دخولها حرباً خاسرة متقطعة مع عدوتها (اسرائيل) » . وإذا كان الحاكم بونا برتي الطراز ، فإن مبررات استدثاره بالسلطة ستبقى قوية على أمد الدهر ، ولن يتزحزح قيد أنملة عن اعتقاده بأن أسوأ الكوارث والنكبات لن تغلح في طي صفحة ذلك التفويض الذي منحه إياه الشعب في يوم من الايام . ولن يجراً انسان على تجريد من السلطة والاطاحة به . وهذا ما حصل تماماً أثناء الحرب العربية الاسرائيلية في عام ١٩٦٧ : فلقد كانت أسوأ كارثة عرفتتها مصر في تاريخها الطويل ، كما كانت أعظم فرصة لاعداء عبد الناصر لينقضوا فيها عليه ويطيحوا به . ولكنها مرت ، وانقضت ، وخرج منها عبد الناصر أقوى مما كان عليه في أي يوم مضى .

ولربورت ميشاز كتاب طريف حول « ظاهرة عقدة السلطة عند الزعماء » أو ما يسمى باليونابرتية . وفيه يسرد بعض خصائصها مثل « الاستمالات النفسية » التي يمر بها بعض القادة مثل عبد الناصر . فنتيجة لتمتعهم بسلطات واسعة ، يمتلكهم شعور جامع بازدياد أهميتهم وقيمة أشخاصهم ، وحاجة الجماهير الملحة لقيادتهم . وهذا يورثهم نوعاً من الشعور بالتفوق والعظمة . والحقيقة أن كل من يتربع على عرش السلطة ، يشعر بالحاج

مستمر لتجميع أقصى ما يمكنه منها في قبضة يده ، ولبسط نفوذه على أوسع رقعة من الأرض ، ولضاعفة الاسوار التي تحميه ، والنجاة بنفسه بعيدا ما استطاع عن رقابة الجماهير

ولقد كان احتكاكي بعبد الناصر على مر السنين أكثر من أي انسان غربي آخر . ومع أنني لا أزال أملك حرية زيارته ، والتحدث اليه ، حتى الآن في ظروف مريحة ينطلق فيها على سجيته مرة كل شهر أو شهرين ، الا أن الظروف لم تعد لتسمح بتكرار تلك الزيارات العابرة التي اعتلت أن أفاجئه بها حيث كنتُ نتناول معا طعام الغداء . ومع أنني كنت أزوره أحيانا لانجز مهمة لرفيق، أو تكليفا - رغم أنفي - من طبيب نفساني أو عادي أو مسؤول في وكالة المخابرات الأمريكية لأتحري لهم أية بوادر انهيار في صحته أو انحراف في تفكيره ، فإن الطابع العام لزياراتي له كان طابع صداقة ولفة . ولم أكن في يوم من الايام هاويا لادراك ما وراء الوجوه التي اعتادت أن تخفي ما يجول في خاطر أصحابها وتظهر بغير حقيقتها . وإن كان في نفس أي انسان حاجة ليعرف رأيي عن نفسية عبد الناصر وحالته الراهنة ، فلن أتردد في القول انه - بغض النظر عن سياسته معنا - لا يزال يتمتع بكامل قواه العقلية ، ولم يفقد شيئا من قوتها ومرونتها . أما بخصوص سياسته معنا ، فرأيي صريح : أن ما يعمل - عاجلا أم آجلا - بالزعماء من طراز عبد الناصر لا بد وأن يعمل بعبد الناصر نفسه . فمهما كانت قوة تحمله الشخصية لضبط التملق والمداينة ، أو الولاء الأعمى والخوف منه ، فإن الاسوار الفاصلة بينه وبين العالم الخارجي غدت أكثر من المعتاد ، فلا ينفذ منها في هذه الايام الا ما يشهد عصيته وخلوده ، ويؤكد ضرورة بقائه حاميا لامجاد الثورة والتحرر . وحتى لو كان ناصر من أكثر الناس عبرية ، وأقواهم شخصية ، وأشدهم متانة ، وأحد هم ذهنا ، فمن المستحيل عليه أن يبقى محتفظا بنفس مركزه السابق بينما يمثل أدواره في مسرحيتنا « لعبة الامم » ، أو أن يبقى دون أن تكتنفه الاشواك التي قلما تترك زعيما من نوعه بدون أن تتشابك حوله لتطويقه والقضاء عليه . وفي الوقت الذي يفترض خصومه أنه يقوم بمناقشات معتزنة محسوبة على ضوء ادراكه لما يجري على رقعة اللعب ، الا أن ادراكه هذا قد زاغ وضل حقيقة . أما كيف حصل ذلك فانه سيبقى لغزا محيرا . ان عبد الناصر لن يتمكن على الأرجح ،

بعضه اليوم ، من رؤية مفارق الطرق عند وصوله اليها : مجد شخصي ودمار للبلاد ، أم تنج عن السلطة ونجاة للبلاد .

وكان اول ما يبدأ به لضمان الحكم واستتباب السلطة هو توفير «وسائل القمع» - كما جاء في تقرير ايخلبرغر . فلو كان تصور عبد الناصر للقيادة ليس أكثر من مجرد بقاء في طليعة الفوغاء اينما حلت وارتحلت ، فان الامر ليس صعبا . وعندها تعتمد حلول القضية على تحركات وتنقلات مزخرفة أكثر مما تعتمد على دور القيادة الحقيقية . الا ان عبد الناصر قد رأى انه - ببركاتنا ورضانا - سيتمكن من البقاء في القيادة طويلا وبدون صعوبة . وكل ما كان عليه أن يفعله وقتئذ هو أن يتعرف على آمال الجماهير وأحلامها ثم يهتف بها بأعلى صوته دون منافسة أحد له . ولكن « لتكون زعيما صالحا » فان الامر أكثر مشقة وعسرا . انه عليك هنا أن تدفع الجماهير الى أن تتشوق وتطمح الى ما يفيدها ويصلح أحوالها . وعلينا أن نتذكر ، للمرة الثانية ، نقطة مهمة في مقامنا هذا وهي : ان الهدف الرئيسي من دعمنا لعبد الناصر هو رغبتنا في توفير زعيم في بلد عربي رئيسي يتمتع بنفوذ قوي على شعبه وعلى بقية العرب وله من القوة ما يمكنه أن يتخذ ما شاء من القرارات الخطيرة وغير المقبولة عند الفوغاء - مثل عقد صلح مع اسرائيل . واستنادا الى قواعدنا المدروسة وقواعد عبد الناصر ، فان استتباب النظام ورضوخ الامة أمر يجب تحقيقه ولو اقتضى الامر استخدام القوة واتباع أساليب البطش والارهاب .

ولم تكن هذه مواقف وقرارات مطلقة وقطعية لا تقبل الاخذ والرد على طريقة « الكولونيالات » اليونانيين (بعد عدة سنوات) . فقد كان عبد الناصر يفكر بالقضية ويناقشها مع ضباطه وكبار سياسيين عصره ، ثم لا يلبث أن ينقل اهتمامه هذا وقلقه الى أصدقائه في الغرب الذين كانوا سرعان ما يتجاوبون معه بخصوص اصراره على ضبط النظام واحترام القانون . وكان تفكيرنا يعزى الى رأي عبر عنه الديبلوماسي الليبرالي جون دافيس بقوله : « ليست المشكلة مشكلة كون الحكومة ديكتاتورية أو برلمانية دستورية ، ولكن المشكلة هي في قدرة الحكومة مهما كان نوعها على توحيد المجتمع وجعله متماسكا متراسا بصورة تتمكن من الانتقال معه الى مراحل متقدمة للرقى والازدهار » . ولكن الجزء الآخر من تفكيرنا كان ضعيفا وركيكا . فلقد ظننا أن جميع وسائل القمع

والبطش بما فيها الجيش والبوليس وأجهزة المخابرات ستكون بجانبنا ، في حين ستتجه القاعدة الشعبية لعبد الناصر وجهة يسارية لعدة أسباب . والتقارير الشهير : « مشاكل السلطة والحكومات الثورية » يشرح كيف حققنا بعض التوفيق بين وجهات النظر المختلفة .

واستنادا الى هذا التقرير (أو بعبارة أخرى ، استنادا الى « الذوق العام ») فقاعدة القمع التي تعتبر ركيزة الحكومات الثورية للبقاء ، يجب أن تعتمد على المؤسسات التالية : التشريعات ، البوليس (قوى الامن الداخلي) ، أجهزة المخابرات الدقيقة ، أجهزة الدعاية ، القوة العسكرية أو الجيش . ومن الأهمية بكان اعطاء لمحة عن تطورات هذه المؤسسات وكيفية تصميمها .

● التشريعات :

لا يختلف اثنان ليبراليان على ضرورة بقاء الاحكام العرفية لفترة ما بعد استلام الحكم نتيجة انقلاب عسكري . كما أنه من الضروري اتخاذ الخطوات اللازمة لاستئصال شأفة الفساد واقتلاع جذورها من جميع مؤسسات الدولة واداراتها ، لان ذلك هو السبب الرئيسي لقيام مثل ذلك الانقلاب . ولهذا ، فللنظام الجديد اذن الحق في ممارسة السلطات التشريعية ليتمكن من كشف الخطر وتحديد مواطن الفساد ، وبالتالي ليتمكن من فرض اجراءات رادعة وعقوبات زاجرة . وهذا ما فعله عبد الناصر بتشريعاته : فقد حدد مهمة البوليس وأجهزة المخابرات والمباحث واعطاها حرية التصرف المطلقة والاخذ بزمام المبادرة في الكشف عن كل مؤامرات الاطاحة بنظام الحكم والتحريض على أعمال العنف ، والاباحة بأسرار الدولة ، وكل ما يشتبه بأنه ميول لارتكاب مثل هذه الجرائم . وكانت هذه التشريعات تصدر على الأمانة بشكل مراسيم وأوامر صادرة من مجلس قيادة الثورة وفي صياغة جيدة واسلوب محكم . ولقد وصفها المستشار القانوني للسفير كافري بأنها من الدرجة الاولى ، وفريدة من نوعها في مثل هذه البقعة من العالم . وقد فاقت مثيلاتها في فرنسا . ولكن الطريقة التي اتبعت في تنفيذ التشريعات قد وضعت نظام عبد الناصر في مهبط رياح النقد والتشهير التي ما تزال صاخبة حتى يومنا هذا . ويوجهها بعض المصريين المنفيين في سويسرا وأماكن أخرى . وقد كان الافراد يعتقلون

بدون أن توجه اليهم أية تهمة ، وكانت الممتلكات تصادر ، وخضعت المطبوعات كلها للمراقبة . وقد نفذ كل ذلك بطريقة منتظمة ولكن بدون أن تكون العلاقة بينها وبين التشريعات واضحة بيّنة . وقد أطلق سراح بعض المعتقلين ، وسمح لهم بمزاولة نشاطهم السياسي السابق ، بل وشجعوا على ذلك . ورفضت أوامر المصادرة عن بعض الاملاك ، ورفضت المراقبة عن الصحف عندما لم يعد ثمة حاجة اليها . ولكن لم تمض أسابيع قليلة على موجة اطلاق الحريات هذه ، حتى عاد الاضطهاد والكبت مرة ثانية ، وعادت الاعتقالات بصورة أكثر ، وكذلك مصادرة الممتلكات ومراقبة المطبوعات . واستمر عدم الاستقرار : مرة اطلاق للحريات ثم يتلو ذلك موجة من القمع والشدة ، حتى اضطر بعض أصدقاء عبد الناصر من المراقبين الغربيين للاعتقاد بأنه يمارس نشر الرعب والفزع في أرجاء البلاد بصورة تهدد نظامه كما لم يكن شك هناك أنه قد ولد تأثيرا سيئا على العالم الخارجي . وبدأت غالبية السفارات الاجنبية تردد شكوكها حيال احتمالية قيام ديكتاتورية عسكرية فاشستية في مصر . ولم يكن قلق (وخرج) السفارة الامريكية بسبب اشترازاها من أعمال الاعتقال ومصادرة الممتلكات وتكليم الصحافة ، بل ، كان بسبب الطريقة التي ترجمت بها الحكومة تلك الاعمال للشعب . وهكذا نشأت علاقة متردية بين الحكومة وشعبها . وقد تجلّى الخلاف بين المفهوم الليبرالي للتشريعات ومفهوم عبد الناصر في أن المفهوم الليبرالي يعتبرها وسائل سلبية ومجموعة أنظمة يبقى الانسان خارج السجن اذا لم يتحدّها . في حين كان عبد الناصر يعتبرها شيئا ايجابيا ، بمعنى أنها المبررات لتصرفاته وقراراته - التي ستطيل عمر ولايته على الشعب - ضد بعض العناصر المعروفة في المجتمع المصري ، تلك العناصر التي لا يمكن أن تبقى مسالمة له ومهادنة لنظامه ، ولن يثنىها عن عزمها على الاطاحة به مهما كانت ميزات ناصر وحسناته وسببى عداؤها لنظامه قائما وان تظاهرت بعكس ذلك . وكان يعلم هذه الحقيقة المؤلمة السفير كافري ، وبعض أعضاء سفارته ، لما كان لهم من صلات مع بعض تلك العناصر . كما كان يعلم هذا تمام العلم عبسد الناصر وجميع الجماهير المصرية . وهكذا فان التطهير الذي قام به عبد الناصر لم ينشر الذعر والخوف . ولقد قال مرة أحد ضباط الامن المواليين له « ان اولئك الذين لهم العذر في أن يخافوا قد عزلوا مدنيا » .

● البوليس - قوى الامن الداخلي :

لم يكن للبوليس أي دور في الانقلاب ، ولم يكن الا لواحد أو اثنين من كبار ضباطه علاقة بسيطة مع زكريا محي الدين رئيس جهاز المخابرات العسكرية . ولكن رجال زكريا قد تغفلوا في البوليس جيدا ، وساعدوا في القيام بحملة تطهير بعد الانقلاب مباشرة . وقد استلم عبد الناصر وزارة الداخلية واعتنى بالبوليس بشكل خاص بعد تسريح ثلاثين أو أربعين ضابطا ، وحوالي مئة من رجال البوليس المشكوك في ولائهم . وفي غضون أسابيع أصبح البوليس جهاز أمن قوي احسن من أي وقت مضى ولم يعد مصدر خطر على النظام الجديد .

ولم يكن جهاز المباحث في وزارة الداخلية يدار من قبل احسن العقول في البلاد وأنظفها ، بل كان (كغيره من أجهزة الامن الاخرى) يعاني من عقلية ذاك الصنف من البشر الذي تقوده نزواته للالتحاق بأجهزة الامن عامة . فقد اخبرني مرة أحد ضباط عبدالناصر في أجهزة الامن قائلا : اننا نتصرف على أساس أن الشعب كله موال للنظام وذلك ليعلم الجميع اننا على استعداد لمعاملة من يشك بولائه واخلاصه بمنتهى القسوة .

وعندما يعلج انسان ما ، في استنباط وسائل تقنع بعض الرجال من ذوي حساسيات الطف ليصبحوا ضباطا في الامن العام ، فسوف تختفي كل الوسائل البشعة ولن يفد ليسمع بها عبد الناصر أو مستشاريه الامريكيين . وأكثر ما كنا نامله هو تحقيق القسوة في اجراءات الامن وزيادة المراقبة والمتابعة .

أما المراقبة (عمل المباحث) فكانت تجري عن طريق نظام « عيون المدينة » الذي ورثه عبد الناصر عن المعهد البائد وقد مضى على وجوده في مصر عدة قرون . لكنه نظام غير فضولي . فقد قام أحد رجال وكالة المخابرات المركزية - وسابقا أحد رجال مكتب المباحث الفيدرالي - وهو خبير في شؤون المراقبة المباحثية ، بالتجول من أقصى مدينة القاهرة الى أقصاها ، واقسم انه لم يكن تحت المراقبة ولا حتى لدقيقة واحدة . ولكن أحد ضباط الامن طمأنه الى أن جميع تحركاته ومكالماته الهاتفية وكل اتصالاته قد سيجلت وضبطت .

والسر في هذا بسيط : فالبوابون ، وسائقو التاكسيات ، وعمال التليفونات ، والشحاذون ، والبايعون الجوالون ، وغيرهم يعلمون أنهم سيمنحون بضممة قروش مقابل اعطائهم أية معلومات لرجال الامن الذين يستفسرون منهم عن اجنبي عبر منذ لحظات . ان اشخاصا كهؤلاء يشغلون الاحياء المتفرعة حول احسن الفنادق وبعض الاماكن الاخرى حيث يتجمع الاجانب عادة ، ولقد احسن اليهم كثيرا في الماضي ، وأجزل لهم العطاء ، حتى أن مواهبهم قد تحسنت ، وقويت ملكة الملاحظة والمراقبة عندهم الى جانب نمو ذاكرتهم وقدرتها الفائقة على تمييز التفاصيل التي عادة ما يهتم بها البوليس السري .

● اجهزة المخابرات الدقيقة :

لم يشفا عبد الناصر منصب وزير الداخلية أكثر من أربعة اشهر . وقبل أن يتركها لخليفته زكريا محي الدين ، اذكى وأمهر ضباطه ، والذي كان وقتئذ رئيس المخابرات العسكرية ، نظم كلا من جهاز المخابرات والمباحث العامة ووضع كافة التفاصيل لهما . ثم أدخل عليها زكريا بعض التحسينات ووضمها قيد العمل . وقد كان قسم المخابرات العامة يقبع في قمة الهرم (وقد أسس على غرار وكالة المخابرات المركزية الامريكية) والحق به بعض الضباط الاحرار الذين كانوا تحت امره زكريا أثناء فترة ما قبل الانقلاب . وكان عديد منهم من ذوي الكفاءات العالية والقدرة التنظيمية الفائقة ، ولم تقل أهميتهم بعد الانقلاب عنها قبله ، (ومنهم حسن بلبل وكيل وزير الخارجية للشؤون الادارية ، وفريد طولان محافظ بور سعيد ، وحسن التهامي السفير في النمسا سابقا ، وسعد غفرة السفير في بولندا ، وغيرهم كثير) . وباتباعهم الاساليب الامريكية في هندسة الادارة فقد بنوا الوكالة الجديدة على أنها الرأس والمهيمن المنسق ، وبعدها المباحث العامة لوزارة الداخلية ثم مخابرات الجيش على أن يكون كل واحد متمماً للآخر وساعده الايمن . واخيرا أنشأوا (النظام الخاص) للمخابرات والتحريات المتصل مباشرة بالمخابرات العامة العليا . وكان بعض هذه الدوائر يختص بالمسائل الخارجية مثل تدريب رجال حرب العصابات ، والتجسس على اسرائيل ، وخطف الصلاه المزدوجين ، الذين يعملون مع اسرائيل او مع العربية السعودية ، مخدرين في صناديق ، من روما الى القاهرة ، وغير

ذلك • ولكن اغلب تلك الموائر كانت بهتم بمعالجة شؤون الامن الداخلية •
والى جانب اجهزة « عيون المدينة » ذات الفعالية الجيدة ، فقد اضافوا الى ذلك
أدوات وطاقات علمية للمراقبة • كما أنهم اشتروا سلسلة كاملة من الاجهزة
الاليكترونية صنعتها المنظمات الامريكية للتجسس ومكافحة التجسس •
واستعانوا بعدد من ضباط المخابرات الالمان النازيين (وزاد عددهم فيما بعد)
ليدربوهم على استعمالها • ولكنهم غرقوا في طوفان من المعلومات والأخبار ،
وأضحى تصنيف ذلك والاستفادة منه بطيئا جدا ، ان لم يكن بدون فائدة •
وعندما أدركوا أن مراجعة ومراقبة الاشرطة المسجلة يحتاج الى وقت يساوي
تماما الوقت الذي استغرقه تسجيل الحوادث عليها مع كل التفاصيل المملة ،
كان قد تكسب عندهم اكواما كبيرة من الاشرطة - دون مراجعة - في أقبية
المخابرات العامة ومباحث وزارة الداخلية ، ومضى وقت طويل حتى تعلموا كيف
يهتمون بالخطر ويتركون الفث الضعيف • وفي عام ١٩٦٠ أصبح لديهم من
الوسائل ما يمكنهم من تركيب الميكروفونات الدقيقة في أي من الفنادق أو موائد
الضباط ، في البيوت الخاصة أو السيارات الخاصة ، في القاهرة والاسكندرية •
كما أتقنوا التنصت على الحوادث في الشارع عن بعد ، والتصوير عن مسافات
بعيدة وفي الليل • ولكن بناء على إلحاح وزارة السياحة ولعقبات كثيرة من
الناحية العملية (مثل الوقت الطويل لمراقبة الاشرطة وقدره المترجمين) فقد
اقتصر استعمال هذه الفنون على الحالات الخاصة والهامة والى حد يكفي للكشف
عن مصادر الخطر على العهد الجديد •

● وسائل الدعاية :

كان موضوع الدعاية مجال خلاف كبير بين الامريكيين - وخاصة السفير
كافري واينلبرغر - وبين عبدالناصر • فعبد الناصر نفسه لم يكن ذا ماض
عسكري عريق حتى يشكل عنصر دعاية • ولم يكن حتى ليدرك العقبات التي
تعرض اتصاله بالشعب مباشرة • ولكنه بنفس الوقت أدرك حدود نشره دعايته
في أوساط شعبه ، كما أدرك مدى تقصيره فيما كان يجب عليه فهمه منذ حين ،
وما يجب عليه أن يتصرف به من حذر وخبت تجاه الرأي العام الخارجي •
فاينلبرغر (الذي كان يوما ما المسؤول عن تنفيذ التقارير في أضخم مؤسسة
للدعاية والعلاقات العامة في العالم والتي يملكها « ج - والتر طمسون ») قد

توصل الى أن الانسان يجب أن يتقرب الى غيره أو الى الجماهير عن طريق مصالحهم هم وليس عن طريق مصلحته الشخصية . ولقد اعترف عبد الناصر يومها بأنه جاهل بأصول التقرب الى الجماهير المصرية . ولكنه كان مقتنعا بأن ذلك يجب أن لا يتم عن طريق مصالحه الخاصة . وكان يشك في أن يكون عامل التقدم الحضاري ذا نتيجة جيدة في تقرب الثورة من الجماهير .

وكوسيلة للقمع في الفترة التي كان فيها عبد الناصر يجمع قوى الانقلاب ، كان التفكير منصبا على خط ثانوي ، وهو مسألة مراقبة المطبوعات . وسرعان ما ثارت المشاكل بسبب انعدام خبرة المراقب العسكري التابع لعبد الناصر - وهذا ما كان متوقعا . فقد أثار ذلك حفيظة المراسلين الاجانب لايقاف رسائلهم وحذف كل ما يثير الشك من عباراتها . وكان ذلك في غاية الازعاج للامريكيين الاصدقاء الذين حرصوا على أن يكسب العهد الجديد الصحافة الى جانبه . وكان هذا مثبطا لمزائم المراسلين المصريين المواليين لنا وذوي القدرة الكبيرة على صياغة وسبك التقارير . فقد كانت مساعدتهم لنظام الحكم ضرورية لابراز صورة الثورة جذابة ومشوقة للرأي المحلي ، وللعالم العربي ، بل وللعالم كله . وكان هذا عملا صعبا وعلى جانب كبير من الدهاء والخبث .

ولقد عولجت المسألة على الطريقة التي اعتاد أن يسلكها أي نظام من طراز نظام عبد الناصر فقد جرى تصنيف المراسلين الصحفيين في قائمتين : الاولى ، تحوي الموثوق بهم والذين سيرسلون تقارير لصالح الثورة . والثانية ، تحوي الصنف المعاكس الاولى . وبناء على ذلك فقد أعطيت اللانحة الاولى مطلق الحرية وحرمت الثانية من أي منها . وانتبهت الحكومة الى مشكلة المراسلين الاجانب الذين لم يتخفوا بعد مواقف صريحة من الثورة ، فعمدت الى الاحتفاء بهم ، ومن ثم زودتهم بمعلومات لها تأثير لا بأس به عليهم ولصالح الثورة . وهكذا انقلبت قضية مراقبة النشر والصحافة الى مسألة روتينية امتدت حتى الحرب العربية الاسرائيلية في عام ١٩٦٧ ، باستثناء بعض الشطط العارض بسبب عدم كفاءة المشرفين عليها . وهكذا فلم تكن مراقبة المطبوعات جزءا من وسائل القمع عند عبد الناصر سوى مدة وجيزة وذلك لاتباعها بعدئذ القاعدة الروتينية المبينة على

اما الدعاية الموجهة من قبل الحكم ، فقد كانت مُنصَّبةً وبكثرة على اعداء النظام لكشفهم ، وتسليط الاضواء على مساوئهم ، ولتبرير الاجراءات التصفية التي كانت تتخذ صدهم . ومن أبرز الامثلة على ذلك اقدام الاخوين علي ومصطفى أمين (اللذين كانا يملكان أضخم دار للنشر في القاهرة ، اخبار اليوم) على نشر اعلان وعدا فيه بتقديم المكافآت للذين يخبرون عن قصص الفساد في الحكم البائد او في حياة البلاد السياسية . ولقد اتاحت هذه القصص للاخوين أمين وحسنين هيكمل وغيرهم اغراق صحفهم بمثل هذه القصص الدراماتيكية ، مظهرين شرور النظام البائد مع ذبوله ، والحاجة الى اجراءات قاسية لاستئصاله وطمس آثاره نهائيا .

وبارك الامريكيون هذه الخطوات الى الحد الذي دعا السفير كافري الى اعارة النظام المصري اعظم الاختصاصيين في الدعاية السوداء والرمادية (١) وهو « باول لينبارغر » الذي كان مسؤولا عن الدعاية في مكتب الخدمات السرية الامريكي اثناء الحرب العالمية الثانية . وكان يذيع ما كان يظهر أنه المانسي ولصالح الالمان ولكنه في الحقيقة كان مثبطا لعزائم الالمان ومحطما لهمسم . وقام لينبارغر بتعليم المختصين بالدعاية من المصريين كيف يقومون بتحطيم الشخصيات المحبوبة (ومنها اللواء نجيب على سبيل المثال) بطريقة مدسهم والثناء عليهم . ولا يزال هذا الاسلوب متبعا حتى اليوم من قبل الغربيين في سياسة العالم العربي .

● الجيش :

اننا في غنى عن القول أن الجيش المصري كان حصن عبد الناصر

(١) الدعاية البيضاء : مصدرها معروف وغالبا أجد الاجهزة الحكومية .

الدعاية الرمادية : لا توضح أي مصدر .

الدعاية السوداء : تدل على أنها تنبعث من أي مصدر غير المصدر الحقيقي ، ويشترك هذا النوع من الدعاية مع عمليات الحرب النفسية السرية المخططة .

الحسين وقاعدة قمعه المنيعه . وقد تمكن عبد الناصر من ذلك عن طريق تآكده من عدم وجود أي شخص ذي طموح سياسي أو اتجاهات ثورية في مركز حساس (أو في أي مركز على الإطلاق) . أما ضباط عبد الناصر ذوو الطموح السياسي المعروف فقد أخرجوا من الجيش واسندت اليهم مناصب مدنية ، اما شكلية أو مهمة . ولكنهم في كلتي الحالتين اما أن يكونوا أهلا للمنصب الجديد أو أن يتحطموا ويظهر عجزهم عن الادارة . اما الضباط الذين ما زالوا يتوون القيام بانقلاب جديد ، أو أولئك الذين أظهروا امتعاضهم لاقصائهم عن مراكز القيادة في الثورة ، أو أولئك الذين ما زالوا يدينون بالولاء للنظام القديم ، فقد أعطوا الفرصة تلو الفرصة كي يتآمروا ، وبالتالي ليحكموا على أنفسهم بالاجرام أو أنهم كانوا يستدرجون الى ذلك عن طريق بعض المحرضين المدسوسين ليعتقلوا بعد ذلك من قبل البوليس السري .

وبقي هناك الضباط الذين لا غبار على سلوكهم ، ويمكن أن يخضعوا للنظام ويضمن ولأهم عن طريق ارضاء رغباتهم ، كمنحهم بعض الامتيازات لرفع مراكزهم وبعث الفخر في نفوسهم ، الى جانب بعض العلوات والتسهيلات التي لا تضر وطالما أنهم غير نافرين ضد علاقة عبد الناصر بأصحاب الفكر واليساريين وأشخاص آخرين غير مرغوب بهم (أو بالاحرى طالما انه لا يترك لهم الوقت الكافي ليفكروا بمثل هذه المسائل) فلا مانع من اعتبارهم قوة موالية يعتمد عليها إذا ما دعت الحاجة لذلك . أما بحث موضوع المساعدات العسكرية الغربية والسوفييتية فسيكون في فصل لاحق . وتجدر الإشارة هنا الى وجهة النظر الامريكية بخصوص استخدام عبد الناصر للجيش كقوة للقمع فهي تقول : عندما طلب عبد الناصر في الايام الاولى من حكمه مساعدات عسكرية ، لم يكن هناك أي بحث في أن تكون هذه المساعدات لاهداف قتالية عادية مثل قتال الاسرائيليين أو اليمينيين أو غيرهم كما لم يكن هناك أي بحث في أن تكون كميات السلاح ضخمة أو فوق المتطلبات الداخلية المحضنة . فلقد أكد عبد الناصر بوضوح لجميع السفراء الامريكيين أن نظامه يعتمد على الجيش لضمان بقائه . وأنه يعتبر أي جيش رث الثياب مهلهل المظهر جيشا تفوح منه رائحة العداة والتوتب . وقد طالب عبد الناصر في أيامه الاولى بأربعين مليوناً من الدولارات كمساعدة عسكرية وما لبث أن اختصرها الى عشرين مليوناً

دولار ، ثم مسخت الى مليون او مليونين من الدولارات لتغطي شراء اجهزة
وقهوت للاستعراضات العسكرية كالخوذ وقرابات المسدسات الجلدية وقطع
براقة من مختلف الانواع تكفي لاطهار الجيش بمظهر جميل عند استعراضه في
شوارع القاهرة وبحيث تمكس على الضباط والجنود الشعور بالاعتزاز والفخر .
وكما ساشرح فيما بعد فان تلكؤ وزارة الخارجية في الموافقة على منح مثل هذه
المعونات المحدودة هو الذي دفع بعبد الناصر للاتجاه نحو السوفييت والحصول
منهم على مساعدات ضخمة تفوق الاربعين مليون دولار (التي طلبها في البداية)
مرات عديدة .

ولملمي أجد نفسي مضطرا للخروج عن موضوع هذا الكتاب وأذكر بعض
الملاحظات حول دورنا في ادخال المستشارين الالمان الى الجيش المصري ، حتى
تكتمل صورة مساعدتنا في استكمال وسائل القمع عند عبد الناصر .

فقد كانت الاشاعات الضخمة التي نشرها الحلفاء في الحرب العالمية
الثانية حول قوة المخابرات الالمانية وعلمها بكل شيء ، من قبيل خدمة اهدافهم
ولكي يتظاهروا أنه ما من مواطن يخطئ بصديق له ليتبادلا أطراف الحديث
في أي مقهى كان حتى تكون المخابرات الالمانية قد التقطت حديثه وأبرقت ملخصه الى
مركزها في برلين .

ولقد شككت المخابرات البريطانية والأمريكية وقتئذ (وتؤكد هذا فيما
بعد) بأن يكون للمخابرات الالمانية وجود حيوي كشبكة واسعة الانتشار .
ولكنها كانت موجودة على مستوى بعض العمليات معتمدة على بعض كبار
الموظفين الغربيين المدسوسين والذين كانوا يستخدمونها لتزويد برلين
بالمعلومات المضللة الزائفة . وكنتيجة لدراسات عميقة ومتعبة في فترة ما بعد
الحرب العالمية الثانية ، فقد ثبت لدينا بالتأكيد أن العملية الوحيدة التي قام
بها الالمان للتجسس في الغرب هي العملية الشهيرة باسم « سيسيرو » الذي
سرق الاسرار من الصندوق الحديدي للسفير البريطاني في تركيا . ولكنها لم
تكن ذات أهمية لمقر الاركان في برلين ، لكثرة الاخبار المتضاربة التي غطت على
هذا التقرير الصحيح ، والتي كان يرسلها لهم عملاؤهم الذين كانوا تحت نفوذ
الامريكيين والبريطانيين .

وكان ازدراؤنا للمخابرات الألمانية يشاظرنا إياه عدد غير قليل من ضباطها أنفسهم وقد قام العديد منهم بعقد صفقات مع عملاء مخابرات الحلفاء عندما شعروا بانتهاء الحرب وإن كان بعضهم قد فعل هذا قبل انتهاء الحرب بكثير .

كما أن عددا آخر من الذين لم يفكروا بالتعامل مع الحلفاء أبدا قد وطدوا أواصر الصداقة مع بعض الحلفاء وبالتالي فقد حصلوا على عناية خاصة قبل فوات الأوان . ولكن مع وجود أشخاص مرموقين في الولايات المتحدة وبريطانيا (ولا نذكر فرنسا أو بلجيكا أو هولندا أو حتى ألمانيا نفسها) متمطشين للدم النازي ، فانه لم يكن هناك صابط أمريكي أو بريطاني واحد يتمتع بعقل « موزون » يتوقع منه أن يدافع عن أي من النازيين السابقين على أساس أنه كان ضابط مخابرات أو - على الأقل - أنه مفيد كمناصر في المخابرات في حرب مقبلة مع الاتحاد السوفييتي . وعندما قام السوفييت باحتجاز أحسن الادمغة الألمانية (وكان بعضها من النازيين المتزمتين الذين أقسم الروس على الانتقام منهم) ولم يفرطوا بأي منها ، لم يعد أماننا - نحن الأميركيين - إلا ادخار كل ما كان متوفرا لدينا من الألمان الذين لم تعرف عنهم ميول نازية . وقد عبر عن هذه الحقيقة أحد عملاء المخابرات الأمريكية في الفرع ج - ٢ قائلا « ثق تماما أن بعضنا لا يزال يضع مصالح أمريكا في المستقبل فوق لذة الانتقام » . ولو قال هذا علنا فانه كان سيطرده من الخدمة حتما .

وعلى أية حال ، فإن وزارة الدفاع (ولربما بالاشتراك مع وزارة الخارجية) كان منوفرا لديها (ما بين ١٩٤١ - ١٩٤٧) بعض الألمان الذين لم يكونوا من مجرمي الحرب . ولحسن حظنا فقد تمكنوا بأقل ما يمكن من الاحراج والانزعاج أن يختفوا في دول مختلفة ، وتمكنوا من مزاوله أي عمل لكسب معيشتهم بدون أن يظهروا علانية . ولقد بذلنا جهودا كثيرة نقلب أضيائهم محاولين الكشف عن بعض المواهب للاستفادة منها في الولايات المتحدة أو في غيرها من بلدان العالم (كما استعدنا من وارنر فون براون عالم الصواريخ الشهير في هونستفيل في ألاباما) . وقد أثمرت بعض هذه الجهود في الوقت الذي طلب فيه عبد الناصر مساعدات خارجية لجهاز مخابراته ودوائر أمنه . وكانت حكومتنا تجد حرجا في مساعدته مباشرة . ولأسباب تتعلق بسياسته ، فقد ألح ناصر على طلب خير عسكري يتفن ادخال النظام البروسي الى جيشه

الحديث ، واقتراح الملحق العسكري الامريكى اسم الجنرال « ويلهام فارمباشر » الذي كان يجد صعوبة في العودة الى المانيا لميوله النازية السابقة . كما ان فقدانه لاية مواهب خاصة تتناسب ورتبته العالية لم تجعل منه شخصية مرغوبة في أي مكان آخر . الا أن جراته التي ذاع صيتها في الحرب العالمية الثانية قد جعلته مؤهلا للاضطلاع بمسؤوليات كذلك التي كانت في مصر يومها - على حد رأي بعض ضباط المخابرات الامريكية . (وهذا ما حدث فعلا . فقد كانت اولى مناورات الجيش المصري تحت امرته . ولكن لم تحظ القوات « الخضراء » بالقوات « الحمراء » طيلة المناورة في الصحراء ، لان « فارمباشر » كان قد اعطى كل فئة خرائط الآخر بالخطأ . وكانت التعليمات والامور معقدة لدرجة أن القوات لم تتمكن من ملاحظة الخطأ) . وعلى كل حال فقد كان ذا رتبة عالية جدا مما نال اعجاب عبد الناصر وزادنا حظوة عنده . وبعدها كانت قصة « اوتو سكورزني » الذي اشتهر بخطفه لموسولينى من معتقله الحصين . وكان اوتو من المفضلين عند الهيئة الامريكية للعمل ضد مخابرات الاعداء وقد أقام صداقات قوية مع الذين أسروه قبل أن يغفل من قبضتهم . وكان من المعتقد أنه يصلح السير مع عبد الناصر من ناحية طباعه وشخصيته . وجرى الاتصال معه روتينيا ، ثم على مستوى أعلى ، وبعد ذلك عن طريق زيارة شخصية قام بها لواء في الجيش الامريكى له ، وأخيرا بواسطة والد زوجته الدكتور هيجلر شاخت ، وزير مالية هتلر . ومع أنه كان قد فقد شغفه في اعمال المخابرات والامن وكان يدير أعمالا أكثر ربحا ، فقد وافق أخيرا على زيارة مصر ليقف بنفسه على مدى ما يمكنه تقديمه في زيارة قصيرة . ومهما كانت النتائج فقد قيل (وهذا غير صحيح) أن سكورزني مكث في مصر عدة أشهر كمساعد لعبد الناصر للشؤون العسكرية ولشؤون الجغرافيا السياسية . الا أن طول المدة التي مكثها سكورزني في القاهرة قد أثار موجة اتهامات ضد نظام عبد الناصر وأظهرته على أنه يدار خلسة من قبل نازيين متعصبين . ولم يكن باستطاعة سكورزني مغادرة مصر بسرعة تخفف من حدة الهجوم على ناصر . الا أنه أخيرا عاد الى مزرعته التي اشتراها في ابرلندا ومن ثم التحق ثانية بمقر عمله في شركة هندسية في اسبانيا كانت تدر عليه ربحا وافرا .

وقد فكر سكورزني بشيء من الاخلاص برسالة حوالي مائة من الالمان

الى مصر كانوا سبب الضجة المعادية لناصر يومها . وحقيقة هؤلاء أنهم : (١) كانوا - باستثناء واحد أو اثنين - من ذوي المناصب المتواضعة ، (٢) ولم يكونوا من النازيين المتزمطين بدليل سرعة تأقلمهم مع التفكير اليساري لحكومة ناصر وقد اضطرتهم لهذا حاجتهم لكسب عيشهم وليس غير ذلك ، (٣) لم يحاول المصريون الاعتماد عليهم رئيسيا بل اكتفوا بسماع بعض نصائحهم كما كانوا يعاملونهم بشيء من عدم المبالاة وخصوصا عندما يضطر أحد الألمان الانتظار لساعات لمقابلة أحد المسؤولين المصريين للدلاء ببعض النصائح امامه ، (٤) لم يدفع المصريون أية مرتبات مغرية للامان على عكس ما كانوا يدفعونه للخبراء من الجنسيات الاخرى كالبريطانيين والامريكيين . فالجنرال فارمباشر (كمنال) لم يكن يتقاضى أكثر من خمسين جنيها مصريا في الشهر الى جانب بيت قريب للسكن . في حين كان يتقاضى بعض المستشارين الامريكان أكثر من ٥٠٠ جنيه شهريا الى جانب مسكن فخم وسيارة مع سائقها . وقد بذل سكورزني قصارى جهوده لخدمة عبد الناصر تحت تلك الظروف . ولا يزال على علاقة وطيدة به الى يومنا هذا . كما ان له علاقات حسنة مع اصدقائه الامريكيين الذين كانوا وراء استدعائه الى مصر . هذا وتجدر الاشارة الى أن سكورزني قد برئت ساحته من أية تهمة بارتكاب جرائم حرب .

والحق يقال إن عبد الناصر وزكريا ، بالرغم من كل المستشارين الاجانب قد بنوا أجهزة المخابرات والامن بدون أية مساعدة خارجية تذكر . وعلى حد زعم أجهزة المخابرات الغربية - عن طريق تسللها الى هذه الاجهزة - ان هذه الاجهزة تتمتع بكفاءة عالية وافية بالفرض .

واخيرا : فبالقوانين والمراسيم ، وبالبوليس وأجهزة المخابرات ، وبالدعاية والجيش ، شكل عبد الناصر قاعدة للقمع تمكنه حقا من حكم مصر بنفس الطريقة التي حكم بها بابا دوفاليه جزيرة هايتي - دون أن يستعمل كل تلك الوسائل دفعة واحدة . وقد أعطته مركزا قويا يستطيع أن يصدر منه أية قرارات ايجابية بدون أن يخاف ويخشى أية انتفاضات شعبية . ولقد قيل الكثير عن اتباع عبد الناصر للأساليب البوليسية في الحكم والادارة مثل منع ممارسة حرية الرأي والتعبير ، ولكن الحقيقة أن عبد الناصر لم يفعل أكثر من التخلص من بعض الصحف التافهة التي اعتادت أن تستقي أخبارها من الاذا

البريطانية والاسرائيلية . ولذلك لم تشعر طبقات الشعب المتوسطة أنها قد سلبت أية حرية من حرياتها بتصرفاته تلك . أما المصريون أعداء عبد الناصر فهم أعداؤه سواء منحهم أية من هذه الحريات أم لا ، وعلى هذا فانه سيخسر بمقدار صنفات صلح أو مساومة معهم ، ولن يربحهم إطلاقا .

وكان أمرا محرجا وكريها للمراقبين الغربيين أن يروا حيز الممتلكات واعتقال الناس لجرد الشبهة ، مع تكميم الصحافة ومعاملة المراسلين الاجانب برعونة وفظاظة . ولم تكن هذه الاعمال معيبة الى نفوس أصدقاء عبد الناصر الذين كانوا في السلك الدبلوماسي ، وكان لهم علاقات اجتماعية متشعبة مع طبقة المصريين المروضة (البورجوازية) والتي عانت الكثير . . ومن جهة أخرى فان اجراءات عبد الناصر في الشدة والقمع - بغض النظر عن مظهرها أمام العالم الخارجي - كانت تخطط بهدوء ولم تكن لتتخذ اعتباطا . وهذا يعني أن عناصر محدودة هي التي عانت من ذلك وليست عامة الشعب . وقد كان عبد الناصر يبرر أعماله القمعية بحجة (الدفاع) عن النفس تماما كما يفعل اليهود بمنعهم الهيئات غراليهودية من العمل في بلادهم . وكان يعتقد بضرورة اخضاع الفرد الى الدولة في جميع مظاهر الحياة وان كان لا بد من الاعتراف بالحقيقة أن هذه السيطرة ستمارس بنفس التخلف الذي ندار به شؤون الدولة الأخرى . كما أنه من طبيعة الأشياء أن يكون البوليس في بلد شرقي أكثر غباء من أمثاله في الدول الغربية .

ومن جهة أخرى فلا مانع من القول بأن المصريين قد حصلوا على نتائج أفضل فيما يختص بقضايا الامن ، وبتباه وعجرفة أقل من السائدة في بقية دول الشرق الاوسط . ومع مرور الاعوام فقد حافظ عبد الناصر على وسائله في القمع بشتى الطرق ، مع أن الناظر العديم الخبرة لن يراها من وقت لآخر الا الغازا محيرة . وذلك أن عبد الناصر كان يدفع الى المسرح عملاء جددا ذوي أهداف وغايات تظهر بأنها للقمع . ولكنها كانت انهائية ميكافيلية مثل « بوليس ضد الاقطاع » ومحققى الاتحاد الاشتراكي العربي وغيرهم من الذين كان يحركهم ضد بعضهم البعض ليحصل على فوضى منظمة ومحسوبة ، في الوقت الذي يريده ويحتاجه في سياسة العنف والشدة .

ان أهم ما يجب أن يفهمه المراقب الدبلوماسي من أسرار تصرفات

وسائل القمع عند عبد الناصر هي :

أولا : بالرغم من بعض المظاهر الآنية المعاكسة (مثل اخبار الاحتكاك بين عبد الناصر والجيش) فان وسائل القمع كانت دائما على أهبة الاستعداد ، ولها المقام الاول في اهتمام عبد الناصر واعتنائه . كما أن كثيرا من تحركات عبد الناصر على المسرح العالمي ، من التي اعتبرها المراقبون الاجانب مخالفة لنمزاج المصري ، تفسر على أنها احدى حاجات عبد الناصر للاحتفاظ بوسائل القمع في داخل بلاده .

ثانيا : وبالرغم من أن كثيرا من الرسميين الغربيين الذين يكرهون عبد الناصر قد هاجموه ونعتوه بأنه ديكتاتوري فاشيستي (وكان معظمهم مسن المسؤولين في الحكومة الامريكية والبريطانية) إلا أنهم كانوا على علم تام بكل خطواته عندما كان يبني وسائل القمع واجهزته متجاهلين عمدا كل تصرفاته في هذا المجال .



وفي كتابه « مصر الجديدة وعبد الناصر » ، يشرح « كيث ويل لوك » وجهة نظر يعتبرها ممثلة لوجهة نظر المراقبين المطلعين في الخارج في الثورة المصرية . وفيها يشير الى ذلك « التردد » الذي كان يتصف به عبد الناصر ، كما يشير الى « تذبذب » مجلس قيادة الثورة الظاهر بين النظام البرلماني والدكتاتورية العسكرية . ويتأسف ويل لوك على تلك المبادئ التي هجرتها حكومة الثورة في مصر بعدما رفعتها عاليا وانتهى أخيرا الى أن أي مؤرخ يحاول أن يدون تاريخ تلك الفترة المضطربة في مصر سيكون معذورا ان كالم لعبد الناصر وجماعته القذف والإتهام .

الا أن الحقيقة لم تكن كذلك (وسنرى هذا لاحقا) . فلقد كان عبد الناصر أبعد ما يكون عن التردد والتقلب طوال تلك الفترة .

وان تذبذبه الظاهر بين الحكومة البرلمانية والدكتاتورية العسكرية كان موضع دراسة عميقة وعناية فائقة من قبل الرسميين الامريكيين وغيرهم من بعض الشخصيات المدنية الشهيرة بميولها الليبرالية . ولكنهم كانوا كلهم

ينظرون الى الاوضاع في مصر نظرة واقعية وقد ادركوا انه لا طريق آخر امام عبد الناصر ليسلكه غير هذا الطريق . وأن أية محاولة مبكرة (وقبل اوانها) للعودة الى تلك المبادئ التي نادى بها الضباط الاحرار سابقا سوف تنتهي الى فوضى واضطراب كاملين . واذا كنا لم نشارك ناصر فعلا في انقلابه وفي توطيد سلطته وفي بناء وسائل القمع في بلاده . فذلك يعود الى رفض ناصر لمساعدتنا له فيما عدا بعض النصائح التي كانت تهم الطرفين معا ، كما اننا لم نبد أية شكوى من سلوك ناصر مسلك الديكتاتورية ، لاننا كنا نعتقد انه سيشرع في أول فرصة مناسبة في ايجاد الظروف الملائمة التي اتفق عليها مع روزفلت كمتطلبات ضرورية لاعادة الحياة الديمقراطية الحقة وهي : محور الامية ، وتقوية وتوسيع نفوذ الطبقة الوسطى ، وانتشار الشعور عند الشعب أن الحكومة منه واليه ، ورسوخ الافكار والقيم الوطنية حتى يصبح من السهل قيام مؤسسات ديمقراطية وطنية وليس مجرد تقليد أعمى لما هو في الولايات المتحدة او بريطانيا .

وبغض النظر عن كيفية نمو وسيطرة وسائل القمع ، فعلينا ان نقرر في تعاملنا مع ناصر أن وجودها مهم بالنسبة لبقائه . ويجب أن لا تعترينا الدهشة عندما نرى أن عبد الناصر وضباطه جلسوا بعد أشنع هزيمة في التاريخ العسكري الحديث (حرب ١٩٦٧) لا ليتباحثوا في طريقة اعادة بناء مصر من جديد بل لينسقوا خططهم حيال طريقة اعادة الثقة الى الجيش . وستبقى هذه الفكرة ذات المنزلة الاولى في التفكير المصري ولسنوات طويلة مقبلة .

الطراز الناصري للحكم ووسائل البناء.

• • هدفه الثاني توطيد سلطته بالبناء والاصلاح •

في اوائل عام ١٩٥٦ قضيت مع الرئيس عبد الناصر والسفير المتجول اريك جونستون امسية طويلة في حديقة قصر الاول نتباحث حول ما يستطيع عبد الناصر تقديمه من مساعدة لعرض مشروع نهر الاردن على زعماء الدول العربية الاخرى • وكان مشروع جونستون يهدف الى اغراء العرب للدخول في تعاون محدود مع الاسرائيليين على الاقل • ولم يكن المشروع أكثر من فكرة من الدرجة الثالثة ، ارتفعت الى الدرجة الثانية لمجرد اختيار مفاوض من الدرجة الاولى لها ، هو اريك جونستون • وأما فرصة نجاح المشروع فهي وجود شيء من المنطق فيه • ففي حالة تنفيذه سيستفيد السوريون واللبنانيون والامرائيليون والاردنيون من اصلاح ٣٠٠ ألف فدان من الاراضي الصحراوية مع توفير القوة الكهربائية للصناعات اللازمة لتشغيل اللاجئين الفلسطينيين الذين سيتعرضون للفاقة والجاعة لسنتين طويلة قادمة ان بقوا دون موارد ثابتة • وقد تأثر عبد الناصر كثيرا بحجج جونستون العملية ، غير ان العقبات السياسية كانت أكبر من أن يتحداها بنفسه ويتخطاها •

ومع ذلك فقد بقي الموضوع شيقا ومغريا لاستمرار المناقشة ، فقد قضينا النصف الاول من الامسية نتلمس الطرق المؤدية الى انشاء هيئة نهر الاردن على نفس منوال « هيئة سهل تينيس » ، التي يمكن لها أن تحل محل خطط مشاريع التنمية الاقليمية التي تزمع الجامعة العربية وغيرها اخراجها الى حيز الوجود • (وفي هذه المرحلة من حكمه ، كان عبد الناصر يشك في جميع مشاريع التنمية الاقليمية • وبالسوق العربية المشتركة ، وبالأراء الاخرى التي تدور حول التعاون الاقتصادي العربي ، وان كان لا يمانع من تمضية الوقت يبحثها) • وأمضينا القسم الاخير من الامسية نستعرض المضاعفات السياسية

المفخرة من المشروع . فقد أبدى عبد الناصر عطفه الشديد عليه عموما ، ولكنه قال لجونستون : « لقد جئني في وقت لا أملك فيه القدرة على الإقدام على أي عمل لا يحظى بموافقة الجماهير الشعبية » . واندفع بعدها في محاضرة كانت قفيض « بتوابل » الفلسفة الليبرالية ، مثل « المرونة السياسية » و « اطارات التسامح » بصورة جعلته يعتقد أنه كلما زادت شعبيته فانه يصبح أكثر حرية في تفكيره فيما يعود بالفائدة على مصر . أما أثناء شعوره بضعف مركزه وشعبيته فان عليه أن يسلك طرقا يتوقع مناصروه أن يسبقهم اليها ، بغض النظر عن نتائج ذلك على مصر نفسها .

وكان جونستون يصفي بصبر متزايد ما لبث أن نفذ ، فقال لناصر انه قد أمضى الاسبوع الفائت وهو يصفي الى عديد من المقترحات البديلة التي اقترحها الزعماء السوريون واللبنانيون ، ولكنه أصيب بخيبة أمل عندما سمع زعيم العالم العربي بلا منازع يتحدث عما يمكنه ، وما لا يمكنه فعله بنظر الفوغاء (الديماغوجيين) . ووقف جونستون مهما بالانصراف . وصافح عبد الناصر واتجه نحو الباب . ولكنه ما لبث أن التفت بطريقة دراماتيكية (مديقة بالحركة والانفعال) وقال : « سيدي الرئيس لقد تذكرت الآن كلمات مأثورة لزعيم الثورة الفرنسية « الفوغاء في الشارع ، وعلي أن أعرف الى أين وجهتها وذلك لانني أنا زعيمها » . وهنا ارتسمت ابتسامة الابتهاج على شفتي عبد الناصر وقال : « تماما ، هذا صحيح بالضبط » .

كان قبول عبد الناصر للملاحظة البليغة التي أبداهها جونستون على غاية من الطرافة (وما كان له أن يترك رجل الاعمال الأمريكي يقلت منه بهذه السهولة) ، ولكنه في قبوله ايها أراد أن يعيد الى ذاكرة جونستون أن أي زعيم ، في أي مكان وخصوصا في بلد كمصر ، ليس لديه المام بوجهة الفوغاء وأهدافها ، لا يكتب له البقاء كزعيم لمدة طويلة . وفي اجتماع لاحق لجونستون قال ان المهمة الاولى للمقاتلة على عاتق الزعيم هي أن يدرك أنه هو الزعيم وليس غيره ، ولا يمكنك أن تصبح « زعيما صالحا » الا بعد أن تجتاز المرحلة الاولى ، أي أن تصبح « زعيما عاديا » . ومضى عبد الناصر بثبت أنه كزعيم قد أدرك (أكثر من غيره) أن الفوغاء اذا ما أطلقت غرائزها ، وأفلتت من عقاليها فسوف

تفهم نفسها بنفسها ، ولكن لا يعني هذا أن باستطاعتي أن أتجاوز ما تريد مني وتفرضه علي .

وبومها لم يتوفر زعيم في التاريخ الحديث يعرف تمام المعرفة ماذا تريد الفوغاء والى أين وجهتها أكثر من عبد الناصر نفسه . وبعبارة أخرى ، لم يكن هناك من أدرك - أكثر من عبد الناصر نفسه - الحقيقة المحزنة بأن الفوغاء لا تدري أنها ضائعة ، ولا تعرف إلى أين هي ذاهبة ، ولا حتى على ضوء مصالحها الذاتية . فالفوغاء لا تريد مصالحها الحقيقية التي ان تحققت أعطتها كفاية وراحة ، وليس مجرد تهدئة آنية للآلام . وكانت مهمة عبد الناصر التلاعب بإرواء الرغبات ذات المدى القصير (أو المستعجلة) وذلك لكسب الوقت بينما يسعى لإعداد الوسائل اللازمة لإرواء الرغبات المؤجلة (البعيدة) .

ومن حظ عبد الناصر أن مفاهيمه هذه لم يكن من السهل ادراكها . فعندما كان يخطط للثورة كانت لديه فكرة عما يجب على الشعب المصري أن يطالب به (وذلك ما كان هو نفسه يطالب به) ولكنه بعد ثورته تأكد عنده أن مطالب الشعب المصري الحقيقية أبعد من أن يحيط بها فهمه ، أو فهم أي زعيم مصري آخر . وبعبارة أخرى ، فقد كانت مشكلته أنه لم يجد الفوغاء المصرية تنتظره في الشارع ، وكان عليه أن يخرجها إلى الشارع حتى يدرك إلى أين وجهتها . فلدى الشعب المصري دوافع كامنة للتمصّب (كما قال باول ليتبارغر) وكانت كافية لتبرير حرق سفارة أجنبية بين الفينة والأخرى ، ولكنها ليست بالقدر الكافي لدفع عجلة النشاط الثوري إلى الامام . وكان على عبد الناصر أن يخلق ظروفًا ما يمكنها أن توقظ الدوافع في الشعب بنفس الطريقة التي يتمكن الماء البارد ، أو الساخن ، من التأثير على الأميبا (وحيد الخلية) . وهذا يعني أن عدم الرضاء أو عدم التفوز (وجود ظروف مناسبة أحيانا وغير مناسبة أحيانا أخرى) هي التي توجد عند الشعب حوافز جديدة للتحرك والتنهيج وبالتالي يمكنها التجاوب مع زعامة حركة عبد الناصر .

ولم يبخل الخبراء على عبد الناصر بنصائحهم في هذا السبيل . ويشيء من تطفل مستشار أمريكي (لا أملك حرية الكشف عن اسمه) قام صلاح سالم ، وزير الارشاد القومي ، بحملة واسعة لدراسة الرأي العام لتزويد عبد الناصر بأهم المقترحات التي يمكنه بها أن يوقظ الشعب . وقد قامت سيدتان

امريكيان باول الخطوات في هذه الدراسة وهما من مكتب الابحاث الاجتماعية التطبيقية في جامعة كولومبيا . كما قام الباحثون باشراف صلاح سالم بالبحث والتدقيق في جميع أنحاء البلاد، واتصلوا بالفلاحين والعمال والطلاب والحرفيين وغيرهم . وكان الباحثون في البداية ثلاثة مصريين وبريطاني واحد والماني ، واتبعوا طريقة السؤال المباشر (اسلوب كالوب بول في تصور المسؤول انها رغبة السائل) ، فوجدوا أن أفراد الشعب كانوا يجيبونهم بما يودون سماعه ، فللمصري : « نحن نكره الانجليز والاستعمار واسرائيل » ، وللبريطاني : « نحب البريطانيين وقد ساءنا أنهم تركوا بلادنا » ، وللماني : « اننا نأسف لان المانيا خسرت الحرب » . وبعدها قاموا باستخدام طريقة أخرى تقوم على فهم آراء الناس عن طريق تحريك عواطفهم واثارتهم . فسيتكلم المسؤول عرضا عن أفضل الافلام له ، وأحب الالوان اليه ، ورأيه في المواضيع الاجتماعية غير الاساسية . وبهذه الطريقة توصلوا الى نتائج أفضل حول حقيقة مشاعرهم تجاه البريطانيين والعرب وغيرهم .

وقد اشتركت وكالة المخابرات المركزية الامريكية في هذه الابحاث . وكان رئيس فرعها في مصر في ذلك الحين يتمتع بتغطية عرقية (عندما يكون المظهر الشخصي واللغة والعادات وجواز السفر بشكل يساعد رجل المخابرات على الاندماج مع الجو المحيط به دون تمييز) ، وهذه عكس التغطية الثقافية والحضارية (وفيها يستقبل رجل المخابرات على أساس مشاعره السياسية وعواطفه الاجتماعية) . ولقد أنشأ شبكة من المخبرين لهم من الوسائل المؤثرة والفعالة ما لرجال « عيون المدينة » المستخدمين في جهاز الامن المصري . وقد ركز نشاطه حول موضوع « مدى استعداد الشعب المصري لقبول الشيوعية السوفيتية » محاولين التعرف على آراء كل فئة من الشعب مصنفة حسب مهنة الفرد مثل الفلاحين ، العمال ، الحرفيين ، المثقفين . . . وهي الجهات التي يحاول الشيوعيون خداعها والتأثير عليها . وكثيرا ما وضع رئيس فرع الوكالة المركزية نفسه مكان الشيوعيين كي يتعرف على الوسائل التي يحتمل أن يقوموا على اتباعها . ومع أنه محظور عليهم من قبل قيادة وكالة المخابرات المركزية أن يتوسطوا بأي تجسس مكشوف مثل التغلغل في الحكومة المصرية، والحصول على أسرار الحكومة الرسمية ، أو اغراء مواطن مصري بصراحا

لخدمة سلطة أجنبية فإن جهازه الذي نشط تحت ستار ما ، قد تمكن من الاستماع الى أحاديث صريحة (في كل المناطق) وإدراك آراء ما ، لا يمكن الحصول عليها بطريقة مخبري صلاح سالم ، أو حتى التقاطها بطريقة الاستفسار أو التحري بواسطة رجال « عيون المدن » .

وفي كانون الثاني (يناير) ١٩٥٤ قام بأول لينبارغر ، خير البنتاغون الفريد بفن الدعاية السوداء ، بزيارة للقاهرة ، وكان صلاح سالم قد استبدل بالمعيد عبد القادر حاتم الذي بقي في منصب وزير الارشاد القومي (وأصبح بعدها نائب رئيس الوزراء لشؤون الثقافة والارشاد القومي) لمدة عشر سنوات أخرى . وقام لينبارغر بتدوين نتائج دراساته ، وقدمت في شكل تقارير للمعيد حاتم ، الى جانب ما أنجز من أبحاث على عهد صلاح سالم ، وقام عبد الناصر بتوسيعها بعد تدوين ملاحظات ذكية جدا عليها نتيجة خبرته في السنة السالفة . وبعدها جمعت كلها في دراسة موحدة احتفظ بها عبد الناصر نفسه في درج مكتبه وأقلع عنها . وكما سنرى فإن عبد الناصر قد أدرك أن المراكز المختلفة التي عليه شغلها في مسرحيات « لعبة الامم » تتطلب أن يكون لدى العالم فكرة عن النواضع والاهداف المصرية غير الحقيقية . (إن عقدة التوفيق بين الرأي المصري الخاص والرأي المصري الرسمي الذي يحرص ناصر على عرضه للعالم جعل ثانيهما مقبولا عند أولهما لا تزال قائمه الى يومنا هذا .

في فصل لاحق ، فإن إحدى المحاولات الصريحة لإظهار الرأي الخاص والتي جرت في عام ١٩٦٨ انتهت الى النتيجة أن الشعب المصري لا يملك سوى حماس ضعيف (ان لم يكن معدوما) لاسترجاع هيبة العرب الضائعة في فلسطين . كما أنه لم يكن متحمسا أبدا لتحسين مكانة حزب ناصر السياسي الوحيد في البلاد . وقد عرفت هذا عن طريق جمع الاحاديث المتداولة في المجالس والسهرة الخاصة التي أظهرت أيضا رغبة الشعب في أن يرى ذاك الحزب ممزقا أربا أربا . وقد اضطر ناصر للدعاء أن الجماهير تطالب بصخب والحاح استمرار الحرب ضد اسرائيل ، وذلك حتى يتمكن من رص صفوف الاتحاد الاشتراكي العربي ثانية ، وليضيق الفرصة أمام الانهزاميين وأمام أولئك الذين فتنهم دعاية العدو ، وليبقى محافظا على بعض الاهداف التي ما زال في نفس الشعب المصري بعض المظف عليها) .

وأراء ناصر في موضوع التوفيق بين فن القيادة وبين طريقة طسرح
الاهداف غير الحقيقية أمام العالم ذات أهمية خاصة . ونضطر هنا لمناقشة بعض
جوانب التاريخ حديثة العهد بنا (وان كانت بعيدة الصلة عن موضوع كتابنا
هذا) وذلك بسبب سوء تصوير المؤرخين للعلاقات بين ناصر واللواء محمد
نجيب ، والذي لم يكن لهم الخيار في تصويرها بغير ذاك المظهر الذي يتناظر
مع ما سمعوا به وقرؤوا عنه . وحتى البروفسور « ليرنر » في كتابه الدقيق
« ذهاب المجتمع التقليدي » يقارن بين نمط نجيب ونمط عبد الناصر كطريقة
لشرح امكانية التقبل عند الشعب المصري لوسائل الاعلام العامة كطريقة للتغيير
الاجتماعي . وكانت جميع النقاط التي بيّنها صحيحة وجديرة بالملاحظة .

والحقيقة فان نجيباً لم يكن ذا طراز مستقل عن ذلك الطراز من الرجال
الذين يظهرون في دعايات التليفزيون . وقد قابلت امرأة انجليزية نجيباً مرة
وأخبرت السفير كافرّي بعد ذلك بأنه « شيطان بصورة مبهجة ، وبشع المظهر
ولكن بقدسية » ، ويفطي ذلك بابتسامة حارة . انه مظهر الاب المثالي
للمصريين . . وقد شعرت بنفس الانطباع خلال اللقاءين الطويلين مع نجيب .
فكان نجيب يحاول أن يضفي على نفسه صبغة المهدي ، أو صاحب الكرامات ،
وينشر هذا في ربوع الشرق الاوسط . وخاصة أن المصريين سيستهجون
بغيالات وتصورات من هذا القبيل ، وهي صورة المحتال الودود . وكان نجيب
من نوع المعبودين الذين يلتجئ اليهم المصريون في لحظاتهم الهادئة التي تتخلل
فورات العنف التي يدفعهم اليها المتزمتون من قادتهم . ولكن نمط كلامه
وتفكيره لم يكن من ذلك النمط الذي وصفه به البروفسور ليرنر .

وأما كتاب اللواء نجيب ، فقد كتب بقلم أحد الامريكيين الاذكياء مستر
ليه وايت ، الذي كان أيضاً مصمم الاقوال البليغة التي اشتهرت عن اللواء
نجيب . فقد طلب ليه وايت اجازة لمدة سنة يسافر خلالها خارج البلاد لاسباب
شخصية (ولم يكن بوسعه أن يعطي عذرا أوضح لتأطية مركز انطلاقه في
العمل) ووصل - ولربما فجأة - الى مصر في وقت كان نجيب فيه قد أصبح
شخصية بارزة في الصحافة العالمية . وقد استطاع أن يؤمن سلفة مالية من
صاحب دار النشر التي يتعامل معها وحصل على موافقة نجيب للمشروع
(وكذلك موافقة عبد الناصر الضرورية ولكن بعد جهد) ومكث في القاهرة سنة

من الزمن يقتضي أثر نجيب في أوقات طلمه ويطيل الجلوس في غرفة الانتظار، ولم ينس أن يشاركه حتى في العديد من اجتماعاته كما أغراء بمناقشاته وأحاديث طويلة .

كان ليه وايت من أشهر من برع في سرد القصص وروايتها . وقد أبهج السفير كافري بالقصص التي تدور حول نجيب ، كما أعطتنا تلك القصص صورة رائعة لعمدة قرية ماكر ، لكنه محبوب ، ولديه من الوقت ما يكفي لمقابلة كل انسان يواجه متاعب ومشاكل في حياته: مثل زوجة تشتكي من زوجها الممن على الخمر ، وزجل دين رأى رؤيا وعليه أن يجمع مالا لبناء مسجد في الحال ، واقطاعي يشتكي من مستأجري اراضيه . . ولكن عندما تكلم الكتاب عن فلسفة نجيب فقد كان يتكلم عن « ليه وايت » ، بدون أدنى التباس ، وكأنه ليبرالي أصيب بخيبة أمل ولم يجد مصرفا لطاقاته منذ انتهاء الحرب الأهلية الإسبانية . وكان وايت ومدير فرع وكالة المخابرات الامريكية الاقليمي (والذي كان كما ذكرنا أنفا تحت تغطية عرقية) يكرهون بعضهم البعض (مع أنسي أشك في أن يكون « ليه » قد عرف أن ذلك الرجل عميلا لوكالة المخابرات المركزية) . وبنت الاحاديث والمسامرات التي جرت بين « ليه » ونجيب (والتي كان يغلب عليها الطابع الديموقراطي) لأول وهلة على أنها ردود « ليه » في الدفاع عن نفسه أمام مدير فرع وكالة المخابرات المركزية الذي كان مؤيدا لناصر من رأسه حتى أخمص قدميه . وقد حاولت مرة أن أجرب نجيباً الى إحدى مقطوعات حكمه البالغة وسرعان ما ظهرت لي الحقيقة أنه ليس لديه حتى فكرة بسيطة عما كنت أتكلم عنه .

ولقد أتاحت لي الفرصة لكي أسمع من كبار الضباط ومن ضباط الصف الثاني الروايات الحقيقية حول ادخال نجيب ضمن مجموعة ضباط الانقلاب . وكان هناك ثلاث نقاط تبدو مشتركة بين هذه الروايات كلها :

١ - عندما كان عبد الناصر وأعوانه يصعدون تنظيم شبكة الضباط الاحرار ، شعروا بحاجةهم الى قائد برتبة عالية : « انسان كدكم تعرفوه وتولوه احترامكم ، ولكم الشرف والسرور أن تنضوا تحت لوائه حال سماعكم باسمه » وقد امتنعوا عن الانصاح عن اسم معين ، الا أن الحقيقة لم يكن لديهم أي اسم محدد يومها .

٢ - لم يكن نجيب هو الاحتمالية الوحيدة ، بل كان واحدا من جملة أشخاص للانتقاء منهم . وحتى اللحظة الأخيرة عندما أفلح عامر باقناع عبد الناصر بأن نجيباً هو الاختيار المنطقي ، لم يكن نجيب لتلك اللحظة على رأس القائمة .

٣ - مع أن لنجيب ماضٍ ناصع في الشجاعة ، وله شعبية واسعة عند الضباط ، فقد كانت ميزته الرئيسية فقدانه للطموح أو رغبته في السلطة . وقد اعتقد الضباط الأحرار أن بإمكانهم التعامل معه وتسييره .

وفي الحقيقة فقد استطاعوا ذلك، فقد قام خالد محي الدين العضو الشيوعي في بطنه عبد الناصر مع أصدقائه بالتلاعب بسلسلة من الأحداث أدت إلى اختيار نجيب لسدة الرئاسة ، ظنا منهم أنهم أقدر على سياسته والسيطرة عليه من عبد الناصر نفسه ، وأنه بالإمكان أن يحل محل عبد الناصر فيما إذا شق الأخير عصا الطاعة عليهم . وكان عبد الناصر بالتأكيد مدركاً لهذه الغايات . وعلى أية حال ، فإن لم يكن كذلك ، فناصر يدعي الآن أنه كان يعرف ذلك . ولكنه لم يكن يخشى أيًا من خالد وأصدقائه ، بل تركهم يمتقنون أن عليهم قيادة من اختارهم . ومهما كان فبعد نجاح الثورة واعتلاء نجيب سدة القيادة لم يكن أنصار نجيب - الذين يستطيع عبد الناصر أن يسوسهم - هم الذين أخذوا يوحون له أنه هبة التاريخ لمصر ، ولكن كان ذلك الإيعاء من « له وايت » . ومع أن أحد الضباط كان يكتب لنجيب خطابات له « له وايت » كان يقوم بتجميلها وتزيينها (بعد أن تكون قد ترجمت له إلى الإنجليزية) مدعياً بأنه يجعل منها أكثر ملائمة للأجيال القادمة كلها ، أو بعبارة أخرى حتى تصبح مادة مناسبة لكتابة ترجمة حياة نجيب التي كان « له وايت » بصدها .

وأما مفاهيم عبد الناصر حول مركز القيادة في الثورة - سواء قيادته أو قيادة أي فرد آخر أو أي رئيس صوري وضعه عبد الناصر نفسه أو غيره في مركز صوري لقيادة الثورة - فإنها مفاهيم مهمة وشيقة . وليس ذلك لإظهارها ناصر على أنه شخصية تاريخية لكفاءاته ومواهبه ، ولكن لأنها حازت أيضاً قبولاً وإعجاب المستشارين الأمريكيين ممن كانوا حول ناصر يومها .

وكان ذلك دليلا على نوعية مفاهيم وتصورات رجال دبلوماسية ما وراء الكواليس الامريكيين حول دور القيادة في المجتمعات غير الغربية .

ومع أن كيرميت روزفلت والمستشارين الذين أرسلهم الى مصر (مثل ستيفن ميد وجيمس ايلزبيرغر وباول لينبارغر ، وغيرهم) لم يتمكنوا من سياسة عبد الناصر أكثر مما يفعله الروس به اليوم ، الا أن مفاهيمهم حول موضوع القيادة وانطباقها على مفاهيم عبد الناصر نفسه بهذا الخصوص قد جعلت فلسفة ناصر في فن القيادة موضع عطفنا وتقديرنا ، مع أن كثيرا من النقاد الغربيين قد أخفقوا في ادراكها وفهم مفزاها . ولا يهمننا ما كان بقدرة عبد الناصر انجازه سواء رضي الغرب عليه أو سخط ، ولكن يهمننا اثبات الحقيقة أن كل ما أنجزه عبد الناصر قد حظي - وعلى الاقل وقتئذ - بتأييد الغربيين الذين كانوا حريصين كل الحرص على مصالح بلادهم دون أن يتبنوا مبادئ تتعارض ومبادئ العالم الغربي .

كان عبد الناصر يعتقد في البداية أنه لا يمكن حمل فرد واحد ، أو أمة كاملة ، على فعل شيء معين باتباع أسلوب الترغيب والترهيب وانما بخلق ظروف معينة تحمل الموجود في خضمها على أن يطالب بفعل ما يراد منه أن يفعله . فرغبات الجماهير ومنطلقاتها هي التي تحفزها على التحرك وليست رغبات قائدها أو طلباته . فالقيادة بمعنى أخسر هي مهنة . خلق الدوافع والحوافز ، . فمليك ، أولا ، أن تحرك الشعب وتهيج به بخلق حافز عنده لشيء ما ، وبعدها توجهه لهذا الهدف بأن تريه طريقة الحصول عليه والوصول له . وان كنت لا تستطيع هذا (وهذا ما يحدث عادة في البلدان الناشئة التي تتلهم للوصول الى الازدهار والرفق) فحاول أن تريه ما تظنه ، ويبدو لك ، انه الطريق الصحيح . فإن هذا يجعلك تبقى في سدة القيادة حتى يكتشف الشعب خطأ ذلك ويقرر غيره ، أو حتى يبرز انسان آخر بحلول أفضل وآراء أصوب .

وعندما دقق عبد الناصر قبل الانقلاب في أوضاع بلاده وحالتها، اكتشف أن الشعب فاقد الحوافز والرغبات ولا يود التحرك في أي من الاتجاهات . ولهذا رأى عبد الناصر أن عليه أن يحيط الشعب بظروف وأجواء تساعد على

تحريك الحوافز في نفسه وتوليد الرغبات عند أفرادهم . وما القائد الا جزء لا يتجزأ من هذا المحيط . وليس من الضروري أن يكون عبد الناصر هو القائد بنفسه طالما باستطاعته أن يخلق تلك الأجواء ويبقيها تحت سيطرته . وبعد استلام عبد الناصر علنا لمقاليد الأمور بدلا من بقاءه يوجهها من وراء الكواليس أضحت هذه الفكرة مدعاة للشك والتحقيق . فاما الذين يعرفون عبد الناصر عن قرب فيصدقونها . ويعتقدون أن السبب الذي أدى الى تغير الأحوال ليس تلهف عبد الناصر للسلطة بقدر ما هو تزايد نهم نجيب لها وشراسته اليها . فقد كان عبد الناصر يريد قائدا شكليا للثورة فقط . وكان بإمكان نجيب البقاء هكذا الى أبد الأبدين طالما بقي اقتناع عبد الناصر بهذا الموضوع قائما . فعبد الناصر من الطراز الذي يهتم بخلق الظروف وإيجاد الأجواء المناسبة بدلا من اهتمامه بتفرد بالسلطة على النمط الهتلري . وانني - والذين يعرفون ناصر - أشك أن تكون رغبته في أن يصبح معبود المعجبين به كانت رغبة دفينه في نفسه متصلة فيها منذ قيامه بالانقلاب وليست مجرد حدث طارئ تملكه يومئذ .

لقد اختير نجيب للملء منصب القيادة بسبب ميزات معينة أدرك عبد الناصر معها صلاحية نجيب للمرحلة الأولى من المراحل الثلاثة لتطوير البلاد . فقد كان الشعب المصري تحت ظل حكم الملك فاروق ساخطا ومستاء - بدون تطرف - وبدأ بنفسه عن كربه بالتذمر والدمدمة ، وكانت تلك الفترة أكثر الاوقات ألما في التاريخ المصري ، حتى الحالي منه . فالإطارات الاجتماعية للشعب لم تتفسخ بعد ، والمواطن المصري العادي كان لا يزال يشعر بأنه جزء من عائلة وعسيرة ومجتمع . ولكن الفرد في أفقر العائلات بقي قائما بحرمانه لانه لم يكن وحيدا في آلامه وعذابه ، ولانه اعتاد على العاقبة والحرمان حتى أضحي ذلك عادة في حياته وطبيعته لا مجال للتشكي منها . ولم يكن يشعر بتأثير الثقافة الغربية واهتمامها بحرية الفرد واستقلاله الا بعض الضباط والمفكرين وبعض من نبذهم المجتمع وشردوا . وقد كان عند هؤلاء فقط استقلال شخصي وإطلاع وتصورات كافية لتوليد الشعور بالنقمة وبالإضطهاد وكان عبد الناصر مقتنعا بضرورة تفتيت المجتمع الإقطاعي الموروث ، وإعادة تنظيم هيكل السلطة وأنظمة الحكومة كلها . (وكان هذا شبيها بما فعلت

القوى المستوطنة (أو المستعمرة) في بلاد عديدة في افريقيا وآسيا ولم يتحقق ذلك الا جزئيا في مصر) . وبعد ذلك عليه أن يستعد لمواجهة نتائج الاستيلاء السريع عند الامة . ثم بتصرف مدروس وباتزان وهدوء سيثير شعور السخط والاستياء عند الشعب ويثير نغمته ضد التقاليد المتفسخة ، وبعدها ينشر بينه التلهف للتطور والازدهار . ولن يفعل هذا حتى يكون في مركز يمكنه من تحقيق هذا التشوق والالحاح . ففي « الحالة الاولى » - ويكون على رأسها نجيب - اعتقد عبد الناصر أن بإمكانه ازالة العناصر التي يخلد وجودها بقاء المجتمع القديم مثل الاحزاب السياسية السابقة والاقطاعيين المقيمين بعيدا عن اراضيهم والشركات الاجنبية المتحكمة بالتجارة . بينما يدع التركيب الاجتماعي سليما حتى يشعر بالثقة والطمأنينة الكافية فيبدأ عندها بفهمه في جنباته ليرى ردود فعله . وعلاوة على صفاته السلبية (مثل رغبته بالبقاء زعيما شكليا) فقد وقع عليه الاختيار لمظهره كالأب المظوف بالشكل القديم وبدون دوافع ثورية .

لقد تخيل عبد الناصر أن « الحوافز للبناء والازدهار » هي المرحلة الثالثة في مراحل توعيته للشعب والنهوض به . وكان يعلم أنه ربما كان هناك بعض الوقت قبل الوصول اليها . ولم يكن ليسلم بتفسير تشاؤمي للفرص التي أمامه حتى أخبره أحد افراد فرق الاستشارة الامريكية التابعين له (آرثر ليتل كومباني في بوسطن) بما يلي : « حتى لو حصلت على مليار من الدولارات التي تحتاج اليها في خطتك الخمسية ، وحتى لو نجحت خطتك الخمسية نجاحا كاملا بدون أي تعثر وتوقف ، وحتى لو بذل كل فرد في المجتمع المصري قصارى جهده وغاية طاقته مستخدما كل الخبرة والمعرفة الاجنبية ، فان أفضل ما تهتطيعه حينئذ هو المحافظة على الوضع الراهن والحيلولة دون تفهقر أكثر الى الوراء » . وبعبارة أخرى ، فان على عبد الناصر أن يمارس أقصى مهارته لحث شعبه وتحسيسه ، وعلى الشعب أن يستجيب له كليا وبفعالية مائة بالمائة حتى يتمكن فقط من المحافظة على الحالة كما كانت سابقا دون أي انهيار . ومع كل هذا المجهود فلن تتوفر لقمة واحدة من الخبز كزيادة لاي فلاح ، كما أنه ان تزداد وسائل الراحة للفرد العادي في المجتمع . ولن يكون هناك تعليم أفضل أو أي تحسن في أي شيء على الاطلاق . وذلك لان الزيادة القصوى في الانتاج القومي تعادل زيادة عدد السكان سنويا . ولم يكن ثمة أحد على الاطلاق يحذون

استثناء عبد الناصر نفسه أو آرثر ليتل كومباني أو أي انسان ينظر نظرة واقعية الى المجتمع المصري-ليعتقد أن تحديد النسل سيكون موضع ترحيب الى الحد الذي يظهر اختلافا واضحا ، وتعديلا جذريا ، للوضع المتدهور .

ولم يكن عبد الناصر ليقبل هذه النظرة المتشائمة للحالة في مصر ، حتى أنه قال مرة لاريك جونسون : « يجب أن يكون هناك طريقة أخرى للعيش على وجه هذه البسيطة تتمكن بها الدول المائلة لمصر من احراز بعض التقدم الذي لن يحوز على اعجابكم أنتم الغربيون ، أو على اعجاب أفراد شعبنا الذين يشاهدون الافلام السينمائية الغربية ، ولكننا نعتبره نحن (من وجهة نظرنا) تقدما حقيقيا » . وعلى أي حال ، فقد أدرك ناصر أن شعبه يشاهد الافلام السينمائية الغربية ، وأنه حال تحرره من ربقة الحنين الى المجتمع الذي اعتاد عليه والفن ، فإن شهية أفرادهم وتلفهم ستتخطى الطريقة الجديدة التي يحاول عبد الناصر ابتداعها للعيش على وجه هذه البسيطة ، والتي لا يزال يلزمه وقت طويل لاستنباطها والتعرف عليها . وهكذا فقد أدرك عبد الناصر أن عليه التوصل الى حل وسط (أو مرحلة متوسطة) وهو ما نسميه « بالحالة الثانية » . وهي حالة تطوير البلاد بالبحث وبالترغيب ، والتي يمكنه فيها أن يخفف من شدة التباين بين الرغبات وبين فرص تحقيقها باللجوء الى أشياء أخرى بديلة .

« والحالة الثانية » هذه هي أكثر مراحل حكم ناصر أهمية لنا ، وذلك لأنها تساعد في فهم سلوك الحكام من النموذج الناصري Nasser Type Leader الذين تزدهم بهم طائفة « لعبة الامم » ، وتغلب نوعيتهم على أحكام الدول غير الغربية الذين يواجهون باستمرار أزمة الاختيار عند مفارق الطرق . وتتضمن هذه المرحلة المقومات التالية : (١) رفض القيم الغربية وكذلك النظرة الغربية لمستقبل العالم ، (٢) نكران الذات في سبيل القضية ، (٣) الثورة على النظام القائم والإطاحة به دون اعطاء أي فكرة عن النظام الجديد البديل ، (٤) تفضيل الموت على الانصياع لقواعد أساسية وذات مغزى تتطلبها اعتبارات « الحالة الثالثة » كالأزدهار ومضاعفة الدخل القومي ولكي ندرك أبعاد الرعب الذي تنطوي عليه هذه القواعد فمن الضروري أن نتصور الأوضاع العالمية في سنة ٢٠٠٠ م (كما تصورتها مؤسسة هدمسون في كتاب جديد أصدرته حديثا) التي

سعيو لسكان الشرق الاوسط بصورة توجب عليهم بالضرورة البقاء في « الحالة الثانية » .

ان المصري (أو الباكستاني أو الافغاني أو اليمني) السذي أثيرت فيه
كوامن ، يرى أن عام ٢٠٠٠ سينطوي على نقص فادح في الغذاء والمواد
الاولية ، وزيادة كثيفة في السكان تتنافس لاجل الحصول على تلك الحاجات
الحوية ، وعلى القوة التي ستقرر من سيفوز بما ينتجه العالم بتزايد من
اكتشافات لاساليب ذات مردود أفضل وبمادة أقل . ولل فرد المصري في أوائل
عصر نهضته ، فان ظاهرتين اجتماعيتين لمجتمع « أساطير العلم » تلوحان في
الافق وهما تنوعدان وتهددان ، أولاها : الهيمنة المستمرة « للصفوة المختارة »
في الغرب التي تمارس شبه سيطرة احتكارية كاملة على المعرفة العلمية ،
وثانيها : ازدياد سطوة « الصفوة » الغربية الظالمة على كل فرد آخر من الغالبية
المظلمى لبني الانسان ، حتى تتمكن من تأمين توزيع عادل للفضاء والغذاء ولكثير
من الحاجات الضرورية الاخرى بغية الابقاء - على الاقل - على أقل حد أدنى من
الحياة . ولعبد الناصر عقل حاد وبصيرة نفاذة حيال الامكانيات العلمية .
فهو - أكثر من أي انسان غير غربي - يعترف بحتمية الوصول الى مثل تلك
الظروف والاحوال (الآتفة الذكر) وأن الغرب هو الوحيد الذي يملك امكانية
معالجتها . ويتصور ناصر أيضاً أن « الصفوة » الانكلو سكسونية ستبقى منيعة
ومسيطرة على لعالم وستكون حياتها شبيهة بالطراز الامريكي الذي يراه في
أفلام السينما وفي التلفزيون ، في حين ستقتات البقية الباقية من العالم بما
ستقدمه لها الليبرالية الغربية من هبات ومنح (ما عدا اليابان التي لم تجر
ذاكرته في ارجائها بعد ليفكر في مصيرها) . وبالحقيقة ، فان ناصر يتصور
العالم كما يتصوره اولئك الطلبة المشاغبون . فهو لا يتمكن من اعاقه مجيئه ،
ولكن مع هذا فلا يزال يصر على رفضه ويحرض شعبه المهمل واللامبالي على
العمل عن طريق تخويفه بما يخبيء له مستقبل العالم من اخطار واحوال .

وخلال « الحالة الثانية » فانه يجب على القائد أن : (١) يشوه سمعة
النظام القديم الى حد يشعر معه الشعب بالخجل من أن يبقى ذاك النظام جزءاً
من كيانه ، (٢) يقدم ويعرض منافع ومكاسب مادية ومعنوية كان الشعب
محروم منها بسبب « العدو » مع أنها حق طبيعي للشعب لا ينازعه فيه أحد ،

(٣) يحشد ضد « العدو » كل القوى والطاقات التي عانت من الحرمان والفضل وخيبة الامل . وكان كل من ناصر ونكروما وسوكارنو وغيرهم يجرون حساباتهم على القاعدة التالية : في « الحالة الاولى » يمنح الشعب من امداد طاقاته وينصح بتوفيرها لاستعمالها في « الحالة الثانية » ، وفي « الحالة الثانية » تحشد الطاقات ضد العدو مع استمرار الشعب بتوفيرها دون توقف . وطالما أن الشعب لا يستعمل هذه الطاقة ضد النظام القائم فان هناك بارقة امل ان يتمكن القادة من اعادة توجيه هذه الطاقة في « الحالة الثالثة » واستخدامها في سياسة البناء والاصلاح .

ومن مستلزمات حشد العواطف وتهيج المشاعر في « الحالة الثانية » تكرار الذات . ان الفرد العادي من اهالي الشرق الاوسط يرى نفسه شخصا من الدرجة الثانية (وهو في نظره هذه أكثر وضوحا من اهالي الغرب الذين ينظرون اليه على أنه من الدرجة الثانية لاسباب عرقية - عنصرية) وبالتالي فلا يمكن انثارتة عن طريق التلويح له بالمنافع والمكاسب الشخصية كما نفعل نحن الغربيون في الخطابات السياسية وافتتاحيات الصحف والاعلانات التجارية . ولقد أدركت هذه الناحية من أحد ضباط عبد الناصر الذي سمعني أكثر من مرة وأنا أعرض أفكارى بنفس الطرق التجارية التي تعرض بها البضائع في « اوكازيونات » شارع ماديسون في نيويورك والتي بصراحة تبرز المصلحة والكسب الشخصي . فقد قال لي : « انك في هذه الثورة لن تغلح في حملنا على فعل ما نريدنا أن نفعله بأن نرغبنا بمكاسب نحصلها لاشخاصنا » فنقد تخليتنا عن هذا منذ زمن بعيد . اننا كلنا خدم لقضيتنا فأغرنا على فعل ما نريد بالوسائل التي نخدم قضيتنا » .

ان « المتزمت » هو الذي يضحي بمصالحه الشخصية في سبيل هدفه . وبالتالي ، فان تحديد هدف ما ، مثل أن يكون « عدو مشترك » ، يضمن التضحية ويحقق الانقياد الاعمى . فالانسان الذي يضمن بحياته في سبيل تحقيق بعض المصالح الشخصية الآنية يستترخصها ان كان الهدف ساميا وجديرا بذلك المستوى من التضحية والبذل ، كالنضال ضد « العدو » .

ان الطلاب الذين يتظاهرون للحصول على أوضاع أفضل والذين لديهم

فكرة واضحة عما يسمونه « أوضاعا أفضل » هم نوع مختلف تماما عن ذلك النوع من الطلاب الهائجين الذين لا هدف لهم سوى تحطيم أنظمة الحكم بدون أن يكون لديهم أية فكرة عن النظام البديل الذي سيحل محل الأنظمة القديمة . وعليه فإن الحكام من طراز عبد الناصر يفضلون النوع الثاني لهدف واحد لا لسواه . وهو أن أولئك الهائجين الثائرين ليس لديهم أفكارا واضحة محددة بخصوص الأوضاع الأفضل (ولهذا يقبلون بأي شيء) ، إلى جانب ملاحظة أخرى وهي أن الصنف الثاني هو أكثر النوعين استعدادا ليصبح متزمتا ومتعصبا ، في حين يصعب التلاعب بالنوع الأول لوضوح مفاهيمه ودقتها .

وهكذا فلامهداف « الحالة الثانية » كان عبد الناصر بحاجة إلى شيء من التزمت الموجه الذي يكفي فقط ليقاظ أفراد الشعب من سباتهم وليس أكثر من هذا وذلك خشية أن يفلت الأمر من سيطرته فيصبح خارج نطاق وسائله لتصريفه وتفريغه . وهذه هي النقطة التي بدأ عبد الناصر عندها يواجه الصعاب في الشؤون الداخلية . فكما سنرى لاحقا ، فإن تحركات عبد الناصر الممثلة حول طاولة « لعبة الأمم » كانت تتطلب شيئا من التأييد المطلق والاعمى في داخل البلاد (وهذا معناه « التضحية » بالمكاسب الشخصية في سبيل الأهداف) . ولكن الفرد المصري لا يمكنه أن يمنح هذا بسهولة . وبالتأكيد ، فمن الصعب أن يقتنع الفرد المصري بهذا النوع من التعصب عن طريق زعيم أو حاكم لا يؤمن هو نفسه بهذا النوع من التعصب والتزمت في داخل بلاده ، بل يؤمن به فقط عندما يُستخدم في أراضي أولئك الزعماء الذين يناصبونه العداء بغية إرهابهم وإحراجهم . كما أن ذلك الزعيم يرفض أن يكون هذا التعصب نتيجة عقائد متأصلة (أو غوغائية مطلقة التي لها نفس الاخطار) بل يسأل يريد أن يكون نتيجة منافع ومكاسب آنية وشخصية .

إن رجل الشارع في مصر لا يتمتع بفهم سريع أو بثقافة واسعة كإبن عمه السوري (الذي يتصف بسرعة تجاوبه مع مثل تلك الاغراءات) ولكنه أكثر هدوءا وأقل انفعالا ولا يميل إلى تصديق كل ما يقال له .

ويجب على عبد الناصر أن يكسب مقدارا أدنى من التأييد الشعبي لدعم تحركاته التي يقوم بها في « لعبة الأمم » والتي هي في الحقيقة من النوع الذي

يتطلب تأييدا شعبيا « متعصبا » . وكان عليه وعلى حكومته أن يبذلا اضماف الجهد الذي يبذله القادة السوريون للحصول على مثل هذا التأييد . ويمعجز المراقبون الغربيون عن فهم ضرورة توظيف عبد الناصر لقسط هائل من الجهد القومي فيما يسمى بالاتحاد العربي الاشتراكي (وهو حزب عبد الناصر الوحيد المسموح له بالعمل في البلاد) بسبب عدم ادراكهم « لنوعية » ذاك التأييد الشعبي الذي يحتاج له (وهو من النوع « المتعصب ») الذي يتطلب اتفاق مقدار مدهش من الجهد القومي لتأمينه وضمانه .

ومع أننا سنعالج « الحالة الثالثة » بشكل أوسع وأعمق في فصل لاحق، إلا أنه لا مانع من القول أن هنا كافة المفريات التي كان ناصر يقدمها للشعب في « الحالة الثانية » إنما كانت تخدم تماما أهداف « الحالة الثالثة » ، وهذا هو السبب الكامن وراء عدم تجاوب الشعب معها واضطرار ناصر للصياح ببله شديقه داعيا لها . ولقد أشار المستشارون الأمريكيون إلى أن مصر لن تشكل مصدر خطر وقوة إلا إذا تركت معتمدة على مواردها المحلية فقط . ولهذا فإن المساعدات الخارجية تشكل منطلقا حيويا لها . ولقد أدرك عبد الناصر نتيجة خبرته مع حكومة الولايات المتحدة ومع السوفييت أن حصوله على المساعدات الخارجية يتناسب طردا مع مدى اقتناع « هاتين الدولتين » بأهمية دوره وأنها قوة لها وزنها في « لعبة الأمم » . والسبيل الوحيد للوصول إلى هذه المرتبة لا يستلزم سلوك طريق نموذجي في البناء والإصلاح وإنما يستلزم تطوير قضية تسبب قلقا وخوفا للدول الكبرى التي - على الأقل - لن يكون لها الخيار في أن تنظر إليها بعين الجد والاهتمام . وكان بإمكان ناصر أن يستحث جهود شعبه عن طريق وعده بحياة اقتصادية أفضل ، إلا أنه: (١) لن يمر زمن طويل حتى يكون الشعب قد اكتشف زيف هذه الوعود ، و (٢) لن تكون يقطعة الشعب كافية لأن تجعل من ناصر عاملا حاسما في « لعبة الأمم » حتى يتمكن من الحصول على المساعدات الأجنبية بغية تدعيم وضعه .

إن مشاكل ناصر في « الحالة الثانية » تستدعي سلوكا غوغائيا مطلقا . وكما قلت سابقا ، فإن ناصر ينطوي على قسط كبير من الغوغائية لا يقل عن ذلك الذي يتصف به كثير من السياسيين الناجحين ومنهم المرشحين لرئاسة الجمهورية الأمريكية . إلا أن هناك فارقا واحدا : فالزعيم الغوغائي الصادي

يحاول أن يحدد وجهة الجماهير وذلك ليتصدر بعدها المسيرة بنفسه . الا ان الزعيم الفوغائي الناجح هو الذي يفلح في اقناع الجماهير أن تطالب من نفسها بالتوجه الى بيت يرى الزعيم أنه المكان الذي يتوجب عليها أن تتوجه اليه . وهذا ما يفعله الحكام من الطراز الناصري بوسائل غير مباشرة ، حيث يدفعون الجماهير لان تطالب بالتوجه الى المكان الذي يريدونه لهم ، ومن ثم ليتصدروا مسيرتها بطرق لا تختلف عن تلك التي يسلكها الزعيم الفوغائي العادي . ولعلنا نستطيع القول أيضا ان عبد الناصر بوسائله غير المباشرة يخلق عند الجماهير ميولا واتجاهات تجعلهم يمارسون الضغط عليه لاتخاذ اجراءات طالما تمنهاها وسمي لها . واتباع ناصر لكل هذه الاساليب لا يخرجها عن القواعد العامة المطبقة في « لعبة الامم » . وقد قال ناصر مرة لاحد السفراء الامريكيين : « انني افعل ما افعله لان الراي العام لا يسمح لي بفعل غير ذلك » . الا ان السفير الامريكي كان أكثر دهاء وخبثا عندما أجابه قائلا « ولكن سيدي الرئيس ، من هو الذي دفع بالجماهير الى هذه الحالة وتلك المواقف ؟ » . وهنا ارتسمت على شفطي الرئيس ابتسامة كلها رقة وعدوبة .

وبعدما مررنا مرور الكرام على هذه الطرق غير المباشرة ، يجدر بنا الآن أن نمطي ملخصا عنها . فهي :

● الدعاية :

ان الدعاية التي كانت احدى أركان جهاز القمع ، قد اعتبرت أيضا من ضمن وسائل اكتساب التأييد الشعبي وأصبحت احدى أركان سياسة البناء والاصلاح . وأما أهدافها فهي :

١ - تشويه سمعة الاعداء داخل البلاد باظهارهم مظهر المفسدين والمستهترين بأبسط فيم المجتمع واعتباراته الحقيقية . ومع أن المصريين يدعون أنهم ضد الفساد المالي الا انهم حقيقة عكس ذلك . ولهذا فان ثبوت الرشوة على أي سياسي لن يكون له سوى تأثير بسيط على حياته السياسية . ولكن اظهاره بمظهر الخليع الداعر غير المتدين يعني شيئا آخر أكثر تأثيرا . فالحملة التي سمح بها ناصر خلال سنتي حكمه الاولى والثانية كانت مليئة بالقصص البذيئة والروايات الفاحشة . ولقد شنت هذه الحملة لانها كانت

الوسيلة الوحيدة المجدية لجر أفراد الطبقة الحاكمة المصرية القديمة خارج
أبراجهم العاجية وتعريضهم أمام الشعب .

٢ - وكان هدف الدعاية الثاني الاطاحة بكل الامتيازات الإجتماعية التي
كانت تحمي الطبقات الارستقراطية ، والتي بقيت الى ما بعد تعريضهم من
الاخلاق والقيم الفاضلة . فلقد كان الخوف والرغبة من أفراد الطبقات
الارستقراطية متأصلا في نفوس أفراد الطبقات الفقيرة الى حد اعتبر فضح
الاسرار الجنسية للارستقراطيين أقل ما يمكن فعله لنزع خوف الطبقات الفقيرة
منهم . فقد كان أحد موظفي سفارتنا يقول : « ان المصريين يحبون « البكوات »
(ولهذا السبب فقد أحبوا الديبلوماسيين البريطانيين ولم ينل أمثالهم من
الامريكيين احتسرام المصريين) ، لكن عبد الناصر قام بتعطيل هذا
الخنوع لحاملي القاب « البكوات » التقليدية في مصر بشتى الوسائل الخبيثة ،
ومنها الافلام السينمائية وتمثيليات التليفزيون التي تمثل رجلا عاديا يطلب
بحقوقه ويضرب الاقطاعي صاحب الارض . ان مشاهد كهذه في قاعات السينما
المحلية قد أثارت الاشمئزاز في البداية ولكن سرعان ما ألغتها الجماهير .
فمشاهدة عامل على المسرح الآن تثير على رب العمل ، أو مجموعة من الفلاحين
تلقى الاحجار على ملاك اقطاعي سابق لن تثير سوى موجة من الهتاف عند النظارة ،
مع أن أعمالا حقيقية كهذه غير مقبولة اطلاقا في الحياة العامة خارج المسرح .

٣ - وهدفها أيضا أحداث موجة من الخوف والذعر في الطبقات
الارستقراطية (طبقة البكوات) عن طريق إثارة الشكوك حولها واتهامها بأجراء
اتصالات سرية مع فئات أجنبية تنوي غزو البلاد وإحياء النظام البائد وانزال
العقوبات بالطبقات الشعبية البائسة لعصيانها وتمردا . ونظرا لانه لا يتصور
وجود فئة أجنبية فاقدة العقل والتفكير الى الحد الذي يخطر ببالها الاعتماد على
فئة البكوات المصرية للقيام بانقلاب ضد حكومة عبد الناصر ، فقد كان لزاما على
الحكومة اذن أن تقوم بتزييف الادلة ضد المتآمرين المزعومين ، ونشر خطط
خيانتهم المصطنعة والمختلقة . وكانت بعض القصص المنتقاة بعناية والممزوجة
بالاشاعات ، تنشر بمهارة كافية للغرض ذاته . وفي خلال أزمة السويس (التي
اعتبرتها الغالبية الجاهلة برهانا على وجود طابور خامس موال للاستعمار) ،

قام فريق من الخبراء الاجانب باجراء استفتاء للرأي العام (بعد الحصول على موافقة عبد الناصر) ووجد أنه كان هناك فعلا خوف من الطبقة الارستقراطية المطرودة من المجتمع المصري وخاصة اولئك الذين يشك باتصالاتهم الاجنبية . ولم يكن هذا الخوف كافيا فقط لتمرد قسم كبير من المجتمع المصري على الروابط الاجتماعية التقليدية التي كانت تحول دون قبولهم بالثورة ، بل كانت كافية ايضا - بالاضافة الى عوامل الخوف الاخرى - لأن تشكل عنصر الخوف الرئيسي الموحد للامة حول رئيسها - كما سبق أن تكلمنا عن ذلك .

● الحزب السياسي الواحد :

استغرب كثير من الدبلوماسيين الاجانب ورجال الصحافة الاذكياء اعتماد عبد الناصر الحزب الواحد في النطاق السياسي ، واضطربوا من القيود المفروضة على الحريات المدنية . ولكن بما أنهم كانوا مطلعين على أهداف عبد الناصر للمرحلة الثانية، فانه من العجيب أن يدرك الانسان أنهم كانوا يتوقعون من عبد الناصر اي شيء غير تلك الاجراءات . فكيف يمكن لنظام فيه حزبان سياسيان ان يخدم تلك الاهداف وينجزها ؟ وكيف يمكن عندئذ تنفاذ حدوث أي تشويش أو اضطراب ، وذلك ما يجب على عبد الناصر أن يتجنبه بأي ثمن كان ؟ وان كان من الطبيعي بالنسبة للغربيين أن يدافعوا عن فكرة المعارضة الحرة كأساس لتطوير المجتمع السياسي المتمدن ويناقشوها مع دى توكوفيل (كاتب مشهور) فان مناقشتهم لعبد الناصر وتوقعهم اياه أن يفعل ذلك يوحى الى أنهم سذج وبسطاء جدا . وسواءا كان ناصر على صواب أم على خطأ ، فمن الطبيعي له وعلى الاقل أن يعتقد أن نظام تعدد الاحزاب السياسية سوف يتمخض - كما أخبر عددا من الزوار الغربيين - عن استمرار المنافسة بين الحزب المدعوم من قبل الامريكيين ضد ذلك المدعوم من قبل الانكليز وكذلك ضد الثالث المدعوم من السوفييت . وهكذا تبقى البلاد عرضة للتنافس بين هؤلاء الثلاثة الا اذا كانت لدى الحكومة القدرة المالية على منافسة هؤلاء الممولين الثلاثة الكبار لتدعم حزبا من افكارها وآرائها . وأكثر من هذا فهو مدرك تمام الادراك قابلية انجذاب العناصر المتفوهة من المجتمع المصري نحو الحركات المتطرفة ، وكذلك نزعة هذه الحركات المتطرفة في أن تكون ضد

الفئة الحاكمة مهما كانت نوعيتها وطبيعتها . واخيرا ، وبدون الموافقة لو المعارضة ، يجب على المراقب الغربي أن يدرك تمام الادراك أن مرحلة عبد الناصر الثانية - كما يراها بنفسه - تتطلب فترة من الانضباط والخضوع السياسي والاقتصادي والاجتماعي . وفي اثنائها يتمكن من حشد افكار وطاقات الشعب لدخول « الحالة الثالثة » الشائكة المرعبة . ان عبارة « الشعب الحر » ، كما يراها عبد الناصر ويفهمها ، بإمكانها أن تفعل وتنجز كثيرا في دولة غريبة مثالية . ولكنها لا تعني ، في دولة عربية نموذجية ، الا هدر الطاقات في طرق معطلة للانتاج ومعوقة له .

انني اوصي القارئ المهتم بالموضوع بقراءة كتاب « الجيش المصري في السياسة » لمؤلفه د- ج . فاتيكوتس ، للوقوف على تفاصيل أكثر وادق . وللاستمرار في موضوعنا فانه يجب علينا أن نقرر ما يلي : استنادا الى نظرة الحكام من الطراز الناصري الى الامور ، فان كل ما تحتاج اليه الجماهير - على حد رأيهم - هو حرية التصويت وليس حرية مناقشة أو معارضة ما هم مدعون للتصويت عليه (الا ضمن حدود الحزب الواحد الحاكم) . ففي الديمقراطيات الغربية يعتبر الحزب أداة يستعملها أفرادها للضغط على الحكومة وحملها على أن تفكر بطريقتهم . الا أن الحزب في مصر هو أداة الحكومة لحمل الشعب على أن يفكر بالطريقة التي يريد لها حاكم الدولة . ومن السذاجة المطلقة والغباء الصرف أن نتصور مهمة نظام الحزب الواحد غير هذا .

● الآلاف المؤلفة من الموظفين :

عندما ذهب فريق من المهندسين في فن الادارة الى مصر سنة ١٩٥٣ ، كانت بعثتنا ذات طابع رسمي وبهدف تنظيم ادارات ومؤسسات الدولة المصرية لتعطي أكبر مردود في الخدمة العامة وبأقل عدد ممكن من الموظفين . وبعبارة أخرى ، جعل الادارة ناعمة وفعالة . ولكن سرعان ما ادركت أن النظام الاستعماري البريطاني (أو النظام الذي كان سائدا في امريكا في عهد فرانكلين د . روزفلت) هو المفضل لبلد مثل مصر . ولا تزال ماثلة في مخيلتي صورة رئيس دائرة الجمارك عندما ارتعدت فرائصه أمام اقتراح قدمه أحد زملائي

بخصوص طريقة تصريف شؤون دائرته . فقد كانت الطريقة الجديدة المقترحة تساعد على الاسراع بالاجراءات الجمركية الشائكة ، وتقدم خدمات افضل لشاحني البضائع ، وتقلل من فرص التهريب من تسديد الرسوم المتوجبة . ومع ذلك فقد كانت موضع اشمئزاز وامتناع رئيس الدائرة لا لشيء سوى أنه لا يحتاج تنفيذها لأكثر من عشرة موظفين بدل الثلاثين موظفا المداومين يومها في تلك الدائرة . ولكن دهشتي قد زالت عندما التقيت بصديق بريطاني كنت أسمى حينئذ لاسم بعض نصائحه ، فقال لي : « لو كنت المسؤول عن معالجة الوضع ، فباعتقادي أنه يجب علي استخدام خمسين موظفا وليس عشرين الثلاثين إلى عشرة موظفين » . أن غاية الحكومة في مصر (من وجهة نظر أكثر عمقا) ليست خدمة الشعب وتسهيل مصالحه بقدر ما هي تجنب القسم الأعظم من الشعب التسكع في الشوارع بدل تركه عاطلا عن العمل مشردا ، الأمر الذي يجعله يشكل خطرا كاسحا . ولو أن بريطانيا لم تنفذ هذه الفاسفة في مستعمراتها ، فإن بلادا مثل الهند والباكستان ونيجيريا وغانا كانت ستحرم من قسم كبير من لابسى الياقات البيضاء الذين يشكلون الطبقة الوسطى فيها . ولن يجد عبد الناصر بعدها من ينتسب إلى اتحاده الاشتراكي العربي .

وفي أوائل ١٩٦٧ كان عند عبد الناصر حوالي مليون موظف مدني في جهازه البيروقراطي ، باستثناء ادارات الجيش والشركات المؤممة . أن مؤسسة بور آلن آند هاميلتن (وهي أكثر مؤسسات الدنيا جدارة في قضايا الادارة العامة) قالت ان الحكومة المصرية لا يمكنها أن تستخدم أكثر من ٢٠٠ ألف موظف . ولقد دفع عبد الناصر ثمن فوضى الادارة في بلاده . أن في حوزته مليونا من لابسى الياقات البيضاء من أفراد الطبقات الوسطى التي يقطن معظمها في مدينتي الاسكندرية والقاهرة ، والذين عليهم أن ينضروا تحت لواء الاتحاد الاشتراكي والا لما خدموا أهداف زعيمهم . أما بخصوص موجة الفساد فذلك نتيجة لا بد منها لظاهرة حشو الادارات بما لا يلزم من الموظفين . وقد استخدمها عبد الناصر كما استخدم دامون ورونيون الاتجار بتذاكر السينما (١) لتمويل مشروع مكانة السرطان . وبدلا من الاكتفاء بملء الجيوب بالطرق غير المشروعة ، فقد عمدت طبقة عبد الناصر البيروقراطية (طبقة الموظفين وخاصة التي

(١) البيع بسعر أعلى من سعر الشراء بقصد الربح - يقصد أن الطريقة تجر ويلات أشد .

هي في تماس مباشر مع الشعب مثل وزارة الشؤون الاجتماعية والداخلية والثرية) الى خدمة الامة والنظام تماما بنفس الطريقة التي خدمت بها قاعة التاماني (١) مرة الحزب الديموقراطي في نيويورك .

● الأسطورة :

كان ناصر طرفا في العديد من الدراسات والمناقشات التي دارت بينه وبين المتأمرين معه من الضباط ، وقد تحل فيها بالصبر والناة . الا أن تلك المناقشات لم تكن سوى من النوع الذي يرمز له بأنه « جيد ان كان بسابقين وسيء ان كان بأربع » . وقد أدرك ناصر دائما أنه حتى أقل الناس ثقافة - الى جانب غيرهم من المثقفين - لا بد من استمالتهم عن طريق تقديم مغريات أكثر واقعية وحيوية من تلك التي بمقدور ضباطه الاعلان عنها امام الشعب .

لقد بذل ناصر قصارى جهده للعثور على « باعث ومحرض » يملك توحيد الامة وتجميع شملها حوله . لقد كان ناصر بحاجة الى « عامل ما » ذي تأثير شبهي بتأثير الاضراب العام على نقابات العمال في فرنسا ، أو شبهي بتأثير الثورة الحمراء الذي يريده ماركس . وبعبارة أخرى ، لقد كان ناصر بحاجة الى ما عبر عنه « جورجس سوريل » منذ أكثر من سبعين سنة ، وحسده باسم « الاسطورة » وهي : « عبارة عن مجموعة تصورات وانطباعات تملك القدرة على اغارة كل المواطنين والمشاعر بطريقة غريزية وأن تتخذ طابعا مائلا لاحد أوجه الحرب التي تشتتها «الاشتراكية» ضد «المجتمع الحديث» ، الا أننا يجب - في مقامنا هذا - أن نستبدل كلمة « الاشتراكية » بلفظة « الثورة » وكلمة « المجتمع الحديث » بلفظة « أعداء الثورة » بغض النظر عن قصد ناصر الحقيقي من وراء هذه الالفاظ .

وليس من المهم أن يعني ناصر أي شيء محدد من وراء تلك الالفاظ . فربما تنجح الاسطورة في حشد المواطنين ضد أي « مجهول كبير » وذلك لان الاسطورة لا تعني حقيقة سوى مناشدة المواطنين دون العقل والتفكير السليم . وكل مستلزمات الامر - كما يقول سوريل نفسه - هو « توفر مجموعة من الرجال ليشاركوا في حركة اجتماعية ضخمة شريطة أن يتوفر عندهم الانطباع

(١) مقر قيادة الحزب الديموقراطي في نيويورك ويعني انها لم تنفعه بشيء .

أن عملهم هذا إنما هو المعركة التي سيمحقق لفضيلتهم فيها الانتصار بصورة أكيدة لا شك فيه ولا التباس ، • ولربما تكون الاسطورة على درجة كبيرة من القموض والابهام ، أو أنها ناقصة التفاصيل • ولربما تظهر على أنها ليست أكثر من مجرد أحلام لا وصف لها ولا تحديد • وليس من الضروري أن يكون هناك أي ارتباط بين الحقائق الملموسة وبين الانطباع الذي كوّنه الشعب لنفسه قبل أن يباشر العمل (ولا يشترط وضوح هذه العلاقة - أن كان هناك أي منها - للرجل المفكر) • فالأساطير ليست شروحا وأوصافا لأشياء محددة ، ولكنها تعابير عن التصميم على العمل والعزيمة على النضال • ولا يمكن دحض الاسطورة أو تكذيبها وذلك لأنها تكون في الأساس منسجمة مع اعتقادات المجموعة ، كما أن الاسطورة هي بحد ذاتها تعبير عن تلك الاعتقادات ولكن بلغة العمل والحركة • وبالتالي فإنها صعبة التفكيك ولا يمكن ردها إلى العناصر التي تكونت منها لإعادة دراستها وتسلسلها التاريخي والتحقق من أصلها • ومن غير أن أكون واقفا من أن ناصرا قد قرأ كتاب سوريل أم لا ، وبدون استعمال كلمة «الاسطورة» نفسها، فإن ناصرا كان يعبر بين الحين والآخر عن أفكار مشابهة للأفكار السالفة الذكر مع فارق بسيط • ولم يختلف ناصر كثيرا عن مدير تلك المدرسة التي ينتسب طلابها إلى طبقة « أصبحت غنية حديثا » والذي اجتمع بهيئة المدرسة وطلب منها تقرير تقاليد جديدة تتبناها المدرسة وتكون ذا تأثير على عائلات الطلاب • فقد قرر ناصر أن يتخذ لنفسه طابعا مميزا وبالتالي أن « يتبنى أسطورة » معينة • ومع أن ناصرا قد اختار أسطورة لا تمثل أيًا من طموح الشعب وآماله إلا أنه تفاعل أن يتخذ الشعب من تلك «الاسطورة» مبادئ له وأهدافا •

ولا ندعي أن عبدالناصر بدأ من الصفر : لقد بدأ بإدراك تام لتخيلات وأحلام الشباب المصريين بنفس الطريقة التي يحلم بها المراهق الغربي بانقضاء فتاة رائعة الجمال من عمارة تستمر فيها النيران ، أو بطريقة الموظف العائس كثير الصياح الذي يتخيل أنه (على طريقة والترميتي) يستطيع أن يسز رب عمله المستأسد ويتفوق عليه • فالفتى المصري يتصور أنه بطريقة ما سيتغلب على الاوربيين الذين احتقروه لزمّن طويل • ولقد سمعت ضباط عبد الناصر الاحرار وهم يتبادلون القصص المفصلة لساعات طوال من غير انقطاع ، عن

بطولاتهم ضد قوات الاحتلال البريطانية ، وكل تلك القصص مزيفة من غير شك . وكان عبد الناصر مدركا تمام الإدراك للنشء الذي سيجعل منه بطلا في أعينهم . وكما قال دانيال ليرنر : « المتفائلون - فقط - في الغرب فسروا استيلاء عبدالناصر على السويس (كمثال) على أساس انه قام به بدافع الحصول على رسوم القناة وعائداتها » . لقد عرف عبد الناصر كيف يصبح رمزا لنهضة الشعب المصري المضطهد . وكما قال مورد برغر : « لقد حاول اذلال كل من أذل العرب » . وبعبارة أبسط ، فلقد ظهر على أنه أول « منتصر » ، منذ سنوات طويلة خلت ، وفي دولة اعتاد شعبها على أن يعتبر نفسه من الخاسرين دائما . وكونه منتصرا ، فلقد حاول أن يظهر في مظهر متواضع عندما كان يصف نفسه على أنه مجرد ممثل أعلى للشعب ، ولا يستبعد أن يكون ذلك أصيلا في نفسه . وهكذا فهو يشبه كلا من موسى وكرومويل ولينين . ان ثقة ناصر الفائقة بنفسه يشعر بها كل من يقابله ، وسبب ذلك أنه - كأولئك النماذج : موسى ، كرومويل ، لينين - قد ملأ دورا في مسرحية كان يفتش مخرجها عن ممثل ينجح في تأدية ذلك الدور ، كما أنه قد أفصح عن هذا في كتابه « فلسفة الثورة » . ولهذا فان تأديته لذلك الدور عدل أخلاقي ومثالي بدون أدنى ريب ، كما أنه جزء لا يتجزأ من « الاسطورة » . وأما أتباعه فانهم - شعوريا أو لا شعوريا - يرون علاقتهم بتلك القوة العظمى قد تجسدت فيه ولسكن دون أن يكون لديهم أي تحديد لتلك القوة العظمى ، (وبالطبع فان هذا غير ضروري لاستكمال الاسطورة) ، ولكنها - على الأقل - هي تلك القوة التي وضعت المصريين مع الاوربيين حول طاولة واحدة دون تفريق أو تمييز . (ويرى عدد من علماء الاجتماع أن حب المصريين للاوربيين وكراهيتهم لهم في آن واحد جزء هام في التكوين العاطفي للمصريين) . كما أن تلك القوة قد جعلتهم أعلى بمرتبة - أو بمرتبتين - من سائر الشعوب العربية الاخرى . (ولا بد من ادراك حقيقة مهمة جدا وهي أن فكرة « القومية العربية » ليست جزءا من « اسطورة » ناصر ، الا أن مفهوم كون مصر « رائدة العرب » قد غدت جزءا مهما من الاسطورة) .

وبعبارة اخرى ، فان أسطورة عبد الناصر هي مجموعة تصورات وانطباعات تحيط بمعركة الرجل الملون (العرب والمسلمين والافريقيين) وهي دوائر عبد الناصر الثلاث (ضد الاوربيين (السوفييت والغربيين) : معركة

يثق فيها الرجل الملون كل الثقة من أنه سيفوز في النهاية . كما أن استخدام عبد الناصر لرعيده في أجهزة البناء والاصلاح (مثل الدعاية ، الحزب السياسي الواحد ، الآلاف المؤلفة من الموظفين) يهدف الى تخليد تلك « الاسطورة » . ومع اننا سنستعرض في الفصول اللاحقة كيف انتقل ناصر الى مرحلة الحكم البونابرتية (مفوض الشعب) فان نظرتنا حول ناصر واسطوره ستكون ذات خدمة جلييلة خلال استعراضنا لمحاولات ناصر للربح ولاكتساب التأييد الشعبي وكيف أنها قد أثرت كثيرا على مرونة حركته ومناوراتها في « لعبة الامم » (١) .

(١) ملاحظة للقارئ :

وسائل القمع تعني : القوات المسلحة ، وسائل الدعاية ، المخابرات ، الامن العام (البوليس) ، التشريعات والانظمة .

وسائل البناء تعني : الدعاية والاعلام ، الحزب الواحد الحاكم ، الاجهزة البيروقراطية الضخمة (الآلاف المؤلفة من الموظفين) وكلها تخدم تخليد « الاسطورة » .

ونلفت نظر القارئ انه للوقت يعني بكلمة « المرحلة » على أنها احدى تلك المراحل التي سبق ذكرها صفحة ٢٣ في « التقرير » . واما كلمة « الحالة » فهي شيء آخر (انظر اسفل صفحة ١٥٤) . (العرب)

ناصر وأحساد الإيجابي

... اما استراتيجية اللعيف العاجر فهي الايقاع بين الاقوياء. عليه ينبغي بنفسه

في اوائل ١٩٥٣ ، لم يعد خافيا على عبد الناصر أن الاقتصاد المصري لن يقوى على الوقوف دون مساعدات خارجية . ومع أن تقرير آرثر ليتل لم يكن يومها قد نشر بعد فان عبد الناصر كان يطمح بمساعدات ضخمة تفوق تقدير أكثر الجهات احتمالا لتقديمها الا وهي الولايات المتحدة . وقد حدد عبد الناصر بدقة ووضوح معالم الدور الذي يتحتم عليه أن يلعبه على المسرح العالمي حتى تقتنع الولايات المتحدة باعادة النظر في سياسة مساعداتها الخارجية لصالحه . الا أن ناصرا قد أدرك أن ذلك الدور لم يكن منسجما مع أوضاع البلاد الداخلية ، فهو ليس في « الحالة الاولى » (١) ، وهذا ما اضطره الى الأخذ « بالحالة الثانية » (٢) . وكان المراقبون الغربيون يميلون الى أخذ تصرفات ناصر في « الحالة الثانية » ، والاهداف التي يعلن عنها على اساس معناها الظاهري ودون النظر الى ما وراءها من دوافع ، ولهذا فقد كانوا يحكمون عليها بالفشل . لقد كسب عبد الناصر الحد الذي يطمح اليه من عواطف الجماهير دون أن يدفع بها

(١) الحالة الاولى (من الفصل السابق) : يحاول ناصر أن يزيل القوى التي تركز بقاء المجتمع القديم وهي مثل الاحزاب السياسية ، الاقطاعيين ، الشركات تحت السيطرة الاجنبية مع ترك التركيب الاجتماعي دون تغيير .

(٢) الحالة الثانية (من الفصل السابق) : حل وسط ، وهو تطوير البلاد بالبحث والتريسيه للتخفيف من شدة التباين بين الرغبات وفرص تحقيقها باللجوء الى اشياء بديلة . ومن مقوماتها : رفض القيم الغربية والاعتبارات الغربية لمستقبل العالم. تكرار الذات في سبيل القضية ، الاطاحة بالنظام القائم دون توفر صورة واضحة عن النظام البديل ، رفض الخضوع الى القواعد التي تتطلبها « الحالة الثالثة » حالة الازدهار الحقيقي . وتستلزم الحالة الثانية سلوكا غوغائيا .

الى تطرف يفقده السيطرة عليها . الا انه قد ابقاها من القوة بحيث لا يتجبرا
معهما أصحاب النظرات الواقعية من المصريين أن يفصحوا عن رأيهم أن « مصر أولا » ،
ذلك أن أي احتجاج على أساس من هذا الرأي سيضيق الكثير على ناصر ويجعله
سلاحا أمضى بيد الوزير دالس . وعندما حان وقت بحث المساعدات المالية مع
الحكومة الأمريكية كان ناصر قد هيا مسبقا الرأي العام بصورة مدروسة يظهر
معهما أمام الأمريكيين وكأنه مقيّد بسياسة معينة لا خيار له فيها (وهي السياسة
التي يريدونها لنفسه) .

وقد تميزت الرسائل التمهيدية بين مصر والولايات المتحدة ، بخصوص
موضوع المساعدات المالية بامتلائها بالعبارات المبتذلة مثل « السلام والاستقرار
في المنطقة » ، و« بعض المقتطفات من خطابات الرئيس آيزنهاور » ، مثل « لقد ولدت
امتنا لأن شعبها سيكرس نفسه للحرية والعدالة » ، ومن مذكرة رسمية للوزير
دالس « أننا نبغى سلما عالميا وعادلا للجميع » . وقد استمر تبادل مثل هذه
العبارات الى الحد الذي أثارت شكوكا مخيفة في نفس عبد الناصر . وظن أن
الأمريكيين مهتمون حقا بكل هذا الهراء والسفسطة ، وبدأ يعتبرنا على أساسها
أما مغفلين أو نحسبه — هو — كذلك . وعندما بدأ بحث الأمور بالتفصيل ارتد
الأمريكيون الى انتقاء الفاظ ومعاني يفهمها عبد الناصر وضباطه جيّدا .
فالرئيس ايزنهاور بكل خطاباته الممتازة (والتي كان فيها صادقا من قلبه)
كان يمثل اليانكي الوطني القديم . فلم يكن فهمه للسياسة الخارجية التي
تهدف الى رعاية المصالح الأمريكية المحضة فهما أجوفا . بل كان ينظر من
خلال ذلك الى الطموح الشيعوي . فهو كمسكري يرى أن هذا الطموح مبرز
بوسائل عسكرية ، مثل الوسائل التي اجتاحت النازيون بها أوروبا . وأن الدفاع
المنطقي ضدهم ، هو الدفاع العسكري ، الذي يبدأ أولا عن طريق منظمة حلف
شمالى الاطلسي (ناتو) ، وتشترك فيه الدول الأوروبية ، ومن ثم بإحلاف
شنيهة به في بقية أجزاء العالم . وأما منظمة الدفاع عن الشرق الأوسط « ميدو »
فكانت أولى تلك الأحلاف الواجب تنفيذها بعد حلف شمال الاطلسي .

وفي ٥ آذار (مارس) ١٩٥٣ اجتمع انتوني ايدن وجون فوستر دالس مع
الرئيس ايزنهاور ليتباحثوا في أمور الدفاع عن الشرق الأوسط بصورة متكاملة .
وفي الوقت الذي كان يعني ذاك الاجتماع ، بالنسبة للرئيس ايزنهاور ، ضرورة

اخراج « حلف الميدو » الى حيز الوجود فقد كان لا يعني ، بالنسبة لانتونسي ايدن ، سوى الاحتفاظ بالقواعد العسكرية في الشرق الاوسط تحسبا لنشوب اي نوع من النزاع العسكري : من الحرب المحلية التي ربما تعيق استخدام قناة السويس ، الى حرب عالمية ثالثة ، او من حرب بين فرقاء آخرين ، مثل حرب بين العرب واسرائيل ، الى حرب بين بريطانيا وحلفائها وبين الروس . وكان هناك سؤال خاص يتعلق بمصر . فقد كان عبد الناصر ومجلس قيادة الثورة يخشون على انفسهم من الانجليز ، اكثر مما يخشون الروس . وليس الشرق الاوسط براهم معرضا لخطر أي هجوم مسلح من الروس . ولم يكن لعبد الناصر أية رغبة بالمشاركة في معاهدة « الميدو » ، كما انه لم يكن له رأي في بقاء او زوال القواعد البريطانية من الشرق الاوسط لما كان ايا منها لن تبقي في مصر . ومن ناحية أخرى كان عبد الناصر يلح على طلب المساعدات العسكرية من الولايات المتحدة الأمريكية . وكان يطلبها حيثما لاغراض الامن الداخلي ولجعل من جيشه الرث المهلول - كما اخبر ناصر دالس - جيشا فخورا بنفسه ليصبح الدعامة الأساسية في جهاز الامن داخل البلاد . واذا ما قدر وكان لجيشه أية مهمة عسكرية فلن تكون ضد السوفييت ، او أية قوة أوربية أخرى ، وانما للدفاع ضد اسرائيل وللتدخل ضد بعض الدول العربية المتوافقة له .

ولم يكن أي من الامريكيين او البريطانيين مخدوعين بوجهات نظر عبـد الناصر . فأراؤه بالدفاع عن المنطقة واضحة لا غموض فيها في تقارير المخابرات الامريكية المعاصرة له يومها . ومع كل ذلك فان اجتماع ه آذار (مارس) كان يدور حول فرضية أساسية وهي : أنه ضمانا لسلم عالمي عادل لجميع الشعوب ، فان الامريكيين يرون ضرورة قيام منظمة دفاعية اقليمية كمنظمة « الميدو » ، او قيام اتفاقيات (حسب اعتقاد البريطانيين) تخول البريطانيين - بدون او مع الامريكيين - حق اقامة القواعد في حالة نشوب أي نوع من الحروب او الثورات التي تهدد القنـاة . ولم يكن في صالح عبد الناصر أن نحقق كسبا لأي من هاتين الفرضيتين . ومع أننا كنا على معرفة بموقفه هذا فاننا قد تجاهلناه عمدا . ولماذا تجاهلناه ؟ لان هذه هي الطريقة التي تنجز بها الامور بين دولتين ذات سيادة في محاولتهما الوصول الى اتفاق ، طالما أن مرونة هذا الاتفاق وسهولة تنفيذه هما الهدف وليس الهدف معاني الاتفاق ونصوصه .

وأما الذي حدث بين البريطانيين والمصريين في الوصول إلى اتفاقية حول قاعدة السويس فقد ذكر بأسهاب في مواضع أخرى (وعلى سبيل المثال كتاب انتوني ايدن « الحلقة الكاملة ») . ولكن هناك جانب من جوانب هذه القصة يجدر ذكره في كتابنا هذا لأنه : أولا لم ينشره أحد بعد ، ولأنه ثانيا ، على علاقة قوية بموضوع دبلوماسية ما وراء الكواليس . ففي كتابه ، قال انتوني ايدن : « رفض المصريون فكرة وجوب مشاركة الأمريكيين في المفاوضات ، بينما رأى الرئيس ايزنهاور أن موافقة المصريين شرط ضروري للمشاركة » . وبعدها بقليل ذكر ايدن : « لقد كان من سوء الحظ أن لا يكون عند الحكومة الأمريكية أو خاصة عند سفيرها في القاهرة ، أي استعداد لممارسة أي ضغط على المصريين للحصول على موافقتهم » . وأظن أن عند اليابانيين مثلا دارجا يقول « أعرف أنني أراه ولكنني أتجاهل ذلك » ، وذلك للدلالة على ما يقع عندما يجتمع ذكر وأنثى عاريان تماما في بحيرة سباحة واحدة ، ولكنهما يتجاهلان بعضهما البعض لياقة ، في حين أن كلا منهما عنده القدرة الكاملة على رؤية الآخر ، ولكنه يتقادى - على الأقل - الالتقاء به صدفة . اننا بحاجة لعبارة ماثلة مثل « اننا ندرك ما هو كائن ولكننا نتجاهل علمنا به » ، لكي نفسر تاريخ حياة الرجال الشرفاء ، الذين كانوا وقت وقوع بعض الاحداث السياسية على اطلاع تام بالاجراءات خلف الكواليس التي كانت تمت المفاوضات بالحياة ، ولكنهم بعد ذلك غسلوا ادمغتهم وتناسوا كل ذلك . حتى أن ذاكرتهم لتحفظ بالصور التي تناسب فقط مع مبادئ ومقومات أدبهم واحتشامهم . (في كتاب ايدن « الحلقة الكاملة » سيتذكر القارئ كيف يتنصل ايدن من أية مفاوضات مع الفرنسيين والاسرائيليين ، سبقت تحركاتهم ضد مصر في سنة ١٩٥٦) .

والحقيقة أنه خلال اجتماع ٥ آذار (مارس) ١٩٥٣ وافق الرئيس ايزنهاور على ارسال اللتنتانت جنرال ر . آ . هول (ضابط يثق به كثيرا) إلى القاهرة لمساعد المفاوضات البريطانيين . ولكن السير انتوني لم يتحمس كثيرا لهذه الفكرة . وبعبارة أوضح ، فإن مساعدي السير انتوني لم يتحمسوا لتلك الفكرة خلال جلسات التفاصيل التي كانت تبعد بين الموظفين المسؤولين من كلا الطرفين الذين كان يقتصر عملهم على التقاط الفتات من الأرض بعدما يكون رؤسائهم قد جرفهم الحماس في اجتماعات تاريخية اعطوا فيها موافق ، وقطعوا

على انفسهم عموما ، لا يعلمها الا الله . ولم يكن عدم حماس مساعدى ايدن
أقل من عدم حماس السفير الامريكى كافري في القاهرة عندما نقلت اليه انباء
البرق نفس الفكرة الآتفة الذكر ، فقد سارع كافري الى توضيح الحقيقة ان
الحكومة الامريكية قد حققت اتصالا وثيقا مع المصريين ولكنه شخصى وغير
رسمى (وكلمة « غير رسمى » تعني في لغة « دبلوماسية ما وراء الكواليس »
أشخاصا - او نشاطا - يمكن أن يتخذوا طابع الرسمية بعد أن يتحقق النجاح ،
ولكن في حالة اكتشاف الأشخاص فانهم يوصفون بأنهم لا يتمتعون بصلاحيات
رسمية) وان هذا الاتصال المذكور سيكون مساعدا للبريطانيين أكثر من حضور
مفاوض امريكى - مهما كانت جدارته - على طاولة المفاوضات . بل وأكثر من
ذلك ، فان مجيء أي من المسؤولين في البيت الابيض بواشنطن سيضعف مركز
كافري في هذه العلاقة . وأخيرا فان المسؤولين في وزارة الخارجية ، الذين
كانوا يلاحقون حثيثا الاقتراح القائل بإرسال الجنرال هول ، رفضوا نفس
الفكرة لخشيته أن الجنرال هول (مثله مثل ايزنهاور) سينظر الى موضوع
معاهدة « الميدو » على أنها اقتراح جدوى ، وسيجعله مدار بحث مباشر مع عبد
الناصر دون أن يمهّد له بغمزات ولمزات يتبادلها معه بالذات .

وبخصوص الطرف المصري ، فقد أدرك عبد الناصر تماما أن المعاهدات بين
دول كبيرة ودول الفريقية آسيوية صغيرة ، هي معاهدات سريعة الزوال ،
سهلة النقض ، وبالتالي فباستطاعته أن يتملص من أي من بنودها التي لا تروق
له بعدما يتسلم المساعدات العسكرية التي تعتبر جزءا من الصفقة . وأما
جنرالاته فقد كانوا أقل حنكة وخبرة . فناصر - مثل كافري ومثل كبار
المسؤولين الاذكياء على طرفي الاطلسي - قد تخيل الجنرال هول جالسا مع
الجنرالات المصريين ، يتباحثون بجدية واحتمام ويتبادلون ما لديهم من أدلة
وبراهين وردود عليها - بخصوص معاهدة دفاع اقليمية - الى الحد الذي يفقدون
فيه صبرهم تجاه بعضهم البعض . وتكون النتيجة ضياع الاتفاقية الانجليزية
المصرية بين الاقدام .

وبدرجات متفاوتة من الضراعة ، فإن المشكلة كلها كانت موضع معاش بين
الامريكيين والبريطانيين (على مستوى مسؤولين ومنفذين) ، وبين المصريين
والامريكيين (كافري - ناصر) ، ولربما بين البريطانيين والمصريين . وتحت تلك

الظروف كان الطريق الوحيد لانهاء القضية هو أن يقوم المصريون بإعلان رفضهم لها رسميا . وعندما بدأ ايدن يدون مذكراته ، كان قد نسيها . ولكنه أخبر .
وقتها أن الأمريكيين سيقدّمون مساعدة غير رسمية ، ولكنهم (لأسباب يستحسنها هو دون سائر الناس) لا يستطيعون المشاركة في المناقشات فعلا .

أدت محادثات الوزير جون فوستر دالس مع عبدالناصر في القاهرة في أيار (مايو) ١٩٥٣ الى وضع فكرة منظمة « الميدو » على الرف نهائيا . وان لم يكن كذلك ، فلقد حولتها على الأقل الى فكرة للمستقبل بدلا من كونها محتملة التنفيذ في الوقت الحاضر . وأصبح السفير كافرّي حرا لاستئناف مهمته التي أولاها كل أهمية كبيرة وهي : التوصل الى اتفاقية عسكرية بين المصريين والأمريكيين تسهل لحكومتنا تزويد عبد الناصر بالأسلحة اللازمة لحفظ الأمن الداخلي ، وبخمس الوقت تمزّز الفرص أمام البريطانيين لأن يحصلوا على أي اتفاقية من أي نوع يثلج صدورهم ويشفي غليلها . وعلى خلاف ما يتذكر ايدن ، فالامر السابق كان وفقا على الامر اللاحق . وكما فهمها يومها عبد الناصر ، وكما يفهمها اليوم . فان التنسيق بين الأمريكيين والبريطانيين فيما يختص بسياسة الدفاع الدولية له الاولوية الكبرى - عند واضعي خططنا - على علاقاتنا مع أي زعيم في الشرق الاوسط (منذ عهد الرئيس ايزنهاور الى عهد أي رئيس سينتخب في المستقبل) .

وقد احتجزني السفير كافرّي في آب (أغسطس) لمدة من الزمن ، بينما كنت في طريقي الى تناول طعام الغداء مع عبد الناصر ، ليقصف على مدى استعمادي - بصفتي أمريكيا - غير رسمي - لفهم الموقف النهائي الذي يود عبد الناصر اتخاذه في مفاوضاته مع البريطانيين ، ولاأقترح طريقا مختصرة متجاوزين كل المساومات لنصل الى ذلك الموقف ، أو الى موقف معتدل بين الموقف البريطاني (الذي كان كافرّي على علم به) وموقف عبد الناصر النهائي . وقد قال لي كافرّي يومها : « حاول أن تحدد أقصى ما يطمح اليه عبد الناصر ، وأدني ما يرضى به ، واقنعه أننا سنحتفظ بجوابه هذا لأنفسنا » .

وكانت تلك المرة الاولى التي طلب الي فيها مباحثة عبد الناصر في شؤون سياسته الدولية . ولم يكن سهلا تجنب الخوض في السياسة الداخلية ، لأنها كانت تمت الى ما أهتم به من بعض مشاكل « العلاقات العامة » بصلّة

وثيقة • كما انني لم أجد نفسي على استعداد لآخره . يكثر من اقتراح كافري
• بأن عليه أن يكون واضح الذهن بخصوص « أقصى ما يطمح له وأدنى ما
يرضى به » سواء أكان راغيا بإبلاغي ذلك أم لا • وعندما نجحت في طرق
الموضوع ، ونحن على مائدة الطعام ، قلت له انه ليس من الحكمة اعلامي شخصيا
بموقفه ، لان اطلاعي على موضوع المفاوضات وقتها كان معدوما تقريبا ، ولن
أتمكن من استيعاب أي شيء عن الموضوع • واقترححت على ناصر أن نقوم معا
باختيار رجل أعمال ذي مصالح في الشرق الاوسط ، وبهذه أن يرى الموضوع
منتهيا بطريقة ما ، وإن لم تكن لمصالح البريطانيين ، ونستشير همته لانهاء الصفقة
على أحسن وجه ممكن • ولم نثر يومها على رجل أعمال مناسب لمثل هذه
المهمة ، ولذا تباحثنا في صلاحية كيرميت روزفلت لمثل هذا الامر • وقد ظننت
اننا موفقون بالاختيار ، الا أن ارتباط روزفلت بوكالة المخابرات المركزية سيكون
عقبة كأداء في طريق انجاز المهمة • ولكن عبد الناصر خالفني في هذه النقطة ،
ورأى أن روزفلت يمكنه أن يأخذ الصفة الرسمية كما كنا نبغي تماما • واعتقد
ناصر أن موظفا كبيرا في وكالة المخابرات المركزية مثل روزفلت سيكون لديه
ففس فرصة أي مواطن عادي ، ذلك لانه لن يكون ممثلا لحكومة الولايات المتحدة
كما هو معروف ، ولن يكون في موقف يضطره الى اضطلاع البريطانيين على حقيقة
موقف عبد الناصر ، كما أن اشرافه على قضايا الامن الهامة في حكومة الولايات
المتحدة سيمكثنه من فهم الموضوع جيدا • وكذلك فان علاقة روزفلت الوثيقة
بالاخوين فالحس ذات أهمية عند عبد الناصر • كما اطمأن ناصر الى عدم
اعتراض كافري على هذا الاختيار •

لم يصدق عبد الناصر في قرارة نفسه أن روزفلت لن يخبر البريطانيين
على ما سيطلع عليه • فلم يكن بوسع عبد الناصر أن يصدق أن أي شخص « غير
رسمي » في أي بلد كان - بغض النظر عما يقسم من أيمان مغلظة كأي انسان -
لن يفشي الاسرار ان رأى ذلك مناسبا لمصالح بلاده الخاصة • وقد قادته خبرته
السابقة الى الاعتقاد بأن روزفلت هو من النوع الذي يعلم كيف يتظاهر أمام
البريطانيين بجهله لحقيقة الموقف الذي يساوم عبد الناصر عليه البريطانيين -
والذي لن يخبره عبد الناصر به ولن يخبر غيره كذلك - وبهذا يتمكن ناصر
من الحصول على صفقة رابحة من البريطانيين أكثر من تلك التي يمكن لمندوبي

ناصر أنفسهم أن يحققوها . وكما حدث فعلا ، فقد تمكن روزفلت من أن يكون صريحا مع الطرفين . وقد أخبرت كافري بحديثي هذا مع عبد الناصر حال انتهاء تناولنا طعام الفداء . وقام كافري بإبراق الفكرة الى واشنطن ، بدون تأخير ، في نفس بعد ظهر ذلك اليوم . ووصل روزفلت الى مصر قبل نهاية الاسبوع بعد توقفه في لندن ليتزود من وزارة الخارجية البريطانية بآخر المعلومات المهمة - أو الثانوية - عن المفاوضات . وفي أول اجتماع له مع عبد الناصر كان قد أصبح على علم تمام وفهم عميق بمسألة « الحالة الاولى » و « الحالة الثانية » ، والم بجميع جوانبها المما كافيا لان يهيئ للامريكيين والمصريين مما أحسن الظروف للوصول الى حل عسكري ، أو الى أي نوع آخر من الحلول بين مصر وبريطانيا وأمريكا . ومنذ ذلك الحين ، انحصر عمل روزفلت في تحديد رغبات المصريين والبريطانيين - وهي عكس ما يعلنون عنه - وفي اعداد الصيغة التي سيقبل بها كل طرف لاحتوائها على النقاط المهمة - والفامضة أحيانا - ويدع كل طرف منها الطرف الآخر يربح ما ليس موهما (وإن كان يظهر أنه مهم أحيانا) . وهكذا ، فإن « حيلة » دبلوماسية ما وراء الكواليس ليست في بعض الأحيان أكثر من طرح مطول ومتعمد على الطاولة لمواضيع عديدة ، ومن ثم مناقشتها بصورة صريحة ، وبطريقة لا يمكن أن تكون جزءا من مباحثات دبلوماسية رسمية ، أو أن يحتفظ بها مدونة في مذكرات وتقارير .

ومع انه لا فائدة ترجى من الدخول في تفاصيل تسوية مشكلة قاعدة السويس ، فإن أحد أهداف كتابنا هذا هو المساعدة على فهم ما قصدناه آنفا من أن بعض النقاط الواردة في التسوية تعتبر حقا مهمة مع أنها قد أغفلت ولم تعط الأهمية اللائقة بها ، في حين أن نقاطا أخرى كانت تثير اللفظ وترتفع الاصوات لاجلها مع انها في الحقيقة غير مهمة . ففي المحادثات الاولى اقترح البريطانيون ثلاثة حلول لمشكلة قاعدة السويس ليتم اختيار أحدها :

(أ) يعطي البريطانيون للمصريين حق السيادة على القواعد - كما تمارس اسبانيا سيادتها على القواعد الامريكية - مقابل السماح لعدة آلاف من البريطانيين بالبقاء في مصر للإشراف عليها وخدمتها . (ب) يقوم رجال الصيانة المصريون بخدمة القاعدة ورعايتها تحت إشراف المرافقين البريطانيين . (ج)

يقوم المصريون بصيانة القاعدة ورعايتها تحت اشراف مراقبين مصريين ، على أن يكون للبريطانيين حق التفتيش عليها من حين لآخر . وقبل أن يعبادل روزفلت الآراء مع عبد الناصر ، كانت المفاوضات عبارة عن مباحكات ومساومات تدور كلها حول الحالة (أ) ، التي كانت تمثل الحد الأقصى الذي لن يتجاوزه البريطانيون في حين كانت مرفوضة كلياً من قبل المصريين ، وحول الحالة (ج) التي كانت أدنى ما يقبل به البريطانيون ، ولكنها نالت موافقة المصريين لأنها - فيما عدا ظاهر القول فيها - لا يترتب عليها شيء ذو بال . ولو أن المفاوضات استمرت على تلك الاسس لقبول المصريون - على ما يبدو - بالحالة (ب) . ولكن روزفلت أكد أن المقترحات الثلاثة المذكورة ليست هي الحلول المقترحة للمشكلة .

ولا أقصد أن أقول هنا أن روزفلت، نفسه، هو الذي أوجد تسوية مشكلة قاعدة السويس - فقد توصل الى التسوية فريق من المفاوضين المهرة باشراف السفير البريطاني في ذلك الوقت وهو رالف ستيفنسن - ولا أن روزفلت كان أول من لاحظ عدم جدوى الحالة (أ) و (ب) و (ج) كحلول للقضية . الا انني أؤكد أن روزفلت قد ساعد المفاوضين البريطانيين على تجنب كثير من المباحكات التي لا تمت الى الموضوع بصلة ، وبذلك يكون قد ختم قضية المفاوضات أكثر من مشاركة الأمريكيين المباشرة (التي افتقدها ايدن) ، أو الضغط المباشر الذي كان يود ايدن لو أن السفير كافرني مارسه على المصريين . وان أي شخص في وزارة الخارجية البريطانية لديه المام بسيط بطريقة تنظيم صيغة الدفاع الانكلو أمريكي عن العالم الحر ، لكان باستطاعته أن يدرك النقاط التالية :

(١) ان منظمة الدفاع عن الشرق الاوسط (ميدو) كانت من المفارقات التاريخية التي جاءت في غير وقتها . (كما ان منظمة الناتو تكاد تصبح من هذا القبيل أيضا) . والسبب الوحيد الذي دفع بوزارة الخارجية الأمريكية الى بحثها (بجدية متكلفة) هو وزير الخارجية نفسه المستر دالاس الذي لم يتمكن من تناسي هذه الفكرة مع أنه رجل لامع ذكي . فاذا كانت الحالات (أ) و (ب) و (ج) تؤخذ بعين الاعتبار، وإذا كانت تنال أي اعتبار، فليس لان لها علاقة بمخطط الدفاع عن المنطقة . ومع أن الحالات الثلاث تستأثر بقسط وافر من اهتمامنا ، فإن ذلك لن يجعلها ، بأية صورة ، جزءاً من مخططات الدفاع الانكلو امريكية عن المنطقة .

ولكنها بصراحة مستبقي في خطة الدفاع البريطانية (وليست الامريكية) عن المنطقة شرقي السويس .

(٢) وعلى أية حال فان نقل القوات البريطانية من السويس الى شرقها كانت على وشك أن تكون ضرورية لاسباب لا تمت الى الشؤون الدفاعية بصلة مباشرة .

(٣) لم يكن المصريون على استعداد لان يحافظوا على نصوص أي اتفاق يتوصلون اليه ، كما كانوا يصرون على الحالة (ج) أو ما يبادلها لما تتيحه لهم من دعابة وشهرة . فلو أن المصريين وافقوا على الحالة (أ) فانهم سيبدأون بالصراخ منها بعد شهر واحد من توقيعها ، وربما يشنون موجة تخريب انتقامية ضد القاعدة . وأما الحالة (ب) ، فانها ستقوم حتى يجسد عبد الناصر عذرا يبرر وضع المشرفين البريطانيين على القاعدة على متن مركب لاعادتهم الى وطنهم ، متحديا الحكومة البريطانية أن تتخذ أية اجراءات مضادة كما فعل معها عندما أتم شركة قناة السويس فيما بعد . أما مصير الحالة (ج) ، وهي الوحيدة التي نالت الموافقة أخيرا ، فقد كان يتوقف على مدى اطلاع الرأي العام عليها . وما تجدر الإشارة اليه هو أن كل أولئك الذين كانت تعنيهم المفاوضات ، من قريب أو من بعيد ، من البريطانيين والمصريين والمتطفلين الأمريكيين كانوا على علم تام بكل ما سبق ذكره ، ولكنهم لا يتمكنون من الكشف عنه . الا أن روزفلت - وهو ديبلوماسي ما وراء الكواليس - كان يقدر على كشفه كله . وقد فعل ذلك .

وأما ناصر ، فقد كان على علم بأن العلاقات الانكليزية - الامريكية كانت تعاني من بعض الاحتكاكات العائلية ، لنفور شخصي بين دالس وايدن ، الا انها لم تفقد صفة التفاهم والاتفاق كماداتها فيما يتعلق بأوضاع ناصر ومشاكله . وكان ناصر يتمجّب حيال هذا النوع من المناورات السياسية بين البريطانيين والأمريكيين وكيف أنها لوحدما تتكفل في تحديد صلاحيات وسلطات كل طرف . في إدارة وتوجيه منظمة حلف الأطلسي ومنظمة الدفاع عن الشرق الأوسط والقواعد العسكرية الأخرى . وأما بخصوص تحديدات الروس للغرب (على غرار ما فعله هتلر في الحرب العالمية الثانية) فقد كان ناصر يعلم تمام العلم أن الغرض امامهم لفعل ذلك عديمة الأهمية (وأن البريطانيين والأمريكيين يعلمون هذا أيضا أكثر من ناصر نفسه) . الا ان تصميمنا - نحن الأمريكيين - على

ايقاف هذا الخطر الذي لا وجود له ، سيظهرنا بمظهر مثبتي الحروب ، وذلك كما كانت الدعاية السوفييتية توصفنا به . ورأى عبد الناصر أيضا أن الهجوم السوفييتي على العالم العربي وعلى الشرق الاوسط هو من النوع السياسي التأمري الذي لن يتأخر عن استغلال وجود « الامبريالية » العسكرية في بعض الدول ليزيد من حدة هجومه هذا . ولم يكن لعبد الناصر أن يتصور اهتمامنا الجدي بموضوع المعاهدات . أما نحن فمن المؤكد - نظرا لخبرتنا الطويلة وحسبنا الدبلوماسية - أننا نعلم بما فيه الكفاية انه في اللحظات التي تنشب فيها الازمات فان الامم تتصرف على أساس مصالحها المطلقة وقتئذ ، سواء أكانت هناك معاهدات أو لم تكن ، وأن الازمة المتوقعة نشوبها في المستقبل ستكون سياسية بطبيعتها وخارج نطاق ما يحل بالمعاهدات (مع اضطرابات وحروب عصابات وهجمات يقوم بها ما يظهر أنهم « عناصر داخلية » لتقديم العون المادي بدلا من غزو عسكري مكشوف) . وقد اعترف عبد الناصر بصراحة لكيرميت روزفلت أنه اذا « ما تفضل » وأولى فقرات اتفاقية قناة السويس بعض اهتمامه فانه يفعل ذلك من باب مداعبة ايدن ودالس وملاطفتهم . ذلك أن كل ما كان يهجه هو اخراج البريطانيين ، وهو على استعداد لان يعطي أي وعد طالما أن الشعب المصري يعرف أنه ليس بنيته المحافظة على وعوده وانجاز عهوده .

أما بالنسبة لنا : فانه لم يفهم وجهة نظر عبد الناصر الا البريطانيون والاميركيون الذين اتاحت لهم ظروفهم أن يتتبعوا مراحل الثورة من اولها ، أو الذين لاحظوا مشاكلها المصاحبة لآمالها وتطلعاتها المتزايدة . ولقد فهمنا أن عبد الناصر قد ألزم نفسه بسياسة ترفض فكرة التحالفات مع الدول الكبرى . ولهذا كان ملزما بنقض أية معاهدة بشأن قاعدة السويس - أو غيرها من المعاهدات - يضطر الى توقيعها لاسباب « تكتيكية » . وكما أخبر ناصر كلا من السفير البريطاني والسفير الامريكي وروزفلت ومن أرسلهم روزفلت من الاختصاصيين الى القاهرة ، أخبرني أيضا - من جملة الذين أخبرهم من أصدقائه القريبين الذين تعاملوا معه بمسائل ادارية واقتصادية ومالية - أن هدفه الرئيسي هو أن يتسلل الى مركز يتيح له أن يقرر المسائل الفردية في السياسة الدولية على اساس موضوعية بغض النظر عن كونها تلائم مصالح دولة كبرى

معينة أم لا . . . ولحين قيام روسيا بشن هجومها على الشرق الاوسط ، فإن ناصرا كان يرغب بان يتمتع بحرية كاملة في معارضة الدول الكبرى أو مخالفتها وفي كيفية انجاز ذلك ، تاركا اياها لضرب أحاساس بأسداس بدون أن نعرف ما يريد حتى اللحظة الاخيرة . ومن الطبيعي أن يكون من مخططة أن يفهم الغرب والسوفييت هذا ، ويقبلوا به ، ويعاملوه على اساسه ، بل ويلطفوه ويداهنوه . وبالإضافة الى قوة المساومة التي سيكسبها اياها استقلاله هذا ، فقد كانت تواجهه مشكلة اشباع كبرياء الشعب المصري المتقدم حديثا ، والذي دفع عجلته الى الامام برنامج « الحالة الثانية » الذي لا يجوز التخفيف من شأنه . فعندما ينظر المرء فيرى أن اللاجئين الفلسطينيين (الذين نبتت « الحالة الثانية » من الواقع التعيس الذي يعيشونه وليس من طموح أي زعيم عربي) قد جمعوا خيامهم وأعطيتهم في احدى ليالي الشتاء القارسة وأشعلوا فيها النار . يبدأ بأدراك الحقيقة التالية وهي : أن اشباع كبرياء شعب محروم أكثر أهمية من تأمين الغذاء والسكن له . وبعد أن أرسى عبد الناصر قواعد راسخة « لاجهزة القمع » في نظام حكمه ، وبعد أن بدأ العمل على انجاز « أجهزة البناء » فقد أخذ يعتقد أن اشباع كبرياء شعبه يشكل بديلا مناسباً عن اشباع حاجاته الاقتصادية التي لم يتمكن وقتها من تحقيق أي منها . ولقد اكتشف عبد الناصر سريعا أن الهاء الشعب المصري في « نهضته الحديثة » ، يؤثر اشباع كبريائه في اغتنام أية وحتى أواخر كانون الثاني (يناير) ١٩٦٨ ، وبعد الضربة الكاسحة التي تلقتها مصر من اسرائيل بعدة أشهر ، وفي خضم الصعوبات الاقتصادية التي لم نر مصر مثيلا لها طوال تاريخها ، قال أحد المصريين الذين لا يشك بذكائهم الا وهو مصطفى أمين ، الذي كان قد أمضى حتى ذلك الوقت ثلاث سنوات في السجن) : « ان عبد الناصر قد أساء كثيرا الى والى أصدقائي ، وحتى الى بلادي كلها ، ولكن يجب أن اعترف أنه علمني كيف أكون فخورا بكوني مصرياً » . وفي الوقت الذي أصبح فيه منصب عبد الناصر « لدى الحياة » (ونستعمل هذه العبارة على غرابة معناها في الشرق الاوسط) كان قد حفظ عن طهر قلب أن الشعب المصري في « نهضته الحديثة » ، يؤثر اشباع كبريائه في اغتنام أية فرصة لتحسين اوضاعه الاقتصادية .

وأما اشباع كبرياء الشعب المصري ، فقد قطع شوطا بعيدا عندما أصبحت

مصر دولة مستقلة حقيقة ، وتتمتع بحرية كاملة لتقرير ما يعينها من المشاكل الدولية على أساس من حالتها الراهنة ، بدون أن تلتزم بأطوار يصنع في لندن أو واشنطن أو موسكو . وقد اعطت عبد الناصر - على الأقل - منطلقا لخطوات أخرى ، تعزز أهدافه الأخرى الأكثر واقعية في الوقت الذي يتابع فيه اشباع جوع الشعب للكبرياء . وكان عبد الناصر بحاجة الى تأييد وطني قوي ليعقد صفقة جديدة في مجال الوحدة العربية ، تعطي مصر فرصا أكبر من تلك التي تقدمها مقترحات البريطانيين مثل فكرة الجامعة العربية ، وفكرة سوريا الكبرى ، والهلال الخصيب .

ان تمتع مصر باستقلال حقيقي بدون أن يكون فيها أمثال لورنس العرب يدبرون سياستها من وراء الحجب ، وهم قابضون في غرف خلفية ، هو العامل الوحيد الذي يرسي فكرة القومية العربية على الاسس الجديدة التي يتخيلها عبد الناصر . وقد كان من اهم المخططات عند عبد الناصر هو أن تثير مصر اهتمام الدول العربية الأخرى بالموضوع حتى يتمكنوا من الحكم على قياداته السياسية على اساس المبادئ الجديدة التي تفرضها الغروية الجديدة . ولم يكن من المهم الوصول الى ما يسمى « بالامة العربية » ، وعندما يتحرر عبد الناصر من الاحتلال البريطاني - حسب تعبيره - يصبح واقفا على أرض صلبة يتمكن معها أن يلهب كبرياء المصريين عن طريق رفع راية قيادته للعالم العربي .

أما كيف كانت هذه الفكرة من نيات ناصر الواقعية الغربية ، فان ذلك سيكون موضوع بحثنا في الفصل اللاحق . ولكن يجدر بنا أن نشير هنا الى أن عزمه الحقيقي على هذه الفكرة ، كان معروفا من قبل الوزير دالس نفسه ومن غالبية الموظفين العاملين في وزارة الخارجية ووزارة الدفاع . وكان هؤلاء الموظفون - بالرغم من ارتباك رؤسائهم - يبذلون قصارى جهدهم لوضع وتطبيق الخطط السياسية التي تأخذ جميع حقائق الحياة - مهما كانت مرعبة - بعين الاعتبار . وكانت حقائق الحياة هذه تميل الى بروز قائد - ناصر أو غير - يدرك تماما كيف يستغل نزاع الشرق مع الغرب لمصلحته الخاصة وبالتالي يحرز قوة كبيرة في « لعبة الامم » تتمدى حدود قوة بلاده الاقتصادية والعسكرية .

وقّع المصريون والبريطانيون اتفاقية قاعدة السويس في تشرين الاول

(اكتوبر) ١٩٥٤ • وبمدها بشهر واحد ارسل البنتاغون اثنين برتبة كولونيل (مقدم) ، هما البرت جيرهارت وييلبر (بل) ايفلاند ، الى القاهرة ، ليتفقا على الاسس الجديدة للعلاقات المصرية - الامريكية التي ستقوم حكومتنا بموجبها بتزويد المصريين بالسلاح الذي يحتاجونه للامن الداخلي • وكان من الضروري أن تكون في منتهى السرية ولا يدون بها سجل أو يوضع عنها تقرير • وقد طلب أن تكون في منتهى السرية ولا يدون بها سجل أو يوضع عنها تقرير • وقد طلب مني السفير كافردي أن أرتب المقابلة ، وأحضرها بنفسى ، ثم أنقل له ما يدور فيها • ومن الطبيعي أن يكون وجودي كمراقب ودون أية صفة رسمية •

وقد تم اللقاء في الساعة الثامنة مساء في بيت حسن التهامي - كبير أعوان عبد الناصر - في ضواحي القاهرة • وحضرها ناصر وعامر والكولونيلان الأمريكان وحسن التهامي بالإضافة الي • كان الجو وديا وبعبدا عن التكلف والشكليات إلا أن المصروف يخدع بذلك المظهر • فبالرغم من كل الآراء التي تبادلتها حكومتنا مع ناصر شفويا ، فقد كانت تلك الجلسة اولي الجلسات التي يبرز فيها التباين في وجهات النظر بين الأمريكين والمصريين كما بدأ فيها يتحدد شكل رقعة اللعب بين ناصر ودالس • وقد خلج الحضور سترااتهم وعلقوها على مساند الكراسي وراسهم ، وأخنوا ينادون بعضهم بالاسماء دون الالقاب مثل « عال » و « بيل » وحتى « جمال » • ثم وضعت وجبة طعام منزلية على مائدة مستديرة تناولها الجميع وكانهم عائلة واحدة • وبعد ساعة من مرح العسكريين ، بدأت الحديث لتنتهي الى ما أطلقنا عليه بعد سنوات اسم « الاحاديث الصريحة التي اعتدنا على تبادلها »

بدأ جيرهارت الحديث بشرح الفلسفة التي تكمن خلف فكرة منظمة حلف شمالي الاطلسي - ناتو - قائلا : « ليطي حلفاءنا فرصة ترتبط بها معا على قدم المساواة قبل نشوب الحرب لكي لا يكون هناك سوء فهم وتباين في المسؤولية » ماذا يدين كل مسا ولن ؟ « كذلك التي حصلت في الحرب الأخيرة » • واجابه ناصر بأن فكرة الارتباط معا على قدم المساواة جميلة ومفيدة ، ولكنه أبدى شكه فيما اذا كان فرنسا مثلا ، ستبقى مهتمة بالفكرة بعد عشر سنوات !

ثم شرح ايفلاند ، فكرة «المساواة» في الارتباط وقال انها ليست بأهمية «الفعالية» في الارتباط ، وأن كل من شارك في وضع مخططات منظمة الناتو أدرك يومها أن القدرة العسكرية الاجمالية للدول المرتبطة أصبحت أكبر من مجموعها الحسابي وهي منفردة . ثم التفت الى عامر قائلا : « انك كرجل عسكري يجب أن تعترف أن الدفاع الاقليمي عن منطقة الشرق الاوسط هو الاسلوب الوحيد ذو الفعالية في المنطقة ، وأن الطاقات العسكرية الفردية لكل دول الشرق الاوسط ، اذا ما جمعت معا ، فانها وربما تفي بحاجة أمنكم ، ولكن لن تقوى على الدفاع عن أي طرف آخر » .

فأجاب عامر : « صحيح ان ترتيبات اقليمية قد تخدم أهدافكم ، ولكن قبل أن احدد ما يخدم أهدافنا علينا أن نحدد من هو عدونا الذي سنقاتله ؟ » وبعد هذه المحاورة جرت مجادلة كان كلا الطرفين فيها متحفظا . فالأمريكيون لم يذكروا مرة واحدة عبارة « العالم الحر » كما أن المصريين لم يذكروا أبدا عبارة « المستعمرين الإمبرياليين » . فقد حاول كل من جيرهارت وايفلاند أن يبرهن على أن فكرة « الوحدة العربية » أو أية وحدة اقليمية أخرى لن تكون ذات مدلول ومغزى طالما أن الدول القائمة في المنطقة تصر على برامج الدفاع الفردية . ولكن عامرا أصر على سؤاله « دفاع ضد من ؟ » وهنا اضطر جيرهارت وايفلاند أن يقرّا بأن « افتراضات التخطيط في واشنطن تظهر أن الروس هم العدو المتوقع ، ولكن لا لزوم هناك لإبراز هذه الفكرة في الخطط الاقليمية ، وأن موقف واشنطن هو أن تكون خطط دفاعكم الاقليمية موجهة ضد أي عدو يظهر بعد ذلك » . واختتم جيرهارت قوله : « لنجرب ونرى فيما اذا كان يمكننا معا أن نتعرف الى العدو المشترك لحظة مواجهتنا للخطر الحقيقي » .

أما ناصر فقد أخذ الى الهدوء طيلة فترة تبادل الآراء ، ولكن لم يلبث أن قاطعهم معترضا على أن كل هذا الغموض في النظريات حول تعريف من هو العدو لا يلائم سوى المناقشات الثقافية المحضه ، ولكنها ستتقلب الى هجرد هراء حال وصولها الى واضعي الخطط العسكرية من العرب . ففي لقاءات الاستراتيجيين العرب لن يجد أحد منهم أي صعوبة أو التباس في الوصول الى أن العدو هو إسرائيل بالنسبة لنا ، وروسيا بالنسبة للأمريكيين . ثم قال : « ان العرب

سيقولون انكم تحاولون أن توحدهم ليحاربوا عدوكم ، في حين أن مجرد ظهور نيابتهم في محاربة عدوهم هم - اسرائيل - فانكم ستوقفون مساعداتكم على الفور . وان أية معاهدة دفاعية اقليمية لا تأخذ هذه النظرة بعين الاعتبار فستكون محض احتيال وخداع » .

وحدث بعد ذلك تبادل في الآراء حول عبارة أفادت التقارير أن الوزير دالس قد قالها ، ومعناها « على العرب أن يشعروا ان عدوهم الحقيقي هو الشيوعية العالمية » . وقد دافع جيرهارت وايفلاند عن هذه الفكرة بحماس ، مدّعين أنها كافية لتحريك الحوافز عند العرب لعقد تحالف يدفع خطر الغزو العسكري السوفييتي . ولكن ناصه أجاب بمحاضرة طويلة ، ومملة ، دارت حول التفريق بين خطر التغفل الشيوعي « الذي هو مسألة أمن لكل بلد على انفراد » ، وبين خطر الغزو العسكري السوفييتي الذي - ان وجد - سيكون حافزا لترتيبات دفاع اقليمية . وأضاف ناصر بعد ذلك : « ولكننا في هذه المنطقة من العالم لا نعرف سوى عدوين : أولهما اسرائيل التي لا تزال في حرب معها بحسب العرف والعادة ، وثانيهما : البريطانيون ، الذين ما زالوا يحتلون بعض المناطق العربية . والعرب لا يعرفون شيئا عن الروس ، ومن الحماسة أن نحاول لفت انتباههم واخافتهم من الغزو السوفييتي » .

وانتهى اللقاء بعدما تبادل الجميع الآراء ، وأفرغوا ما في جعبهم من مقترحات وبراهين . وقد قدم بيل ايفلاند تقريره للأمريكيين ، وذكر فيه ، بعبارة خفية ، أنه مهما كانت فكرة إيجاد خطة دفاع ايجابية لمنطقة الشرق الاوسط مقبولة أو مرفوضة فإن ذلك ما يريده المخططون العسكريون في امريكا . وبناء على ذلك فان كل مساعداتنا الاقتصادية والعسكرية لدول الشرق الاوسط يجب أن تتناسب مع درجة حماستهم لفكرتنا هذه .

أما ناصر ، فقد قال للمصريين الشيء الذي أصبح فيما بعد الهدف الرئيسي لسياسته الخارجية ، وموطيء قدمه في مواجهة الدول الكبرى ليحصل على ما كان يريده منها لتأييد اهدافه الاخرى وتميزها . ومما قاله مرة في هذا الصدد : « ربما لا يجد نوري باشا أي حرج في اتخاذ قراراته بناء على مدى انسجامها مع استراتيجيتكم العالمية . ولكنني لا أستطيع أن أفعل ذلك » .

وكان نوري باشا رئيس وزراء العراق « بصبع » عبد الناصر في تلك الفترة .
وأضاف ناصر : « وانني عازم على أن اتخذ مواقف من القضايا بناء على ما لها من
الآثار الموضوعية ، وستكون كلها مما يناسب مصر ويخدم مصالحها . ان تمتعنا
بمثل هذه الحرية هو من اهم الاهداف لنا ، ولا يقل أهمية عن الازدهار
الاقتصادي . وانني اعتقد أخيرا أن حكومتك - في النهاية - ستفضل مساعدة
أمة حرة على مساعدة أمة تدور في فلكها » .

وهكذا فقد انتهى اللقاء المذكور آنفا بنفس المواقف التي سادت بدايته
من بشاشة غير متكلفة ، ونكات عابرة ثم ترتيب العودة الى المدينة . ولم يكن
ظاهر الاجتماع أكثر من دعوة لتناول طعام العشاء في سهرة اجتماعية بحثة .
ولم يتولد عندي يومها أي شعور بأنني كنت من حضور الجلسة الافتتاحية
للعبة بين الحكومة الأمريكية وعبد الناصر التي بدأت يومها بداية سيئة ،
واستمرت في ذلك حتى يومنا هذا ، مروراً بأزمة الحرب العربية الإسرائيلية
حزيران (يونيو) ١٩٦٧ .

وفي صبيحة اليوم التالي تكونت لدي فكرة غامضة عن ذلك عندما سألت
بيل ايفلاند : « ما رأيك بما قاله جمال البارحة ؟ » فأجابني : « انها مقلصة
خاسرة ، فليس هناك ما يسمى باستقلال كامل لاية دولة في هذا العالم ،
وخصوصا لدولة مثل مصر ، لا يمكنها أن تعيش أبدا بدون الاعتماد على
المساعدات الخارجية . واذا ما اعطيناه المساعدات التي يريدونها فسيشعرون
من واجبه النظر الى مصالحنا بعين الاهتمام . فاذا كان لا يريد أن يسير معنا
فهناك كثيرون غيره سيفعلون ذلك » . فقلت : « ولكن ما رأيك لو انه شكّل مع
البقية جبهة واحدة كما يقف اتحاد العمال مع العمال صفا واحدا ضد مجلس
الإدارة ؟ » فأجابني : « لقد تأخر كثيرا ، فلقد كسبنا لجانبنا كلا من العراق
ولبنان والاردن وتركيا وإيران والباكستان » .

وهكذا فإن الوزير دالس قد قرر أن يسلك الطريق الأسهل « طريق اغراء
الامم بالمساعدات » . وقد سنحت لي الفرصة مرة أن اختلس نظرة الى جواز
سفر ايفلاند أثناء ابعاله مع زميله الى المطار ، وتأكدت انه قد زار فعلا لبنان
والعراق والاردن . ولعلمي بعلاقة ايفلاند الحسنة مع كل من الرئيس شمعون

ورئيس وزراء العراق نوري السعيد والملك حسين ، لم يعد عندي أي شك بأنه قد جمعهم بشكل ما لانشاء منظمة دفاع عن الشرق الاوسط . وما اظن أن ايفلاند كان يهدف الى دفعي لممارسة ضغط متزايد على ناصر . فلو أنه قال : « أرجو منك أن لا تخبر ناصرا بهذا » ، فسأجزم عندئذ انه يحاول أن يخدعني . لقد كان الطيش المدروس في ذلك الوقت قياسيا ولا يزال كذلك حتى يومنا هذا .

ان الطريق الاسهل « لفن ادارة الدولة والديبلوماسية » (الذي كان يعرف عند البنتاغون ووكالة المخابرات المركزية باسم « عمل الجواد ») كان يعتمد على الرأي القائل بأن جميع أمم العالم تطمح بطرق أفضل للحياة اقتصاديا واجتماعيا ، وإن طريق انشاء علاقات مشتركة معهم فيها نفع للجميع هي في تقديم مساعدات اقتصادية وتكتيكية بمقادير مغرية . ولكن المؤمن بهذه الطرق السهلة لاستمالة واغراء الامم سيصاب بالذهول عندما يرى جمهورا من اللاجئين الفلسطينيين يجمعون خيامهم وأعطيتهم ، التي قدمها لهم الغرب كمساعدات ، في يوم قارس من أيام الشتاء ويشعلون فيها النار . وأعجب من ك عندما يرى ذلك المؤمن المصريين ، بعد هزيمة نكراء أنزلها بهم الاسرائيليون ، تقون مع السوريين والجزائريين ليضعوا الخطط لتجريب عضلاتهم مرة أخرى . وبنفس الوقت يمارسون أشد أنواع الاعمال التي تنفر الدول الغربية التي هم في أمس الحاجة الى مساعدتها . ولقد علق مؤخرا أحد كبار المؤمنين بسياسة الاغراء بالمساعدات على ذلك بقوله : « لا يمكنني أن أصدق أن العرب سيصرون الى الابد على قطع أنوفهم نكاية بوجودهم » . أما الذين يؤمنون بعكس ذلك ، أي بالطريق الصعب ، فيعتقدون أن العرب - ولنفس السبب ، عديد من شعوب البلدان المتخلفة - سيدأبون على مثل هذه التصرفات ، ويعود سبب هذه المواقف الاعتزالية - الكثيية - الى أن شعوب تلك البلاد تشعر عند انتماها لمثل هذه المخططات أن ذلك لا يمكن أن يكون الا على أساس أنهم مواطنون من الدرجة الثانية ، ومعزولون عن المشاركة في تقرير الامور المشتركة . ولقد أخبرني حديثا أحد السفراء الامريكيين في أحد الدول الافريقية عن انطباعاته فقال ما يلي : « ان هذه الشعوب لن تتمكن أبدا من انتاج ما تحتاجه من أجهزة المذياع الترانزستور أو من الثلاجات بنفس الاسعار الرخيصة التي تشتريها من الخارج » .

كما أنه لن يكون لهم أي دور في الاقتصاد الغربي أو السوفييتي أكثر من تصدير المواد الأولية التي تعاد لهم مصنعة جاهزة . ومهما كانت سرعة تقدمهم مع كل ما تقدمه لهم من مساعدات فإن الدول الغربية ستحترز تقدما بصورة أسرع بكثير . وبعد عشرين عاما من مراقبة تأخرهم وحرمانهم فإنه نادرا ما تصيبنني الدهشة عندما أراهم يرفضون المنطق والقيم الغربية حتى مع أنهم لا يملكون ما هو أحسن منها للتمسك به . هذه هي نظرية الطريق الصعبة التي تصل الى حد الاعتقاد أن شعوب البلدان المتخلفة تعاني من الحرمان وخيبة الامل الى الحد الذي فقدت فيه عقلها السليم وتفكيرها القويم . والسياسة الغربية ، التي تظن أن هذه الشعوب ستتصرف بناء على رغبتها في تأمين أقصى ما يمكنها من المنافع المادية ، تبوء بالفشل الذريع .

لقد اختار الوزير دالس « الطريق السهلة » وكان يمكن أن نرى كثيرا من نتائجه قبل انهياره . ولكن مستويات العمل والتخطيط في وزارة الخارجية والبنتاغون كانت تسير منحدره في اتجاه « الطريق الصعبة » - أي الدفع بدون تجاوب - على مرأى ومسمع الوزير دالس نفسه . ان تنفيذ سياسة المساعدات كان على الغالب متعارضا مع سياسة الوزير الاساسية ، ومع هذا فقد لعب ذلك دورا رئيسيا في تحديد شكل العديد من الوقائم اللاحقة . وبعبارة أوضح ، فبعد أيام من تأكيد جبرهارت وايفلاند لناصر ، ان حصوله على المساعدات يعتمد على مدى موافقته على السياسة الدفاعية للمنطقة ، وجاب ناصر الصريح بعدم عزمه على الموافقة . حصل ناصر على أربعين مليون دولار كمساعدات اقتصادية كانت معلقة . وبدأت أيضا المحادثات بين ناصر والحكومة الامريكية حول السماح له بشراء ما يعادل عشرين مليون دولار من المعدات العسكرية بأسعار مقبولة وبشروط دفع مخففة .

ومع أننا سنخرج عن موضوعنا الاساسي فانني أشعر بضرورة الإشارة الى رجل اسمه « هنري هانك بايرود » الذي شغل منصب مساعد وزير الخارجية . وكان في واشنطن في أواخر مدة خدمة السفير كافري ثم حل محله كسفير لنا في مصر في ٥ كانون الثاني (يناير) ١٩٥٥ . كان بايرود يبلغ من العمر ٣٩ عاما فقط - نفس سن ناصر تقريبا . وقبل مجيئه الى وزارة الخارجية

كان ضابطا ناجحا جدا فقد وصل الى رتبة عميد قبل الثلاثين من عمره . وكان شخصا متواضعا بعيدا عن التكلف بصورة تكسبه محبة كل من يلتقي به ، وعلى الاخص ناصر . وكان مخلصا صدوقا جديرا بالثقة وخدموا مرحا ، وشجاعا وقورا . وبالاختصار فقد كان من النوع الذي يوصف بأنه سفير نموذجي .

صدر الاعلان عن تقديم الاربعين مليونا من الدولارات كمساعدة فسي ثشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٤ - وبعد ستة أسابيع نشرت انباء الاتفاقية العسكرية التي تحدث عنها ايفلاند وكان ذلك في كانون الثاني (يناير) ١٩٥٥ . ووصل بايرود الى القاهرة في الاسبوع التالي . كما ان الاتفاقية العسكرية التي عرفت فيما بعد باسم « حلف بغداد » بدأت كاتفاقية بين رئيس وزراء العراق نوري السعيد ورئيس وزراء تركيا عدنان مندريس ، ثم انضمت اليها فيما بعد الباكستان ، لتشكل منظمة الصنف الشمالي التي فضلها دالس على منظمة الدفاع الاقليمية كوسيلة للوقوف في وجه السوفييت . ومع انها لم تضم سوى دولة عربية واحدة فقد كانت مصدر ازعاج كبير لناصر ، لانها افسست عليه خطته في ايجاد جبهة عربية محايدة . وقد قمت مع جيمس ايلخبرغر بابلاغ ناصر نبا التوقيع عليها . فقد كان ناصر قد اعتبر كلام ايفلاند وجبهات مجرد خدعة وايهام : فكيف يحذره كل من ايفلاند وجبهات من ان معاهدة كهذه على وشك التوقيع ، وبنفس الوقت تقوم الحكومة الامريكية بدفع (اربعين مليون دولار) كمساعدة اقتصادية له ثم تعطيه تسهيلات بعشرين مليون دولار كمساعدة عسكرية لشراء المعدات ؟! لذلك فقد اضطرب عبد الناصر تماما للامر ، وطلب مني ان اخبر السفير بايرود برغبته الملحة للاجتماع به فور وصوله الى القاهرة . وقد كان تنفيذ طلب كهذا صعبا لان بايرود فضل السفر بحرا ، وكعادته فقد انشأ علاقات صداقة مع كثير من الذين كانوا على ظهر السفينة من سائحين مسنين وبحارة وبعض الموظفين المتجهين الى مراكز أعمالهم ، ومما لا شك فيه انه دعاهم الى المجيء الى القاهرة في عطلة الاسبوع . وكانت هناك مسألة تقديم اوراق الاعتماد . فحسب الاصول الدبلوماسية لا بد للسفراء من تقديم اوراق اعتمادهم رسميا وقبولها من رئيس الدولة رسميا ايضا ، ليتسنى لهم التكلم باسم حكوماتهم . ومع ان غضب عبد الناصر من نشر اخبار حلف بغداد لم بهذا ، فانه لم يمانع ان يجري الاحتفال بتقديم اوراق الاعتماد على أن يعقب ذلك

لقاء بالسفير بايرود مباشرة • وللأسراع بذلك فقد دعوت كلا من ناصر وبايرود بالإضافة الى حسن التهامي وعبد الحكيم عامر لتناول طعام العشاء في بيتي •

كانت تلك الولاية بداية العلاقات بين ناصر وبايرود تكونت على أثرها الحقبة المسماة « ناصر موضة المستقبل » • وعقب ذلك الاجتماع تزهة حضرها معي كل من ناصر وبايرود والتهامي ، وتم خلالها مراجعة كاملة لكل المسائل التي تهم البلدين مع اعطاء اهمية خاصة لكل من النقاط التالية :

١ - ان يندأ مستقلا حقيقة كمصر جدير بان يؤخذ كصديق ، في حين ان مصر ان كانت مرتبطة معنا بأية معاهدة فانها ستظهر بمقاييس النهضة العربية الحديثة على انها مجرد تابع •

٢ - ان العرب يملكون نفورا فطريا من الشيوعية لكونهم مسلمين ، بالإضافة الى ان الروس لا يمكنهم تحدي قوة الاقتصاد الأمريكي عند يده التنافس على منح المساعدات الاقتصادية • ولهذا لا داعي للخوف من المنافسة الروسية في المنطقة •

٣ - ستتمكن مصر وهي مستقلة من ان تلعب دورا طليعيا في حركة الوحدة العربية بصورة تتناسب واهداف الحرب الباردة (او اي صراع بين الشرق والغرب) • وستكون هذه الحركة مضادة للفكرة التي يدعها الوزير جون فوستر دالس بالتعاون مع البريطانيين ، والتي تركز على الوصول الى شكل الوحدة عن طريق التحالفات العسكرية التي لا تختلف كثيرا عن انطباع « لورانس العرب » البالي عن العقيلة العربية •

٤ - واكثر من هذا فانه يمكن لمصر المستقلة ، القوية ، ان تأخذ بزمام المبادرة ، في تخفيف حدة التوتر بين العرب والغرب منذ قيام اسرائيل • وهنا قال ناصر : « لا يمكنني ان اتخذ مثل هذه القرارات غير الشعبية الا عنصا أصبح في مركز قوي ! » • ولمح الى انه لربما يستطيع القيام بخطوات ايجابية لتخفيف حدة التوتر بين العرب واسرائيل اذا ما أصبح في ذلك المركز القوي • وبالتاكيد لم يكن بايرود مقتنعا تماما بمثل تلك الاقوال • ولكن بعد

تلك النزعة في ضواحي المدينة ، أصبح مقتنعا بأن ما سمعه هو موقف ناصر في الواقع ، وأن ناصرا لن يُجر الى أكثر من هذه النقاط . وقد اعتقد بايرود أن «الموقف» الذي عنده ناصر له ما يبرر تأييد الاول له . وأخيرا فإن سياسة ناصر على الأقل أصبحت مفضلة على غيرها من السياسات التي بدأت تظهر فيها موجة القومية العربية التي تنبأ بها كل من بايرود ووزارة الخارجية ووكالة المخابرات المركزية وأي انسان آخر يدرك الاوضاع العامة . كما ان لسياسة ناصر ميزة أخرى على سياسة نوري السعيد في العراق ، وشمعون في لبنان ، المؤيدتين للغرب . فهي تملك فرصة البقاء في الايام التي تظهر بها السياسة الامريكية والبريطانية - بطبيعة الاشياء - على انها يشكل متزايد لصالح اسرائيل وضد العرب .

وقد ساند بايرود طلب ناصر للمعدات العسكرية بعدما أخذ موقفه السابق بعين الاهتمام . وكرجل عسكري ، فقد أدرك بايرود أنه ليس هناك ثمة خطر من احتمال استخدام ناصر لهذه الاسلحة ضد المصالح الامريكية . وبما أن بايرود كان مساعدا لوزير الخارجية لشؤون الشرق الاوسط وافريقيا ، فقد أدرك مدى التأثير النافع الذي يمكن أن يحدثه ناصر في المنطقة كلها اذا كان يميل حقا الى فعل مثل هذا الشيء . وقد تولد عند بايرود انطباع أن ناصرا هو القائد الوحيد في العالم العربي الذي يمثل الاتجاه الجديد ، والذي بنفسه الوقت يمكن لدبلوماسي غربي أن يجري معه مناقشات مفيدة ومتزنة ، كما أن ناصرا هو من النوع الذي يمكن للانسان أن يباحثه بأي موضوع - حتى موضوع الصلح مع اسرائيل - دون أن يخرج عن تحكيم العقل ويلجأ الى المواقف عند سوق الحجج وسرد البراهين . ولهذا السبب فقد رأى بايرود ضرورة بقاء ناصر في الحكم ، كما رأى أن تحويل جيشه من رث هزيل الى آخر عزيز وفخور بنفسه هو من أول ما يضمن هذا البقاء ويمرزه .

وكما ذكرت سابقا ، فقبل وصول بايرود الى القاهرة كانت الحكومة الامريكية قد منحت ناصرا أربعين مليوناً من الدولارات كمساعدات اقتصادية له ، كما انها وافقت مبدئيا على أن تقدم له تسهيلات بحدود عشرين مليوناً من الدولارات لشراء تجهيزات عسكرية بأسعار معقولة وبشروط مخففة للدفع . (وبالمناصفة ، فمن المفالطة الظن أن المساعدات الاقتصادية او العسكرية تدفع نقدا وعدا ، حتى ولو أنها قد منحت تحت قيود شديدة . وذلك لان تقديم

المساعدة لاية حكومة ما ، بغية اي هدف ما ، يعني رفع القيود عن مخرجات الحكومة المانحة للمساعدة ، ووضمها تحت تصرف الحكومة الاخرى التي لربما تستعملها لأي هدف آخر غير هدفها الأساسي) وكان كل ما تبقى من القضية هو تحديد التفاصيل مثل نوع التجهيزات وهل ستكون حديثة أم مستعملة وعلى وشك التنسيق من الخدمة ، وكيف سنبنيها ، وكم سننقاضي ثمنها ؟ ونظرا لان مثل هذه الامور الآتفة الذكر هي تفاصيل محضة ، فقد قام وزير الحربية المصري بتنظيم قائمة بالاحتياجات أرسلها الى واشنطن . ومن ثم قامت وزارة الدفاع الامريكية بأجراء بعض التمديدات عليها ، وأعدت القائمة ثانية لوزير الحربية المصري ، الذي بدوره أعادها ثانية الى واشنطن بعد اضافة تغييرات جديدة عليها . وهكذا بقيت القائمة تتناقلها الايدي بين واشنطن والقاهرة مرات عديدة وبقي الخلاف على أسعار التجهيزات قائما . فالمسؤولون في وزارة الدفاع الامريكية قد وضعوا نظاما مرنا لترتيبات الاسعار ، ولكنني لم استطع فهمه يومها . فهو يتيح الوصول الى سعر ما نتيجة مساومات ومباحثات . الا ان قائمة التجهيزات التي نالت أخيرا موافقة الطرفين لم تتمد ، مع قائمة الاسعار ، مرحلة ما قبل الاخيرة اطلاقا .

وبنفس الوقت ، لم يكن هناك اية بادرة تشير الى أن المشاكل المعلقة - مهما كان نوعها - لن تجد في النهاية حلا مناسباً . فقد استمر ناصر وبإيرود في توطيد العلاقات وتوثيق عرى الصداقة بين المصريين والامريكيين بغية الوصول الى حلول مثمرة لجميع المشاكل التي تعاني منها المنطقة بأسرها ، مما يحقق السلام والازدهار للذين بقيا هم مخططي سياستنا المثالية وشغلهم الشاغل . الا أن الرياح لم تجر كما اشتهاها كل من ناصر وبإيرود . وشامت الظروف أن تبقى المشاكل مستصية الحل . وبقيت مشكلة المساعدات العسكرية معلقة دون تنفيذ لعدة أشهر ، مع استمرار التأكيدات المتقطعة من واشنطن : « اننا على وشك أن ننجز دراستها ، الا أن مسائل كهذه عادة ما تستغرق زمنا غير قليل » .

وساربع القارىء من عناء الاتيان على كل تفاصيل المناظرة التي جرت يومها في واشنطن حول أمر تزويد ناصر بالمساعدات العسكرية أم لا . ولم يخطر ببالنا - ونحن في القاهرة - أن مناظرة كذلك قد دارت رحاها في دهايز

وزارة الدفاع في واشنطن ، فلقد كان بايرود يتابع بسرور ترتيب أموره على أساس أن بعض شحنات الأسلحة سوف تكون في طريقها الى القاهرة قريبا . وكان بايرود يأمل في أن تتمخض خطط التعاون المصري الأمريكي - على الأقل - عن تسوية مؤقتة (أو تجديد) للنزاع العربي الاسرائيلي ، وبالتالي فإن أحد مصادر الاحتكاك الرئيسية بين الأمريكيين والعرب ستجد طريقها الى الزوال . وفي ١٦ تموز (يوليو) ١٩٥٥ ، أنهيت زيارتي التي دامت عامين للقاهرة وعدت متباطئا الى وطني حيث قضيت شهرا كاملا على الطريق . ولدى وصولي الى واشنطن في اواخر آب (أغسطس) كانت هناك في انتظاري رسائل من بايرود وناصر تستعجلني لبذل ما في وسعي لانتشل مسألة المساعدات العسكرية من مأزقها الذي وقعت فيه ، كما كانت هناك صورة عن الرسائل المتبادلة بين جيم آلن (الذي اعمل برئاسته في شركة بوز آلن اند هاميلتن) وبين هيربرت هوفر (وكيل وزير الخارجية) يطلب فيها الاخير استعارتي لوزارة الخارجية ، ولفترة غير محدودة ، لادعم في فريق أطلق عليه اسم « لجنة التخطيط السياسي للشرق الاوسط » ، وكان الهدف الرئيسي من تأليف هذه اللجنة ، وضع الخطط لاستغلال فرصة الصداقة النامية بيننا وبين ناصر .

وكان اول ما قمت به في واشنطن - بشكل مهمة رسمية - هو بحث موضوع المساعدات العسكرية لناصر مع جورج آلن ، الذي حل محل هانك بايرود كمساعد لوزير الخارجية لشؤون افريقيا والشرق الاوسط . وكان جلّ دراية جورج بالموضوع ، هو أنه معلق لاسباب ادارية ، وطلب مني أن أجد مكانا مريحا في غرفة مجاورة لمكتبه لاطلع على البرقيات المتبادلة بين واشنطن والقاهرة خلال الشهر الذي كنت فيه بعيدا عن العمل . وقد فعلت ، وقنيت نظري في تلك البرقيات جيئة وذهابا ، كما يتابع لاعب التنس بنظراته الكرة في مباراة مثيرة . وسرعان ما اتضح لي أن الامر برمته قد غاص في مستنقع الاجراءات البيروقراطية . ولاحظت أن الملفات الاضافية قد اشتملت على رؤوس أقلام مناظرة واسعة النطاق ، جرت حول موضوع المساعدات العسكرية لناصر وفيما اذا كان يمكن تقديمها له دون أن نحصل منه على ضمانات أنها لن تستعمل في عمل عدواني ضد اسرائيل . الا أن تلك المحاورات والمناظرات أضحت غير موضوعية ، عندما طلب مني السفير المصري في واشنطن في اليوم التالي ونحن

نتناول طعام الغداء ، أن أخبر جورج ألن أن في وسعنا تخفيف الضغط على ناصر عن طريق تزويده ببعض التجهيزات العسكرية الاستعراضية كخوذ لماعة ومسدسات في قراب جميلة وغيرها بما لا يتجاوز المليونين من الدولارات ، مما يرضي على الجيش بعض مظاهر القوة والاحترام : ٧١ أن المشاكل الادارية (التي لا أزال أجهل كنهها للآن) قد حالت ثانية دون انجاز طلب ناصر الاخير ، وغاص المشروع الاخير في نفس ما غاص فيه سابقه .

الا ان البرقية الاخيرة من الملف كانت تفرض علينا أن نعيد التفكير بموضوع المساعدات العسكرية لناصر بصورة ملحة . فقد حذرنا بايرود من أن امتناعنا عن تزويد ناصر بالتجهيزات العسكرية سيلزم الاخير بقبول المساعدة العسكرية الروسية (التي أصر يومها جورج ألن على أنها غير ذات بال) ، وأكد ضرورة تزويده ولو بمقادير رمزية منها ، وبسرعة كافية . وكانت وكالة المخابرات المركزية قد أكدت خبر تقديم الروس فعلا عرضاً لتزويد ناصر بمثل هذه المساعدات العسكرية . وأضاف بايرود معذراً أن قبول ناصر للمساعدة الروسية العسكرية سيفسح المجال أمام الروس لتحسين مركزهم في المنطقة ولتثبيت أقدامهم فيها . وقابلت لجنة التخطيط السياسي للشرق الاوسط نبأ العرض السوفياتي بالدخشة الارتباك ، الا أنها لم تتخذ أي تدبير حياله . وفي منتصف أيلول (سبتمبر) ١٩٥٥ تلقى كيرميت روزفلت رسالة شخصية من ناصر تفيد أن الاخير على وشك التوقيع على اتفاقية مع الروس ، وأنه يرحب بروزفلت في القاهرة ان كان عازماً على الرجوع عن عزمه هذا . وفي اليوم التالي غادرت وروزفلت واشنطن متوجهين الى القاهرة .

وفي مطار القاهرة ، كان أحد أعوان ناصر في استقبالك . ومن ثم توجهنا برفقتنا الى شقة ناصر في الطابق الاعلى من مبنى مجلس قيادة الثورة . وكان ناصر في مزاج الشامت الساخر ، ولكنه منبسط الاساير ، وكان لسان حاله يقول : « لقد قلت لك هذا يا روزفلت ، فما عمالك أن تفعل الآن ؟ » وجلس الجميع ليمتصوا برؤية روزفلت يقلعهم عندما يبدأ محاولاً الرد على حبيج ناصر الدامغة . ولكن روزفلت أدهش ناصر عندما عزف عن اقتناعه برفض الاسلحة (فقد كانت وكالة المخابرات المركزية قد اقنعتنا أن ناصر قد قبل الصفقة ولا مجال لينثني عن عزمه هذا) وقال له : « ان كانت الصفقة فعلا بهذه الضخامة التي

سمحنا بها ، فما عليك الا القبول بها ، لانها وان أغضبت البعض فستجمل منك بطلا عظيما وتكسبك تأييدا فريدا • فلماذا يا ناصر لا تستغل هذه الموجة المفاجئة من التأييد الشعبي لتتخذ بعض القرارات التاريخية حقا ؟! وما اظن ان ذاك التأييد سينحير ان أعلنت مثلا : « أن هذه الاسلحة دفاعية فقط ، وانني على استعداد لان أقبل مشاركة الاسرائيليين للقيام بمجهود مشترك بغية الوصول الى صلح دائم في المنطقة ، ان هم ارادوا ذلك فعلا » • ولم يتمالك ناصر نفسه عند سماع هذا الاقتراح ، فقد طار ليه فرحا وقفز مبتهجا وقال : « انما لفكرة رائعة » •

ونابعا مناقشة الفكرة حتى منتصف الليل : فناصر سيصدر بيانا يدرج فيه نبأ عقد صفقة السلاح الروسي ، وهكذا فلن يهتف له المتطرفون في مصر لوحدهم بل والمحافظون (وحتى الشرق) ايضا • وبعد ذلك يبدأ ناصر بحملة حياد دولية ترضي الجميع ويستمر ، بنفس الوقت ، في الاصلاحات الاجتماعية والاقتصادية الملحة داخل البلاد معتمدا على المساعدات الامريكية • وهكذا توفرت الاحتمالات من جميع الانواع والضروب • فناصر سيلقي خطابا بعد يومين في حفلة التخريج في كلية الطيران ، ومن الممكن أن يضمه نبأ الاعلان عن صفقة السلاح الروسية • واتفقنا على أن أكتب لناصر مسودة المقطع الذي سيتضمن هذا النبأ ، ثم يقوم ناصر في الليلة التالية بالتعاون مع روزفلت بتوضيب هذا المقطع في شكله الاخير وانزاله المكان الملائم من الخطاب •

وحضر عدد غير قليل من المتطفلين اعداد مسودة ذاك المقطع من الخطاب • الا أن السفير بايرود لم يكن بينهم ، فهو لم يعلم بعد بوصولنا الى القاهرة • وخلال النهار التالي للاجتماع بناصر ، وصل حشد من الزوار الى فندقنا لاعطاء الرأي فيما يجب أو لا يجب أن يدرج في البيان ، وكان بينهم مصطفى امين - صاحب جريدة اخبار اليوم - ومحمد حسنين هيكل - المحرر في اخبار اليوم - وكلاهما من امناه سر عبد الناصر ، وحسن التهامي المساعد الوطني الاول لناصر ، وجيمس ايخلبرغر من السفارة الامريكية في القاهرة (الذي علم بوصولنا من حسنين هيكل دون أن يذكر ذلك لبيرود) واحمد حسين السفير المصري في واشنطن ، الى جانب حشد آخر من بعض الشخصيات الاخرى •

ويبدو أن الجميع كانوا على المام تام بالإنباء السرية لصفقة السلاح الروسية . وعلى الرغم من الجهود المشتركة ، فقد كان نص البيان مقتضبا ، ولم يتعد توضيح النقطة التي وافق عليها ناصر دون أن يمس ذلك بشمور أحد أو أن يخفف من الأثر الدراماتيكي الذي كان يريد أن يتركه خطابه على جماهير الشعب .

وفي الساعة الثامنة من مساء اليوم التالي لوصولنا الى القاهرة ، ذهبت وروزفلت الى شقة ناصر في المبنى الخاص بمجلس قيادة الثورة الذي يقع مواجه السفارة البريطانية عبر نهر النيل ، ونالت المسودة اعجاب ناصر ، ولم يمانع في حشرها بين فقرات خطابه . الا أنه أبدى رغبته بإجراء تعديل طفيف عليها . فهو لا يستطيع ذكر عبارة « الصلح مع اسرائيل » صراحة ، ويفضل أن يستبدلها بعبارة « تخفيف حدة التوتر بين العرب واسرائيل » ووافق روزفلت على هذا ، بل واعتبره خطوة جلية نحو مستقبل أكثر هدوءا واستقرارا ، فقد كان يخفي في جمبته عديدا من الاقتراحات لانتهاء حالة العداء بين العرب واسرائيل ، الا أنه تريت في طرحها حتى ينتهي ناصر من خطابه .

وبينما كان ناصر منهمكافي اخراج زجاجة من « السكوتش ويسكي » الذي يحتفظ به عادة لضيوفه البارزين ، قرع جرس الهاتف ليقول له الضابط المناوب في الطابق الأدنى ان السير همفري تريفليسان ، السفير البريطاني ، يطلب مقابلة مستعجلة مع ناصر .

والتفت ناصر اليها متساءلا : « ما تظنون وراءه ؟ »

فأجب روزفلت : « طبعا ، يريد مباحثتك بشؤون صفقة السلاح الروسية » .

فقال ناصر : « واعجبا ، انها سر ، فكيف بلغته أنباؤها ؟ »

فرد عليه روزفلت قائلا : « حتى ولو أخفى أصحابك أنباءها فان السوفييت لن يفعلوا هذا ، فليس من مصلحتهم أن يدعوا طبي الكتان ، اليس كذلك يا جمال ؟ »

فقال ناصر : « هذا صحيح ، وما أظن غير ذلك ! »

وفي تلك الاثناء كنا ننظر الى ساحة السفارة البريطانية عبر النيل (١) فرائنا سيارة السفير تغادرها الى الشارع الرئيسي ، لتشق طريقها عبر الازدحام ، ومن ثم تعبر الجسر لتصل الى الشارع الذي يطل عليه مبنى مجلس قيادة الثورة . وفي هذه الفترة كنا نتناقش في الموقف الذي يجب ان يتخذه ناصر من السفير البريطاني الذي لم يكن - كسفيرنا بايرود - على علم بوجودنا في القاهرة . ذلك ان الوزير جون فوستر دالس - تمسكا بالتقاليد - لم يخبر باقي اعضاء وزارة الخارجية ، ولا البريطانيين ، ولا حتى سفيره بايرود في القاهرة ، بالدعوة التي وجهها اليها ناصر او بحقيقة هدف زيارة روزفلت للقاهرة (فقد كان الهدف منها محاولة اقناع ناصر بانتهاج سياسة جديدة وجريئة ، لتوثيق عرى الصداقة وتطوير البلاد اقتصاديا) ، والآن ، وتحت ظروف مماثلة ، ما الذي يجب على ناصر ان يخبر السفير البريطاني به ؟

قال له روزفلت : « وعلى سبيل تسويق اعلامه بالحقيقة حتى مساء الغد، اخبره ان الاسلحة من تشيكوسلوفاكيا ، فان هذا لن يثير قلقهم ، فتشيكوسلوفاكيا تعتبر من مصادر السلاح الرئيسية لاسرائيل » .

وهكذا غادر ناصر الشقة ليلتقي بالسفير البريطاني ويخبره ان الاسلحة من براغ Prague ، الا ان ناصر لفظ حرف « P » في كلمة براغ على الطريقة العربية كحرف « B » فلم يفهم السفير الا ان مصدر السلاح Brague ، وهذه ليست مدينة في تشيكوسلوفاكيا . وقدّر ان ناصر قبل صفقة السلاح الروسية . ولم يكن بوسعنا ان نقابل السفير البريطاني لنصحح له لفظ ناصر لكلمة Prague وكانت النتيجة ان ابرق السفير بالنبا حالا الى وزارة الخارجية البريطانية ، التي بدورها اشارت على هيئة الاذاعة البريطانية BBC ان تذيعة دون تاخير .

ولم تستمر مقابلة السفير تريفلان لناصر اكثر من خمس دقائق . وما كدنا ننتهي من مراجعة مسودة خطاب ناصر ، الذي سيلقيه في حفلة خريجي مدرسة الطيران ، حتي دخل علينا عبد الحكيم عامر وزكريا محي الدين وذهبنا بعدها معا لتناول طعام العشاء عند السفير المصري (في واشنطن) أحمد حسين .

(١) قلع السفارة البريطانية مقابل مجلس قيادة الثورة مباشرة عبر نهر النيل في الزمالك - القاهرة .

وكانت ساعات المساء التي أمضيها في شقة ناصر - قبل ذهابنا الى بيت احمد حسين - مليئة بالمرح والبهجة . تعرضت خلالها لمضايقات من صديقي زكريا محي الدين الذي لم يكن يعلم بوجودنا في القاهرة الا قبل دقائق معدودات . وتبادلنا النكات حول ما كان يمكن أن تتحول اليه تقاسيم وجه السفير البريطاني، لو أن روزفلت - أو أنا - قطعنا عليه خلوته مع ناصر لنسأل الاخير : « عفوا يا جمال ، لقد نفدت الصوداء فمن أين لنا بمريد منها ؟ » . وتبادلنا النكات الشائعة حول ميكروفونات التجسس المدسوسة في غرفة الاجتماعات . وبعبارة أوضح ، فقد تبادلنا جميع أنواع المزاح البريء الذي يدور عادة بين المراهقين من حضارات مختلفة وخاصة بعد تحررهم من قيودهم وانطلافهم من كبتهم .

واستمر هذا المزاح وتراشق النكات طوال الطريق الى بيت السفير احمد حسين وحتى خلال القسم الاول من حفلة السمر هناك . الا أن موضوع المزاح - وهو مقابلة السفير لناصر - ، لم يكن ليسمح لأي قادم جديد بالمشاركة فيه لجهلة بما جرى . وقد وصلنا متأخرين ساعة من الزمن الى بيت السفير حسين . الا أن السفير بايرود كان قد سبقنا الى هناك ، ولم يعلم بوجودنا في القاهرة الا عندما رأنا ندخل بيت السفير حسين مع رئيس الدولة وكبار نوابه، والكل مستغرقون في الضحك يتبادلون النكات التي كان بايرود غريباً عنها كليا . . .

ربما لا يدري القارئ الا القليل عن طبيعة نظام التشريعات في المؤسسات الضخمة ، مثل وزارة الخارجية الامريكية ، أو شركة جنرال موتورز ، أو الكنيسة الكاثوليكية ، أو الجيش الصيني . ولهذا فمن دواعي السرور أن أخبره انه ليس هناك ما يزعج أحد كبار الموظفين أكثر من تسلل موظف آخر الى مملكته دون علم مسبق منه ، أو أن يتصرف ذاك الموظف الاخر بصورة مستقلة تماما عن الاول وعلى مستويات رسمية عليا . وكان يحدث هذا كثيرا على عهد الوزير دالس . فصدما تواجه الوزير أية مشكلة - وليكن مثلا أفغانستان - كان يتلفت يمنة ويسرة ليتفرس في وجوه هيئة وزارته ، ثم يحاطبهم قائلا : « والآن، لنرى من منكم ضليعا في معالجة الشؤون الافغانية ؟ » . ثم ما لبث الوزير أن يختار أحد الموجودين لمجرد تذكره أنه قد سمع منه حديثا عن « أفغانستان »

منذ زمن غير بعيد ، واعتبره الوزير صحيحا . ولم يكن دالس من النوع الذي له في مجلسه من يرغب أن يقول له : « يا حضرة الوزير ، لكننا نملك سفيرا جيذا في أفغانستان ! » . وعلاوة على ذلك ، فإن الوزير لا يثق بأولئك الذين يعملون مباشرة تحت امرته بل ولا يتذكر غيرهم .

وبعد أن ينتقي الوزير دالس مبعوثه الخاص ، فإنه لا يقوم بإبلاغ السفارة المعنية بالامر ، أو أنه يعلمها بصورة شكلية فقط مثل : « أفريل هاريمان يصل على البان اميركان رحلة رقم ١٠٠ ، لا يرغب بالنزول في البيت الخاص ، نرجو حجز جناح له في الهيلتون » . وإن ذكر أحيانا سببا للرحلة فلا يكون السبب الحقيقي . وفي خلال عهد الوزير دالس ، كان أي سفير لنا في الخارج يخشى أن يلتقي عرضا ، وهو في طريقه من مسكنه الى مبنى السفارة ، بأي من تلك الشخصيات التي كانت تعمل في مجال دبلوماسية ما وراء الكواليس (مثل روبرت مورفي أو روبرت أندرسون) مستقلا « الكاديلاك » المخصصة للضيوف ، وسالكا اتجاها معاكسا في الشارع وهو في طريقه لمقابلة ما في القصر . إلا أن السفير الأمريكي بايروود كان أكثر السفراء مرونة ، وأقلهم سقدا وحسدا ، وأكثرهم رحابة نفس وسعة أفق . وكان أيضا من أقل كبار الموظفين اهتماما بالشكليات والرسميات . ومع كل هذا ، فمن المحتمل جدا أنه قد أصيب بذهول ودهشة لدى رؤيته كيرميت روزفلت - وغيره - بين المدعوين لحفلة العشاء ، ويدخل القاعة متباطئا ذراع رئيس الدولة واثنين من وزرائه ، وبمظهر لا يمكن أن يوحي إلا أنهم قادمون لتوهم من اجتماع عقد بينهم . وعلاوة على هذا ، فإن ذاك المزاج الذي كان مقتصرًا عليهم ، دون غيرهم ، لا يمكنه أن يعطي إلا ذلك الانطباع . فمهما كانت الظروف ، فمن المزعج حقا أن يجد الانسان نفسه ضمن فئة من معارفه تمزح وتمرح ، وهو لا يدري من أمرها شيئا

وبين المدعوين ، كان جيمس ايخلبرغر ، الذي نسي أن يخبر بايروود أنه رآنا صباح نفس ذاك اليوم . وكان السفير المتجول اريك جونتستون من بين الحاضرين أيضا . فقد أمضى فترة في القاهرة يجري مشاورات بخصوص مشروع نهر الاردن فأنار في الحفلة موجة من المرح والتنكيت لعلها تنسيه آلام انقشال الذي لاقاه في جولته . وأخيرا كان هناك صاحب الدعوة نفسه

السفير المصري في واشنطن ، أحمد حسين ، جالسا يشاطر ايخبلرغر زجاجة من البراندي . وأما السفير بايرود ، فقد انتحى زاوية لوحده ، وعليه امارات الكتابة والتكد ، وفي يده وتد من الحديقة يعبث به .

كان اللقاء مبهجا للجميع باستثناء بايرود . واستهله السفير جونستون بقصة تشبه قصص المتشردين من الاحداث ، وألقاها بلهجة ايرلاندية احتوت كثيرا من العبارات مثل : الراهبة الحاملة ، موسى ، اليهود ، الخروج الى الفاط . وبينما كنت والسفير حسين منهكين في ترجمة القصة الى العربية ، اذ بالسفير بايرود يتنحنج ويقاطعنا قائلا :

« جمال ، هناك قضية أود أن ألفت انتباهك اليها . »

وهنا انقطع الضحك ، وانصت الجميع ، واندفع بايرود يلقي خطبة طويلة ضد الحكومة البوليسية في مصر ، وضد مجلس قيادة الثورة الذي يتصرف مثل « الاحداث من المجرمين » ، وضد بعض مظاهر نظام حكم ناصر التي ذكرته بها تلك المعاملة السيئة التي لقيها الملحق الامريكي لشؤون العمال في سفارة بايرود على أيدي رجال البوليس في الاسكندرية لايام خلت . وكانت الخطبة مسهبة ، وبالأفاظ بليغة ، وكان أحد مشاهير كُتّاب المسرح قد خطها بقلمه . الا أنها ، مع الاسف ، لم تكن مناسبة أبدا ، لا في زمانها ولا في مكانها ، ولم تلق الا على مسامع أقل الناس اتعاطا بها . وما كان من ناصر الا أن أطلق سيجارته ، وهب واقفا ، وغادر القاعة بخطى سريعة . ولحق به وزراؤه وغادروا الحفل معه . الا أن روزفلت سبواقفا ولحق به حتى السيارة ، محاولا أن يعتذر عما حدث . وجلس بايرود بعدها الى الطاولة لا ينبس ببنت شفة ، فلم تذهله مفادرة ناصر الدراماتيكية للحفلة بقدر ما أذهلته المضاعفات التي ستترتب على حضور جونستون وروزفلت الحادثة . ولقد أدرك بايرود هذا تماما . وعندما سمع جونستون صرت « كاديلاك » ناصر تبتعد ، ربت على يد بايرود وقال له : « هانك ، لقد حان وقت الانصراف » . وانصرفوا ، وبايرود بينهم « كالسائر غافيا » يؤخذ بيده الى الفراش .

ومع أنني تأكدت أن هذا النظام قد ألغي فيما بعد ، فقد كان سهلا يومها أن تستعمل إحدى الشخصيات الزائرة تسهيلات السفارة لارسال برقية الى

واشنطن دون علم السفير وخبره . ففي الوقت الذي كان بايرود في فراشه يتقلب أرقا ، كان روزفلت وجونستون يأمران موظف الشيفرة في السفارة بإرسال برقية للوزير دالس ، يذكران له فيها كثيرا من الاخبار التي لا تعطى انطبعا حسنا عن بايرود . ومع أن روزفلت قد شعر بالاثم لاهماله اخبار بايرود بوصوله ، الا أن سلوك الأخير في بيت أحمد حسين سوف يعرض الخطة التي جاء روزفلت لتنفيذها في القاهرة للخطر بأكملها . أما جونستون ، فقد علمته التجارب أن على رجل الاعمال ألا يفقد أعصابه مع زبائنه وحتى مع خصومه . وطن جونستون أن بايرود يواجه حالة انهيار نفسي ، الا انه كان اللطف من ذلك عندما قال في سياق برقيته للوزير دالس : « انه - بايرود - في حاجة ماسة للراحة » . ووصلت البرقية واشنطن ، ورفعت الى الوزير دالس في صباح نفس ذاك اليوم (وذلك لوجود سبع ساعات كفرق زمني بين القاهرة وواشنطن) الذي سيلقي ناصر فيه خطابه المتضمن ذاك المقطع الذي صممت مع روزفلت بعناية ودقة .

في الساعة السابعة صباحا بتوقيت القاهرة المحلي ، اتصل بايرود بسي هاتقيا ، وطلب مني الحضور الى مكتبه . وعندما وصلت الى هناك بعد نصف ساعة ، بدا بايرود بنفسية جديدة تذكرت معها ما ذكره أحد الكتاب عن « السفير النموذجي » وقد نسي كل ما حدث الليلة السابقة بعد عدة جولات في لعبة التنس . وكان مرتديا سترة الرياضة وهي من صوف خشن ، وبدأ يومه بخفة ورشاقة رجل الاعمال . الا أن ردود فعله تجاه ما جنت يدها الليلة الماضية كانت أقل من أن تثير قلقه حيال مهمته كرجل دولة كاد استهتاره وقلة اكترائه أن يسببا تصدعا خطيرا في العلاقات المصرية الامريكية . وبطريقة لا تختلف عن تلك التي وصف بها « ادوارد سيهان » السذج في روايته « مملكة الاوهام » ، رمى بايرود بورقة أمامي وسألني عن رأيي فيما كتب عليها .

لم أعد أذكر النص المكتوب تماما ، الا أنه كان شيئا من هذا القبيل : « عزيزي جمال : انني جد آسف لاثارة موضوع كرهه في لقاء لطيف مساء أمس . ولكنني لا أزال متألما جدا بسبب ما حل برجال سفارتني من ضرب واهانة ، وانك بالتأكيد ستتألم ان واجهت نفس الظروف » ومهما كان فائتي

أكرر اعتذاري راجيا منك القبول • المخلص : هانك • • وأخبرت بايرود أنها رسالة جيدة وأنني سأعطيها لناصر حالا •

قابلت ناصرا في الساعة التاسعة صباحا وهو يهم بمغادرة سيارته « اللوموزين » ليدخل مكتبه الرسمي • الا أنه أمسك بيدي ، وأدخلني معه وهو يصف ذربا سهرة الليلة الماضية وكم كانت ممتعة للجميع ، وقال : « اظن أن قصة أريك (جونستون) حول موسى وخروجه للفانط كانت طريفة ! » • وبعد دخوله لمكتبه ، أعطيته رسالة بايرود ، فرمقها بنظرات سريعة ، ورمى بها داخل أحد أدراج المكتب مع غيرها من الاوراق ، وقال : « حسنا ، أرجو أن أراك مع كيم (روزفلت) هذه الليلة » • الا أنه لم يعط أي تعليق حول رسالة بايرود • وعندما هممت بمغادرة الغرفة سألته : « وماذا بخصوص رسالة بايرود ؟ »

قال : « وماذا تعني ؟ »

قلت : « ماذا ستفعل حيالها ؟ »

قال ، وهو يلوح لي بيده مودعا : « حسنا ، سأضممها الى ملف مثيلاتها ! »

قلت : « وما ••• مثيلاتها ؟ »

قال : « حسنا ، فمن عادة هانك أن ينفجر هكذا • أرجو أن لا يكون كيم وأريك قد تأثرا كثيرا بسببها ! »

وجلست ثانية وأنا أفكر في جملته « لم يتأثرا بسببها » • واحسرتاه ، ان ناصرا لا يدري أنهما معا – أريد وكيم – قد ذهبا توا بعد السهرة الى السفارة ليلا ، وأبرقا الى الوزير دالس بما يكفي لنفي بايرود الى جزيرة فرناندوبو (جزيرة اسبانية فى غرب افريقيا) •

وسألت ناصرا : « وماذا تعني تماما بمثيلاتها ؟ » وفهمت منه أنه لم يعض أكثر من أسبوع واحد على تقرير بايرود لناصر لسماحه لاحد الطيارين الذين تخرجوا حديثا بالتحليق في اول مهمة طيران له فوق اسرائيل ، حيث استقطت طائرته هناك • وفي مناسبة أخرى ، اتخذ بايرود من أحد تصريحات ناصر المعادية لامريكا مثارا لنقاش وخلاف بينهما • ومما لا شك فيه أن بايرود كان قد وطد علاقاته بناصر الى حد سمح له هذا الأخير أن يناقش علنا أيا من تصرفاته

التي لا تروق له . وفي الوقت الذي كان ناصر ينظر انه بعضها بعين الاعتبار ، كان لا يعبّر البقية أي اهتمام أو اكتراث ، ودونما أدنى انزعاج أو اضطراب . وما لا شك فيه أن ناصرا لم يكن راغبا اطلاقا في أن يسمح ايا من ملاحظات بايرود في تلك السهرة بالذات خشية أن تثير له بعض المتاعب . وعندما هممت بالمغادرة قال لي : « الا أنني عازم على مفاتحة كيم بهذا الامر عند لقائنا هذا المساء » .

ومع أن الفارق الزمني في التوقيت بين واشنطن والقاهرة يقارب سبع ساعات (التاسعة صباحا في نيويورك تعادل الرابعة بعد الظهر في القاهرة) . غير أن الفارق الزمني في سرعة العمل أقل من هذا بكثير . فهو لا يتجاوز ساعة واحدة من الزمن . ففي العاشرة صباحا في واشنطن (الخامسة مساء في القاهرة) من نفس ذاك اليوم وقعت حوادث عدة أهمها :

● الوزير دالس قرر ارسال جورج آلن - مساعده - الى القاهرة ليحقق في صحة تصرفات بايرود ، وسلامة عقله .

● وليام روتري ، نائب مساعد وزير الخارجية ، وضع مسودة رسالة قاسية لناصر يحذره فيها من أخطار قبول الاسلحة الروسية .

● مساعد نائب وكيل وزير الخارجية، مستر سومبودي، جعل أنباء قصة السلاح الروسية تنسرب الى الصحافة بشكل يبرر ظهور بعض العناوين في الصحافة مثل « آلن في القاهرة ليقدم انذارا لناصر » . وما لبثت أن أبرقت وكالة الاسوشيتد برس بالنبا الى القاهرة قبل الساعة السادسة مساء (الحادية عشر صباحا بتوقيت واشنطن) . وبحلول الساعة السادسة والنصف كنت وكيرميت روزفلت في غرفة الاستقبال ننتظر مقابلة ناصر . الا ان ناصرا وقتها كان محاطا بكبار موظفيه وهو يصدر الاوامر لهم :

لموظف أول : « اشطب ذاك المقطع السخيف (الذي كتبته مع روزفلت) من مسودة الخطاب واستبدله بأخر أكثر تحديا وعداء للامريكيين » .

لموظف ثان : « اتصل بوزارة الخارجية واطلب منها تفاصيل مضاعفات قطع العلاقات مع دولة عظمى » .

لموظف ثالث : « اتصل بالاذاعة لتطلب بدورها من الشعب انتظار اخبار هامة » .

وعلى الغالب ، فانه قد التفت الى موظف رابع وأمره أن ينتقي احقر السيارات المخصصة للزائرين ليرافقني بها وكريميت روزفلت الى المطار دون مقابلتنا لناصر . ولعلم القراء - غير الرسميين في واشنطن - فان سلسلة تصرفات ناصر الآنفه الذكر تسمى « صفة » ، الا أن « صفة » أخرى كانت تأخذ مجراها وفي نفس الوقت في واشنطن .

ويعود الفضل لمصطفى أمين الذي تكرم بالسيطرة على الحالة المتدهورة ، وأقنع ناصرا بأنه لا ضرر من مقابلتنا - أنا وكريميت - وذلك - على الأقل - لسماع رأينا في الاحداث قبل أن يتخذ ناصر أية اجراءات عنيفة . وتواضع ناصر أخيرا ، وصعد الى شقته في الطابق الأعلى حيث كنا بانتظاره . ولم يكن لي أو لروزفلت أي علم بما أبرقت به وكالة الاسوشيتيدبرس . كما أن مكتب الوزير دالس في واشنطن لم يبرق الى السفارة في القاهرة - وذلك جريا على عادته - بالغرض من زيارة جورج آلن للقاهرة : التقديم انذار ، أم لغير ذلك . ولهذا فقد دهش كريميت روزفلت حينما وجد ناصرا - وبدون أي علم مسبق بما جرى - غضبان مزمجا .

بعد عدة شهور ، ألقى ناصر خطابا ذكر فيه أن «أمريكا» ما حضر لعنده ليعلمه بأمر انذار آلن (قبل وصول آلن نفسه) ، وأوصاه أن لا يعير الانذار أي اهتمام . لقد ثار لفظ كثير حول هذا النبأ بالذات يوم نشر في الصحافة ، وكان النبأ يومها أحد الامثلة على غلو العرب . ان كل ما قاله روزفلت في ذاك اللقاء لم يتعد : « لماذا لا تؤخر خصامك - يا ناصر - حتى تتسلم الانذار ، وذلك بدلا من العكس ! فلربما تكون الاسوشيتيدبرس مخطئة كما هو الحال أحيانا ؟ » . ولكن ناصرا لم يوافق على ذلك ، وأصر على أن الاسوشيتيدبرس ليست مخطئة بل انها نادرا ما تخطئ . (لقد كان مراسل الاسوشيتيدبرس في القاهرة ، ولتون واين ، يتجشم المشاق في سبيل مراقبة الانباء والتحقق من صحتها . فأخبره الى المركز الرئيسي للوكالة كانت على جانب كبير من الصحة والدقة) . ولم يكن بمقدور روزفلت أن يقول لناصر : « اذا قدم آلن اليك أي انذار فلا مانع من أن تجيبه بالطريقة التي تراها ضرورية ومناسبة للموقف . الا أنني لا اعتقد أن الوزير دالس قد أرسل اليك أي انذار بدون أن يخبرني بذلك » . لقد

كان هذا تخميننا مقبولا من روزفلت ، لكنه غير صحيح . وما لبثت أن هدأت
ثائرة ناصر ، ونال اقتراح روزفلت موافقته ، وقرر أن يرجئ اتخاذ أي ردود
فعل قاسية حتى يرى بأم عينه الانذار بين يديه . الا أنه أصر على حذف ذلك
المقطع « المدلل » من خطابه .

ومع أن خطاب ناصر (الذي ألقاه في متخرجي الطيران) كان ملطفا قدر
الامكان نظرا لما احتواه من أنباء مثيرة ، الا أنه خلا كليا من أية إيماءات رجس
الدولة التي كنا نحرص على وجودها في سياق الخطاب ، مثل تخفيف حدة التوتر
مع اسرائيل . وعندما حان وقت اللقاء ناصر لخطابه ، كانت الاسوشيتدبرس
وهيئة الاذاعة البريطانية ، قد اذاعتنا كثيرا من أخبار صفقة الأسلحة
الروسية (أو التشيكية) الى الحد الذي لم تتركا لناصرا أية فرصة لإعلان أخبار
جديدة على الشعب . وكل ما تبقى لناصر أن يقوله هو : « نعم لقد قبلت أسلحة
روسيه (أو تشيكية) فما عساهم أن يفعلوا ؟! » ولم يأت الخطاب على ذكر أن
الهدف من شراء الأسلحة هو دفاعي محض ، بل تركه مبهما . وعندما قابلنا
أنا وروزفلت ناصرا بعد الانتهاء من خطابه ، خرج عن صمته وقال : « لم يكن
ذلك ما رغبتما به تماما ، الا أنه لا يزال أمامنا متسع من الوقت » .

وفي صبيحة اليوم التالي ، وصل جورج آلن الى القاهرة وذلك بعد ساعة
تقريبا من استلام رجال السفارة لبرقية من واشنطن تقول : « احجزوا له
جناحا في الفندق » . واحتشد عدد غفير من رجال الصحافة والمراسلين في
مطار القاهرة ، وكان بينهم بايرود ومساعدوه . والتقط المصورون له صورا
عديدة وهو لا يزال على سلم الطائرة ، كما التقطوا صورا أخرى لبايرود وآلن
وهما يتصافحان ، وكذلك لآلن وهو يصافح موظفا مصرياً بسيطاً من موظفي
التشريفات . واحتشدت الجموع على شرفات المطار وهي تهتف بشعارات معادية
للأمريكيين - وكان المنظر بكل عناصره يؤلف مسرحية مؤثرة تخفي وراءها نفسية
التحدي الناصري بالصورة التي يطرب لها العرب ويعشقونها . وقبل أن يتمكن
أي مراسل من الاقتراب من آلن لي طرح عليه بعض الاسئلة ، تسلل حسن التهامي
من خلال حزام حرس البحرية الأمريكية المضروب حول آلن وسلمه مذكرة من
روزفلت وجونستون مكتوب فيها :

« لا تعترف بالانذار ، أو على الأقل لا تأت على ذكره حتى نلتقي معا
ونتباحث بشأنه » .

وبعد نصف ساعة من الزمن عقد اجتماع في مكتب بايرود ضم كلا من
روزفلت ، وأريك جونسون ، وجورج آلن ، وبايرود ، ولويس جونز (مساعد
بايرود) وأنا . لقد أرسل الوزير دالس آلن الى القاهرة ، وبصورة رئيسية ،
لاستبدال بايرود المخبول . الا أن هذه الفكرة قد أصبحت الآن غير ذات بال :
فها هو بايرود في مكتبه يترأس اجتماعا يحضره على الأقل ثلاثة من كبار موظفي
واشنطن في آن واحد ، وهم كيرميت روزفلت وجورج آلن وأريك جونسون .
ثانيا ، ان الستار الذي أسدل على الانذار قد حجب كل شيء آخر الى الحد
الذي لم يتمكن روزفلت وجونسون أن يفهما المقصد الحقيقي من زيارة آلن .
وبقي الأمر هكذا حتى انعقد لقاء سري بينهم بعد بضع ساعات . ثالثا ، لقد
تجاوز رد فعل العالم العربي لانباء صفقة الأسلحة الروسية أسوأ الحدود التي
توقعناها ، وأصبح بحد ذاته مسألة لا تقل أهمية عن الصفقة نفسها . وكان
سبب كل ذلك تلك البرقية التأففة التي أرسلها روزفلت وجونسون قبل يوم
واحد ، والتي سماها الاثنان فيما بعد « برقية منتصف الليل اللعينة » .

ولا ازال أذكر تماما تلك الدمعة التي أحالت ذاك الاجتماع بين كبار
موظفي واشنطن الى مجرد « لعبة صينية » لا يفهم أحد لغة أطرافها . لقد كنت
تسمع : « لقد دفعتم بناصر الى أحضان الشيوعيين » . « لو أنكم سمعتم من
الكونغرس ما سمعته أنا منه » . « انها غير مثمرة » . « والان أين تقف
المصالح الأمريكية في خضم هذه الاحداث ؟ » . « في هذه اللحظة المناسبة » .
« انها ايماءة رجل دولة » . ومع أنني أكن احتراماً فائقاً لذكاء جورج آلن
ورجاحة عقله ، الا أنني على استعداد لأقسم يمينا على أنه قال : « لماذا لا نناشد
ناصرا باسم شعبه ؟ » فكان جواب روزفلت انه خير لنا « أن نرقص تحت المطر » ،
وغادر الاجتماع ليلصق التنس . وأما أريك جونسون ، الذي اعتاد أن لا يتكلم
الا بعد أن ينهي الجميع كلامهم وهو مستمع لهم وناصت ، فقد قال : « ان
القضية لا تزال كذلك التي سمعنا بها قبل شهر من الزمن حول الأسلحة
الروسية ، سوى أننا الآن بتصرفاتنا الرعناء هذه نساهم فعلا في نفخ اخبارها

وتضخيم انبائها • وهذا ما يريدنا ناصر ان نفعله تماما • اذا كان الانذار ينطوي على اية تهديدات فباستطاعتنا تقديسه مهما كانت المواقف • واذا لم يكن كذلك فدعونا ننسأ نهائيا • وهكذا انفض الاجتماع الذي انسحب روزفلت منه قبل قليل •

وكان هناك « انذار » ، وهو جدير بالقاء نظرة عليه هنا • فلقد أعد ذاك « الانذار » على جناح السرعة ، ونتيجة لامر من الوزير دالس - رأي امر ذاك ! ولعلمي ، فقد التفت الوزير دالس لآلن وقال له :

« يا آلن ، لما كنت الى القاهرة ذاهبا ، فهل تتكرم بانتهاز الفرصة لتعرج على ناصر ، وتقص عليه ما يدور بخلدنا حيال صفقة السلاح ؟ »
والتفت الوزير الى موظف اخر اسمه « بيل » وقال له :

« هل لك يا « بيل » في ان تضع لنا بعض رؤوس الاقلام حول هذا الموضوع ؟ » •

ومع ان آلن قد استحسن تقليل روزفلت لاهمية الانذار في حديثه مع ناصر الليلة التي سبقت وصوله ، الا أنه لم يكن له الخيار ، وكان عليه ان يبلغ « انذار دالس » •

وكان الوضع يتطلب بالتأكيد التقليل من شأن ما أرسله دالس ، وليس اظهاره مظهر الجد والاصرار • فعندما ذهب آلن للقاء ناصر، لم يحاول الاول أن يقرأ بصوت مسموع أكثر من بضع فقرات من الانذار • ثم انتقل آلن الى استعراض أمور أكثر طرافة واسلس حديثا (بدل تصعيده لحدة التهديد كما توقع ذلك ناصر) • وكان من بينها استفهامه من ناصر حول « الطرق التي تنوي حكومة ناصر أن تنفق فيها الاربعين مليوناً من الدولارات » (التي نالتها من الحكومة الامريكية كمساعدات اقتصادية قبل عقد ناصر لصفقة السلاح ، وما منعت عنه كمقاب له على شرائه أسلحة السوفييت) •

وأظن أن هذا هو كل ما يتعلق بالموضوع ، موضوع صفقة السلاح • لقد امتلأ قلب ناصر سرورا لتطورات الامور وتعاقب الاحداث • وفرح بصفقة السلاح التي لم تلق اية معارضة حقيقية منا • وفرحت جماهير الشعب بها على

عادتها • وخضعت مسرحية « الانذار » المزعوم تسلسل الاحداث : ناصر يقف ضد الانذار ، والجماهير تؤيد ناصرا في موقفه هذا • لقد فرح ناصر بكل هذا طبعاً ، الا أن فرحته قد بلغت الذروة عندما علم في النهاية « أنه ليس هناك أي انذار على الاطلاق » • ولم يكتف ناصر بهذه اللعبة التي رفعت من قيمة أسهمه في العالم العربي (إلى جانب منافع الاسلحة) ، بل بذل قصارى جهده لافراغها في قالب مسرحي ولأخراجها مفعمة بالحركة والشعور • وكان ذلك - وذلك كله - بمساعدةتنا •

لقد تمكن ناصر من الاحتفاظ باستقلاله بعد حصوله على السلاح الروسي (١)، ولم يفقده أمام السوفييت • وهكذا فقد وضعنا أمام أمرين لا ثالث لهما : اما أن ندعه لقمة سائغة للسوفييت ، او نحاول كسبه الى جانبنا ثانية • وبعد انتهاء تلك المسرحية التي كان عمادها جورج آلن « وعطلته الاسبوعية الضائعة » (كما اتفقنا على تسميتها فيما بعد) كان الطريق أمامنا واضحا ٧ غموض فيه : لقد ارتضينا حياده الايجابي ، بل ولقد شاركنا في ولادته •

(١) ان نوعيه السلاح الذي حصل عليه ناصر ليس بتلك الاعمية التي تلقفه استقلاله معها • ولا تزال روسيا الآن تمنع عن العرب (بشهادة ناصر نفسه) الاسلحة الثقيلة التي تمكن العرب من مواجهة اسرائيل حقا • ولكن ما فائدة كلامنا اليوم ولإعتراف باسرائيل رسميا أصبح على الاجواب ؟! (الحرب).

ناصر واتحاد "المحايدين الإيجابيين"

... فان كانت كل تلك المغانم نتيجة جهد لاعب ضعيف لوحده ، فالمغانم اعظم « لاتحاد »
من اولئك الضعفاء

الحياد الايجابي - أو حرية التقرير ، أو ما شئت أن تسميه - لم يكن من أهداف ناصر فحسب ، بل كان استراتيجيته العليا . ففي عام ١٩٦٥ نظم بيتر مانسفيلد قائمة بقروض مصر الاجنبية وتسهيلات الدفع الممنوحة لها . وتأكدت كل من وزارة الخارجية الامريكية ووزارة الخارجية البريطانية من أن الارقام صحيحة تماما ، وان كان هناك أي شك فهو - على الاقل - لا يزال قيد المناقشة . والقائمة ، مع مجموع الديون ، مبينة هنا ، على أساس أن قيمة الجنيه المصري تعادل ٢٣٠ دولارا .

● من الدول الشيوعية :

| | | |
|-------------------|------|-----------------|
| الاتحاد السوفياتي | ٣٣٢٥ | مليون جنيه مصري |
| تشيكوسلوفاكيا | ٦٢٠ | مليون جنيه مصري |
| ألمانيا الشرقية | ٤٥٠ | مليون جنيه مصري |
| بولندا | ٢٤٤ | مليون جنيه مصري |
| المجر (هنغاريا) | ١٢٠ | مليون جنيه مصري |
| يوغوسلافيا | ٧٠ | مليون جنيه مصري |
| المجموع | ٤٨٢٩ | مليون جنيه مصري |

● من الدول غير الشيوعية :

| | | |
|------------------|------|-----------------|
| الولايات المتحدة | ٥٣٥٦ | مليون جنيه مصري |
| ألمانيا الغربية | ٩٣٠ | مليون جنيه مصري |
| إيطاليا | ٩٢٩ | مليون جنيه مصري |
| اليابان | ١٧٠ | مليون جنيه مصري |
| فرنسا | ١٠٠ | مليون جنيه مصري |

| | | |
|----------|-------|-----------------|
| بريطانيا | ٥٤ر | مليون جنيه مصري |
| هولندا | ٥٠ر | مليون جنيه مصري |
| سويسرا | ٤٠ر | مليون جنيه مصري |
| السويد | ٣٣ر | مليون جنيه مصري |
| وغيرهم | ٦٣ر | مليون جنيه مصري |
| المجموع | ٧٧٢ر٥ | مليون جنيه مصري |

● البنك الدولي : ١٩٧ مليون جنيه مصري

● هيئة التمويل العالمي
المجموع الكلي
٣٦٠ مليون جنيه مصري
١٣١١١ مليون جنيه مصري
٣٠١٥٥٣ مليون دولار تقريبا

وعلاوة على المنافع المالية ، فهناك مساعدات تقنية وهبات لتجهيزات صناعية ومساعدات غذائية . كما أن الولايات المتحدة وغيرها باعت مصر غذاء يسدد ثمنه بالجنيه المصري - العملة المحلية . وحصل ناصر على تجهيزات عسكرية من السوفييت يقدر ثمنها بخمسمائة مليون من الدولارات . ولو رضي ناصر أن يقف في الصف ينتظر دوره - كما أراد الوزير دالس - لبقيت كل الارقام السابقة مجرد احلام ، وما كان ليحصل يومها على أكثر من أربعين أو خمسين مليوناً من الدولارات سنوياً من الولايات المتحدة وبريطانيا ودون أي شيء من السوفييت . كما أنه كان سيبقى دون أية مساعدات عسكرية ما كان ليطول بقاؤه على رأس نظام حكمه في مصر بدونها . وهكذا فقد سلك ناصر طريقاً عاد عليه بعشرة أضعاف ما عرضناه عليه وقتئذ .

وأول ما نذكر في معرض حديثنا عن استغلال ناصر لفكرة الحياد الايجابي وانتسابه الى « رابطة المتسولين » جابي المساعدات « (كما سماها المسؤول الاقتصادي في سفارتنا في القاهرة) هو الوقت الذي أثرت اثنائه مشكلة المساعدات الاقتصادية البالغة أربعين مليوناً من الدولارات . ففي اللقاء الذي جرى بين ناصر والوزير دالس في أيار (مايو) ١٩٥٣ كان الانطباع السائد عند ناصر آنذاك أن قيمة المساعدات الاقتصادية التي نفكر بها لا تقل عن مائة مليون

دولار ، وان قيمة المساعدات العسكرية لا تقل عن هذا الرقم أيضا .
كما كان يظن ناصر أن كل ما يقتضيه فعله للحصول على كل ذلك هو التوصل
الى اتفاق مع بريطانيا حول قاعدة قناة السويس . واعتقد ناصر أنه غير ملزم
بالانتظار حتى يوقع الاتفاق بل كان كافيا يومها أن يبرهن المصريون على حسن
نياتهم واخلاصهم أثناء سير المفاوضات ، وأن يفدوا التوصل الى الاتفاق وشيكا .
وبناء على هذا سافر علي صبري (وكان أخلص أصدقاء الأمريكيين في مجلس
الثورة آنئذ) الى واشنطن لمساعدة الملحق العسكري المصري ، عبد الحميد
غالب ، في المفاوضات . وقد أصبح علي وعبد الحميد من خصومنا فيما بعد
لاعتقادهما أننا اتبعنا معهما أسلوب المراوغة في موضوع المائتي مليون دولار
التي وعدنا بها ناصر على شكل مساعدات عسكرية واقتصادية . وهكذا انقلب
اثنان من المسؤولين المصريين (أحدهما بقي نائبا لرئيس الجمهورية لمدة قريبة ،
والآخر أصبح مساعدا لوزير الخارجية) الى عدوين لدودين لنا ، نتيجة
شعورهما بالمدلة والمهانة أثناء المفاوضات في واشنطن والذي أخفقتنا في
التخفيف من حدته حتى الآن .

لقد وقعت وزارة الخارجية يومها في حيرة وارتباك . فقد لمس صبري
وغالب من كل المسؤولين الذين التقوا بهم في واشنطن برهانا على صدق
انطباعاتهما حول المائتي مليون دولار التي وعد دالس بها ناصرا . وعانى السفير
كافري كذلك من ارتباك شديد حيال حديث ناصر عن المساعدات الأمريكية .
فقد شعر كافري أن كلام ناصر فيه كثير من الصدق ولم يستبعد أن يكون لسان
الوزير دالس قد زلّ على مائدة الطعام ووعد ناصرا بمبلغ المائتي مليون دولار ،
دون أن يصل ذلك الى أسماع كافري أو مساعديه . وفي أحد أيام الصيف طلب
مني كافري أن أقوم بزيارة ناصر لسؤاله ان كان بمقدوره اعارتنا « مذكراته
عن المحادثات » مع دالس . وعندما التقيت بناصر اقتضى الامر أن أشرح له
لعدة دقائق ما أعني بمباراة « مذكراته عن المحادثات » ، فهو لم يعهد من قبل
أشياء كهذه ، ومنذ تلك الحادثة ، ازداد ناصر دقة وتعقيدا وطفق لا يدع حديثا
مع مسؤول مهم الا وسجله صوتيا من خلال الميكروفونات المخبأة في مكتبه
وغرف الاستقبال وعرفة الطعام . فقد اعتبر تسجيل موطئينا لما دار في الاجتماع
بينه وبين دالس مكررا وخداعا لان اللقاء كان سريا ، ولا يحق لاحد أن ينون ما

دار فيه • فناصر نفسه لم يحتفظ بأية مذكرة عن اللقاء ، ومن المدهش أن يكون دالس قد احتفظ بشيء من هذا القبيل •

ومن خلال حديث لاحق جرى بين ناصر والسفير كافري ، الى جانب حديثي السابق ، بدأت أميل للاعتقاد أن ناصر قد غفر لنا ما سماه « خطأ شريفا » ، الا أن علي صبري وعبد الحميد غالب لم يغفراه لنا • (أخبرني عبد الحميد غالب لاحقا أنهما قد عوملا معاملة الاطفال • فعندما ظنا أن الامر قد تم والموافقة على المائتي مليون دولار أصبحت جاهزة اذا بهما يفاجآن في اليوم التالي بأحد المسؤولين في وزارة الدفاع يخاطبهما وكأنهما « جنود أغرار » ، وبآخر من وزارة الخارجية يلقي عليهما درساً في « السلام والاستقرار » وكأنهما أغبياء) • وكان جل هم ناصر أن يعرف : « حسنا ، وماذا ستكون حصتنا منكم ، أيها الأمريكيون ؟ » •

وفي أثناء أحد الامسيات التي أمضيتهما مع ناصر في حديثه ، وبحضور حسن التهامي ، حاول ناصر أن ينتزع مني جواباً عن سؤاله السابق ، لكنه لم يجد لهذا سبيلاً • فقد كان معظورا علينا - نحن المواطنين غير الرسميين - حسب مرسوم « لوجان » أن نحاول التأثير على تفكير أي من رؤساء الدول الأخرى فيما يتعلق بعلاقاتهم مع حكومة الولايات المتحدة وتوجيهها وجهة معينة • ولهذا فليس من مهمني أن أجيبه على سؤال كهذا • كما لم أشأ احراج السفير كافري وازعاجه • الا انني قلت لناصر . « كنت أفضل أن تقتصر المطالبة على عشرين مليونا من الدولارات ، ولا مانع من أن أرفق بها المشاريع المزمع تنفيذها بهذا المال • ومتى وضعت تلك المشاريع موضع التنفيذ ، فسأطالب بغيرها » • ومع أن ناصرا لم يبد أي تأثر بكلامي هذا ، فقد انفجر حسن التهامي غاضبا وقال : « انني لا أربح بالبقاء هنا حتى لا اسمعك توجه الشتائم لرئيس جمهوريتي تحدثوننا بالمائتي مليون ثم تمنحوننا عشرين مليونا كصدقة علينا أن نستجديها منكم ! » • الا أنني لم أجبه بشيء ، وفضلت الصمت على الكلام • وغادر ناصر المجلس الى فراشه ، وعدت الى المدينة مع حسن التهامي بدون أن ينمس بمنت شفة طوال الطريق • الا أنه ودعني عندما وصلت الى منزلي بكلام ساخر وقال : « لن يمضي زمن طويل حتى تستجدوننا لقبول المائتي مليون دولار ! » • الا

أن ذلك لم يحدث قط ، بل العكس قد حصل .

وفي صبيحة اليوم التالي ، أسرعت لاقصر على كافري حصيلة ما حدث معي في الليلة الفائتة . واستحسن كافري ما فعلته من ذكر العشرين مليونا كرقم معقول طالما كان ذكره نتيجة تخمين مواطن « غير رسمي » . الا أن كافري عزم على أن يطالب وزارة الخارجية بمضاعفة العشرين مليون دولارا ، ثم زيادتها عشرة أخرى ، تحسبا لما قد يطرا عليها من نقصان .

وفعلا ، فقد حدث ما توقعه كافري . فوزارة الخارجية لم تمنح ناصر أكثر من أربعين مليونا من الدولارات ، مع أن طلب كافري كان خمسين مليون دولار . (لقد أخبرني بعض أصدقائي في وزارة الخارجية أنهم أنفقوا وقتنا طويلا ، وبذلوا جهدا كبيرا ، قبل أن يقموا على الرقم « أربعين » . ولم يكن ذلك مجرد صدفة كما ظننا نحن في القاهرة . لقد قال لي أحدهم ان الكونغرس ما كان ليوافق على أي مبلغ يتجاوز الخمسين مليون دولار ، ونظرا لان رقم تسعة وأربعين مليون دولار سيبدو على أنه السعر الأدنى للمساومة ، فاننا تمسكنا برقم الخمسين مليون دولار الذي قدمه كافري لنا . الا أننا خفضناه قليلا بعد أن شعرنا أن كافري قد وضع دسما زائدا فيه) .

وخضت غمار كثير من المجادلات والمناقشات في تلك الايام ، الا أنني كنت دائما أبدأها متنصلا بقولي : « هذا ليس من اختصاصي ، ولكن ... » . فلقد جعلت مني تلك الظروف الوسيط المناسب « وغير الرسمي » بين ناصر وكافري . وتقديرا لمصلحتي على المدى البعيد فقد تجنبنا المساهمة في الصفقات الفاشلة . وكان اعتقادي أن ما قدمناه لناصر من مساعدات لا يكفي لاقامة علاقات وطيدة معه . ولا أجد مانعا هنا من أن نستعرض معا كيف تم تقديم المبلغ له . ففي أثناء زيارة قصيرة لي الى نيويورك في أواخر صيف ١٩٥٣ ، التقيت ببايرود (وكان يومها مساعد وزير الخارجية) واتفقت معه على أن نوضح لناصر أن مبلغ الأربعين مليون دولار هو « دفعة على الحساب » ومعرض للزيادة (أو النقصان) بناء على الطريقة التي سيستثمر فيها وعلى النتائج التي سيعطيها . وأفلحت في اقناع بايرود بإضافة مبلغ آخر لاستعمال ناصر الشخصي ، وللاستعانة به في اتخاذ تدابير أمن استعدادا لمواجهة مصاعب

جديدة بدأت رباحها تلفحه من الداخل (كان هذا عام ١٩٥٣) . كما طلبت من بايرود أن تقوم حكومة الولايات المتحدة بتقديم سيارة « كاديلاك » مصفحة الجدران كهدية لناصر ، وترسل له أيضا خبيرا في المباحث ليشرف على تنظيم الحرس الخاص بناصر ، وتزوده بأجهزة انذار خاصة لحماية منزله وأخسرى لاستخدامها في السيطرة على أعمال الشغب والمظاهرات .

ومع أن اقتراحاتي هذه قد لا تسترعي انتباه القاريء الآن الا أنها كانت يوما ضرورية ومعقولة . وقد استحوذت على اهتمام بايرود الذي اعتبر معلوماتي عن الوضع معلومات من الدرجة الاولى ، وبأشرف في انجاز الاقتراحات جميعا . ورأى بايرود أن مبلغا لا يتجاوز الثلاثة ملايين دولار يمكن تسليمه لناصر نفسه يدا بيد ، وبسرية تامة ، بعد اقتطاعه من مخصصات رئيس الجمهورية الامريكية مباشرة . ويمكن لوكالة المخابرات المركزية أو مكتب المباحث الفيدرالية انجاز ما يلزم من ترتيبات الامن وضرورتها . وهكذا ارتفعت قيمة المساعدة الى ثلاثة وأربعين مليون دولار ، تدفع الاربعون منها حسب الانظمة المرعية كمساعدة رسمية ، وتسلم الثلاثة الباقية سرا ودون أي مستند ، وتقتطع من ميزانية رئيس الجمهورية . ثم يقرر ارسال خبير الامن السري ، وأجهزة الحماية وأدوات السيطرة على المظاهرات والشغب بعد أن تستكمل الخطوة الاولى .

اما الملايين الثلاثة من الدولارات ، التي سلمت من دون ايصال ولا مستند ، فقد كادت أن تبقى سرا - لولا هذا الكتاب - يحير الباب علماء الآثار عام خمسة آلاف بعد المسيح كمتحير أهرامات مصر الباب علماء الآثار في يومنا هذا . وأعني هنا تلك التحفة المعمارية الرائعة المتمثلة في « برج القاهرة » الذي يفوق في ارتفاعه ارتفاع أهرامات الجيزة ، ويضفي على منظر منطقة الجزيرة المقابلة لفندق هيلتون عبر النيل (في القاهرة) منظرا رائعا . كما يبدو للمشاهد على بعد أميال من القاهرة وهو لا يزال محلقا في طائرته الضخمة قادما من أوروبا أو أفريقيا أو آسيا .

عندما استلم السفير كافري رسالة بخصوص الثلاثة والأربعين مليونا من الدولارات - أو بالأحرى الأربعين مليونا بالإضافة الى الملايين الثلاثة - اعتبر فكرة تقديم أية منحة شخصية لناصر غير حكيمة ، وإن كان لا بد منها فليس

هناك غيري ليسلمها له . وقام كافري في اليوم التالي بزيارة وزير الخارجية المصري الدكتور فوزي ليطلمه على أمر الأربعين مليون دولار بدون أن يشير الى الملايين الثلاثة من قريب أو من بعيد . وأثارت ردود فعل كافري تجاه المنحة الشخصية لناصر شكوكا متزايدة في نفسي ، وفضلت عندها القيام أولا بزيارة لحسن التهامي للبحث معه في الامر ، وأخبرته « بأن حكومة الولايات المتحدة لا تلزمكم بقبول هذا المبلغ ، الا أنه جاهز للتسليم وهو رهن اشارتكم » . واجابني حسن التهامي (وكان يومها رئيس الحرس الخاص لناصر ، وهو الذي تصدى للذين حاولوا اغتيال ناصر في تلك الفترة وأطلق عليهم الرصاص ، وقد ذكر ناصر هذا في كتابه فلسفة الثورة) قائلا : « اننا - بدون شك - سنجد طريقا لانفاقها ، ولا مانع من أن نرى كيف تبدو تلك الدولارات ببريقها ! » وهكذا فقد تأكدت من موافقة ناصر على استلام الملايين الثلاثة سرا . وعندما أخبرت كافري بهذا أجابني ساخطا بأن الملايين الثلاثة قد وصلت صباح ذلك اليوم نفسه نقدا بصحبة رسول خاص من بيروت ، وبعد مشاورات مقتضبة مع رجال السفارة ، أخبرني ضابط الامن فيها أن اصطحابي لاي رجال مسلحين للحراسة سيثير كثيرا من الشكوك . وكان منزل حسن التهامي يقع في ضاحية المعادي ويبعد خمسة أميال عن وسط المدينة . وهكذا أثرت التوجه الى هناك دون حراسة ولكن بصحبة أشقى سائقي السيارات في القاهرة ، سالكن الطريق الريفي الوعر ، وبرفقتنا الملايين الثلاثة من الدولارات مرسوسة في محفظة سفر بين حوائج منزلية أوصتني زوجتي أن أبتاعها لها من محلات « كروبي »

استقبلني حسن في منزله في المعادي - وكان محاطا باثنين من رجال الامن المصريين - دون أن يظهر أي شعور بالانفعال أو الاهتمام . وأحصينا المبلغ مرتين بعناية ، فوجدناه أقل بعشرة دولارات عن الملايين الثلاثة . وعلق حسن على ذلك قائلا : « حسنا ، لن نتشاجر بسبب الدولارات العشر » ، ثم ما لبث أن استقل سيارة مرسيدس ضخمة وغادر المنزل مع حرسه قاصدا منزل ناصر في الطرف الاخر من القاهرة .

وعلى حد قول حسن التهامي ، فقد فكر ناصر فيما بعد باعادة المبلغ اليها كما فكر بفضح النبا أمام الرأي العام وتصويره على أنه رشوة (كما فعل رئيس

وزراء سنغافوره بعد سنوات عندما أعطي نفس المبلغ بظروف مماثلة) • وقع أن شعورا بالانزعاج والراحة معا قد خالج ناصر - كما خالج أيضا السفير كافري - إلا أن ناصرا لم يكن من ذلك النوع من الرجال الذي كان منه رئيس وزراء سنغافوره • واقترح حسن التهامي أن ينفق المبلغ على تشييد بناء بشكل أبي الهول مؤلف من تمثالين ضخمين ، ويقام على شاطئ « الجزيرة » المطل على النيل في مواجهة المكان الذي كان معدا لتشييد أوتيل هلتون عليه • وكان الجزء الخلفي من البناء على شكل رأس ضخمة ذي أنف كبير متطاوّل ، في حين كان الجزء الامامي عبارة عن كف يد بحجم يتناسب وضخامة الرأس • ويتجه ابهام الكف نحو الأنف في حين ترتفع الاصابع الاربعة الباقية عاليا في السماء • ومع أن ناصرا قد استحسن الفكرة إلا أنه لم يعثر على مغزى لها • واقترح ناصر شيئا آخر صعب الوصف وأكثر ضخامة من الفكرة السابقة إلا أنه باهظ التكاليف وأكثر إثارة للناظر وصمودا أمام عوامل الطبيعة • وتمخضت كل تلك الاقتراحات عن بناء « برج القاهرة » الحالي الذي يشاهده الأمريكيون أصدقاء المصريين كلما أطلوا من شرفات غرف أوتيل هلتون وهم يتناولون طعام الافطار •

ولم تصل أنباء الاقتراح الى واشنطن الا متأخرة • فتصميم وتشييد برج يمثل هذه الضخامة يستغرق وقتا غير قصير ، حتى ولو كان مجرد برج بدون فائدة ترجى أو منفعة تجنى - كما أعرب حسن التهامي مرة عن رأيه فيه - إلا أن كيرميت روزفلت قد استطاع الحصول على أنباء الاقتراح قبل أن تحصل عليها الحكومة الأمريكية بعدة أشهر وذلك من تقرير رفعه له أحد عملاء وكالة المخابرات المركزية المندسين في هيئة مساعدي ناصر نفسه • وقد زعم ذلك التقرير أن أعوان ناصر أخذوا يشيرون الى البرج على أنه « وقف روزفلت » ، في حين أن روزفلت نفسه الذي كان في طبيعة المتحمسين لموضوع الملايين الثلاثة مسن الدولارات - وذلك لأسباب تتعلق بما كان يحكيه من الأعيب - قد وجد نفسه يواجه موجة عارمة من اللوم والتأنيب للطريقة التي ستنفق الملايين الثلاثة فيها • وأخيرا تسربت أنباء البرج في تموز (يوليو) ١٩٥٥ ، وذلك بعد ثمانية أشهر من دفع المبلغ لناصر ، (أو بعد شهرين من مشروع حسن التهامي وبنائه في تشييد البرج ، أو قبل ثلاثة أشهر من وصول آلن الى القاهرة واضاعته لمطلعة الاسبوع ، وفي نفس اليوم الذي وصلت أنباء صفقة السلاح الروسية - التي

كانت على وشك التنفيذ - الى وكالة المخابرات المركزية (

وفي اوساط وزارة الخارجية ، اثارت هذه الانباء موجة أخرى من اللوم لروزفلت لظنه أن ناصرا مغفل وساذج . كما تصدى أصدقاء ناصر لروزفلت واعتبروا الملايين الثلاثة محاولة لرشو ناصر ، الا أنهم غفروا له ذلك بعد تقاديبها بتدبير انتقامي معاكس . أما ناصر - وهو أدهى أصحابه - فقد عاتب روزفلت على فعلته تلك لانه كان - على الاقل - مدركا لاهداف روزفلت البعيدة ، والتي كانت وراء اقناع الحكومة الامريكية بدفع الملايين الثلاثة كتحد لناصر نفسه . ومع أن روزفلت لم يعتبر الملايين الثلاثة على أنها منحة منه لناصر ، الا أنه اقتنع ان تصميم ناصر على اقامة برج بالمبلغ المذكور يخفي وراءه ادراك ناصر للطريق التي بدأت « لعبة الامم » بسلوكه معه ، ولهذا فقد ترك ناصر أُنباء « وقف روزفلت » - البرج - تتسرب عن عمد وسابق اصرار .

لقد اثارت سياسة المساعدات المتاعب لكلا الجانبين . فقد اعتبر ناصر وضباطه أن قيمة المساعدات غير كافية ، في حين اعتقد رجال الكونغرس وعدد من مسؤولي وزارة الخارجية أنها أكثر مما يجب . ومهما كان فلقد أعادت الطريقة التي قدمت بها المساعدات الى ذاكرة ناصر القاعدة القديمة القائلة : « لا يوضع الشحم الا على الدولاب الذي يحدث صريرا » . ولم يكن يدرك حقيقة هذا الا ناصر نفسه وزوج من الدبلوماسيين الامريكيين ، ولم يمض زمن طويل حتى أدرك ناصر أنه لا مساعدات بدون صرير ، ولا منافع بدون ضجيج ، وأنه كلما زاد الصرير ارتفاعا والضجة حدة كانت العوائد أكثر ، شريطة أن لا ينفذ كل ذلك الى خارج حدود « الاسطورة » ، أو يقلت من قيودها .

ولم تكن وجهة النظر الامريكية تجاه هذه المساعدات لناصر غامضة مبهمه ، بل كانت واضحة محددة . فلا أزال أذكر ما حدث لاحد موظفي وزارة الخارجية الامريكية عندما كان يطوف على مختلف دوائرها حاملا بيده مشروع منح ناصر مساعدات أخرى . فقد قال له أحد كبار المسؤولين في الوزارة وهو يمهر مسودة المشروع بتوقيعه : « اننا لن نواجه أية مصاعب ومتاعب مع ناصر لو أنه يهتم بشؤون بلاده فقط ويقنع عن التدخل في أمور الدول الاخرى » . ولقد قال المسؤول رأيه هذا وهو يوقع مسودة المشروع دون أية معانعة أو تسويق . ومع

أن تدخل ناصر في شؤون الدول الاخرى في منطقة الشرق الاوسط قد ازداد ، وازدادت معه متاعبنا ، الا أنه من الواضح جدا أن مساعدتنا له لم تتوقف على الإطلاق ، بل على العكس من ذلك ، قد ازدادت باطراد . لقد كنا سمعنا جدا أن نرى ناصرا في المستقبل يتوجه في تمثيل أدواره على مسرح الاحداث العالمية بدافع من التحامنا معه ومساعدتنا له بدلا من الوعود الخلافة والعهود المعسولة . ولم يكن ناصر عن هذا ببعيد . فقد فهم بذكائه الحاد مرامينا ، ولم نفشل معه الا قليلا .

وبفض النظر عن كافة تصريحات الوزير دالس وغيره من المسؤولين في الحكومة الامريكية حول فكرة « الحياد اللاأخلاقية » فالحقيقة أننا كنا متاثرين بفكرة حيااد ناصر أكثر من تأثرنا بفكرة صداقتنا مع شاه ايران ، أو الرئيس شمعون في لبنان ، أو الملك حسين في الاردن ، أو الامبراطور هيلاسلاسي في اثيوبيا - مع الاعتذار لذكر الاسماء . لقد دهش ناصر لسذاجة هؤلاء الحكام بقدر ما كانوا هم أنفسهم يدهشون لسلوكنا وسياستنا . لقد أدرك ناصر ردود فعلنا بنفس الطريقة التي كان يتصرف بها كلب العالم النفساني بافلوف * عندما كان يسمع الجرس يقرع له . وبصفته زعيما لدول عديدة انضمت الى « اتحاد المحايدين الايجابيين » فقد أدرك ناصر أن بإمكانه خلق ردود فعل عندنا ذات مقائم أوفر وعائدات أكثر . فدخول عامل واحد الى مكتب رب العمل مطالبا اياه بزيادة أجره وتخفيض ساعات عمله لا يتمخض الا عن طرد العامل من المكتب . الا أن ذلك العامل سيكون موضع احترام عندما يتكلم نيابة عن مجبوعة العمال . وعلى مثل هذه القواعد التي ارتضيناها « نحن » لانفسنا تعتمد طبيعة « لعبة الامم » .

وهكذا كان يفكر ناصر ، بل وأظهرت ذلك أرقام المساعدات الامريكية له ، وبصورة صحيحة تماما . واعتقد ناصر أنه في الوقت الذي تصاعد ضغط « اتحاد المحايدين » على مصادر المساعدات الاجنبية الرئيسية - وهي الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي - بصورة حسابية بسيطة ، فقد تضاعف ضغطه

* اعتاد الكلب أن يتناول الطعام بعد أن يقرع بافلوف له الجرس فاصبحت مدة الكلب تفرز .
المصارة الهاضمة حال سماعه الجرس يقرع . (المغرب)

عليها بصورة هندسية مركبة • وعلى سبيل المثال ، فعندما كان ناصر يضمن تأييد المصريين لوحدهم له ، كانت قيمة المساعدات التي يتقاضاها منا لا تتجاوز جدلا « س » • وعندما يضمن تأييد العالم العربي له فالنتيجة أحسن ، والقيمة تتضاعف وتغدو « س^٢ » (س مربع) • وفي حال وقوف العالم الاسلامي معه فانه يحصل على مساعدات تبلغ « س^٣ » (س مكعب) • وعند مؤازرة الدول غير القريبة له (الافريقية والآسيوية) ، فانه يحصل على مساعدات قيمتها « س^٤ » (مرفوعة الى القوة الرابعة) (١) • ولم تكن نشترط عليه أن يكون الناطق بلسان « جميع » الدول الافريقية والاسيوية ، أو « جميع » دول العالم الاسلامي ، بل كان يكفي أن يبرهن لنا على أنه يملك زمام التأثير عليها حتى يتقاضى كامل أجره ومطلق تعويضاته • ولم تكن لتنفرد في سلوك مثل هذا الطريق لوحدها بغية تنفيذ مآربنا ، بل كان السوفييت يشاركوننا في هذا ايضا • فكنا وإياهم نفضل الاستعانة بناصر لتنفيذ سياستينا وتحقيق أغراضنا بدل الاستعانة بغيره من زعماء « اتحاد المحايدين » مثل نكروما أو سوكارنو أو بدل مباشرة ذلك بأنفسنا •

لقد تفوق ناصر على كل من نكروما وسوكارنو كما تفوق على غيرهما من زعماء « اتحاد المحايدين » أمثال نهرو وتيتو • ويعود الفضل في ذلك - كما وصفه فيليب تالبوت مساعد الوزير - الى كونه صعبا مع امكانية التحدث اليه والتفاهم معه •

وباستثناء ناصر ، فان أيا من زعماء « اتحاد المحايدين » لا يملك أي نفوذ أو تأثير خارج حدود اقليته • فلم يكن ليخطر ببال الحكومة الامريكية أن تطلب من سوكارنو مثلا ممارسة نفوذه بغية التأثير على الدول الآسيوية التي تعطف على الشيوعية وحملها على انتهاج سياسة الحياد الايجابي • كما أن السوفييت أنفسهم لم يقتنعوا بصدق ميول سوكارنو الشيوعية حتى يرجوا مساعدته لهم في تعزيز أهدافهم في آسيا • الا أن ناصر قد أفلح في اقناع الامريكيين والسوفييت بأن يستشيروهم في شؤون كثير من الدول الافريقية والآسيوية مثل فيتنام

(١) لو افترضنا أن قيمة « س » هي عشرة دولارات فان س^٢ = ١٠ × ١٠ = ١٠٠ دولار ، و س^٣ = ١٠ × ١٠ × ١٠ = ١٠٠٠ دولار ، و س^٤ = ١٠ × ١٠ × ١٠ × ١٠ = ١٠٠٠٠ دولار •

وأندونيسيا وسوريا بل - والى حد ما - اسرائيل نفسها . (ففي عام ١٩٦٢ وقبل ترويد اسرائيل بصواريخ هوك المضادة للطائرات قام الرئيس جون كيندي بتوضيح القضية لناصر وحصل على موافقة منه على أنه لا يمكن للأمريكيين أن يتصرفوا بغير تلك الطريقة ، وعلى الأقل في ذلك الوقت) . وقد صاح الرئيس جونسون في بعض ساعات غضبه قائلا : « ٠٠٠ كنت أود أن يكون لنا سفير في القاهرة لا يفقه شيئا عن فيتنام ، بل ولا يدري أين موقعها من الخارطة » . الا أنه لم يمض على ذلك أسبوعان من الزمن حتى أرسل جونسون مبعوثه أفريل هاريمان الى القاهرة ليطلب من ناصر التدخل مع فيتنام الشمالية بغية اطلاق سراح بعض الطيارين الامريكيين الذين أسقطت طائراتهم هناك .

وعندما يذكر ناصر في كتابه « فلسفة الثورة » أن مصر قد حظيت بنقطة تقاطع عوالم ثلاثة ، هي العالم العربي والعالم الاسلامي وافريقيا ، فانه كان يحاول وقتها أن يشيد صرح « الاسطورة » الوطنية . وعندما شرع ناصر في تطبيق استراتيجيته في ايجاد الكتل الدولية في « لعبة الامم » كان اهتمامه في النواحي الجغرافية أكثر من اهتمامه في توطيد نفوذه وزيادة فاعليته . ففي بعض الاحيان ، لم تكن كوبا لتقل أهمية عن الباكستان كحليفة متوقعة لناصر . كما أن بلادا كثيرة في افريقيا الغربية كانت أكثر أهمية عنده من بلاد افريقية مجاورة لمصر . وفي الحقيقة ، كان نفوذ ناصر « المزعوم » في تلك المناطق النائية من ضمن الاسباب التي دعت أحد الدبلوماسيين الامريكيين الى اعتبار ناصر من « العوامل التي علينا أن نحسب لها حسابا » أو بالاحرى الى اعتباره « موضة المستقبل » . ومن وجهة نظرنا - نحن الامريكيين - فان النفوذ « المزعوم » لا يقل أهمية عن الشكل الآخر من النفوذ « الموجود حقا » . اما ناصر نفسه فقد كان يفضل النفوذ « المزعوم » لانه كالطبل الاجوف ، صوته هائل ومرعب وباطنه أجوف فارغ . كما أن تشييد صرح النفوذ « المزعوم » أسهل بكثير وأقل كلفة من تشييد صرح النفوذ « الحقيقي » الذي غالبا ما يقوم على أسس راسخة وقواعد ثابتة . وبالتالي فان النوع الاول يجنب ناصرا كثيرا من الازمات والمآزق التي تثير له متاعب ومصاعب هو في غنى عنها .

ومن ضمن تلك المآزق التي كان ناصر يصبر على تجنبها ، « المسؤولية

الإدارية » • ان كثيرا من الكتاب المطلقين كالصحافيين والمؤرخين والدبلوماسيين الذين تقاعدوا ونشروا مذكراتهم قد أفاضوا في الكلام حول « أحلام ناصر لتأسيس امبراطورية في شمال افريقيا » أو « طموحه لحكم العالم العربي » • وقد سمعت مرارا بعض المسؤولين في الحكومة الأمريكية يرددون أن « ناصرا يسلك الطريق الخطأ لحكم العالم العربي » ، ان كان يريد ذلك ، حقا ، ، كما لاحظتهم ينظرون الى ناصر بعين الارتياح والسرور لانه « لم يحالفه الحظ في حملته لحكم العالم العربي » • الا أن حقيقة الامر لا توحى بذلك – فمعظم الموظفين الأمريكيين الذين سمحت لهم ظروفهم بالاحتكاك بناصر لفترات طويلة (أمثال كريميت روزفلت وروبرت اندرسون ويوجين بلاك وتشارلز كريمنز وكل سفرائنا في القاهرة) يميلون للاعتقاد أن ناصرا لا يطمح الى حكم العالم العربي أو الاسلامي أو قارة افريقيا ، كما أراد هتلر أن يحكم أوربا ، وان جل ما يريده هو توجيه سياستها الخارجية في مواجهتها للدول الكبرى – وكان ناصر يريد اقناع الغرب أنه لن يتمكن من عقد أية صفقات مع حكومات الدول الواقعة في مناطق نفوذه بدون التشاور معه أولا ، وأن ما يعقده الغربيون معه من اتفاقات فانما يعقدونها مع جزء من العالم أوسع من حدود مصر الإقليمية • وهذا الموضوع يشكل المادة الرئيسية في حوار صراعنا مع ناصر ضمن مجال « لعبة الامم » ، والتي عادة ما تكون من النوع الذي « حاصل جمعه صفر مطلق » • ولم يكن صراعنا مع ناصر صراع عقائد وأفكار بل كان حرب خطابات (شديدة أو مسالمة) ومقالات في الصحف (وكل ذلك جزء من « لعبة الامم ») ومنافسة بين ناصر الذي بذل كل جهده لتجميع الدول الصغيرة في منطقة نفوذه وبين اولئك الذين حاولوا أن يضموها الى مناطق نفوذهم هم ، مستغلين بذلك فكرة القومية العربية • وتنطبق هذه الحالة على الصراع في العالم الاسلامي وفي مجموعة الدول الافريقية الاسيوية •

ومع أنها ستبدو غريبة ومتناقضة مع التطورات الاخيرة لوضعها السياسية، الا أن ناصرا فكر في البداية بايجاد هذا « التكتل الدولي » من خلال الاسلام وليس القومية العربية • فالاسلام هو الدين السائد في الشرق الاوسط منذ عام ٦٤١ بعد الميلاد ، وهو ، في مفاهيمه الاساسية ، دين واضح بعيد عن التعقيد ، وذو جاذبية واغراء • كما أن له رصيда ضخما من الحضارة والثقافة

التي - مع بعض التعديلات الطفيفة - تشكل نداء مناسباً للوحدة التي كان يعلم بها ناصر . كما أن النجاح الذي حققته إحدى الحركات التي تتبنى الفكرة الإسلامية وهي حركة « الإخوان المسلمين » والتي لم يحالفها الحظ أبداً ، قد أثبت لناصر فعالية النداء الإسلامي في حشد المتطوعين واخضاعهم لنظام صارم وتوجيههم إلى أهداف شبيهة بتلك التي اختارها ناصر وارتضاها لنفسه .

إلا أن حكومة الولايات المتحدة لم تكن مرتاحة للفكرة السابقة ، واقترحت على ناصر أن يظهر بمظهر « تقدمي » في العالم الإسلامي . ونقل له هذا الرأي أحد موظفي وزارة الخارجية الأمريكية الذي عرض عليه في الوقت نفسه رأي وزير الخارجية دالاس بأن يجعل ناصر من مصر « حصناً ضد الشيوعية » . وقد أخذ ناصر هذا الرأي بعين الاعتبار في الوقت الذي كان دعاة العقيدة الشيوعية في حاشيته يتضجرون بصراحة من الفكرة القائلة « أن الإسلام عدو الشيوعية اللدود » ويرون أن اقتران الناصرية بالشيوعية يمكن أن يفسد « موضة المستقبل » ويحل محل النزعة الدينية عند المسلمين . إلا أن ناصر بقي يفكر باحتمال ارتكازه على إحدى تلك الأفكار لتوصله إلى مركز عالمي باندفاع وقوة وبطريقة تضمن له قاعدة واسعة يتمكن معها أن ينخس الدول الكبرى بمهامه لتتنافس حقاً على طلب وده وضمان جانبه .

أما قرار ناصر بدفع فكرة الاعتماد على العالم الإسلامي إلى المرتبة الثالثة فقد كان سببه وصول رجل الماني الجنسية إلى القاهرة تحت اسم « فرانز بونش » . وكان هذا خبيراً في « الفظائع التي ارتكبتها اليهود » وقد ألف كتاباً رائعاً تحت اسم « العادات الجنسية عند اليهود » نقل إلى عدة لغات مثل التركية والفارسية والعربية ، كما قام النازيون بتوزيعه أثناء الحرب العالمية الثانية كدليل على أن نفوذ اليهود وقوتهم من أكبر الأخطار التي تهدد الإسلام (كما تهدد قوة الزنوج السود المسيحيين البيض في جنوب الولايات المتحدة الأمريكية) . وعندما وصل بونش إلى مصر بدأ عملاً شبه روتيني ينطوي على كتابة مقالات ضد السامية . إلا أن ذلك لم يخدم أياً من أهداف وزارة الدعاية المصرية . وتمكن بونش أخيراً من تقديم اقتراح حاز على اهتمام المصريين سريعاً ، وكان عبارة عن خطة لتجميع النازيين العنيديين من مخابثهم في مختلف دول

العالم (كالارجنتين والبرازيل وايرلندا واسبانيا وغيرها) ، واستبدال أسمائهم بأخرى اسلامية وضمهم الى « الموجودات السرية التي تشكلت أثناء الحرب العالمية الثانية » . وبهذا يمكن تكوين منظمة مخابرات لاهداف التخريب والتدمير تجمع بين أحسن المواهب المصرية والالمانية . ومن ثم وضمها تحت تصرف جمال عبد الناصر في حربه العالمية ضد الشيوعية والامبريالية .

وعندما قدمت الخطة الى سعد عفرة ، وكان من أكثر ضباط جهاز المخابرات العامة دهاء وكان المسؤول يومها عن شؤون الخبراء الالمان ، تظاهر باهتمامه البالغ بالخطة ، سوى أنه أصر على الحصول على معلومات أوفى حول ما يسمى « بالموجودات السرية » . وكان رد فعل بونش حسنا ، فقد أمضى مدة من الزمن دون أن يلمس أي اهتمام من قبل المصريين بما يفعله . وبتشجيع من سعد عفرة فقد توصل بانثى الى جمع كافة المعلومات المتصلة بالموضوع والتي تمكن من استذكارها أو من تجميعها من بقية أفراد المستعمرة الالمانية في مصر يومها . وكانت النتيجة أن توفرت لدى جهاز المخابرات العامة أدلة تكفي للحكم بالاعدام على نصف « الاخوان المسلمين » ، كما بانت أطراف الغاز تكفي لاشغال موظفي الامن المصريين لسنتين على الأقل بغية ترسيخ اقدام جهازهم الجديد في مصر والعالم العربي كله . أما الاخبار المباشرة التي جمعت من المصادر الالمانية فقد أفادت أن « الاخوان المسلمين » كانوا عبارة عن خلية مخابرات نازية (تعمل ضد الحلفاء) . وبعد تتبع الأدلة المتوفرة ، توصل التحقيق الى أن هذه الخلية النازية كانت لا تزال محافظة على تماسكها ولها من القدرة على العمل ضد ناصر كقدرتها على العمل لصالحه . الا أنها كانت قوية الى حد أن أي محاولة من ناصر للتعاون معها ستنتهي به الى وضع يجد فيه نفسه مطية لها ، وليس العكس أبدا .

وليس هذا كل ما في الامر . فلقد دلت افادات مؤسسي « الاخوان المسلمين » ، نتيجة جلدتهم بقسوة بالغة ، أن أجهزة المخابرات الفرنسية والبريطانية والروسية والامريكية ، قد تغفلت في قواعد المنظمة وتسلمت الى أعلى مستوى للقيادة فيها . ولقد أضحي بمقدور كل من أجهزة المخابرات تلك أن يستخدم المنظمة كما يشاء ويهوى ، أو أن ينسفها من داخلها نسفا عندما يجد من

مصلحته أن يفعل ذلك . وكان الدرس الهام الذي تعلمه الجميع هو أن التزمت والتعصب لا يشكلان ضمانا أكيدا ضد الفساد ، بل ان كليهما متنافسان ويسيران متوازيين . ولم ينس أعوان ناصر المنتشرون في الامصار هذا الدرس عندما بدأوا بتنفيذ المرحلة « السلبية » من المخطط الناصري .

وعندما يتحرك الانسان ضد اية منظمة تزعم أنها تحمي الدين السائد في البلاد ، فعليه أن يفعل ذلك بحذر شديد . وهذا ما قام به يومها رئيس فرع وكالة المخابرات المركزية الامريكية في مصر . ففي محاولة لكشف الكفر والزندقة السوفييتيين، قام الأخير بتوزيع منشورات شيوعية عديدة تعود الى عهد ما قبل الحرب العالمية الاولى وكانت تحمل عنوانين ذوي طابع استفزازي مثل « محمد : ليس له وجود » و « النتائج السيئة للصيام في رمضان » و « ضد الحجاب » ، واطهرها على أنها من توزيع السفارة الروسية في القاهرة . وعندما وقع ناصر اتفاقية الجلاء عن قاعدة قناة السويس في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٥٤ ، كان ضباط جهاز امته منهكين في التحقيق في تلك الادلة التي وفرها لهم نشاط فرانز بونش . وفجأة قام الاتحاد السوفييتي بشن حملة عنيفة على صفحات الصحف الشيوعية ضد ناصر (١) ونمت أعوانه بالاستبدادية والظلم (٢) ورفع لواء الدفاع عن منظمة « الاخوان المسلمين » وامتدحها على أنها « أكثر الفئات المصرية مناهضة للامبريالية ، وأجدرها بالثقة » . وعندما قام رئيس فرع وكالة المخابرات المركزية في مصر بالاتصال بواشنطن وطلب

(١) كانت موسكو تعتبر ثورة مصر عام ١٩٥٢ انقلابا عسكريا وقع في القاهرة بتأثير من بعض الدوائر الغربية . وكان التعليق الرسمي السوفييتي يشير الى « مجموعة من الضباط الرجعيين الذين تربطهم صلة مباشرة وقوية بالولايات المتحدة » كالمعرضين الرئيسيين لهذا الانقلاب (دائرة المعارف السوفييتية الكبرى ، موسكو ، الطبعة الثانية ، مجلد ١٥ ، ١٩٥٢ ص ٤٦٠) (العرب) .

(٢) نشر احد الكتاب الروس وصفا لحكومة جمال عبدالناصر في عام ١٩٥٤ يقول فيه : « انها حكومة رجعية بشكل جنوني وازهابية ومعادية للديموقراطية » (الاتحاد السوفييتي والشرق الاوسط مؤلفه والتر لاكير ، نشر فريدريش بريجر ، نيويورك ١٩٤٩ ، ص ٢٦٢) (المغرب) .

منها أن تقنع الامرائيليين بأخذ زمام المبادرة لتحطيم منظمة « الإخوان المسلمين » ولكن بطريقة غير مباشرة . وهكذا أخذت الاذاعة الاسرائيلية تظهر - على طريقتها الخاصة - قدرة منظمة « الإخوان المسلمين » الضخمة على الاطاحة بنظام ناصر . وهكذا أيضا ظهر كل من الاتحاد السوفياتي واسرائيل على أنهما من مؤيدي منظمة « الإخوان المسلمين » . وقد اتبع رئيس فرع وكالة المخابرات المركزية الامريكية هذا «التكتيك» استنادا الى احدى قواعد الدعاية، وهي « المدح من العدو » ، التي تستعمل في بلدان الشرق الاوسط . وتستعمل هذه القاعدة بنفس الطريقة من قبل المرشحين المحافظين في الولايات المتحدة وبريطانيا وذلك بتجميع أعداد هائلة من الناس الذين يشتمن المرء من مظهرهم وينفر من شسكلهم ، بغية مضايقة المرشحين بأسئلة كثيرة واحراجهم بتحديات مريرة .

وفي أواخر عام ١٩٥٧ ، قام النظام في مصر بمحاولة لجمع شتات « الإخوان المسلمين » ، الا أن تلك المحاولة قد صاحبته دعاية قوية على الطريقة التالية : « اننا بحاجة الى منظمة مسلمة ولكن جيدة ذات طابع عالمي ، ويا للأسف أن لا تكون كذلك منظمة الإخوان المسلمين » . وكانت الدعاية تركز يومها على « أن الإخوان المسلمين أعداء لدينهم وقد أساءوا له كئسيرا » بدل أن تركز على « عداة الإخوان المسلمين للدولة وللنظام القائم » . وفي الوقت نفسه ، فقد بذلت جهود ، طاهرها الاخلاص ، لتأسيس منظمة مسلمة جيدة بدل منظمة « الإخوان المسلمين » الا أن ناصرا لم يكن في نفسه أي ميل لها . فكان رأيه أن أي اتحاد اسلامي حقيقي لا يلبث أن يظهر على أنه شبيه بنظام الخلافة السابق ، وسيصبح مناوئا للسلطة السياسية ، وبالتالي فانه سيبعث النشاط في القوى « اللاتقدمية » ويجعل لها صوتا مسموعا . كما أنه سيثير الخلافات بين مختلف الطوائف (مثل الدروز والشيعية والسنة والزيديين) بدلا من تلطيفها وتسكينها وسيكون مرتعا لانجاب قادة متزمتين باستفزاز كما كان قادة منظمة « الإخوان المسلمين » من قبل . الا أن أنور السادات وحسن التهامي قد أفلحا في اقناع ناصر أن يطلق لهما العنان ليوجها الدعوة الى « مؤتمر اسلامي » وليحاولا أن يستغلانه قدر الامكان ، وحسب ما تسمح به الظروف .

وفي عام ١٩٥٤ ظهر « المؤتمر الاسلامي » الى حيز الوجود برئاسة أنور

انسادات • وبعد مضي سنة من الزمن أصبح حسن التهامي نائبا لرئيس المؤتمر • وقد قام المؤتمر بنشر الثقافة القرآنية في افريقيا ووجه الدعوة لعقد مؤتمرات للبحث في مواضيع مثل القانون الاسلامي والفن الاسلامي وعلم الآثار الاسلامي • وأوفد المؤتمر مبعوثين لتعليم أصول الدين وألحقهم بالبعثات المصرية الرسمية في الدول الأجنبية • وطفق المؤتمر بعد ذلك بترقب الفرصة ، بغية تحقيق اتحاد • تكتيكي ، مستخدما المشاعر الدينية المشتركة للوقوف في وجه الدول الكبرى وائتاج سياسة محددة • ومع أن الحكومة الامريكية ، قد أبدت بعض التشجيع المحدود للمشروع ، بغية فسخ المجال أمام المصريين ، لاقناع بعض الدول الافريقية (مثل نيجيريا الشمالية) أن الاسلام لا يتعارض والحضارة الحديثة ، الا أن هذا التشجيع قد انقلب الى معارضة عندما ثبت في أوائل الستينات، أن الملحقين لشؤون الدين قد وجهوا جل نشاطهم الى توثيق الروابط، بغية • السير معا في طريق الصراع مع العدو الامبريالي المشترك ، وليس الى الاقناع بالاخذ بالحضارة الحديثة •

وتأتي الدول الافريقية الآسيوية في المرتبة الثانية أهمية عند ناصر • فلقد اخذت الشعوب الملونة تظهر وعيا متزايدا لحركة ناصر وعلى مقياس جغرافي اوسع مما نخله سابقا • فالشعار الذي رفعه ناصر في تحديه للعالم الغربي وهو « الرجل الملون يتحدى » الابيض ، قد لاقى قبولا فائقا ورواجا واسفا في افتتاحيات الصحف والرسوم الكاريكاتورية امتد من السنغال في غرب افريقيا حتى كوريا الشمالية في أقصى شرق آسيا • ومن البديهي أن ناصر لم يكن يطمح الى اقامة امبراطورية افريقية آسيوية (كما اعتقد عدد من المعلقين الغربيين لغموض الامر لديهم) الا أنه تمكن من جعل نفسه في أعين العالم غير العربي زعيما ، وتمكن بالتالي من تطوير الاحداث بصورة تحت على الاتحاد لاهداف معينة • • كما حقق تقاربا مع بعض الامم الافريقية والآسيوية بغية تحصيل بعض المنافع الآتية في مجال • لعبة الامم • • الا أن الناحية الاخيرة تخدم أهداف الناحية المتقدمة • فكلما زاد ارتباط ناصر بشؤون الكونغوليين أو الغانيين ، وظهر على صفحات الصحف كمشارك رئيسي لهم فيها ، كلما تحسن مركزه وأضحى ينظر له بعين الجد والاعتبار لما له من نفوذ حقيقي (وليس

مزموها • وهكذا يصبح ناصر من العناصر التي يطلب ودها ويحرص على ولائها
على المقياس العالمي الواسع •

وفي شباط (فبراير) ١٩٥٥ التقى ناصر بنهرو • ولم يمض عشرة أيام
حتى التقى بتيتو • وفي الوقت الذي لم يحظ الاول على أية مكانة في قلب
ناصر ، ملك الآخر عليه فؤاده وملأ عليه حياته • كان الاول يلقي عليه دروسا
في الوعظ في حين كان الثاني يخاطبه الند للند • الا ان الاثنين معا قد انزلا
ناصر من نفسيهما منزلة الجدد والاحترام • فقد بادراه بالتحضير للاجتماع به
وقاما بزيارته في عقر داره - القاهرة • كما طلبا منه أن يتخذ الاجراءات اللازمة
للتحضير للمؤتمر الافريقي الآسيوي ، الذي عقد في باندونغ في اندونيسيا ،
وذلك لتتخذ الدعوة اليه اهمية خاصة عندما تصدر عن حاكم له اعتبار خاص •
الا ان الفضل كله في بروز ناصر يعود لهذين الزعيمين ، نهرو وتيتو • فقد
تملك ناصرا شعور أنه قد أصبح في « الجامعة الكبيرة » قبل أن يحط رحاله في
باندونغ بزمان بعيد •

ولم يكن تشجيع أصدقائه الامريكيين له أقل من تشجيع نهرو وتيتو •
فقد غمرهم السرور قبل مغادرة ناصر القاهرة الى باندونغ ، وأغربوا له عن
اعتقادهم أن مؤتمر باندونغ سيكون فرصة مناسبة له لينضم الى « الجامعة
الكبيرة » • وانهمك بعض الخبراء في واشنطن في كتابة عدة موضوعات حول
كيفية اتخاذ المواقف الاستراتيجية • وقام علي صبري - وزير الدولة -
بترجمتها الى اللغة العربية ليستفيد منها ناصر ويقتبس من أفكارها قسيرا
الامكان • كما تم تزويده بمعلومات وافية عن سلوك شو ان لاي المتوقع وعن
غيره من القادة الشيوعيين • ووضعت وزارة الخارجية الامريكية تحت تصرف
ناصر وأعوانه معلومات غزيرة عن الحالة السياسية الراهنة في اندونيسيا •
وكان هذا الموضوع ذا أهمية فائقة لحكومة الولايات المتحدة ولناصر وذلك لان
سوكارنو سيكون أحد منافسيه الاشداء في قاعات المؤتمر ودهاليزه • اما
الخبراء الذين وصلوا الى القاهرة من واشنطن فقد قدموا تقاريرهم الى السفير
بايرود في السفارة الامريكية • وقام بمددا علي صبري بترجمتها ومن ثم دونهها
على أوراق رسمية من أوراق ديوان رئاسة الجمهورية حتى لا تعرف أنها

مترجمة عن اصول أمريكية . واستفاد ناصر منها فائدة جمة لما أوحى له بمواقف معينة كان نفسه يرغب باتخاذها . وعندما قام بيتر تشيس باعادة ترجمة تلك التقارير - بعد تعديلات المصريين لبعضها - الى الانكليزية ، ورفعها الى السفير بايرود ، طرب منها الأول طربا بالغا لانها غمرت قلبه بالسرور ، ووصفها بأنها من أدهى ما عرفه من أفكار ومواقف ، ومن أذكى ما يمكن لحكومة في الشرق الاوسط أن تنتج . وقال بايرود ان حكومة الولايات المتحدة الأمريكية سوف ترى في ناصر كل الأمل للتأثير على دول افريقيا وآسيا وحملها على انتهاز نهج « حيادي حقا » بدلا من انتهازها نهج « حيادي مع عطف على الشيوعيين » وذلك عندما يحين موعد ظهور « الحساد الإيجابي » على مسرح الأحداث العالمية .

ولم يقد الروس بتغيير وجهة نظرهم تجاه ناصر ، الا في ذلك الوقت عندما لمسوا تزايد نفوذه في افريقيا وآسيا . فقد التزموا بموقف مناهض لناصر أثناء توقيع اتفاقية قاعدة السويس (وكانوا يمتدحون الإخوان المسلمين ويؤيدونهم ضد ناصر كما ذكرنا سابقا) . وأخذوا يمتدحون باحتمالية أن يصبح ناصر عاملا رئيسيا في الحرب ضد الامبريالية الغربية التي عدت عدوهم اللدود في الدول الافريقية والآسيوية بدلا من « البورجوازية الوطنية » . وهكذا اضحي دور ناصر الرئيسي في مؤتمر باندونغ موضع ترحيب من الروس أكثر منه من الأمريكيين أنفسهم . ولم يخيب ناصر ظنهم في باندونغ . ففي الوقت الذي تعمّد ناصر تمييع الجبهة المعادية للامبريالية في مؤتمر باندونغ ، فانه قد طوّرها الى عداء معتدل ومخفف للغرب حتى يكسب رضى الروس الذين رحبوا بنتائج مؤتمر باندونغ كليا وبدون أدنى تحفظ .

وهكذا فقد أفلح ناصر في مسايرة الطرفين معا ولكن مع فارق مهم . فالسوفييت انطلقوا في استحسناتهم لسلوكه دون تحفظ ، في حين أبدى الأمريكيون عليه تحفظات عديدة . فقد تمكن ناصر من الظهور كعامل مؤثر وهام ، وبدا - بالمقارنة مع اقزام كنكروما وسوكارنو - وكأنه رجل دولة من درجة شو ان لاي ونهرو اللذين كانا ينزلان عند رأيه في كثير من الامور . وقد أصر شو ان لاي في أحد المرات على ناصر أن يستجيب لدعوته لتناول الطعام ولو

مرة على الأقل ، ولانشغال ناصر اضطر الاول أن يؤخر وقت المأدبة الى منتصف الليل . كما أنهما قد حضراها معا بعد انصرافهما من مناسبات ومآدب أخرى . وهكذا لمس ناصر أنه قد نجح في مهمته . وقد أشعره الروس بهذا أيضا في أول مناسبة بعد اختتام مؤتمر باتكونغ . الا أننا - نحن الامريكيين - لم نكن لنظن ذلك ، وبدا لنا أن الطريق لا يزال شاقا وبعيدا .

وبخيليت متنافر من حوادث مؤسسة وحظ تعيس ، نقلت أخبار قلة حماسنا وعدم اكتراثنا بناصر بطريقة مزعجة جدا . فلقد أخفق السفير بايرود في أن يكون عند أسفل سلم الطائرة مع أفواج المستقبلين لناصر وهو عائد من باننونغ الى القاهرة على متن طائرة الرئاسة الاولى ، تحف به حالة النصر والنجاح . وبعد أن طاف ناصر في شوارع القاهرة المزدهجة بالجمهير الهاتفة له ، وصل الى مقره ليقرأ في أول تقرير رفع له ، أن السفير بايرود ، لم يكتف بأن أحجم عن استقبال ناصر رسميا ، بل حث بقية السفراء الغربيين على عدم الذهاب الى المطار ، في محاولة لازدراء عودة ناصر الى بلاده عودة الابطال . الا أن بايرود اتصل حقيقة بالسفير البريطاني للاستفهام عن « البروتوكول » اللائق وكان رأي الأخير أن يتفرد سفراء الدول الافريقية والآسيوية بالاحتفاء بناصر يومها دون أن يشاطرهم غيرهم اياه . وعندما اتصل سفراء الدول الغربية بالسفير بايرود ليستطلعوا موقفه من الذهاب الى المطار أجابهم بأنه يعتقد أن استقبال ناصر يجب أن يبقى مظهرة آسيوية افريقية ، كما أن ناصرا نفسه سيقدر موقفنا - نحن سفراء الشعوب البيض - ان تنازلنا له عن ذلك اليوم . ولقد قال بايرود هذا الكلام عن حسن نية ودون أن ينطوي على احتقار أو ازدراء . الا أن هيئة مراقبة الاتصالات الهاتفية قامت بترجمة المكالمات لناصر بجفاء ، ودون أن تنقل له لهجة الصداقة التي فيها . وأورث ذلك في نفس ناصر انطبعا بأن بايرود قد قال ذلك الكلام وكأنه أمريكي يفتخر بشرف العضوية في منظمة الكوكلوكس كلان (العاملة في أمريكا ضد السكان السود) . ومما زاد الطين بلة ذلك التقرير الذي رفع الى ناصر وهو يعدد بعض العبارات التهكمية التي يتداولها موظفو السفارة الامريكية عند ذكرهم لمؤتمر باننونغ ومنها : « انه لعبة المحتالين من السود سكان المدن » . ومن السهل أن يتخيل الانسان مدى رد فعل ناصر حيال هذا التهكم والسخرية !

وبعد نجاحه في مؤتمر باندونج ، شرع ناصر في رعاية الزعماء الافريقيين وتمهدهم ، كما بدا يفكر بتطوير الوسائل التي تمكنه من استغلال نفوذه الجديد على اوسع نطاق ممكن . وقد اخفق كثير من دبلوماسيينا في ادراك مقاصد ناصر وفهم مرامييه ، كما أنهم قد رقصوا طربا لفشله في تحقيق بعضها - والتي لم تخطر على باله أصلا - مثل الوحدة الافريقية وعدم قبول مصر على أنها دولة افريقية محضة . فناصر لم يكن ليطمح في مجال الدول الافريقية الى اكثر مما كان يطمح اليه في مجال العالم العربي أو الاسلامي ، وهو ايجاد نوع من التنسيق والائتلاف في السياسة العامة تجاه الدول الكبرى وذلك لدعم فكرة الحياء الايجابي . كما كان ناصر يهدف الى معرفة أولئك الزعماء الذين يمكنه الاعتماد عليهم واتخاذهم كحلفاء مهرة له عندما تدعو الحاجة لذلك أثناء مساومة الدول الكبرى على مطالبه وغاياته . وكان الامر يستلزم تجشم مشاق عديدة للحصول على تأييد أمثال نكروما رئيس غانا ، وسيكوتوري رئيس غينيا ، وكيتا رئيس مالي ، وعلى تفويض منهم للتحدث باسمهم في المؤتمرات العالمية . (لقد أسرّ الي كل من نكروما وسيكوتوري أنهما يشجعان ناصر على التحدث بلسانها والدفاع عنهما في بعض المواقف التي يشعران بالحرج فيها) وهما بهذا يقومان بأروع المناورات في مجال « لعبة الامم » وهي ما تعرف باسم « منافع الطرف الثالث » . ويهدفان من ورائها جس النبض بدون التورط مباشرة ، وفي نفس الوقت يدخلان السرور على قلب ناصر الذي يظهر عندئذ أمام الدول الكبرى على أنه زعيم بدون منافس في العالم الآسيوي الافريقي) .

وقد اتبع ناصر وسائل ادارية لتثبيت نفوذه في العالم الافريقي شبيهة بتلك التي استخدمها للفرض نفسه في العالم الاسلامي . الا أنه لم يحاول أن يجعل من نفوذه في إفريقيا وآسيا « دائرته الاولى » مع انه كان جادا في تربيته هناك . وقامت وكالة المخابرات المركزية بتكليف احدى خلاياها بتحديد المناطق التي يرغب ناصر أن يشملها بنفوذه . كما قامت وزارة الخارجية البريطانية بانشاء هيئة خاصة بقصد اسداء النصيح حيال الخطط السياسية الثلاثة للدول الواقعة جنوب الصحراء الافريقية الكبرى ، على أن تكون متسمة بطابع فريد من المرونة والكياسة . واستدعى الامر ايضا تأليف لجنة صغيرة منحة بمقر الرئاسة الامريكية للقيام بمهمة التنسيق بين الخطط السياسية

وتنفيذها في إفريقيا • ولقد اتخلفت هذه اللجنة فيما بعد طابعا أكثر أهمية من سابقتها من اللجان ، وكادت أن تكتسب هيئة « وزارة » بذاتها •

ومن خلال كل هذا الاهتمام في تنظيم الشؤون الإفريقية ، يبدو واضحا وجليا ، أن حماسة مستشاري ناصر حيال الشؤون الإفريقية ، قد خرجت عن طورها وافلتت من عقالها • إلا أن كل ما وضع لها من مخططات دفعت إلى حيز التنفيذ لم تكن لتظهر سوى طموح غير معقول ، يستحيل تحقيقه أو الوصول إلى أهدافه •

إلا أن آمال ناصر وأطماعه في إفريقيا كانت أكثر تواضعا وأقل مفالة • فقد أصبحت القاهرة ملاذ المضطهدين من الحكومات الاستعمارية • وأضحت اذاعة القاهرة نصيرا لحركات الاستقلال في إفريقيا بدون كلل أو ملل • وكم أغضب البريطانيين تأييد ناصر لحركة الماو ماو في كينيا ، إلا أن ذلك لم يكن موضع دهشة أبدا عند كثير من المطلعين وذلك عندما خرج جومو كينيا تا من السجن ليصبح أول رئيس وزراء للدولة المستقلة • وأحداث كهذه لا يمكنها أن توحى لمراقب غير مطلع إلا بطموح مفرط وآمال عريضة لا حدود لها ، وخاصة أنها وقعت في الوقت الذي بدأ فيه ناصر سلسلة من الزيارات الخاطفة لكل من برونزي ومونروفييا وتونس وأكرا وأديس أبابا والدار البيضاء وبلغراد ، في محاولة لبعث الحياة في الأهداف المشتركة بين مصر ومثيلاتها من الدول الإفريقية • وقد احتلت أنباء زيارته هذه الصفحات الأولى في الصحافة العالمية • ونجح يومها في جذب أنظار الدول الكبرى إليه ، كما جنى فوائد جمة كانت مقلمة لكثير غيرها • إلا أن الصحافة قد أظهرته وكأنه قد فشل في تحقيق ما ربه الرئيسية - التي لا وجود لها أصلا • فلم ينجح ناصر في تأليب الدول الإفريقية ضد إسرائيل (وهو هدف غير خطير) إلا أنه قد كسب تأييدا واسعا من الدول الإفريقية والآسيوية لقرارات الأمم المتحدة التي تندد بالامبريالية والاستعمار والمؤيدة لحق تقرير المصير • وهكذا فقد أفسح ناصر المجال أمام الدول الإفريقية الآسيوية لتتبعوا مركزا أكثر حساسية في الشؤون العالمية • وكان من حصيلة هذا المجهود تبني الفرنسيين والبريطانيين والأمريكيين لسياسة أكثر تساهلا مع مصر لكسب ود ناصر وتجنب أذاه •

ولم تسنح لناصر فرصة « لبسط نفوذه ونشر دعايته » أفضل من تلك التي سنحت له في « دائرة العالم العربي » - فقد كان جمع كلمة الدول العربية وتوحيدها حوله أمرا واجبا لا مناص منه . وعرفت هذه المشكلة بوضوح على أنها الجزء من « لعبة الامم » التي يطلق عليها اسم « اللعبة التي حصلها يساوي صفرا » من وجهة نظر كلا الطرفين . ولا يزال الاشكال يحيط بنصوص هذا النزاع في العالم العربي بصورة لم يعدها العالم في أيامنا هذه في أي من نزاعاته الرئيسية .

وللمرة الثانية ، فإن سبب النزاع في العالم العربي يعود الى اساعة فهم أهداف ناصر نفسها . وأود أن أؤكد ثانية أن ناصرا ليس بعربي ، ولم يعرف الكثير عن العرب الا حديثا . كما أنه لا يشعر بميل وعطف خاص نحو العرب كما تتصور وتختيل . وهو لا يطمح اطلاقا في ارهاق نفسه وتحميلها مسؤولية حكم العالم العربي . فالقومية العربية قوة ذات أهمية رئيسية في مخططات ناصر ، الا أن أهميتها عنده تكمن في كونها « أسطورة » وليست « حقيقة » . ولننظر الى النواحي التالية :

● **اللغة :** ان من ضمن أشهر الاجابات على السؤال الشهير : « ما هو تعريف العربي » هو : « كل من يتكلم العربية كلفته الاصلية » . الا أن حقيقة اشتراك العرب بلغة واحدة لا تعدو أكثر من كونها صورة طبق الاصل للحقيقة أن أوروبا لم يكن لها في القرون الوسطى سوى لغة لاتينية واحدة . ان العربية الفصحى - لغة الكتابة - هي الوحيدة التي تفهمها القلة المثقفة المنتشرة من العراق شرقا حتى مراكش غربا . وعلاقتها باللهجات العربية المتداولة والمختلفة ليست الا كعلاقة اللغة اللاتينية بكل من اللغات الايطالية والبرتغالية والاسبانية والرومانية في القرون الوسطى . ان سائق التكسي في بغداد يعجز عن فهم زميله السائق في تونس اذا ما نشب بينهم أي حديث ما . وان نحاح مثقف من بغداد في فهم حديث مثقف آخر من تونس مرده الى اطلاع واسع لكل منهما على لهجة الآخر وعلى العربية الفصحى .

● **الحضارة :** ان تعريفا أكثر شمولاً لـ « من هو العربي » يعني بالضرورة الاخذ بعين الاعتبار مفهوم « الحضارة المشتركة » . والحقيقة أن هناك تشابها

كبيرا في حضارة مختلف البلاد العربية . الا ان هذه الحضارة لم تكن سوى وليدة الدين السائد وهو الاسلام في تلك البقعة من العالم . كما ان أوجه الشبه هذه ليست وفقا على العرب وحدهم ، بل ويشاطرهم اياها ملايين المسلمين المنتشرين خارج العالم العربي . كما ان التشابه البسيط في الذوق الموسيقي وفي طعام المطاعم (وليس ما يطهى في البيوت) ، وفي بعض المهن الشعبية المختلفة ، مرده الى تأثير الافلام السينمائية المصرية ، وانتشار المطاعم اللبنانية في كل أرجاء الشرق الاوسط وافريقيا . وباستثناء أوجه الشبه هذه فان الفوارق في الحضارة بين القرويين في العراق وقبائل البدو وأهل الريف في لبنان والفلاحين في مصر وغيرها من الاقاليم العربية ليست أقل من تلك التي تبدو بين مجتمعات الشرق الاقصى (الصين واليابان والهند) ، هذا ان لم تكن أكثر منها . وعلاوة على ذلك ، فان الضغائن المستحكمة بين مختلف المجتمعات تجعل الانصهار في بوتقة حضارية واحدة أمرا مستحيلا من الناحية العملية . فالدروز والعلويون والمتاولة والاكرد والاشوريون ومختلف الطوائف المسيحية واليهود والارمن والشيعة ومذاهب أهل السنة المختلفة وغيرهم يميلون الى عدم احترام بعضهم البعض ، الى جانب دفاعهم عن تقاليدهم الاقليمية فسي اللباس والزواج والاوراير العائلية وغيرها بشيء من التعصب والتزمت اللذين يتحديان جميع نواحي الحياة الاخرى ، باستثناء الافلام المصرية والمطربة الشعبية الشهيرة « أم كلثوم » .

● **العرق :** ان نظرية واحدة يلقيها الانسان على رجل من السودان ذي لون مغرق في السواد الى جانب لبناني ناصع البياض ، او عراقي داكن اللون أصفر البشرة ، او أحد أفراد القبائل في السعودية الأصليين ، أو سوري ذي شكل يوناني ، يدرك أن فكرة « العرق العربي » فكرة لا تقل زيفا وانتحالا عن فكرة « العرق اليهودي » . ان غالبية سكان الجزيرة العربية هم عرب أصلاء في عرقهم . أما المصريون - قادة العالم العربي - فليس هناك قطرة واحدة من دم عربي تجري في عروقهم . وكذلك الامر بالنسبة للسودانيين واللبنانيين وعرب شمال افريقيا . كما أن الاتراك والشركس والاكرد هم من أبرز العناصر التي تتركب منها « الخلطة » السورية ، وكذلك الامر بالنسبة الى « الخلطة » العراقية مع اضافة شيء من النكهة الهندية اليها . وخلاصة الكلام ، فان فكرة

« العربي العربي » قد حظت بمقت ناصر لها ونفوره منها الى الحد الذي جردت فكرة القومية العربية من أي خطورة أو اعتبار .

● الطموح السياسي : لا ازال اذكر كلام صديق « عربي » عندما قال لي : « عندما يقوم أي منا بعمل بناء ايجابي كانشاء جسر ، أو رُقع حذاء ، أو خبز رغيف ، أو حشو خرس ، فهو في لحظة قيامه بعمله ليس أكثر من مجرد مهندس ، أو اسكاف ، أو خباز ، أو طبيب « سوري » أو « لبناني » أو « مصري » . ولكنه عندما يقوم بعمل هدام « فهو عندئذ عربي قح » . ففي سبيل الحصول على مصالحه المادية اليومية والاقتصادية العادية ، فان « التفكير الاقليمي » هو المسيطر على العربي آنئذ . ولكنه عندما يتألف من اسرائيل أو يتشكى من الامبريالية أو يشارك في مظاهرة لحرق سفارة اجنبية ، فان « التفكير القومي العربي » هو المسيطر وقتئذ . وطالما أوقعت هذه المفاهيم عديدا من الدبلوماسيين الامريكيين حديثي العهد في حيرة وارتباك . ففي كل مكان يحلون فيه لا يسمعون سوى عبارات « الاخوة العرب » و « الآمال والآلام العربية » و « الوحدة العربية » . الا أنهم يخفقون في لمس أي حماسة أصيلة لتوحيد التعرف الجمركية ، أو لانشاء سوق عربية مشتركة ، أو لاقامة دولة سريسة متحدة ، وحتى اتحاد فيدرالي بين الدول العربية .

وكما ذكرنا سابقا ، فلقد كان المام ناصر بدائرة العالم العربي محدودا للغاية عندما بدأ بمعالجة شؤونته والفوص في مياده . الا أن جهله بالعالم العربي لم يكن بتلك الاهمية وذلك لبساطة أهدافه وعدم خطورتها . فلم يكن ناصر يطمح الى أكثر من اقناع مختلف زعماء الدول العربية وحكامها الى أنهم يخدمون مصالحهم ، ويجنون فوائد كثيرة من الدول الكبرى ، ان هم أحجموا عن الدخول معها في اتفاقات ثنائية ، ووافقوا على تنسيق سياستهم الخارجية تجاهها . وبذلك تبقى جبهتهم المشتركة قوية منيعة .

وسعى ناصر حثيثا على تقوية « أسطورة » القومية العربية الى حد يصبح

معه خروج أي من الحكام العرب عن الصف أمرا عسيرا ، بل ويفدو الحاكم عند ذلك « منشقا خطيرا » . ومن الصعب أن يتخيل الإنسان كيف يمكن لناصر أن يحقق هذين الهدفين بعناد وإصرار بدون أن يتمتع بالمام كاف ودراية واسعة بأحوال البلاد العربية ، وبدون أن يملك شعورا بالمحبة لها أو العطف تجاهها . لقد كانت تلك الاهداف لخدمة مصر فقط دون سواها ، ولكن لا مانع عند ناصر أن يصيب الدول العربية بعضا من الخير ، أو أن تظفر بشيء من المكاسب بمحض الصدفة - لا أكثر ولا أقل - وبدون سابق تصور أو تصميم .

وعندما وصلت الى مصر في تموز (يوليو) ١٩٥٣ ، لم أجد عند أي من أعوان ناصر أو أصدقائه - مع أنني أعرف معظمهم جيدا - أي اهتمام في قدرة مصر أن تتزعم فكرة الوحدة العربية ، أو أي نوع آخر من أنواع الاتحاد . ولقد أثار المامي بشؤون الدول العربية الأخرى - وخاصة سوريا - اهتمام ناصر وفضوله . وأذكر تماما أن مجموعة القصص والنوادر التي كنت أعرفها عن الانقلابات الناجحة والفاشلة في سوريا قد جعلتني من أقرب المقربين لناصر وفي داخل منزله بالذات . وعلى سبيل المثال ، فقد غمر السرور قلب ناصر عندما قصصت عليه ذكرياتي عن المحاولة الأولى الفاشلة التي قام بها حسني الزعيم للإطاحة بالحكومة المدنية في سوريا . فلقد وضع حسني الزعيم خطتها لوحده ودون مساعدتنا ، وحاول تنفيذها قبل تلك التي تكلمنا عنها سابقا . فقد حاول يومها أن يضم اليه كلا من أحمد الشراباتي وزير الدفاع آنئذ وفوزي القاوقجي قائد جيش الانقاذ الفلسطيني . ولكن بعد اجتماع سري هم الثلاثة لتخطيط الانقلاب ، وانعقد في ساعة متأخرة من إحدى الليالي ، ذهب كل من أولئك الثلاثة على التو وبمفرده - بدون استثناء حسني الزعيم نفسه - الى الرئيس شكري القوتلي للفساد على زميليه الآخرين . ومثل هذه القصص التي تظهر « عدم جدارة السوريين بالثقة » جعلت ناصر يضحك (بينه وبين نفسه) ، - وارتسمت على محياه علامات الحيرة والذهول وأدرك ما كان ينتظره من متاعب ومصاعب . الا أن دهشة ناصر أمام الطريقة التي كانت الحكومة الأمريكية تحاول أن توجد بها نوعا من الوحدة الاقتصادية العربية كانت أشد وأقوى . وقد أعرب ناصر عن رأيه في هذا الموضوع قائلا : « اننا نحن المصريون نفكر بطريقة متشابهة تقريبا ، وباستطاعتنا أن نقف صفا واحدا في سبيل هدف مشترك ، ولكننا لن نخضع للمحاولات التي تفرض علينا التعاون

مع غير المصريين بآية طريقة مدروسة • فلربما نفلح في الاتفاق مع بعض الدول العربية الاخرى حول أهداف مشتركة الا أننا نرفض العمل مشتركين للوصول الى تلك الأهداف وتحقيقها • لقد كان الانقلاب في مصر مصريا بحتا ، ولم يكن أي من قادته ، وعلى الاخص ناصر نفسه ، يفكر به أن يكون غير ذلك اطلاقا •

الا أنه في اواخر عام ١٩٥٣ قفزت فكرة الوحدة - أي نوع من الوحدة - الى مركز الصدارة كطريقة لدعم مركز ناصر ضد الدول الكبرى • وليس غريبا أن تكون هذه الفكرة قد خطرت على بال ناصر وأخفاها حتى يحين الوقت المناسب لها • ففي كانون الاول (ديسمبر) ١٩٥٣ استدعى كبار سفرائه في الخارج الى مصر ، ودعاهم الى عقد اجتماع مشترك مع أعضاء مجلس الثورة بغية وضع خطة للسياسة الخارجية المصرية تتألف من شقين : الشق الاول منها يختص بالسياسة المصرية تجاه الدول التي تعاني من نفس المشاكل التي تعاني منها مصر ، وتعيش نفس الظروف المصرية ، وتشترك معا في أهداف واحدة • والشق الآخر منها يختص بالسياسة المصرية تجاه الدول (مثل الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا والاتحاد السوفياتي ودول أوروبا الغربية واليابان) التي هي بحد ذاتها أهدافا مشتركة للدول الوارد ذكرها في الشق الاول من الخطة العامة • وتهدف هذه السياسة ، الى اقامة تعاون وثيق مع دول الشق الاول ، للوقوف صفا واحدا في النزاع مع دول الشق الثاني ، دون أن يتطور ذلك الى نزاع « غير ودي » •

استمرت تلك الجلسات حتى كانون الثاني (يناير) ١٩٥٤ • ولاول مرة تناول البحث وضع خطة سياسية لانشاء « جبهة عربية » من أهدافها طاهرا حماية مصالح الشعوب الاسلامية والآسيوية والافريقية • وبانت وجهة نظر ناصر بهذا الخصوص جليا عندما سأله أحدهم في إحدى تلك الجلسات « لماذا لا تشكل وحدة مع الشمال الافريقي : مصر وليبيا والجزائر وتونس والمغرب ؟ » فكان جواب ناصر انه لو كانت الوحدة الجغرافية دون سواها هي هدفنا ، فالوحدة مع الاقاليم الواقعة الى الغرب من مصر أمر لا يخلو من الاهمية • الا أن اتحادا كهذا لا يملك من مصادر القوة التي نحرس عليها شيئا • في حين أن المنطقة العربية الآسيوية تملك مصادر النفط ، وطرق المواصلات ، كما

أنها تعاني من قضية فلسطين التي تكثر حولها المساومات ، • ان كل هذه الامور ذات أهمية كبيرة لكل من الدول القريبة والاتحاد السوفياتي •

لقد اعتبر باتريك سيل (في كتابه الشهير « الصراع على سوريا ») ان يوم ٢٢ تموز (يوليو) ١٩٥٤ كان يوم اعلان ناصر رسميا أن مصر جزء من الامة العربية • وجاء هذا في الخطاب الذي القاه ناصر في الاحتفال الثاني لذكرى الثورة المصرية • ومما قاله ناصر يومها :

« أيها المواطنون : لقد بدأت مصر مرحلة جديدة من علاقاتها بالامة العربية • انها مرحلة تعتمد على الاخوة الصحيحة والصريحة لمواجهة المشاكل ببسالة وايجاد الحلول لها • ان هدف حكومة الثورة ان يصبح العرب امة واحدة يعمل كل ابنائها بتعاون وتضافر للمصلحة العامة ... وان الثورة تعتقد ان مسؤولية الدفاع عن الدول العربية تقع أولا وقبل اي شيء آخر على عاتق العرب انفسهم وهم جديرون بتحمل مثل هذه المسؤوليات » •

الا أن هذا الكلام قد قيل بعد اسبوع واحد من تسلم ناصر - عن طريق اللواء نجيب - تأكيدات من الرئيس ايزنهاور تفيد أن التوصل الى اتفاقية مصرية انكليزية حول قاعدة السويس سوف يفتح الطريق امام مساعدات امريكية مالية على مقياس واسع جدا • والى جانب هذا ، كانت هناك تأكيدات شخصية من بعض أعضاء السفارة الامريكية في القاهرة أن قيمة هذه المساعدات تتوقف على مدى نجاح ناصر « كعامل تهدئة وتلطيف » في السياسة العربية ضد الغرب • ولقد أسرّ لي ناصر مرة وقال : « عليك أن تبسط نفوذك أولا على المناطق العربية حتى يتسنى لك بعد ذلك أن تمارس سياسة التهدئة والتلطيف وأن تنجح فيها » • ولا أدري ان أدرك ناصر تماما ما نعني بعبارة « عامل تهدئة وتلطيف » أم لا ، الا أن الفكرة بالتأكيد قد لاقت عنده قبولا وفي نفسه ترحيبا •

وعلى وجه التخصيص ، فقد كان كل من العراق والسعودية وسوريا ولبنان والاردن والكويت وليبيا من بين الدول التي اراد ناصر أن يبسط نفوذه عليها • وكان قادتها في ذلك الوقت وهم على الترتيب : نوري السعيد ، الملك سعود ، اديب الشيشكلي ، كميل شمعون ، الملك حسين ، سالم الصباح ،

والملك أدريس السنوسي . ومهما اشتط خيال الانسان فانه لا يمكن ان
يفسح أكثر من واحد . اولئك القادة المجال أمام ناصر لوضع سياسة خارجية
واحدة للعرب أجمع . ثم حين كان ناصر يميل الى الاعتقاد بإمكانية تحقيق هذا ،
وذلك لانه مهما كانت الفوائد التي تجنيها الدول العربية متفرقة من الدول
الكبرى فان الفوائد أعظم اذا ما وقفت الدول العربية كلها مجتمعة في صف
واحد أمام الدول الكبرى . وكانت هذه من مبادئ ناصر العامة وليست من
مشاكله الخاصة التي ، وان برزت فجأة ، فانها ليست من ذلك النوع الذي
يستعصي التوصل الى اتفاق حوله . ولم يكن يومها ليخطر ببال ناصر أن يتبوا
سدة قيادة أي اتجاه عربي نحو وحدة حقيقية - وعلى الأقل فان ذلك لم يكن
ليخطر بباله بصورة واضحة ملحوظة تلفت نظر بقية الزعماء العرب . فقد كان
اللواء نجيب لا يزال الرئيس السوري للدولة ، وكان - على حد اعتقاد ناصر -
يصلح تماما لترأس مثل ذلك الاتجاه . كما أن زعماء الدول العربية الأخرى ،
مهما كانت انطباعاتهم عن الزعامة المصرية السياسية النشيطة ، فانهم جميعا لا
يفكرون برفض الحقيقة أن القاهرة - مركز العرب الثقافي - هي مركز القيادة
منطقيا .

وعندما بدأ ناصر بحس نبض مختلف الزعماء العرب ، وجد أن الامر ليس
بتلك السهولة التي تخيلها قبلا . فالوفد الذي أرسله الى بغداد في آب
(أغسطس) ١٩٥٤ لاجراء مباحثات مع الملك فيصل الثاني والوصي على العرش
الأمير عبد الله ونوري السعيد ، وجد أن الزعماء العراقيين لا يميلون الى فكرة
الحياد لانهم يخشون السوفييت والشيوعية كثيرا ، كما أن علاقات العراق
الوثيقة مع بريطانيا والولايات المتحدة ، ستجلب لهم منافع كثيرة بدون أن يدفعوا
أي ثمن لها . الا أن نوري السعيد وافق على الاستمرار بالمباحثات حول الموضوع
وقام بعد شهر بزيارة للقاهرة بهذا الغرض . وبعد هذه الزيارة اتضح لناصر
أن الوفد المصري الذي سافر للعراق لم يكن على المستوى اللائق لشرح أفكاره
وآرائه ، وأن نوري السعيد قد سيطر على محادثات بغداد لعله التام بنقاط
الضعف عند رئيس الوفد المصري صلاح سالم ، التي حصل عليها - حسب
اعتقاد ناصر - من وكالة المخابرات المركزية . كما رتب الأخيرة لصلاح سالم
مؤتمرا صحفيا ملفوما حشدت فيه بعض رجال الصحافة الذين قاموا بتوجيه

امثلة محرجة لصالح سالم اربكته ودفعته الى التصريح علنا ببعض المبادرات التي اثار سخط بعض الزعماء العرب وخاصة السعوديين منهم والسوريين

كانت احدى تلك التصريحات على شكل جواب لسؤال حول موقف ناصر تجاه وحدة ثنائية تعقد بين بعض الدول العربية - وهذا تلميح واضح لاحتمال قيام وحدة ثنائية بين سوريا والعراق التي كانت مصر تعارضها بشدة - ولم يكن جواب صلاح سالم الا حسب ما يتوقعه الكثير ممن يعرفونه - فقد قال : « اذا ما رغبت أية دولتين عربيتين في الوحدة ، فان مصر لن تكون من المعارضين لهذا » . ومع ان السوريين كانوا متاكدين ان نوري السعيد لم يأت على بحث موضوع الوحدة مع المصريين ، الا انهم اعتبروا تصريح صلاح سالم على انه محاولة من رجال الثورة في مصر لتقديم الدعم لنوري السعيد فيما اذا حاول ضم سوريا للعراق . كما ان السعوديين ظنوا ان السوريين كانوا على علم مسبق بتلك المحادثات ، وان الجميع متفقون ضدهم . وقد تأثر اللبنانيون أيضا بمثل ذلك التصريح لظنهم ان مصر تعد الترتيبات لاعادة تقسيم العالم العربي ، وان قصة الجبهة المتحدة انما هي للتضليل والتمويه . ومهما كانت النتائج فقد اعتبرها ناصر درسا نافعا في حياته السياسية . فقد أدرك ان العالم العربي لن يترك أي تصريح مهما كان بريئا وبعيدا عن الغمز واللمز الا ووضعه تحت المجهر لفحصه واستقصاء خفاياه . وستكون مثل تلك التصريحات مصدر مضاعفات مشؤومة يحاول المعارضون ترويجها والتهويل من امرها . لقد اتقن ناصر هذا الدرس الى الحد الذي لم يعد ليتعمد الغموض حتى يدرك تماما كل ما ستثيره . تلك التصريحات المفلوكة - أو الفاضة عمدا - من تفسيرات وتكهنات .

ولم تنجح الاتصالات المصرية التي جرت مع الزعماء العرب ، سواء التي جرت عن طريق السفراء العرب في القاهرة وعن طريق السفراء المصريين في العواصم العربية ، أو تلك التي تمت عن طريق زيارات عديدة قامت بها وفود من شتى المستويات . وفي شهر كانون الاول (ديسمبر) قام ناصر بتوجيه الدعوة لوزراء الخارجية العرب لحضور اجتماع كان يأمل فيه أن تتساح له الفرصة كاملة لشرح أفكاره عن جبهة « الحياد الايجابي » المتحدة . الا أن

الاجتماع قد عجز عن احراز أي تقدم بخصوص بعض القضايا ، وبالتالي فلم يحقق أي نجاح باستثناء بعض المكاسب التي جناها ناصر من جراء رفضه الخوض في مناقشة بعض القضايا التي اكتفى بالقول عنها : « انها مهما تكن فلا بد من ايجاد حلول مناسبة لها ، ولنفترض ذلك جدلا » . كما ملح الى ان مصر لا تقرأ في تلك القضايا مدعاة لتعريض الوحدة العامة الى الخطر .

وبحلول نهاية العام ، كان ناصر قد أيقن أن محاولته الرامية الى اقناع الزعماء العرب بأفكاره - وخاصة أولئك الذين كانوا يومها في الحكم - قد بادت بالفشل . الا أنه كان قد احتاط للامر مسبقا . فقد أعد برامج دعائية موجهة للعالم العربي كله ، وأصدر أوامره الى محطة صوت العرب التابعة لإذاعة القاهرة أن ترفع من قوة بثها الى الحد الذي تتمكن معه من اسماع صوتها الى العرب في كل مكان . وبوضوح لا يقل عن وضوح اذاعة صوت أمريكا أو اذاعة لندن أو أي اذاعة عربية أخرى . كما أعطى برامجهما مادة شيقة تجذب اليها المستمعين . فكانت فيها النشرات الاخبارية والقصص والتمثيلات الدعائية ، وجلها باللهجة المحلية . وكانت موشاة بالموسيقى والمارشات العسكرية ، الى جانب بعض البرامج الترفيهية التي كانت تحوز على اعجاب المستمعين - حتى أولئك القابعين في اقاصي الصحارى العربية . وكم ترك المستمع أزرار مذياعه مثبتة على أمواج اذاعة القاهرة دونما تغيير أو تبديل !

كانت مواضيع وشعارات الاذاعة كما يلي :

● « علينا نحن العرب ان نتحد لنجني أنفسنا من الاستغلال الامبريالي لنا » : ان البريطانيين هم أوغاد الامبريالية الرئيسيون ، ولكننا يجب أن لا ننسى أن الأمريكيين والروس هم أيضا كذلك . وقد نشرت قصص كثيرة وكلها تدور حول دخول البريطانيين أو الروس أو الأمريكيين البلاد تحت شعار تقديم المساعدات ولكنهم ما يلبثون أن يستغلوا البلاد ويجعلوها معتمدة كلياً على تلك المساعدات . ولم يكن هناك أي هجوم على شخصيات الزعماء العرب ، الا أن خطة كهذه ما لبثت أن وضعت المتساهلين مع الدول الكبرى منهم في موقف حرج وأشعرتهم فجأة أنهم أصبحوا في وضع يتطلب منهم الدفاع عن تصرفاتهم واعطاء التبريرات لسياستهم .

● « اننا - نحن المصريين - جزء من أمة العرب » : وهذه هي - بعبارة أخرى - « الاسطورة » التي تبناها ناصر . فلم يكن هناك أي حماس أو دفاع عن الوحدة السياسية أو تعاون وثيق على مستوى الحكم والادارة (مثل توحيد الجمارك ، وتسهيل انتقال الرعايا العرب من بلد عربي لآخر دون تأشيرات دخول ، وتصفية تلك الخلافات المتنوعة التي ما زالت تعصف بالعالم العربي) . وتحت الشعار المذكور أعلاه ، كانت مادة التوجيه في معظمها ثقافية مثل القصص التاريخية والبحوث الفلسفية وكل ما يمكن أن يشكل مادة تساعد المستمعين وتشجعهم على أن يكون تفكيرهم مشبعا بأفكار مثل « كيان العرب » و « استقلال العرب » .

● « ناصر يقارع الدول الكبرى وحيدا » : بعد نجاح ناصر في تنحية اللواء محمد نجيب ونجاحه - لمرة أو مرتين - في الظهور على أنه أول مصري لقرون عديدة ينجح في شق عصا الطاعة على الاوربيين ويرفض الخضوع لهم ، بدأت البرامج الدعائية تذاع على الشعب وهي مبرزة هذا الوجه لشخصية ناصر ومؤكدة حقيقته . وكانت التمثيليات الإذاعية تظهر ناصرا جالسا وراء طاولة المفاوضات بهدوء كامل وبرودة أعصاب فريدة ، ثم ما تلبث أن تنهي حوارا مع الكولونيلات البريطانيين بأذاعة بعض عباراته المؤثرة والرائنة بصوت رزين هادئ ينبئ عن اصرار وتصميم وعن رفض للخنوع والخضوع . وكان المذيعون يرتلون بعض المقتطفات الشاعرية من خطاب ناصر التي تفيض بأخبار الشعوب الآسيوية والأفريقية والعربية التي تعاني من اضطهاد الاوربيين واستغلالهم ، الا أنها كانت تختتم بترنيمة شاعرية تقول : « ولكن ناصرا سوف » ينقذنا من كل هذا » . ومع أن هذه البرامج كانت غاية في الابتذال والركاكة الا أنها كانت ذات تأثير غير قليل في نفوس السامعين من الطبقات ذات الثقافة الضحلة والادراك السطحي . ولم تبق هناك طريقة يمكن استخدامها في اظهار شخصية ناصر الا واستخدمت . فقد وزعت صورته في كل مكان وحتى في الكويت - التي لم تكن في يوم من الايام ضمن دائرة نفوذه - وكان نادرا ما تجد حانوتا يخلو من صورته معلقة في أبرز مكان فيه .

● « ناصر في الجامعة الكبيرة » : لم يكن ساسة العرب القدامى يكونون

أي احترام أو تقدير لناصر بعد استلامه زمام السلطة علنا من يد محمد نجيب . وكانت نظراتهم لا تختلف عن تلك التي اعتادوا أن يتبادلوها عن انسان حديث العهد بالزعامة قليل الخبرة بخفايا السياسة والاعبيها . الا أن سرعان ما تبدلت نظرات الاستخفاف بناصر الى أخرى مليئة بالاحترام عندما طفقوا يشاهدونه متصدرا أفلام « جريدة السينما » وهو يتبادل الانتخاب مع كبار زعماء العالم برباطة جأش واتزان ، ودون تنازل أو استحياء . ففي خلال شهر واحد - شباط (فبراير) ١٩٥٥ - استقبل ناصر في القاهرة كلا من تيتو ونهر ومانتوني ايدن والملك حسين ، الى جانب سيل متدفق من رجال الكونغرس وبرلمانات العالم ومن مراسلي الصحف والمجلات العالمية الذين أخذوا منذ ذلك الوقت يغدون الى القاهرة زرافات ووحدانا .

أما انعكاسات الشعب العربي فقد كانت شبيهة بشعور أهل الريف عندما يشاهدون - وهم في أريافهم - أحد أبنائهم يظهر في مقابلة تلفزيونية مع اشخاص على شيء من الاهمية والمكانة . لقد شارك العرب انتصاراته وكان ناصر « منهم واليهم » .

وهكذا أوجد ناصر « الاسطورة » وكانت عبارة عن : « القومية العربية بقيادة انسان كنصر - أي انسان بطل - ولا يشترط أن يكون بالضرورة ناصر نفسه » . الا أن القومية العربية لم تنتقل الى الواقع الملموس اطلاقا وبقيت بعيدة عن كونها حقيقة . فما زال عليك أن تمضي ساعتين من الزمن واقفا على الحدود بين سوريا ولبنان لانتهاء الاجراءات ، وتقريبا نفس الوقت على الحدود الاردنية السورية ، الى جانب تفتيش دقيق للمسافر نفسه واجراءات أخرى مهيئة . وما زالت العلاقات بين الحكومات العربية متردية وسيئة ، علاوة عن الاجراءات التصفية في الشؤون الثقافية والتعليمية بين كل من العراق وسوريا ولبنان ومصر . وأما اللاجئين الفلسطينيين فانهم في الوقت الذي كان ناصر يدعهم في خطاباته « باخواننا العرب شعب فلسطين » كانوا يعاملون أسوأ المعاملة - وكأنهم أجانب - في مصر والبلاد العربية المضيفة لهم . ومع كل هذا فقد نمت تلك « الاسطورة » وترعرعت وأصبحت - على حد تعبير بعض المصادر المطلعة - القوة المسيطرة في سياسة العالم العربي في أواخر الخمسينات وأوائل الستينات . بل لقد أصبحت بالنسبة للعرب حقيقة بقدر ما أصبح

« بابانويل » حقيقة عند الاطفال يوزع عليهم اللعب والهدايا عشية عيد الميلاد .
وعلى اي حال ، فان هذا الاتجاه لم يكن مسيطرًا لدرجة كافية . لقد افلح
ناصر في فتح طريق قليل المصاعب والمقاومة امام الزعماء العرب وهو طريق
« اسطورة القومية العربية » - أو طريق الترغيب - كما تفهمه القاهرة . الا أنه
ما زال هناك بعض قادة العرب الاقوياء يكونون كراهة للقاهرة ويصرون على أن
يسيروا في ذاك الطريق لوحدهم دون وصاية من ناصر عليهم ، ودون الانتساب
الى « جمعيته » . وهكذا وجد ناصر نفسه مضطرا لان يسلك « طريق الترهيب »
لاستكمال عناصر « جمعيته » ولاخضاع من شق عليه عصا الطاعة .



الناصرية والإرهاب

... ولن يلين عودهم وينضموا اليك حتى تصبح حياة « غوارجهم » شقاء وفجرا .

امضيت الهزيع الاخير من عام ١٩٥٦ ، وأوائل عام ١٩٥٧ ، منهمكا في شرح أفكار ناصر أمام مجموعات عديدة من الرسميين الامريكيين ، باسطا لهم متاعبه ومشاكله ، ومعلقا عليها بنفس الطريقة التي كان هو نفسه يود أن تعرض شؤونها بها أمامنا . وكنت أنفق الساعات الطوال في مكتب الوزير دالس ، أو في مكتب وكيله هربرت هوفر ، بنية ضم جهودنا معا في محاولة لتحديد معالم ابعاد ردود الفعل التي كنا نتوقع أن تصدر عن ناصر ، ردا على بعض الاجراءات التي كانت الحكومة الأمريكية تنوي اتخاذها . ولم أكن أواجه أية صعوبة في شرح سلوك ناصر ، عساه يكسب بعض عطفنا وينال شيئا من ضائنا . الا أنني لم أنجح في تبسيط سائر نواحي سلوكه ، واخفقت في شرح احداها . كما اخفقت في عدم اثارة حفيظة زملائي ورؤسائي. كلما حاولت ذلك ثانية . ولقد أخبرت مرة أن أحد كبار الرسميين في وزارة الخارجية قد التفت الى جاره بعدما غادرت أحد تلك الاجتماعات الهامة التي كان يدعوني اليها الوزير دالس الى تمثيل دور ناصر في « لعبة الامم » - وقال له : « أنني لا ألتق بذلك الانسان - أي بي - فانه يتكلم بالحاح واهتمام أكثر من ناصر نفسه » . وفي مناسبة أخرى التفت الي آلن دالس (مدير وكالة المخابرات المركزية) وقال لي : « اذا حاول بكباشيك أن يحشرنا في الزاوية فلن نتأخر في شطره نصفين ! » ولا اظن أن انسانا على وجه البسيطة يفوق آلن دالس في فهم وتطبيق أحد مبادئ التحليل السياسي القائل : « ضح نفسك في مكان الآخرين » . ومع ذلك فلن يتمكن آلن نفسه من طرق ومعالجة أي من مشاكل ناصر دون أن يثور ويغضب ، وذلك لانها حقا « مصدر غيظ وازعاج » .

كان اقتران الناصرية بالارهاب ، وتلازمها به ، مصدر تعب لنا وقلق ، اقض مضاجعنا ، دون أن نجد سبيلا لفهمه أو تحليلا لدافعه . فالأمريكيون ينفرون من الارهاب ، ويكرهون سماع أخباره ، متناسين أن تحركات الغرب ضد المتمردين من زعماء آسيا وأفريقيا لا تعرف غيره غاية وسبيلا . ولكن ما العمل ؟ فناصر نفسه يمتدح العنف وأساليبه ، ويدعو لها جهرا بافتضاح . ففي داخل بلاد ناصر وأراضيه ، يسود القانون ويعم النظام ، وفي خارجها لا تجد لهذا داعيا ولا سببا . فاذاعة القاهرة تحض علنا على اشعال الفتن واحداث الاضطرابات المدنية في البلاد - كل البلاد - التي يسوسها زعماء معارضون له أو يحكمها رجال يأبون أن يكونوا مطية له . ولا تجد اذاعة القاهرة أحيانا أي حرج في توجيه الدعوات علنا لاغتيال الحكام والرؤساء . وكانت نتيجة كل هذا ؛ وذلك اشمئزاز رجال السياسة الأمريكيين من هذه الاستفزازات ، وقلق الدبلوماسيين ورجال المخابرات من هذه الحماقات ، وأعمال الطيش والجنون .

الا أنه لا يستبعد وجود تفكير ذكي خلف ارتكاب ناصر لاعمال العنف والارهاب . فهو يحاول أن يظهر على أنه زعيم « كتلة » ، ولكنه مضطر لمقاومة المنشقين عنه ولاستخدام العنف للبطش بالخارجين عليه والرافضين دخول « كتلته » ، وله ذلك . فاتحادات العمال لا تملك أن تصبح قوة فعالة دون أن تضمن « وحدة الصف » ، ويلتزم قاداتها « بوحدة الهدف » . والمتمردون في مثل هذه الظروف - مهما قل عددهم وضعفت قوتهم - يفسدون جهود الغالبية ، ويحيلون قوتها ضعفا ووحدها افتراقا . وهكذا يتصرف ناصر . فبالعنف وحده يعامل الخارجين عليه كما يعامل زعماء اتحادات العمال (في الولايات المتحدة ، ولا أظن ذلك) المتمردين عليهم ، بل إن ناصرا أشد بطشا منهم وأكثر تنكيلا . وما مرد الفارق في الشبه الا الى تلك الفوارق بين المجتمعات .

ومن الصعب التسليم بأن الارهابيين يجيدون فن العنف أكثر مما يجيده شعب وديع ألجأته ظروفه الى تبنيه كسبيل للنجاة . وفي الوقت الذي لا يلعب الارهابيون أي دور رئيسي حتى في أسوأ المظاهرات التي تحدث في أمريكا ، فإنهم يفوزون بحصة الاسد منها في البلاد « المنشقة » عن ناصر . وقد أطلق

المشرفون على النشاط السياسي الناصري لقب « المتعصبين » على هذا النوع من الارهابيين .

وفي قاموس السياسة الناصرية ، فان كلمة « المتعصب » ترمز الى ذلك الانسان الذي انكر ذاته في سبيل المبدأ الذي اعتنقه ، وكرس حياته للوصول الى الهدف الذي ارتضاه ، مهما كانت المشاق وبلغت المصاعب . وبالتعريف ، فان « المتعصب » هو الخاسر دوماً ، ولكنه دائماً يستخدم سلاحاً في أيدي أولئك الذين يعيشون للاهداف نفسها ، ولكن « دون تعصب او تزمّت » . ويدفع ناصر باستمرار امثال هؤلاء « المتعصبين » الى خوض غمار المعارك تلو المعارك ، مهما كانت الخسائر جسيمة وخرجت عن حدها المألوف ، حتى يحبط مساعي « المنشقين » عنه ويقنع « الخارجين » عليه بالانضمام « للكتلة » . وبعبارة أوضح ، فلعبة « المتعصب » شبيهة جداً بلعبة « التشكن (١) » (أو الفرخة) . فليسان حال المتعصب يقول : « انني اعلم علم اليقين انني لن اذوق طعم النصر ، بل قد أموت ، الا انني لن أكون وحيداً ، فستكون معي حتماً ، ان لم تكن قبلي » .

ولاعب مثل ناصر ، لا يملك من الموارد الا اقلها ، لن يتلكا في استغلال أولئك « المتعصبين » . لقد أثبت التاريخ ، مرارا وتكرارا ، أنه بهذه الطريقة دون سواها تتمكن الاقلية من فرض ارادتها على الاكثرية — مهما بلغ تعدادها وقويت حجتها ، ان كان لها حقا أية حجة لتدفع بها عن نفسها — وتنال منها ما شامت من التنازلات . وكلما زاد ضغط الاغلبية على المتعصبين ، وتضاعف اضطهادها لهم ، فانهم عاجلا أم آجلا سيندفعون في أعمال شغب وعنف ، غير مكتربين بالنتائج ولا مباليين بالعواقب . غير أن ارتباطهم بقيادة « غير متعصبة » يجعل منهم سلاحا ذا مرونة ودهاء . وعندها يمكن إيقافهم فجأة ، ولو قبل الانتحار بقليل . وهم يتقنون التصنع ، فلا تلمس منهم الا رغبة صادقة راصيلة بالوصول الى حد الانتحار ، ويضيع على الخصم معها معرفة ما في قلوبهم حقا : هل سيقعون فجأة ؟ أو هل في نيتهم أصلا أن يقفوا فجأة ؟ أم أنهم ماضون ولن يعودوا أبداً ؟ وغالبا ما يمكن تزيين ذلك الهذيان الذي يتفوهون

(١) ورد تفسيرها في الفصل الاول .

به وتحسينه ، حتى ليفقدوا كلاما معقولا ومنطقا مقبولا ، بل ويتراعى لهم كأنه شعار أخلاقي سام . وكلما أمكن عزل الحركات المترتبة عن المفكرين والمتفكرين ، وعن الاحتكاك المباشر بالصحفيين ، فإن هذه الحركات تصبح من أحسن وسائل التأثير على الجماهير . وإن هؤلاء « المتعصبين » ليسوا أكثر من « مجموعة رجال بوسائل » ، يكافحون في سبيل أهدافهم ، وضد الاضطهاد والاستبداد . • إن قيمتهم وهم أموات لا تقل أحيانا عن قيمتهم وهم أحياء . • إنهم يتساقطون رغم أنوفهم في أروع صورة وأجمل مشهد .

وليس من الصعبه بمكان ، توفير مثل هذه العناصر المترتبة . ففي أي بلد يسوده الحرمان ويتفشى فيه اليأس ، تشعشع هذه العناصر المتعصبة ، وترتفع فيه وتمرح . ويملا نفوسها التزمت ، ويجيش في صدورهم الحقد والكراهية ، وتهدر وتزأر وهي تنتظر انبعاث « المهدي » من مرقده ليوقظها ، ويأخذ بيدها إلى شاطئ الكفاية والسكرامة . وتهدف الافلام الغربية في دور السينما وعلى شاشات التلفزيون ، إلى تثقيف الشباب وتوجيههم إلى استخدام العقل وعدم اللجوء إلى العنف . كما يلقتون الاشمئزاز منه ويرغبون بالوسائل المريحة التي قدمها لهم القرن العشرين . إلا أنهم سرعان ما يدركون أنه لا حاجة لاستعمال عقولهم . فكل ما يتقاضونه - إن هم التحقوا بعمل شريف أو زاولوا مهنة كريمة - لا يعادل إلا جزءا بسيطا مما تتطلبه حياتهم على الطريقة الغربية ، وكما تعرضها الافلام وبرامج التلفزيون . لقد ترعرعنا - نحن الأمريكيين - في مجتمع يعتقد أن كل إنسان - وإن كان متوسط الذكاء - بإمكانه أن يصبح رئيس مجلس إدارة شركة (جنرال موتورز) وإن كان أصله فلاحا أو مزارعا . وكل ما يحتاجه هو أن يتمتع بالكفاءة اللازمة لشق طريقه بنفسه ، وأن يملك التصميم على التمسك بمبدئه مهما كانت الصعاب . ولقد جرت مناقشات بيني وبين عشرات من شباب الشرق الأوسط ، واقتنعت أنهم جميعا - باستثناء بعض المحظوظين - قد قضى عليهم أن يعيشوا طوال عمرهم دون أن ينالوا شيئا ، ولا حتى ما لقنوا إياه . ولم يبق - مع الأسف - سوى طريق واحدة مفتوحة أمامهم ألا وهي طريق التضحية بالمصالح ، والارتباط بأهداف مقدسة ضد أشياء محددة معينة . وهكذا فإن هذه الطريق هي أحسن

طريق لتصريف المشاعر السلبية المكبوتة ، مثل الشعور بالخيبة والاحساس
بالحرمان .

إن حقيقة اعتناق الحركات المتزمتة لاهداف ثابتة محددة ، تعمل لها ،
وتفاضل في سبيلها ، تجعل منها عنصرا غير مرغوب به في أي بلد ما ،
وخصوصا اذا كان من بين تلك الاهداف اسقاط نظام الحكم نفسه ، كما كانت
الحالة أيام حكم ناصر الاولى . الا ان الحركات المتزمتة تصبح ذات فائدة
ضخمة ان أمكن تسخيرها لخدمة اهداف ما في بلد آخر ، كاسقاط نظام حاكم
ما ، لو الضغط على سياسة زعيم آخر . ومن السهولة بمكان اقناع « المتعصبين »
بفساد النظام السائد في بلدهم وغرس الكراهية له في نفوسهم ، مهما كان
شكله ونوعه . فالجماهير المحرومة واليائسة لا تنظر الى الامور كما يجب أن
ينظر لها . وفي هذه الحالة فان نظام الحكم يشكل هدفا مناسبيا في حد
ذاته . وكان ناصر يسلك هذا المسلك فيكشف عن تقصير أنظمة الحكم المتمردة
عليه ، ويفضح أخطاءها حتى يجعل في اسقاطها وزوالها . ولم تكن هناك ضرورة
لاقتراح وسائل معينة للمعالجة ، وانما كان يكفي باطلاق شعارات عامة مثل
« القضاء على الاستعمار » الذي لا يشكل اغراءا للمتعصبين فحسب ، بل انه
منيع لا يناله نقد ولا يطاله تحليل .

وأخيرا نصل الى جوهر التكتيك الناصري في محاربة المتمردين على
مؤسسة « ناصر » . ان « المتعصبين » لا يحتاجون البتة الى توجيه محدد وأسلوب
منظم ، وانما يكتفون بأن تنير لهم الضوء الاخضر ، حتى ينطلقوا في تنفيذ مهمتهم
وانجازها . لقد اعتاد الامريكيون والبريطانيون - والى حد ما السوفييت
أنفسهم - على اتقان الخطط المفصلة والتفنن في أسلوب تنفيذها عندما ينوون
الاطاحة بأي نظام حكم . فان كان هدفهم القيام بانقلاب عسكري ، فان سلسلة
العمليات التي تؤدي اليه يجب أن تكون دقيقة التنظيم واضحة المعالم وكأنها
عمليات عسكرية محضه . (وعلى سبيل المثال ، فان العملية التي نفذت ضد
« مصدق » في ايران ، كانت تتطلب من ساعتين الى ثلاث ساعات من الحصر
المدروسة لشرحها مع الاستعانة بالخرائط ، وتفاصيل مراكز القوة ، وطرق
تحويل وتنظيم هذه القوى ، وغير ذلك) واما في حالة استخدام الحركات

المتعصبة بالطريقة التي استخدمها ناصر بها ، فإن كل ما يجب فعله هو تهيئة المسرح عالميا ، ثم اصدار الاوامر لاذاعة القاهرة بالهجوم على الهدف المحدد ، ومن ثم اعتماد أكثر الحركات المتعصبة تحمسا للهجوم ، بعد تزويدها ببعض الاسلحة والاحتياجات الأخرى ، ثم تركهم وشأنهم لانجاز المهمة وإتمامها . والدافع الوحيد لاهتمام الانسان بمثل هذه المخططات ، هو لمعرفة نصيبها من النجاح ، والوقوف على الطريقة التي لا يمكن لجماعة المتعصبين بدونها المحافظة على أي نصر يحرزونه في أي من الأقاليم الخارجة على السياسة الناصرية .

ولا مانع من أن نستعرض هنا ملخصا للإجراءات النموذجية التي يتبعها ناصر في محاولته للإطاحة بأنظمة الحكم المتمردة عليه :

أولا : تبدأ اذاعة القاهرة بالهجوم على نظام الحكم لاصقة به الاتهامات الكافية لاثارة بعض الجماعات المتعصبة ، متجنبين توجيه الاتهامات التي لربما تكون موضع إخراج لناصر في حالة نجاح الضربة .

ثانيا : محاولة دراسة ردود الفعل لحملة الدعاية السابقة عسى أن يتعرف ناصر من خلالها إلى « المتعصبين » أو إلى الحركات المتمزمة التي يمكنه الاعتماد عليها حال بدء العمل .

ثالثا : محاولة الاتصال بالمتعصبين ، وغالبا ما يكون هناك عدة فئات تتنافس مع بعضها البعض . ثم يتم تزويدهم بالسلاح ، ويحدد ناصر بالضبط ما يمكنه الحصول عليه من مخططاتهم .

رابعا : محاولة التعرف إلى بعض العناصر الملائمة و « بدء » التعصب ، والتي يمكنها أن تتسلم القيادة في اللحظة المناسبة (أما قبل « طاحة بالحكم أو بعده) لتستفيد من المكاسب والمنجزات . ثم يحاول ناصر ، عقد اتفاقات معهم ، تضمن له انضمام ذلك البلد إلى « جمعيته » (١) ، إلى جانب جملة أهداف أخرى . كما يقدم ناصر بتأمين الاعتراف بنظام الحكم الجديد فور نجاح الانقلاب مع استمرار تأييد اذاعة القاهرة له .

إلا أن هذا المخطط لا يخلو من وجود خطاين خطيرين فيه . أولهما : أن

القيام بسلسلة عمليات كالسابقة الذكر ، سلاح ذو حدين • فمن السهل أن تبدأها ولكنه من الصعب أن توقفها • وثانيهما : أن وجود عناصر غير متمسبة في مثل تلك العمليات - وهم غالبا ما يتجلون بسلوك انتهازي ، كناسر نفسه - سيشكل حجر عثرة في سبيل ضمان اتمام الصفقات المتفق عليها معهم • ومن أبرز الامثلة على الخطأ الاول هو النزاع السابق الذي وقع بين ناصر والملك حسين في الاردن • فعندما قرر الملك حسين الانصياع لناصر . وقال له بالفعل « انني قد وافقت على ما تريد » ، لم يكن عندئذ لدى الاخير أية طريقة لاعادة الامور الى نصابها وكبح جماح فئاته المتمسبة • ويعطي الانقلاب العسكري في العراق سنة ١٩٥٨ مثالا واضحا على الخطأ الثاني • فرعاء الانقلاب ما كانوا ليقوموا به لولا التشجيع المصري ووعد ناصر لهم بمنحهم بركاته ، وبركات كل الاطراف الملتزمة معه في « جمعيته » • لكن قادة الانقلاب ، سرعان ما استقلوا برأيهم عن ناصر ، وسلكوا طريقا آخر ، قادهم أخيرا الى تشكيل جبهة معارضة له ، لا تقل عداوة ومشاكسة عن جبهة نوري السعيد السابقة •

ان الحرب التي يشنها ناصر ضد المتمردين على مخططاته ، قد آلت الى نتائج جعلت حكام العرب لا يتجرأون على الارتباط بأية قوة كبرى ، شرقية أم غربية ، دون الاخذ بعين الاعتبار وجود « جمعيته » ، وحتى موافقته الشخصية على ذلك • ولقد خدمه هذا المخطط - وعلى الاقل - لمدة من الزمن • وان التصدع المتزايد « لجبهته المشتركة » ، وما أصابها من شروخ وانقسامات ، لم تكن نتيجة أخطاء جذرية في استراتيجيته (عندما وضعها خلف الابواب المغلقة) أكثر من كونها نتيجة التغيرات المستمرة للظروف العالمية •

ولقد لفت شخصيا أنظار أصدقائي المصريين ، وأنظار ناصر نفسه عندما كنت التقى معه ، الى أن تحالف الناصرية مع المتعصبين والغلاة في البلاد المجاورة ، يثير ردود فعل سيئة في العالم الغربي ، وبالتالي فإنه يحيل ميزات « جمعية » ناصر الى سيئات • وأدرك الجميع وجهة نظري هذه واعترفوا بصحتها ، ولكنهم احتجوا بأن لا طاقة لهم بالمخططات الامريكية المعاكسة لفرط قوتها ووفرة مآلها • ولهذا فليس أمامهم الا طريق اللجوء الى ما تبقى لديهم من وسائل ، مهما كان نوعها ولونها • وهم بهذا يطبقون الاستراتيجية القائلة : ان أامة الضعيفة لا

يمكنها أن تلعب دورها ضد القوى الكبرى - وعلى الأقل حول طاولة « لعبة الأمم » - دون استخدام العنف ، الذي يسد العجز في نواح عديدة من ميزان القوى .

ولادراك هذه الحجة يجب أن نملك فكرة واضحة عن « استراتيجية المخططات المعاكسة » التي يظن الزعماء الناصريون أننا نتبعها في تحركاتنا ضدهم . فلقد بقيت هذه الاستراتيجية لفزا محيرا لهم ، وذلك لاننا كنا نتظاهر باتباعها في نفس الوقت الذي كنا نستغل فكرة « جمعية » ناصر نفسه ، وما لها من نفوذ واسع في المنطقة بغية ائصال مخططاتنا الهامة الى درجة النجاح - الذي ما كان لنا أن ندركه دون اتخاذ نفوذ ناصر الواسع مطية لنا - وعلى سبيل المثال ، فقد كان مشروع اريك جونستون لنهر الاردن واحدا منها ، وذلك لانه لم يكن ممكنا تنفيذه دون موافقة ناصر وضغطه على بقية زعماء العرب للقبول به . ومثال آخر على ذلك ، هو محاولتنا المتكررة لجبر ناصر الى قيادة العرب بغية السيطرة عليهم ، وبالتالي اقتناعهم بتخفيف حدة التوتر بين العرب واسرائيل . ولقد قامت الحكومة الامريكية بأكثر من محاولة لدعم هذه الفكرة ووضعها حيز التنفيذ . كما ألفت بنقلها وراء « جمعية » ناصر بغية تحقيق ذاك المار ، واخراجه الى حيز الوجود (١) .

وكان التناقض واضحا وجليا في كل أفعالنا وقراراتنا . فقد كنا نسدد باقي حسابنا مع ناصر بشكل محاولات تهدف الى تقويض نفوذه ، أكثر مما تهدف الى تقويته . وكنا نفعل هذا جهرا بافتضاح . وأول ما نذكر في هذا المجال « حلف بغداد » نفسه . فقد قال عنه باتريك سيل (في كتابه الصراع على سوريا) أنه « كان ذا تأثير بالغ على السياسة العربية في كل المستويات » . كما قال ب . ج . فاتيكويتس ان حلف بغداد كان صدمة عنيفة على سوريا . ولم تكن هذه سوى عبارات مخففة لتصوير الموقف بشكل أقل مما كان عليه حقيقة . لقد هن حلف بغداد العالم العربي الى حد تمذر علينا معه - وذلك لفترة من الزمن - الاحتفاظ بمواقع الغرب في الشرق الاوسط ، مستنفدين كل ما تحت تصرفنا من مساعدات

(١) لا اظن القارئ العربي قد وصل حدا من الفناء والشقاء يحتاج معه الى شرح لهذه المبارات الموجزة .

اقتصادية • وقد أدرك هذه الحقيقة كل من كان له علاقة مباشرة مع العالم العربي من الرسميين الأمريكيين والبريطانيين • غير أنني في ذلك الوقت لم أكن أملك الشجاعة الكافية لادخل قاعة تلك الاجتماعات التي كانت تعقد في مقر الوزير دالس ، وأعلن هذه الحقيقة المؤلمة ، كما أعلنها باتريك سيل وفاتيكيوتس •

وفي نيسان (أبريل) ١٩٥٤ ، وقعت كل من الباكستان وتركيا معاهدة صداقة ودفاع مشترك • وبعبارة أدق ، لم تكن تلك المعاهدة تعني قيام حلف عسكري بينهما • وقد وقعت تركيا والباكستان تلك المعاهدة بدافع ذاتي ، ودون أي ضغط خارجي من الولايات المتحدة أو من بريطانيا • ولكن رجال الامن العام التابعين لناصر ، قاموا بتصوير جميع صفحات جوازات سفر كبار المسؤولين الأمريكيين والبريطانيين لدى عبورهم نقاط الامن العام في مطار القاهرة • وكان من السهل بعدها أن تقوم القاهرة بنشر معلومات تدعي فيها أنه قد مر في مطار القاهرة - وقبيل توقيع المعاهدة - ما لا يقل عن ثلاثة من الرسميين الأمريكيين ، الذين لهم علاقة بالمعاهدة ، وعلى جوازات سفرهم تأشيرات دخول وخروج تركية وباكستانية • وفي نفس الشهر ، وافقت الولايات المتحدة رسمياً على منح العراق مساعدات عسكرية في ظروف أثارت الشكوك في نفس ناصر ، وظن أن حكومة نوري قد قامت بتقديم تنازلات سرية ، مع أن العراق لم يكن قد أعلن ليومها عن أية ارتباطات رسمية شبيهة بتلك التي طلبها من ناصر كل من جيرهارت وايفلاند سابقا • ولكن بعد تسعة أشهر ، وفي كانون الثاني (يناير) ١٩٥٥ ، أعلن كل من العراق وتركيا ، في بيان مشترك ، أنهما على وشك توقيع حلف بينهما • وقد حدث هذا حقيقة في الشهر التالي من العام نفسه ، ولحقت بهما بريطانيا ووقعت على الحلف بعد ثلاثة أشهر •

ومع أن مقري كان يومها في القاهرة ، الا أنني كنت أتسرد الى سوريا والولايات المتحدة ، حيث كان يسمح لي وقتي بزيارة معظم زملائي القدامى في واشنطن • وفي إحدى زياراتي للقاهرة مع البرت جيرهارت في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٤ ، نقل الي بيل ايفلاند صورة محتملة عن تسلسل الوقائع ، وأشار بوضوح الى أن ناصر سوف يجد نفسه وحيدا ومتخلفا عن الركب • ولكن لم يكن بيننا من صدقه في حينه • وأهمـل كل من السفير كافري وجيمس

ايخلبرغر حديثه ولم يميرا تنبؤاته أي اهتمام أو انتباه . وفي اليوم الذي اعلن فيه الاتراك والمراقبون توقيع الاتفاق بينهما ، لم يعلم ايخلبرغر به الا عن طريق نشرة الاخبار الداخلية التي تصدر داخل السفارة . فلم يرد أي ذكر للاتفاق في سياق البرقيات الرسمية ، التي ترسلها وزارة الخارجية في واشنطن الى القاهرة . واقترح يومها ايخلبرغر أن اذهب واياه لزيارة ناصر في منزله لنطلعه على النبأ . وفعلنا ذلك حالا . وبعد أن نقلنا له الخبر ، جلس ناصر لدقائق معدودات في صمت مطيق ودون أن ينبس ببنت شفة . ثم ما لبث أن خاطبنا بصوت منخفض ، ولكنه منذر بالشؤم ، مذكرا ايانا أنه - بغض النظر عن حديثه مع ايفلاندر وجيرهارت - لم يفهم من جميع الامريكيين الذين لهم علاقات معه، ومهم السفير كافري ، سوى أن الحكومة الامريكية ستعطيه الفرصة الكافية لانشاء منظمة دفاع اقليمية عربية بدون أن يكون لها أية علاقة مكشوفة مع الغرب . وسيتم بناء هذه المنظمة الدفاعية بصورة تسمح لها أن تجد مكانها المناسب ضمن مجموعة الخطط الغربية حال ظهور أي خطر يهدد الجميع . وكاد حسن التهامي - وكان حاضرا - أن يفقد أعصابه عند سماعه النبأ ، الا أن ناصرا خفف عنه ، وهدأ من روعه . وعندما غادرت وايخلبرغر المنزل كان الاثنان غارقان في صمت تام ، والدنيا من حولهما تنظر وتترقب .

وبعد قرابة يوم ، غادرت القاهرة الى دمشق لقضاء بعض الاعمال التي لا علاقة لها بما سبق ذكره . وفي دمشق صحبني صديقي مجد الدين الجابري (وكان يشغل يومها منصب وزير الاشغال العامة) معه الى عند وزير الخارجية فيضي الاتاسي الذي ألقى علي محاضرة مليئة بشكوك الاطفال وأوهامهم . ولو أنني لمعدت ما سمعت منه على المسؤولين في واشنطن ، لشكوا بصحة عقله واتهموه بالجنون (ولم يكن هو كذلك) . الا أن الحديث قد وضع لي الفكرة التي رسمها العرب في مخيلتهم عن الامريكيين . وكانت محاضرته تحتوي على عبارات مثل : « الاستعمار .. يحاول أن يبقى العرب ضمءاء .. انكم لستم سعداء الا عندما تصبح عبيدا لكم .. انكم تتمنون أن تبقى متخلفين وخياليين .. وكالة المخابرات المركزية .. فاضل الجمالي عميل لها .. ولي العهد (الامير عبد الاله) يأمل أن يصبح ملكا على سوريا .. » الى غير ذلك من الصهارات المائلة لما سبق ذكره . وفي اليوم التالي ، أمضيت ست ساعات وأنا

أشق طريقي خلال التلوج المتراكمة على جبل لبنان ، وخلال مراكز المراقبة التابعة للجمارك والامن العام على حدود البلدين ، حتى أصل الى بيروت . وفي المساء التقيت بعدد من اللبنانيين المؤيدين لناصر والذين ألقوا علي محاضرة لا تختلف عن تلك التي أصفيت لها في دمشق . ومع أنني التقيت أيضا بعدد من اللبنانيين المناوئين لناصر ، الا ان حديثهم لم يكن يختلف كثيرا عن الحديث السابق في معانيه ، سوى أنه كان أخف حدة وألطف منطقا . وعندما قصدت في نفس اليوم مبنى السفارة الامريكية في بيروت التقيت صدفة بأحد معارفي القدامى (وكان قادمًا من واشنطن في زيارة لبيروت) . ولكنه سرعان ما تابط ذراعسي والتفت الي قائلا : « وأخيرا فلقد عثرنا عليكم يا عشاق ناصر ، اليس كذلك؟! » .

وعندما عدت الى القاهرة ، كانت الاستعدادات تجري على قدم وساق ، تحضيراً لمؤتمر وزراء الخارجية العرب . ولم يكن أصدقائي المصريون ، من الذين لهم علاقة بالمؤتمر ، ليتحدثوا الي الا عندما يودون توجيه انتقادات لاذعة للوزير دالس . وعندما وصل الوزراء العرب الى القاهرة قمت بالاجتماع بأكثرهم . فقد كنت أعرف نصفهم تقريبا . ولقد أعربوا لي عن وجهات نظر متفاوتة كانت كلها تلتقي حول حقيقة واحدة ، وهي ان خلافا جديدا قد نشأ بينهم لكنه من نوع أشد وأقوى من تلك الخلافات السابقة التي اعنادوا عليها . ونتيجة لذلك ، فقد أخفت كل من بغداد والقاهرة في استقطاب الدول العربية الاخرى حولهما، وحلت سياسة المحاور محل سياسة الاتفاق والتفاهم ، وأضحى الصف العربي متصدعا الى حد استفاد منه السوفييت أكثر مما استفاد منه الغرب بكثير .

وفي تلك الاثناء ، وصل السفير بايرود ليتسلم مهام منصبه كسفير للولايات المتحدة في القاهرة . وقام بايرود بعدما يتناول طعام العشاء في منزلي بصحبة كل من ناصر وعبد الحكيم عامر وحسن التهامي (وقد أتيت على ذكر ذلك سابقا) . وقد أطلعت واينخلبرغر ، بايرود على وجهتي نظرنا السلبيتين حول حلف بغداد . ونظرا لبعده عن تأثيرات أجواء واشنطن الرسمية عليه ، فقد نجحنا في استمالته اليانا ، وضمه الى صفنا . وساعد تعاطف بايرود مع وجهتي نظرنا اتخاذ موقف أقل ما يوصف به أنه ملطف لردود فعل ناصر تجاه حلف بغداد . وحاول بايرود أن يطمئن ناصر حول نتائج الحلف ، مؤكدا له ان الأمور

لن تتطور الى أسوأ ، وأن مساندة بريطانيا والولايات المتحدة للحلف لن تبلغ درجة هامة وخطيرة .

وفي آذار (مارس) ، علمنا أن بريطانيا على وشك التوقيع على معاهدة حلف بغداد ، وأن هناك ضغطا على الحكومة الامريكية حتى تحذو حذوها . وفي تلك الاثناء ، كان الموقف قد اتضح تماما لبايرود ، وصار يراه كما كنا نراه . وعندها اقترح علي بايرود أن أنتحل بعض الاعذار - كقضاء بعض الاعمال - للسفر الى الولايات المتحدة ، واحاول هناك أن اتصل ببعض الاصدقاء المسؤولين في وزارة الخارجية ووكالة المخابرات المركزية وأبلغهم شفويا ما كان يعنيه كل من بايرود وأيخلبرغر فيما أرسلاه من برقيات ومذكرات وكانا فيها متحفظين جدا (حتى لا يبدو بايرود وكأنه قد غير مواقفه فجأة بين عشية وضحاها مما يسيء الى مكانته ، ويظهره بمظهر الفبي الاحمق) . وقد دأب بايرود على ارسال مثل تلك البرقيات والمذكرات منذ اليوم الاول لوصوله الى القاهرة ، دون أن يأتي صراحة على ذكر آرائه الجديدة حول أحداث المنطقة . وذلك لان الانسان ان وجد ضرورة لتغيير مواقفه وآرائه التي كان يتمسك بها يوما ما بقوة ، وجب عليه أن يفعل ذلك بهدوء وتدرج لئلا يثير أزمة ثقة واطمئنان .

وعندما وصلت الى واشنطن ، قمت بزيارة لكيرميت روزفلت في مقره في وكالة المخابرات المركزية ، وبسطة له وجهة نظري بخصوص حلف بغداد (وكانت شبيهة بآراء كل من الكاتبين باتريك سيل وفاتيكيوتس) . ومع أن كيرميت روزفلت لم يظهر استحسانا كليا لوجهة نظري ، الا أنني أفلحت في أن أضفي - على الأقل - شيئا من الصبغة الواقعية (كما هي حقيقة في الشرق الاوسط) على النظريات التي كانت سائدة آنئذ في واشنطن ، وأخذ روزفلت كلامي هذا بعين الاعتبار ، مما منحني شجاعة وجراة لان أنتقل الى شرح أكثر صراحة وأوسع شمولاً . وسرعان ما أدار قرص الهاتف ليتخذ الترتيبات التي تسمح لي أن أمثل لدقائق معدودات أمام أحد الاجتماعات الرسمية ، التي كان مقررا لها أن تعقد بعد ظهر ذاك اليوم في مكتب وزير الخارجية دالاس ، ويحضرها مما خبراء وكالة المخابرات المركزية ووزارة الخارجية . ولا أزال أذكر جيدا ذلك الاجتماع الذي أقنعتني يومها أنه مهما أوتيت أولئك المؤرخون (مثل باتريك سيل

وفاتيكويوتس) شجاعة وجراة لعرض افكارهم وآرائهم ، بنفس قوة الاقتناع
الملموسة في مؤلفاتهم (وهي تدور حول سوء ردود الفعل ضد الامريكيين نتيجة
توقيع حلف بغداد) أمام المجتمعين يومها ، لما أفلحوا في زحزحتهم عن مواقفهم
المتعنتة ، تجاه سياستنا في الشرق الاوسط ، ولا قيد أنملة .

كان يحضر ذلك الاجتماع الوزير دالس ، والى جانبه كل من بيل روفتري
(الذي حل محل يايروود في منصب مساعد الوزير لشؤون الشرق الاوسط)
وكيرميت روزفلت من وكالة المخابرات المركزية ، بالإضافة الى أربعة أو خمسة من
المخبراء الخبراء من الشباب الذين استظهروا معلومات واسعة حول البلدان
المتعددة في الشرق الاوسط . وكانت تلك المعلومات تشمل كل شيء حول الموارد
الطبيعية وغيرها من الحقائق والاحصائيات الاستراتيجية الهامة . ولست متأكدا
من حضور بيل ايفلاند لذلك الاجتماع ، الا أن ممثلا عن وزارة الدفاع كان
بالتأكيد في طليعة المشتركين فيه . وضم ذلك الاجتماع فعلا كبار مخططي
الاستراتيجية الامريكية في الشرق الاوسط ، وكان في متناول يدهم كامل
المعلومات المتوفرة في كل الاجهزة والدوائر في واشنطن ولندن حول استراتيجية
السوفييت ، وقوتهم العسكرية ، وحالة التسليح النووي آنئذ ، والتغيرات في
معدلات انتاج النفط حتى عام ١٩٧٠ ، وحالة التطور الصناعي في أوروبا ،
وتقارير مختلفة عن نشاطات حلف الاطلسي ، وما لا حصر له من التقارير
والمعلومات المصنفة والواردة من كل حذب وصوب . ولم أجد صعوبة في اجتذاب
انتباه الحاضرين في الاجتماع ، فقد كانوا كرماء في ذلك ، كما حصل بسرعة
وعن طيب خاطر . الا أنني لا أدري ماذا انتابني وأنا مائل امامهم . فلم أوفق في
أن أنقل اليهم سردا كاملا لتفاصيل سياسة البعثيين ، وللرفض الذي يحمله
العرب لسياسة نوري السعيد وفكرة الهلال الخصيب . كما لم أوفق الى شرح
أمور عديدة ، شبه رسمية ، تعتبر مخالفتنا لها في المنطقة ظلما وقسوة ، ولكن
الانسان لا يقيم لها وزنا عندما ينظر اليها وهو قابع خلف الجدران في واشنطن .
وقد يشعر أنها لا تساوي ولا حتى ذاك التشويش الذي يثار بسببها . فالمسؤولون
في واشنطن لا ينظرون الى الشؤون العالمية الا من خلال منظار القنابل الذرية ،
والحرب الباردة بين الشرق والغرب ، وحلف وارسو ، ومعاهدة دفاع حلف
الاطلسي . وكان جل تفكيرهم بالشرق الاوسط لا يتعدى حدود مشاكله

الاقتصادية وموارده الطبيعية • وأما مشكلة اسرائيل فانها كانت تتطلب
اهتماما زائدا وذلك لاسباب سياسية داخلية ذات أهمية لا تتناسب اطلاقا مع
أهمية اسرائيل الاستراتيجية •

ولقد دأب أولئك الرسميون على النظر الى غيرهم من خلال المنظار السالف
الذكر • فمثلا : ما هي سوريا ؟ انها لا تعني بالنسبة اليهم سوى انها بلاد لا
يتجاوز سكانها ستة ملايين نسمة ، فهي بهذا لا تتجاوز ربع سكان مدينة نيويورك
« الكبرى » • ولقد حدث مرة أنني قابلت قنصل أحد البلدان الصغيرة وهو
« راوندا اوراندي » وانهزت الفرصة لاستمع منه الى شرح حول الخلاف
الموجود عندهم بين الترفزة والهيلاج العصبي من جهة وبين طقوس الصحرة
وعاداتهم المقدسة (في افريقيا) من جهة أخرى • وكان ذلك القنصل يظن نتيجة
لذلك أن الحرب العالمية الثالثة ستبدأ من هناك ، ومن « راوندا اوراندي »
بالذات • وهنا أدركت مدى السخافة والسذاجة التي يتصف بها أولئك
المسؤولون الذين لا يفكرون في الشؤون العالمية الا من زاوية التعصب لاقاليهم
والتمسك بها (وذلك على حد تعبير الجنرال بديل سميث) •

لم يكن عرضي لوجهة نظري موفقا كما كنت أتمنى واشتهي • وعند
انصرافي من الاجتماع ، التفت الي « كيرميت روزفلت » وقال معلقا : انه قد وجد
متعة في اصغائه الي وأنا أزار ولكن كهر صغير لا حول له ولا قوة • وعندما عدت
أدراجي الى القاهرة كان شعور أيلبرغر وبايرود أنني قد خذلتها وتخلت
عنهما • ولكن ما العمل ازاء أحداث كهذه ؟ فجوهر الأمر يكمن في الخلاف
الشاسع بين تصور المسؤولين لابعاد الموضوع وهم وراء مكاتبهم في واشنطن ،
وبين تصور أولئك الذين يعيشونه في وسط الميدان ، وتحت أشعة شمس
الحرقة • وباستثناء بعض التلميحات والارشادات ، فان كلا التصورين يبقيان
في عالمين منفصلين تمام الانعزال عن بعضهما بعضا • ودونما أي اتصال أو تبادل
للآراء والافكار •

ومهما كان ، فلقد وافقت واشنطن على أن تبقى خارج حلف بغداد • الا أن
ذلك لم يكن أهون الشرين وأخف الضررين • ففي الوقت الذي بقي الحلف
ضعيفا دوننا ، أخذت الاطراف المشتركة فيه تشن علينا حملة قاسية ، ناعته

أيانا بالتخلي عنهم ويتركهم في المراء . وعرف المصريون وغيرهم أن الحلف كان من بنات أفكار الوزير دالس ، وكان هذا مطعنا جديدا بسلوكنا . وعلى أية حال فقد كان حلف بغداد أمضى سلاح أعطيناه لناصر ضدنا ، وبنفس الطريقة تمام التي أعطانا بها السوفييت ، عام ١٩٦٨ ، سلاحا جديدا ضدهم عندما قاموا بغزو تشيكوسلوفاكيا . ومع أن ناصرا كان يتمنى أن تسنح له الفرصة لتوجيه شكر رسمي لنا على موقفنا ذلك ، فإنه لم يتردد بترك انطباع كهذا عند السفير بايرون خلال لقاءاتهما المتكررة .

كان حلف بغداد بمثابة منطلق جديد لناصر يشن منه حملاته ضد أولئك « الخارجين » عن سياسته . وزاد هذا المنطلق قوة ومتانة ، عندما شاركت بريطانيا (وهي أحد الاطراف الموقعة على حلف بغداد) كلا من فرنسا واسرائيل في الهجوم على قناة السويس في تشرين الاول (أكتوبر) ١٩٥٦ . وكان أمرا حيويا وضروريا لناصر أن يشن تلك الحملات ضد الحلف وموقعيه . فقد أثبت توقيع الحلف (بغض النظر عن عداء الجماهير العربية له ، وعن مدى الاحراج الذي سببه للزعماء المراقبين في علاقاتهم العامة) ، على أن هناك وسائل عديدة قد تمكنت إحدى الدول التي تعتبر من الاركان الاساسية في « جمعية » ناصر من اتباعها ، ومن انتهاج سياسة مستقلة عنه تماما . وأما الوسيلة الثانية التي شجعت البعض الآخر على انتهاج سياسة « الخروج » والاستقلال عن ناصر فهي « مبدأ ايزنهاور » .

جاء اعلان « مبدأ ايزنهاور » كنتيجة من نتائج فشل العدوان الثلاثي (البريطاني الفرنسي الاسرائيلي) على قناة السويس في عام ١٩٥٦ . الا أنه قد زود ناصرا بمجموعة رهيبة من الاحتمالات والاحطار ، التي لها علاقة « بلدبة الامم » . وكان أول ما لاح في الافق احتمالية دخول الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي في منافسة شديدة لكسب ود ناصر واستمالته . فقد أبرق سفير ناصر في واشنطن مطلعا اياه على آخر رأي لنا في المنطقة ، وأنا قد أدركنا أن خروج البريطانيين من المنطقة بعد هزيمة السويس سيترك فراغا فيها ، وأن كبار مصطلحي السياسة الأمريكية أخذوا يسهرون الليالي الطوال علّهم يجدوا ما يرضيهم ويزيل عنهم القلق . وكلمة « الفراغ » هذه كلمة كريهة لناصر . فهي لا

تعني عنده سوى ضرورة وجود احدى الدول الكبرى على مسرح الاحداث في المنطقة ، وان خروج احدها يحتم بالضرورة حلول أخرى محلها . ولقد اشارت امتماضه حقا تلك المساعي الحميدة التي بذلتها واشنطن للانفراج عن الارصدة المصرية المجددة انتظارا لنتائج المفاوضات حول تسوية مطالب شركة قناة السويس العالمية . الا أن ناصرا أدرك نهائيا ، وبوضوح تام ، أن ابعاد تصورنا لفكرة « ملء الفراغ » في المنطقة ليست أكثر من مجرد كسب لصدقاته ومودته ، كما أنها تعني ، بالوقت ذاته ، منحه مطلق التسهيلات في سبيل انشاء « تجمع » دول الحياد الايجابي . الا أن الشكوك قد خامرت ناصرا عندما تلقى ردا أمريكيا فاترا على طلب كان قد تقدم به للأمريكيين والسوفييت يطلب فيه منهم بالحاح قمحا وعقاقير . في حين كان الرد السوفييتي سريعا ، ولبي الروس طلبه بالحال .

ولناصر العذر كله في تخوفه من النتائج وفي ترقبه للشروع . فقد تظاهر « الخوارج »^(١) بتأييدهم ، وتكاتفوا معه أثناء أزمة السويس . ولكن بقيت قلوبهم بعيدة عنه ، وفي نفوسهم تحفز وانتظار . أما وقد انتهت الازمة ، وانفجرت الكربة ، فقد أدرك ناصر أنها قد زلزلت أركان « الخوارج » ، وهزأت قواعدهم هزا ، وأنهم قلقون ، غير مرتاحين ، لانحسار نفوذ بريطانيا عن المنطقة ، وعليهم البحث عن بديل لها ليمد لهم يد العون ويمنحهم التأييد . وقد استرعى انتباهي مرة ، وأنا في حديث مع أحد كبار أعوان ناصر ، أن العلاقات بين السفراء المصريين ووزارات الخارجية في كل من بيروت وعمان وبغداد ، تمر بمرحلة فتور وبرود . فلم يكن استقبالهم هناك أكثر من مجرد رسميات متكلفة ، ولياقسة شكلية مفرطة ، مما أثار الهواجس والشكوك حيال ما يدور وراء الكواليس . وكان تلهف ناصر شديدا على سلاح آخر كسلاح حلف بغداد ، تقدمه له دون وعي منا ، ليستخدمه في شن الحملات على « الخوارج » ، فيزيدهم احراجا فوق احراج « حلف بغداد » لهم . وأحس ناصر بأن في نيتنا هذا ، وأننا على الدرب

(١) تعني كلمة الخوارج هنا أولئك الذين حادوا ناصرا في سياسته وانتهجوا لانفسهم نهجا مستقلا (مثل نوري السعيد والرئيس شمعون والملك حسين ...) ، وتستعملها هنا انفاقا ، ونسبته « خارجي » .

(العرب)

سمائرون • فقد أبرق له سفيره في واشنطن ، في الاول من كانون الثاني (يناير) ١٩٥٧ بأنباء مفادها : انه يعتقد أن الامريكيين منهمكون في وضع مخطط بغية الإطاحة بنظام حكم ناصر والتخلص منه •

وحدث ما أراد ناصر له أن يحدث • فقد كنت في تلك الاثناء ملحقا بلجنة كلفت بمهمة الاشراف على كل ما يمت الى سياستنا تجاه ناصر بصفة • وعندما حضرت لمكتبي في أحد الايام ، أصبت بدهشة مذهلة عندما علمت أن رئيس الجمهورية قد قدم في الخامس من كانون الثاني (يناير) ١٩٥٧ اقتراحا الى الكونغرس الذي وافق عليه (في الجلسة المشتركة بين مجلس الشيوخ ومجلس النواب) حالا ، وأصبح نافذ المفعول ابتداء من شهر آذار (مارس) من نفس العام • وقد خول الكونغرس رئيس الجمهورية (وكان يومها ايزنهاور) حق ارسال القوات المسلحة الامريكية للدفاع عن أي من الحكومات الصديقة في الشرق الاوسط التي تواجه تهديدا مسلحا من قبل أية دولة أخرى تدور في فلك الشيوعية العالمية • وفي حال عدم وجود مثل هذا التهديد السافر بالسلاح ، فللرئيس الحق في تقديم المساعدات الاقتصادية والعسكرية التي تحتاج اليها تلك الحكومات بغية بناء جهاز دفاعها الذاتي • وقد عرف هذا «بمبدأ ايزنهاور» • وحتى يومي هذا ، لم اعثر على ذلك المسؤول الذي استتبط هذا « المبدأ » ، واخترع فكرته • الا انني متأكد تماما ان « المبدأ » نفسه كان مصدر مزيد من الاحراج والتوريط لاعداء ناصر ، دون أن يقدم لهم المساعدة الفعلية التي أضحوا في أمس الحاجة اليها للصمود في وجه ناصر وحملاته المتلاحقة القاسية ضدهم •

وعندما أجول بذاكرتي في أجواء « مبدأ ايزنهاور » ، فان الشك يخامرني في أن الوزير دالس نفسه ، أو مساعده بيل رونتري ، كان وراء اختراعه وصياغته • وكلي يقين ، بأنه لم يكن وراء مبدأ ايزنهاور أي من اولئك المسؤولين في لجنة تخطيط السياسة الامريكية في الشرق الاوسط (وهي لجنة مشتركة بين وزارة الخارجية ووزارة الدفاع ووكالة المخابرات المركزية) ، أو في لجنة شؤون الشرق الادنى وشمال افريقيا • ولا يستبعد اطلاقا أن تكون الفكرة وليدة أحد تلك اللقاءات السياسية غير الرسمية (التي يحضرها بعض الدعاة الاذكياء) ،

الا انها كانت بالتأكيد دون مشورة منا - نحن خبراء « الميدان » - أو رأي • وفي ضوء معلوماتنا وتصوراتنا عن العالم العربي ، لم تكن الفكرة لتعني أكثر من مجرد لغو وهذيان • ولا أزال أذكر جيدا ذلك الموقف السلبي الذي أجمع عليه الخبراء بشؤون الشرق الاوسط حيالها • فعندما سئل ممثل وكالة المتابرات المركزية (في لجنة التخطيط السياسية للشرق الاوسط) عن رغبة الوكالة في ارسال أي من مسؤوليها في مهمة رسمية لشرح مبدأ ايزنهاور للزعماء العرب ، اجاب قائلا : « اننا لا نحمل أن نشارك في كل ما يخطر لكم من افكار طائشة ومخططات حمقاء ! »

ومع أن ناصرا كان يترقب بلهفة اعلان « مبدأ ايزنهاور » ، إلا أنه لم يخف قلقه إزاء العبارات التي صاغ الرئيس ايزنهاور بها مبدا • فعبارة « الدول التي تدور في فلك الشيوعية الدولية » كانت تشير ، من قريب أو من بعيد ، الى مصر ، دون سواها • ومع هذا ، فقد كان سروره أعظم عندما جلس حول طاولة « لعبة الامم » (وهو طرف فيها) يراقب خصمه وهو يرتكب الاخطاء ، الواحد تلو الآخر • وقد أخبرني ناصر فيما بعد أن انتداب جيمس ب • ريتشاردز ، عضو الكونغرس ، لنقل الاخبار السارة الى كل من الرئيس شمعون والملك حسين وغيرهما ، كانت الناحية الوحيدة من مبدأ ايزنهاور التي استرت انتباهه واستحوذت على اهتمامه • فاختيار رسول لمهمة كهذه ، وهو لا يعرف من شؤون العرب أكثر مما يعرفه ناصر نفسه عن الغنون الشعبية وأغانيها ، قد أوقعت ناصرا في حيرة شديدة ، وساورته الشكوك في أن « مبدأ ايزنهاور » قد أخذ يسير في مسالك انتهازية بقية تطويق ناصر في داخل مصر بالذات • وأذكر أنه قد خاطبني مرة - بعدمضي مدة غير قليلة على اعلان مبدأ ايزنهاور - قائلا : « أن عقدة عبقريتكم - أيها الامريكيون - تكمن في عدم ارتكابكم الحماقات والاطفاء ببساطة ووضوح ، بل غالبا ما تجعلونها معقدة وغامضة الى الحد الذي يضطر معه الى التفتيش عن العديد من الاحتمالات التي لربما كانت تنطوي عليها • إلا أننا دائما نكتشف - ولو بعد حين - أنها لم تخرج عن كونها حماقات ، دون ذكاء فيها أو دهاء • »

ولقد بقي ناصر يعتبر « مبدأ ايزنهاور » أحد بنات افكار الوزير دالس ،

ولكن المبدأ بعد ذاته كان من أفتحس الأخطاء التي يرتكبها أحد كبار ديبلوماسيين
دولة عظمى .

وبعد ذلك ، بدأت لعبة الاوباح والخسائر .

بدأت الدعاية السوفيتية تشيخ أن الامريكيين كانوا طرفا في المؤامرة
الفرنسية - البريطانية - الاسرائيلية على قناة السويس ، ولكن بشكل « شركاء
أوصياء » . فدورهم تمثل في البقاء جانبا الى أن حان موعد تدخلهم على شكل
وسطاء خير ، ورسيل سلام ، جاؤوا نتيجة شطط من كان قبلهم وفشله . كما
ساعد خبراء الدعاية في إذاعة القاهرة الروس في مهمتهم هذه . فأخذوا ينشرون
الحيل والإشاعات ويلفقون لها الأدلة والبراهين مدعين الحصول عليها من مختلف
المصادر السرية في الشرق الاوسط . وكان جلها يدور حول المؤامرات التي
تدبرها الولايات المتحدة للإيقاع بين العرب ليسهل عليها بعد ذلك استعبادهم .
كما أنها تعمل على أعوانها في بعض الحكومات العربية لتنفيذ مثل هذا المخطط
وفي الدعوة اليه .

ولم تكن في البداية حملات ناصر ضد « الخوارج » أكثر من مجرد نقد
للافكار ، بنون تهجم على الأشخاص . وكان النقد يهدف الى ايجاد رأي عام ،
وتكوين محيط متعاطف معه ومتحمس له . وبهذا كان يأمل أن يقطع الطريق
على كل من تسول له نفسه الخروج عليه ، عاجلا أم آجلا . الا أن هذه الوسائل
لم تلق نجاحا كاملا ، وان كانت قد حققت شيئا من أهدافها مثل تلقين الشعوب
العربية الوسائل التي تكشف « الخوارج » ، وتظهر زيفهم (١) . كما تمكنت من
القاء الظلال واثارة الشكوك حول كل من نوري السعيد في العراق ، والرئيس

(١) ان القارىء العربي قد أدرك أخيرا أن مثل هذه الوسائل سلاح ذو حدين ، وانها لا تزال

صالحة للاستعمال في السبعينات .

(العرب)

شمعون في لبنان ، والملك حسين في الاردن ، وأظهرتهم على أنهم من «الخوارج» (وخاصة في حالة نوري وشمعون) حتى قبل أن يتحركوا فعلا ضد ناصر بزمان غير يسير . الا أن ناصرا شعر أخيرا أنه لا بد من القيام بخطوة أشد حسمه « الخوارج » ، وأن الوقت قد حان لتصعيد الحملات وتوجيهها ضد أهداف واضحة ومحددة .

وأعد ناصر لائحة بأسماء « الخوارج » ، احتل فيها نوري السعيد - رئيس وزراء العراق يومها - مركز الصدارة ، الا أن ناصرا قد أدرك أن الاطاحة بنظام نوري السعيد سيستغرق وقتا غير قصير . ورأى أن عزله عن بقية « الخوارج » يسهل تنفيذ المهمة ويدفع بها الى الامام حثيثا . ولهذا قرر ناصر أن يستبدل نوري السعيد بالملك حسين ، وغدا الأخير يحتل مركز الصدارة بعدما كان في المرتبة الثانية تسلسلا بعد الاول . وحدث هذا قبل اعلان « مبدأ ايزنهاور » . ومع أن الملك حسين لم يكن بأهمية نوري السعيد ، الا أنه كان فضلا عن مصدر ازعاج لناصر وقلق له ، لاكثر من سبب واحد . ولذا بدأت الحملة ضد حسين قاسية وسريعة ، ودون رحمة ولا هوادة . ففي كانون الثاني (يناير) ١٩٥٦ أوفدت الحكومة البريطانية السير جيرالد تيمبلر الى عمان في محاولة لاقتناع الملك حسين للانضمام الى « حلف بغداد » . الا أن صيغة واحدة من اذاعة القاهرة (مع تشجيع مباشر من أركان القيادة المصرية على أعمال العنف) كانت كافية لاثارة الشعب في أنحاء المملكة الاردنية ، واستقاط الوزارة القائمة يومها . وبعد أشهر ، قام الفدائيون الفلسطينيون ، المدربون على أيدي المصريين ، بشن الغارات على الاراضي الاسرائيلية من قواعد اردنية ، مما أوقع نظام الملك حسين في مأزق جديدة نتيجة العمليات العسكرية التي قامت بها اسرائيل انتقاما لغسارات الفدائيين . وعندما علم الملك حسين بأهداف ناصر ، بادى الى الاعلان عن عدم نيته الانضمام « لحلف بغداد » ، واتخذ موقفا فيه أكثر تعاونا مع ناصر . وأعلن بعد شهرين اقالة الجنرال جون باجوت غلوب - القائد البريطاني الذي كان يشغل منصب رئيس أركان حرب الجيش الاردني - واستبدله باللواء أوسي نوار (١) ذي الميول الناصرية . وفي حزيران (يونيو) أعلن الملك حل البرلمان .

(١) يشغل اللواء أبو نوار الآن منصب مستشار الملك للشؤون العسكرية في عمان (تدور ، يوليو -

وفي تشرين الاول (أكتوبر) جرت انتخابات واسفرت عن نجاح المرشحين
الموالين لناصر بصورة لم يسبق لها مثيل .

ولا يزال المسؤولون المصريون يصرون الى يومنا هذا على عدم قيامهم
بارسال أي من عناصرهم المختصة بأعمال العنف واثارة الشغب الى الاردن خلال
هذه الفترة . واذا صح هذا - وليس ذلك ببعيد - فان مالجة ناصر لهذا
« الخارجي » بالذات كانت من طراز ناجح . فلقد كان « المتعصبون » لناصر من
أشد العناصر الفلسطينية اللاجئة عنادا وتشبثا . في حين كان بعض ضباط
الجيش الاردني وبعض السياسيين والانتهازيين يشكلون مجموعة ناصرية « غير
متعصبة » . وقد اتبع ناصر طرقا عدة ، وغير مباشرة ، للوصول اليها والتقرب
منها . ومن هذه الطرق ما يلي : حضر اللواء أبو نوار بدافع ذاتي الى القاهرة
حتى يقف على حقيقة التأييد العالمي الذي باستطاعة ناصر تأمينه حال نجاح
الانقلاب الذي يزعم القيام به . وكان أبو نوار يأمل في الحصول على مساعدة
تختلف عن تلك المساعدة التي قدمتها دول حلف الاطلسي الى الثوار المجريين عام
١٩٥٦ ، بعدما دفعتهم الى الثورة وحرضتهم عليها . وكان يصر على نوع من
المساعدة أكثر جدية وأثقل وزنا (١) . وأوصت القاهرة أبا نوار أن يخبر
سليمان النابلسي الذي كان على رأس الوزارة الاردنية يومها (حزيران ، يونيو ،
١٩٥٦) أن اذاعة القاهرة ستبشر ابراز اخباره للعالم العربي لتجعل منه بطلا .
واكمل ناصر حلقة مناوراته عندما أفلح في اقناع الملك سعود (وكان بينه وبين
الملك الهاشميين سباق منذ القديم) بتقديم المساعدات المالية للعناصر المناوئة
للملك حسين (والمالية يومها لناصر) .

وتكلفت الخطة بالنجاح عندما أذعن الملك حسين للضغط الذي مارسه
عليه كل من اللاجئين الفلسطينيين ، والإسرائيليين (عن طريق العمليسات
المسكرية) ، ونظام الملك سعود ، واذاعة القاهرة . وغادر بعدها الملك عسان الى
القاهرة ليلتقي بناصر ، وبالمملك سعود ، وبصبري العسلي رئيس الوزراء السوري ،
بقصد التوصل الى اتفاقية دفاع مشتركة ، ولايجاد وضع يسهل الاستغناء عن
المساعدة المالية البريطانية - الامريكية ، وبالتالي يمكنه البقاء خارج حلف بغداد

(١) لربما كان أبو نوار يريد مساعدة كملك التي قدمت للبين بعد الثورة عام ١٩٦٢ ، (المغرب) .

بكل ارتياح وطبائنية • وهكذا تم انضمام الملك الى « جمعية » ناصر ، وعدا معا
في الصف حتى حين •

وبنفس الوقت ، كانت الحكومة السورية تبذل المستحيل لتفكيك
« جمعية » ناصر وافسادها ، ولكن بطريقة شيقة وجديدة • ففي الوقت الذي
كانت سوريا تساند ناصرا في كل مواقفه ضد الغرب ، وترفض الخروج عنه ،
كانت تحاول جاهدة أن تلعب دورا خاصا بها وبمعزل عنه في علاقاتها مع
الاتحاد السوفييتي • فناصر لا يريد أن يكسب تأييد السوريين له فقط في
مواقفه مع الغرب ، بل كان يريد تأييدهم له في كل المواقف ، وضد جميع
الاطراف • فترتيب ناصر لقوى « جمعياته » يتطلب وقوف العرب جبهة واحدة
في ميدان الصراع ضد كل الاطراف ، حتى تنجح لعبة « الوقوف على الحبلين »
في آن واحد •

وفي عام ١٩٥٤ قام كل من الحزب العربي الاشتراكي (أكرم الحوراني)
وحزب البعث العربي (ميشيل عفلق) (وكلاهما حزبان سياسيان ذوا عقائد
مقاربة) بالاندماج في حزب واحد تحت اسم « حزب البعث العربي الاشتراكي » •
ومع أن هذا الحزب ليس حزبا شيوعيا ، فان آراءه وأحقاده (ضد الغرب) جعلت
منه مرتعا خصبا لنمو الشيوعية في سوريا • وعندها برز حزب البعث في
انتخابات عام ١٩٥٤ حصل يومها الشيوعيون على مقعد في المجلس النيابي وفاز
به خالد بكداش ، زعيم الحزب الشيوعي السوري منذ منتصف الاربعينات
(وكان قد فر من البلاد اثر ملاحقة حسني الزعيم له) • ولم يحاول خالد
بكداش يوما أن يظهر حقيقة شعاراته ، بل حورها لتظهر منسجمة تماما مع
شعارات بقية الزعماء السياسيين السوريين من البعثيين وغيرهم ، وهذا ما جعله
يبدو « شعبيا » بل وأظهره بمظهر « الطاهر الشريف !! » (١) • ولقد أخبرني

(١) هذا رأي المؤلف الامريكي ، فامريسا في تمايش سلمي مع الاتحاد السوفييتي منذ زمن
خروشوف •
(العرب)

خالد بكداش مرة عن بعض تلك الشعارات فقال : « اننا كلنا في سورية ضد اهداف واحدة . فنحن ضد الامبريالية وضد الاتراك مفتصبي لواء الاسكندرون ، وضد الصهيونية (١) ، وضد الهاشميين (الملك فيصل الثاني في العراق والملك حسين في الاردن) » . الا أن أثر دفاع الشيوعيين عن سموهم العقائدي وميزاتهم لفكرية (كما أخبرني أحد الدبلوماسيين الامريكيين في سوريا) ، لا يعدو ذلك لاثر الذي تحدته المومسات وبنات الهوى عندما يتكلمن عن الفضيلة ويناضلن لاجلها .

وفي الفترة التي أعلن فيها « مبدأ ايزنهاور » كانت السياسة السورية تلعب هي الاخرى على حبلين في آن واحد . ففي الوقت الذي كانت سوريا تمنح ناصرا تأييدها التام في مواقفه ضد الغرب ، كانت نزعتها الاستقلالية عن خط القاهرة تتزايد فيما يختص بالعلاقات مع السوفييت . فقد باتت سوريا تعاكس مبدأ الطاعة الكاملة لناصر ، والالتزام التام « بجمعيته » . وخرج ناصر عن طوره وثارت ثائرتة عندما أعلن السوفييت رسميا ، في منتصف عام ١٩٥٥ ، تأييدهم المطلق لسوريا في حال تعرضها لاي اعتداء تقوم به الاطراف الموقعة على حلف بغداد . وعندما أعلن مولوتوف ، وزير الخارجية السوفييتية ، في آذار (مارس) ١٩٥٥ ، عن مساندة حكومته لمواقف سوريا ، واستعدادها لتقديم المساعدة للسوريين في أي شكل كان ، قامت اذاعة القاهرة والصحف المصرية بشن حملة على السوفييت لا تقل قسوة وشراسة عن تلك الحملات التي كانت تشنها على الدول المشتركة بحلف بغداد نفسه . وهكذا ، فقد غدت « لعبة الامم » في الشرق الاوسط عام ١٩٥٥ مزيجا غريبا من المثلثات : المصريون يزجون بالامريكيين وبالروس في منافسة حادة ، يحاول كل طرف فيها كسب ود ناصر وضمائم جانبه ، والامريكيون يثيرون ناصرا (ومن معه من العرب الناصريين والتقدميين) والمحافظين من العرب (ومعهم معارضي ناصر) ضد بعضهم البعض في آن واحد . كما كان الروس يحاولون اثارة السوريين ضد المصريين ، ويحاول السوريون اثارة المصريين ضد السوفييت . ولم تكن تلك المناورات لتخدم

(١) الا اذا ارادت موسكو غير هذا ، فاهداف الشيوعيين العرب لا تحمل عداء للاسرائيليين الهساريين .
(العرب)

الاطراف المشتركة فيها الا قليلا . الا أن المصريين كان لهم هدف بعيد بل واستراتيجي في اتباعهم لمثل تلك الاساليب وفي اذكاء نارها : فقد كانت تشكل احدى الوسائل الهامة التي تضمن لناصر الاستمرار في تنفيذ مخططاته وتكفل له جني الفوائد وكسب المدايح .

وشهد عام ١٩٥٦ توطدا زائدا في العلاقات السورية - الروسية الى الحد الذي بات معه رنق الصدى في الجبهة الموحدة تجاه السوفييت ، امرا غير بسيط . بل ان هذه المشكلة لم تسد أقل صعوبة عن المشكلة التي أثارها « الخوارج » أمثال نوري وحسين بسبب طريقة تعاملهم مع الغرب . وعندما عاد الملك حسين الى صف ناصر وانضوى تحت لوائه ، أصبحت مشكلة قوة العلاقات السورية - الروسية أكثر صعوبة وأتمس خطا . الا أن ناصر عزم على أن يجد للامر مخرجا . وفطن الى قواعده لعبة الامم » التي كان قد سنها لنفسه ، فوجد فيها اليأس الشافي . فقد لبأ الى التشاور مع أصدقائه الامريكيين واستنفرهم للتعاون معه بغية سد الثغرة التي ظهرت في « جبهته ضد الشرق » . وفي الوقت نفسه استحثت هبة الروس للتعاون معه في تقوية جبهته ضد الغرب ، والتي باتت مهلهلة ممزقة . وبالنسبة لنا - نحن الامريكيين - فقد كنا (حسب قواعدا في « لعبة الامم ») في موقف مساعد لتبادل الآراء مع ناصر بخصوص الوضع في سوريا . ولم يكن هذا ليؤثر على جهودنا المستمرة لاضعاف سيطرة ناصر ، والتخفيف من ضغطه ، على الدول العربية الاخرى . وما يذكر في هذا المقام ، ان ناصر لم يخاطر بمكاشفتنا باحتمالية القيام بعمل مشترك ضد سوريا ، وانما اكتفى بشرح الوضع كليا لنا مع تبيان جميع مساوئه ومخاطره . كما أظهر لنا الى أي مدى يقوم السوفييت باستغلال الوضع هناك لصالحهم . ولم يكن هدف ناصر من هذا كله سوى اقناعنا بالامتناع عن القيام بأية محاولة انقلاب عسكري في سوريا . فقد كان ناصر يشك بإمكانية نجاح أي انقلاب عسكري يومها في سوريا ، ورأى أن فشل أية محاولة كهذه سيزيد الحالة سوءا وسيضعها على شفير الهاوية . الا أن أصدقاء ناصر من الامريكيين أعطوه تأكيدات قاطعة أنهم لا يزعمون أبدا على التدخل بالشؤون السورية لانهم لم ينسوا بعد احتراق أصابعهم عندما فعلوا ذلك في أيام حسني الزعيم (١) . ونقل الامريكيون الى ناصر اخبارا

(١) يفضل الامريكيون أن لا يتدخلوا في الشؤون السورية ، الا عندما تتوفر فيها شروطهم المذكورة

(الحرب)

سابقا في نهاية الفصل الثاني من هذا الكتاب .

موثوقة (مصدرها أحد أفراد المخابرات السوفيتية) تفيد أن في نية الروس ، دفع حكومة موالية لهم الى السلطة أولا ، ثم قيام هذه الحكومة بافتعال الحوادث، وتصعيد الأزمة ، الى الحد الذي تجد هذه الحكومة - الموالية لهم - نفسها مضطرة الى استدعائهم بغية اعادة الهدوء وحفظ النظام . وتشبه هذه العملية ، الى حد كبير ، تلك التي اتمتها حكومة الولايات المتحدة في لبنان حقا قبل عدة سنوات .

ومع أن ناصرا قد صدق ما نقلناه له من أخبار حول نيات السونييت في سوريا ، فقد ظلت الشكوك تساوره حول نيائنا (بخصوص سوريا) . وكان سبب ذلك كثرة الوافدين من واشنطن الى المنطقة والعائدين منها . فقد قام لوي هندرسون (وكان يومها أحد نواب وزير الخارجية ، وكان قبلها سفيرنا في إيران أثناء أزمة الدكتور مصدق) بزيارة ملفنة للنظر الى أنقرة . وقد حضر هناك أحد اجتماعات حلف بغداد وقام بعدها بزيارة بيروت سرا حيث التقى ببعض أصدقائه من السوريين لقاءات عابرة ودون أية صبغة رسمية لها . وبعد ذلك التقى الوزير دالسييانا عبر فيه عن قلقه حيال الاوضاع في سوريا . كما حذر الرئيس ايزنهاور من اعتداءات تقوم بها سوريا - بعد أن أمست تحت التأثير الشيوعي - ضد جاراتها . الا أن تصريح الرئيس بدا سخيلا لدى مقارنته بحقيقة القوة العسكرية السورية المحدودة . وكان هذا ما دعا ناصرا لاعتبار التصريح نوعا من المقدمات لمخططات تطبخ وراء الكواليس . وجرى ، بنفس الوقت ، تحركات عسكرية على الحدود السورية التركية ، وارتد العراقيون والاردنيون الى سابق عهدهم ، فقاموا ببعض الاستعدادات العسكرية المكشوفة . وفي خضم كل هذه الاحداث المعقدة ، قام كيرميت روزفلت بصحبة ابن عمه آركي بزيارة الى بيروت ، ودعا عددا من كبار السوريين والعراقيين والاردنيين والسعوديين الى حفلة استقبال اثاره قلق عبد الحميد غالب ، السفير المصري في بيروت ، الذي أسرع فأبرق الى القاهرة قائلا : « . . . وبالتأكيد ، فإن الامريكيين يدبرون أمرا ما ، وهم يتصرفون علنا على غير عادتهم ، ودون أي اكتراث بالعيون الساهرة حولهم » . وعندما التقيت صندفة بالسفير غالب في بهو فندق سان جورج ، التفت الي سائلا بخبت ودهاء : « هل ستعرضون تذاكر للبيع جنمعا يعني موعد انقلابكم ؟! » .

لم يكن رد فعل ناصر الأولي ، تجاه هذا كله ، سوى مصنع اللامبالاة ، وعدم محاولة التشويش على الأمريكيين . فهو يدرك تماما أن أي فشل للمحاولات الأمريكية المزعومة ، لن يتمخض الا عن مضاعفات سيئة تجعل النوع الوحيد من العمليات ، التي لا يجيد القيام بسواها ، صعب التحضير مستحيل التنفيذ . وعلاوة على ذلك ، فإن فرصة السوفييت في التدخل ستكون أوفر حظا ، وسيجنون الارباح لوحدهم دون تطفل انستان أو تدخل شريك . فناصر يتصف بطريقة تفكير تميل الى قبول الامور على علاقتها ، ودون تحر لبواطنها . ومع أن لناصر في حاشيته ، كثيرا من دبلوماسيي ما وراء الكواليس الأمريكيين (أمثال كيرميت وآركي روزفلت) ممن يمكنهم تبديد مخاوفه منا وشكوكه حول نيائنا ، الا أنه أصر على الاستدلال - من المعلومات الركيكة التي تجمعت لديه - بأننا ماضون في تنفيذ عملية أمريكية خرقاء ، قد انفضح معظمها ولم تعد سرا مكتوما . كما أن سفيرنا في القاهرة ، ريموند هير ، الذي حل محل بايرود ، قد أكد لناصر أنه في الوقت الذي ينتاب الأمريكيين قلق شديد حول الاوضاع في سوريا ، فانه لا صحة أبدا للانباء القائلة انهم يدبرون أية مؤامرة ضد النظام فيها . ولقد أخبرت ناصرا شخصيا بنفس الشيء عندما قمت بزيارة الى القاهرة بناء على طلب من المدير الاقليمي لوكالة المخابرات المركزية في بيروت ، وذلك بقصد تخفيف حدة شكوك ناصر ، وتبديد الفموض المحيط بحقيقة موقفنا من الاحداث في سوريا . كما طلب مني الاخير أن ألفت نظر ناصر الى ضرورة توجيهه جل اهتمامه الى المؤامرات التي يحيكها الروس في سوريا بدل توجيهه الى المؤامرة الأمريكية المزعومة . ولم تذهب أخيرا جهودنا سدى . فقد بدا على ناصر أنه ارتاح لكلامنا واطمان لتأكيداتنا ، كما تبين أن الامور بدأت تسير كما نحب ونشتهي .

ولم يكن تشوقنا ، رسميا ، لرؤية سوريا مستقلة عن « جمعية » ناصر بقليل . وكان انطباعي يومها أن الفرصة قد سنحت لناصر ليدخل معنا في مساومة حول الوضع في سوريا ، بعدما انتابنا قلق شديد من اوضاع الروس هناك . وبالتأكيد ، فقد كنا نعتقد أن كل ما سيطرحه أمامنا على طاولة المساومات سيكون لصالح العالم العربي - على غرار تكتل دول الحياد الايجابي - الذي بدأت الاوضاع تتضح فيه وتتلور . فلقد أصبح نوري السعيد في موقف صعب ومكشوف كليا . كما كان الملك حسين يتظاهر بالالتحاق بركب ناصر دون أن

يشعر بالارتياح والاستقرار الذي تصور أن الانضمام « لجمعية » ناصر سوف يضمهما له . وأما الملك سعود ، فأنك لا تلمس خلافا في سلوكه بين فترات صداقته معنا وفترات صداقته مع ناصر نفسه . كما أن الاوضاع في لبنان لم تكن حسنة ، وبقيت مناصفة بين المسيحيين والمسلمين ، وأضحت على وشك الانفجار حال اختلال التوازن بين القوى فيه . ولقد شاركنا ناصر رأينا في أن الحالة في العالم العربي بلغت حدا يزنئ لها . كما أن مؤتمرات السوفييت هناك قد ازدادت بصورة لم يسبق لها مثيل ، وعزموا على ألا يخرجوا منها الا بصيد ثمين . وهكذا تعرضت فكرة التقارب بيننا وبين ناصر ، وبدا أن كلا الطرفين يتوقان للوصول الى اتفاق يزيل القلق ويفرّج الهموم ، ويضع « ما تساومنا عليه » موضع التنفيذ .

ولا أدري للآن من الذي نسف الجسور ، وزرع الألغام في الطريق . ولا أدري كذلك أن أحدا يدري من الذي نسف فرصة تنفيذ تلك الصفقة التي كانت بيننا وبين ناصر . الا أنني لا أستبعد أن يكون ذلك هو حادثة اللواء أبي نوار ذاتها ، والتي وقعت في الاردن . فلقد تصور أبو نوار ، رئيس أركان الجيش الاردني ، أن بوسعه تنفيذ مؤامرة انقلاب ضد الملك حسين ، وأنه واثق من نجاحه دون مساعدة أي انسان آخر له . ولقد أغرى المصريون أنفسهم أبا نوار بهذا ، الا أن مجيء سليمان النابلسي الى رئاسة الوزارة الاردنية قد أحال هذه الحركة الى خطوة غير ضرورية في مخططات ناصر . ومهما كان ، فقد أمر أبو نوار على القيام بانقلابه ، وحاول ذلك ، ولكن كانت النتيجة أنه قد نال الجائزة الاولى لتخطيطه أخرق واستخف انقلاب عرف في التاريخ الحديث . وبقيت الجائزة الاولى في حوزة أبي نوار حتى عام ١٩٦٨ ، عندما قام الملك قسطنطين بمحاولة للإطاحة بالحكومة العسكرية في اليونان ، فاستحصلها منه ، وسافر الى روما حيث انتحى بها مكانا قصيا . وبمجهود بسيط ، نجح الملك حسين في إعادة تنظيم جيشه بصورة يضمن ولاءه ثانية . وأعلن الاحكام العرفية ، ورفض بلهفة وتشوق شديدين مترصدا ردود فعل السوريين ضده . الا أنهم لم يحركوا ساكنا . وقامت حكومة الولايات المتحدة الامريكية بتحريك الاسطول السادس الى ميناء بيروت ، وبذلك وضعت علاقاتها مع سوريا في نفس الموضع الذي تلتذ السوفييت بطعمه قبل شهر من الزمن . وفي غمرة الاحداث ، أعلن الملك سعود

تأييده التام لسوريا ، ومساندته لها ضد أي اعتداء يقع عليها - وكان يعني اعتداء
الأمريكي . وكم بودي أن أذكر الأسباب التي دفعت به إلى إعطائه هذا التصريح ،
إلا أنني لا أملك حرية افشاء مثل هذه الأسرار ، وأتركها للقارئ عسى أن
يكتشفها بنفسه إن كان ملما بأذواق الملك وظروفه . ورفعت يومها كل من
المخابرات الأمريكية والبريطانية تقارير مطمئنة لنوري السعيد ، تفيد أن حالة
القلق والاضطراب ضده آخذة بالانحسار إلى حد يمكنه السيطرة عليها . وأما
الرئيس شمعون ، وهو من الد أعداء ناصر ، فقد اتخذ كافة الإجراءات التي
وضعت كافة النشاطات الناصرية والشيوعية في لبنان تحت سيطرته . كما
حرم على أعداء حسين ونوري وغيرهم من « الخوارج » استخدام بيروت كمركز
لمؤامراتهم .

وبقي هناك عضو واحد ، من أعضاء « جمعية » ناصر ، لم يظهر احتراما
كافيا لرئيس « الجمعية » ، بل وكان لا يتأخر عن انتهاز الفرص للتلاعب عليه
تحت ظل حمايته له . وكان ناصر لذلك الوقت يعتبر أن « جمعيته » لا تزال ركنا
رئيسيا من أركان استراتيجيته . وشعر أن الوقت قد حان لاستمرار زحفه على
العالم العربي بغية صياغته بالشكل الذي يريده له . فقد تآزم الوضع في
سوريا ، وأصبح ينذر بالخطر ، وما كان لناصر أن يتركها هكذا وهي قلب
القضية العربية النابض . فقد وجد لزاما عليه أن يخرج عن إحدى القواعد التي
رسمها لنفسه سابقا ، والتي كانت تقول : « خذ بنواصي السلطة ومقاليذ الأمور
كلما سنحت الفرصة لك . ولكن إياك ، ثم إياك ، أن تضطلع بالمسؤوليات ، وفرّ
منها فرارك من المجذوم » . وهكذا قرر ناصر أخيرا أن يبدأ ببسط نفوذه على
السياسة الخارجية لسوريا ، ثم ينتهي عن طريقها إلى السيطرة على سياستها
الداخلية (والتي تنبثق السياسة الخارجية منها حقا) مجازفا بتحمل المسؤوليات ،
والاضطلاع بكافة أعباء الإدارة ، ومتاعب الحكم التي سوف لن تريعه أبدا (١) .
وفي كانون الثاني (يناير) ١٩٥٨ وافق ناصر على اتحاد سوريا ومصر في دولة
واحدة أطلق عليها اسم الجمهورية العربية المتحدة . وهكذا أصبح ناصر رئيس
جمهورية للأقليم المصري ، ولأقليم آخر لم تطل قدمه نراه بعد .

(١) لا مانع من اعتقاد القارئ أن الوحدة السورية المصرية (١٩٥٨) لم تكن فورية ، (المغرب) ٢

ولو كنت معلقا على هذه الحادثة التاريخية (والمضحكة - المبكية) في سياق لعبتنا مع ناصر لما ترددت في إعادة كلام « مالكولم كير » في كتابه « الحرب الباردة بين العرب ١٩٥٨ - ١٩٦٤ » . ولهذا فأنني أحض القاريء على الرجوع لذلك المؤلف الثمين ليقف بنفسه على تفاصيل الامور ودقائقها . وكل ما أود اضافته هنا هو أنه بغض النظر عن الزاوية التي ينظر منها الانسان الى خفايا هذه الخبرة المزعجة لكل الاطراف والى ظواهرها ، فإن درسا واحدا قد تعلمه ناصر منها الا وهو :

« عليك بتركيز اهتمامك على استثارة عواطف طبقات عامة الشعب التي سوف تمارس ضغطا على الزعماء لكي لا يتجروا على عقد صفقات مع الدول الكبرى وهم منفردون . وعليك أن تفعل ذلك عن طريق اذاعة القاهرة او أية وسيلة أخرى متوفرة ، ولكن اياك أن يكون ذلك عن طريق اتصالات شخصية بين المسؤولين المصريين وشعوب الدول التي هي ضمن أهدافك . واذا تمكنت من القاء مسؤولية ذلك على انصارك من «المتعصبين» في تلك البلاد ، فايك أن تتأخر لحظة واحدة في فعل هذا . تبناهم ، واعطف عليهم ، فانهم خير ظهير لك . وعليهم فاعتمد فانهم اصلح ما يخدم مثل تلك الأهداف » .

عندما تعرّت لشخصيات في لبنان عام ١٩٥٨

... ولن تسلّم من خصومهم الالاء ، حتى تقامر في حرب ضروس ضدهم .

ان القاء نظرة شاملة على التقارير الرسمية الامريكية حول ما بدا ، في اوائل عام ١٩٥٧ ، على أنه ذروة « لعبة الصدام » بيننا وبين ناصر تظهر أننا قد بدأنا نفهم سياسته بصورة أكثر عمقا وأوسع شمولاً . كما أنها تظهر ، في نفس الوقت ، أن حدة عدائنا معه بدأت تخف وتلين . فلم تظهر وزارة الخارجية الامريكية أي تحمس « لمبدأ ايزنهاور » فيما عدا الوزير دالس نفسه ، واثنين من الموظفين العاملين معه مباشرة . كما أنه لم تعترينا الدهشة حيال ردود فعل ناصر العنيفة ضد « مبدأ ايزنهاور » . وعندما بدأ ناصر بشن حملات دعائية مركزة على « الخوارج » الذين قبلوا بمبدأ ايزنهاور (ومنهم الرئيس اللبناني شمعون ورئيس الوزراء العراقي نوري السعيد) لم نصب بأية خيبة أمل ، لاننا لم نكن في وزارة الخارجية نتوقع غير ذلك . ولا أزال أذكر احدى الجمل التي وردت في أحد تقارير سفير لنا في احدى عواصم الشرق الاوسط ، وفيها يقول : « ليس من السهل توجيه أي لوم لناصر لاتباعه وسائل ثبت عنده جدواها » . وعندما استلم أحد الموظفين ذلك التقرير أضاف جملة أخرى على هامشه جاء فيها : « انه معيب جدا أن نتبع لناصر مثل هذه الفرصة » . وهكذا فقد طفت على وزارة الخارجية موجة من النقد الذاتي ، أثارتها سلبيتنا تجاه تصرفات ناصر . الا أن معظم المسؤولين الامريكيين المعنيين بسياستنا في الشرق الاوسط ، بدأوا يميلون الى الاعتقاد أن مجاراة ناصر في سياسته قد تصبح أمراً محتوماً ، فقد أضحي « موضة » المستقبل .

ولم ينفرد مسؤولو وزارة الخارجية بوجهة نظرهم المعتدلة تجاه ناصر ، بل شاركهم فيه هذا مسؤولو وكالة المخابرات المركزية الذين يتصفون برزانة

أكثر وأدراك أعمق . وكانت أولى تحركات ناصر ضد « الخوارج » قيامه بهجوم معاكس ضد محاولة الأمريكين تشتيت شمل « جمعيته » ، وذلك بتشجيعه قيام « الجبهة الوطنية المتحدة » في لبنان . فقد كانت هذه الجبهة عبارة عن ائتلاف بين مسلمين ومسيحيين ، جمعهم خلافهم مع شمعون في جبهة واحدة ضده . وكانت هذه الجبهة ترى ضرورة انغماس لبنان في مشاكل الأمة العربية (١) الى حد أكثر من ذلك الذي أراده شمعون له . (كان الرئيس شمعون يحبذ يومها انطواء لبنان على نفسه وانعزاله عن العالم العربي .) وقام فريق ماهر من رجال وكالة المخابرات المركزية في بيروت بتوجيه الحملة المضادة لمعاكسات ناصر . وكان أول ما فعلوه هو تركهم لآخبار « الجبهة » تتسرب عمدا بقصد الايقاع بين السياسيين اللبنانيين ، وتنفيرهم منها ، وبالتالي كسب جانبهم لصالح الرئيس شمعون . وبعدها قامت سفارتنا في بيروت (وليست وكالة المخابرات) بتقديم مساعدات متواضعة لبعض الحملات الانتخابية للمرشحين المواليين للغرب (في انتخابات حزيران ١٩٥٧) . وقد أطلقت عليها صفة « التواضع » لأنها لم تزد عن قيمة تلك المساعدات التي دفعتهما السفارات الفرنسية والبريطانية والسوفييتية والمصرية للمرشحين المواليين لها . واستغلت المخابرات المصرية العامة ما تمكنت من جمعه من معلومات حول مساعدات السفارة الأمريكية هذه، وحورتها الى أدلة مقنعة على تدخل وكالة المخابرات الأمريكية في الانتخابات وتلاعبها بها . ومهما كان ، فإن اللعبة ، بحد ذاتها ، كانت طريفة وعادلة للطرفين معا ، وفي آن واحد . فغالبا ما يسود أوساط أجهزة المخابرات الضخمة ، رغم الاختلاف بين دولها ، نزعة احترام متبادلة . وتمزى هذه النزعة الى احترافهم مهنة واحدة . كما يحدث أحيانا أن تنشأ علاقات متبادلة ورسمية بين فروعها ، إلا أن هذا نادر الوقوع وخاصة بين أجهزة المخابرات التابعة لدول متعادلة . وفي بيروت ، فقد كانت العلاقات السائدة بين رؤساء أجهزة المخابرات العديدة وثيقة بشكل غريب وشبيهة بتلك العلاقات التي كانت متوطدة بينهم في « طنجة » (١) أثناء الحرب العالمية الثانية . وكانت العلاقات بين رئيس فرع وكالة المخابرات

(١) بهذا لو أن القارئ يتحقق من حقيقة هذه الميسارات بنفسه وذلك بعد مضي أكثر من عشر

سنوات على هذه الحادثة .

(العرب)

(١) مدينة مفتوحة عالميا في شمال افريقيا .

(العرب)

المركزية الامريكية ، وبين رئيس فرع المخابرات العامة المصرية في بيروت ، ودّية واجتماعية ، ولم تفلح الخلافات المهنية القاسية في التأثير عليها الا قليلا . وقد بدا هذا جليا ، عندما اثارت الادلة التي جمعتها وكالة المخابرات المركزية الامريكية ، حول حقيقة التأييد المصري للجبهة الوطنية المتحدة ، والادلة التي حصلت عليها المخابرات العامة المصرية حول تلاعب الامريكيين بالانتخابات ، نوعا من الاعجاب المتبادل ، بدل أن تكون منارا للعداوة والبغضاء .

وفاز المرشحون الموالون للغرب ، والمناوئون للمصريين ، بالاكثرية في المجلس . الا أن أخبارا كهذه لم تكن لتشكّل موضوعا مناسباً للتسلية والمسامرة بعد وليمة أو لقاء عابر بين الامريكيين والمصريين . وفي أواخر عام ١٩٥٧ بدأ النشاط المصري الهدام في لبنان باندفاع وقوة . وبدأ لكل المتبصمين للاحداث في بيروت ، أو للمستمعين الى اذاعة صوت العرب من القاهرة ، أن ناصرا سيبذل المستحيل لاسقاط شمعون والاطاحة به . وعندما قمت بزيارة للقاهرة في آب (أغسطس) ١٩٥٧ ، أسرّ الي بعض أصدقائي من المصريين بتنبؤاتهم عن سقوط كل من شمعون وحسين ونوري السعيد (بل وأصرّوا على هذا التسلسل) . ولكن توقعهم لوقوع الاحداث بهذا التسلسل قد أخطأ ، ولم يتحقق سوى ثلثي ما قد تنبأوا به ، مع أنهم بذلوا كل ما في وسعهم لتحقيقه . الا أنه فاتهم أن سقوط أولئك الزعماء سوف يزيد من حدة الصراع بين المخابرات الامريكية والمصرية ، وسيرفع من مستواه الى الحد الذي يصعب على المصريين معه مجاراة الامريكيين ومنافستهم (١) .

لم يعر المصريون (والى حد ما وزارة الخارجية الامريكية) لبنان الاهمية الكافية وذلك بعدما أضحي بلدا حيويا للمصالح التجارية الغربية . وكان الامام بشؤون العالم العربي قبل الخمسينات وقفا على الارشاليات التبشيرية ، وعلماء الآثار ، والمستشرقين ، والمدرسين الاجانب ، وغيرهم من هواة هذا الجزء من العالم . وكانت الجامعة الامريكية في بيروت ، ومثيلاتها في اسطنبول (روبرت كوليدج) وفي القاهرة (الجامعة الامريكية) تمارس التأثير المباشر والرئيسي

(١) يذكر الحرب أن هذا ما حدث بعد ثورة العراق ١٩٥٨ عندما دخل عبد الكريم قاسم في نزاع مشابه مع ناصر .

على المنطقة فيما يختص بالمصالح الامريكه (١) ، وعلى الحكومة الامريكية فيما يختص بمشاكل الشرق الاوسط . وفي خلال الخمسينات ، حطت شركات البترول الضخمة رحالها في الشرق الاوسط وتدفق بعدها سيل عرم من بائعي المعدات الهندسية ، ومن المستثمرين الذين أغرتهم الآفاق الجديدة التي فتحتها لهم النمو المطرد للجاليات الامريكية (مثل أسر موظفي شركات البترول) . ثم انضم اليهم وكلاء الشركات الامريكية للبضائع الاستهلاكية . وعندما بدأ ضخ النفط على مقياس واسع ، ظهرت طبقة الاغنياء من العرب الكويتيين والسعوديين الذين وظفوا أموالا طائلة في لبنان ، مما أدى الى ازدهار اقتصادي سريع في المدن ، وجذب المزيد من المستثمرين ووكلاء الشركات الى المنطقة مع عائلاتهم التي ساهمت في تضخيم حجم الجاليات الاوربية والامريكية ، وتوسيع مجال الاعمال التجارية فيها . وفي منتصف الخمسينات أمست مصالحننا التجارية في المنطقة ضخمة ومتسعة ، وعلى خلاف ما كانت عليه في الاربعينات . وعلى غرار المركز العالمي للأعمال التجارية في مدينة نيويورك ، فقد أضحت بيروت المركز التجاري للعالم العربي .

وبرز الوجود التجاري الامريكي في المنطقة بصورة جلية واضحة خلال أزمة قناة السويس عام ١٩٥٦ . فقد قامت يومها الحكومة الامريكية بتشكيل عدة لجان من كبار رجال الاعمال بغية اسداء النصح لها بخصوص الشرق الاوسط ، وكانت غالبية أعضاء هذه اللجان من مدراء شركات البترول . وهكذا أصبح لأروقة شركات البترول تأثيرا مباشرا على سياسة الحكومة الخارجية بعدما بقيت سيطرة ملوك المال بعيدة عن أجواء واشنطن طوال عهدي الرئيسين روزفلت وترومان . ومع أن حماس شركات البترول قد فتر بعدما وجهت وزارة العدل انذارا لاحدى تلك اللجان بتهمة محاولة تشكيل كتل احتكاري (تروست) (مع أن اللجان قد شكلت بناء على طلب من وزارة الخارجية) ، الا أن تأثيرهم على سياستنا في الشرق الاوسط قد استمر بقوة وجراءة . وعندما بدأت الأزمة اللبنانية تلوح في الافق عام ١٩٥٨ ، كان تأثيرهم قد بلغ الذروة ، وصار عاملا رئيسيا لا يمكن اغفاله البتة .

(١) ومن مآثر هذه الجامعة (وكان اسمها سابقا الكلية الانجيلية السورية) ان غالبية رجال السياسة في العالم العربي من خريجيها .
(العرب)

والتقت الصحف الشيوعية مع غيرها من الصحف المعادية للغرب على اتهام موظفي شركات البترول الامريكية بأنهم « مجانين سلطة ومال » ومجردون من الاخلاق والضمير ، ولا يأبهون لمصلحة الشعب أبدا ، كما اتهمتهم بعدم التحرج في اتباع أية وسيلة بغية الوصول الى أهدافهم ، كارشاء المرشحين للانتخابات ، وافساد الرسميين ، ومحاولة الاطاحة بالحكومات التي لا ترضخ لطلباتهم . وبغض النظر عن شهوات رجال المال وحرصهم الشديد على مصالحهم ، فإن لديهم هيئات استشارية على كفاءة عالية ، وتضم نخبة من علماء الاقتصاد والاجتماع وعلم طبائع الانسان والعلوم السياسية ، الى جانب ألمع رجال القانون والمحاسبة . ولهذا فإن رجال المال يدركون تماما أن استقرار الحكومات وازدهار المجتمعات ، عاملان مهمان (لأسباب عملية محضة) من عوامل استمرار وجودهم وازدياد أعمالهم . فلقد أنفقوا الملايين الطائلة من الدولارات على مشاريع أجمع النقاد على أنها كانت « لصالح الشعب » . كما أنهم كانوا يرفضون بقوة واصرار كل المحاولات الرامية الى اضعاف كيان الحكومات التي هم على وئام معها واتفاق . كما كانوا ضد مؤامرات أجهزة المخابرات (على اختلاف أنواعها) الرامية الى الاطاحة ببعض الحكومات ، ووقفوا ضد المواقف السلبية لرجال السفارات الامريكية (أو ضد تلكتهم في ممارسة الضغط المطلوب) . فقد كان رجال سفارتنا غالبا ما يلتزمون بأحدى العبارات التي أطلقها مرة أحد سفرائنا وجاء فيها : « من الصعب أن نتجاوب كلية مع العرب ، ان هم أصرروا على سلوكهم كعرب » .

وفي منتصف الخمسينات ، كان في بيروت جالية واسعة من الشرقيين الذين تأقلموا مع الغرب ، وأخذوا يشاطرون شركات البترول آراءهم ومواقفهم . وقد ضمت هذه الجالية الكثير من أصحاب البنوك ، ومقاولي الأبنية ، وأصحاب شركات الشحن وشركات استيراد مواد البناء وأجهزة آبار البترول . وهيئات دراسية لشركات البضائع الاستهلاكية ، وعدد كبير من الشركات الاستشارية في مختلف النواحي التي تخص مسألة استقرار شركات البترول ، وتأقلمها مع المجتمعات التي هي فيها . وكانت نتيجة كل ذلك ، ظهور وجهة نظر جديدة تجاه طبيعة علاقات الغرب مع ناصر . ففي الوقت الذي كانت وزارة الخارجية الامريكية غير راغبة في ممارسة أي ضغط على ناصر وميالة الى المحافظة على علاقات هادئة معه ، فإن الجالية التجارية بدأت تعاكس هذا الاتجاه معاكسة

شديدة وجلية • فقد أدرك المسؤولون أنه مهما كانت وجهات النظر تجاه ناصر ، فإن امتداد نفوذه أمر واقعي ، لا فائدة من اغفاله • ولكن أي الطريقين أجدى في سلوكنا معه : طريق التفاهم والاتفاق ، أم طريق المقاومة والعداء ؟ لقد كان الغرب - وخاصة الأمريكيون - يميلون الى سياسة التفاهم والاتفاق طوال المدة التي لم يكن لهم أثناءها أية مصالح تذكر في المنطقة • الا أنه في نهاية عام ١٩٥٧ ، وبعلما أضحي للأمريكيين مصالح اقتصادية وتجارية في المنطقة ، بدأ الاتجاه نحو سياسة المعاكسة والعداء يزداد قوة ووضوحا مع ازدياد النشاط المصري الهدام في لبنان (١) •

ومنذ ذلك الوقت بدأت الغيوم تتلبد في سماء المنطقة ، وأخذت تنذر بعاصفة هوجاء على وشك الهبوب في أية لحظة • وفي تلك الاثناء قدمت استقالتي من وزارة الخارجية في ايار (مايو) ١٩٥٧ ، وأسست أول مكتب لي « للعلاقات الحكومية » وتقديم النصح والمشورة الى شركة بترول وشركة طيران وبنك (وكان هذا في بيروت وفي حزيران (يونيو) ١٩٥٧) • وفي نفس الوقت تقريبا أقامت عدة شركات بترول رئيسية مكاتب عدة (على غرار مكنتي) لكي تبقى على صلة بالأحداث التي بدأت تصاعد بفراية وتنذر بالسوء والخطر • وكان مكتب « العلاقات الحكومية » لشركة أنابيب التابلاين يضم خيرة الرجال أمثال ساندي كامبل ، ودافيد دودج (ابن بافارد دودج الذي كان رئيسا سابقا للجامعة الأمريكية في بيروت ، وأحد المتكلمين باللغة العربية بطلاقة تفوق طلاقة أي متكلم آخر في الجالية الغربية) • وفي تلك الأثناء ، بدأ هاري كيرن ، وسمير سوقي ، باصدار « التقرير الأجنبي » الذي كان من أوائل النشرات الدورية الخاصة كما كان ذا نفوذ كبير لدى شركات البترول المشتركة به (وكانت قيمة الاشتراك به فاحشة) • وبعد ذلك بقليل ، قام فؤاد إيتايم باصدار سلسلة جديدة أطلق عليها اسم « نظرات في اقتصاد الشرق الاوسط » • وتدفق بعنه سيل من هذه النشرات والمجلات الدورية • وفي غضون سنوات أضحي عدد البنوك في بيروت

(١) يلاحظ القارئ ان هذا لم يؤثر على سياسة التفاهم حيال الوضع في سوريا (١٩٥٧ - ١٩٥٨) وهذا واضح في نهاية الفصل السابق • ولقد ايدت أمريكا تأييدا للوحدة السورية - المصرية بعد أن أخذت مصالحها تتسع في العالم العربي ووجعت في توطيد نفوذ ناصر في سوريا انطلاقا لها من السوفييت •

(الحرب)

أكثر من عددها في نيويورك ، كما ارتفع عدد الصحف في بيروت حتى لاق عددها في لندن . وفي منتصف عام ١٩٥٨ ، بلغ عدد النشرات الخاصة الدورية في بيروت أكثر من عددها في كل من لندن وباريس ونيويورك مجتمعة . ومنذ ذلك الوقت ، أضحت « لعبة الأمم » المقتنعة بين الناصريين والغرب شبيهة بتلك الحفلات الليلية التي تجري في حدائق الحيوانات الطبيعية في افريقيا حيث تظن الحيوانات أنها في ليل دامس لا يراقبها فيه انسان . الا أنها في الحقيقة تكون غارقة في بحر من أشعة ما تحت الحمراء (التي تجعل الاشياء منظورة في الظلام) وأبصار المتفرجين محملقة فيها ، من خلف نظارات خاصة . وهذا ما آلت اليه الحالة في لبنان . ففي أواخر ١٩٥٧ وأوائل ١٩٥٨ ، اقتنع المراقبون (على خلاف المشاركين في الأحداث) أن الوضع بات يهدد بالانفجار بين عشية وضحاها .

ولم تكن مراقبة الاحداث لتقتصر على السفير الامريكى في بيروت وحده (وكان يومها دونالد هيث سفيراً حتى أواخر ١٩٥٧ ، ثم روبرت ماكلينتوك في أوائل ١٩٥٨) ، بل كان يشاركه في هذا عدد من كبار المراقبين الرسميين وشبه الرسميين (الذين كانت لهم صفة الاستقلال عن السفير ، أو كانت تربطهم به مجرد علاقات شكلية) . وكان على رأس هؤلاء ويلبور (بيل) ايفلاند ، الذي أرسله البيت الابيض كمبعوث خاص ليبقى على اتصال وثيق بالرئيس شمعون وليمشرف على تنفيذ « مبدأ ايزنهاور » ، وعلى حد قول أحد أصدقائي في وزارة الخارجية الامريكية ، فقد كانت مهمة ايفلاند المحافظة على التوازن تجاه السفير ماكلينتوك . وأما مدير فرع وكالة المخابرات المركزية الامريكية فقد كان ، بصورة استثنائية ، ذا رتبة عالية أتاحت له (الى جانب مركزه المرموق في واشنطن وقربه من الأخوين جون وآلن داليس ، وكون مهمته في بيروت للتنسيق فقط) فرصة الاستقلال فعلاً عن السفير ماكلينتوك . وكانت لديه تعليمات أن يقتصر في مهمته على التنسيق بين مصادر المعلومات وعدم الانغماس في عمليات سرية . الا أن المدير الاقليمي (المقيم) لفرع وكالة المخابرات المركزية الامريكية في بيروت تد اضطلع بمهمة استكمال عمل المدير السابق ، وخاصة في نواحي الاشراف على العمليات السرية . ومع أن المدير الاقليمي (المقيم) لم يكن أمريكي الجنسية، الا أن تمتعه بذكاء وافر وقدرة فائقة على الاقتناع ، أهّله لأن يصبح ذا مكانة

مرموقة عند كل من المقيمين في بيروت (ومنهم طائفة رجال المخابرات) ومحلي المعلومات في واشنطن ، الذين كانوا يولون تقاريره وتوصياته أهمية لا تقل عن تلك التي كانوا يولونها لتقارير السفير نفسه . (وهذا المدير هو الذي مد يد المساعدة للأمريكيين عندما بدأت المبارزة بينهم وبين المخابرات المصرية أثناء الانتخابات) . وعلاوة على هذا ، فقد كان هناك سيل متدفق من كبار المسؤولين الذين اعتادوا التردد على بيروت لاذكاء لهيب الأحداث وتأجيج نارها ، (وقد انتابهم موجة من الاسى عندما هدأت الاحوال في لبنان ، ذلك لانهم كانوا يعتبرون بيروت من أجمل بقاع العالم التي يؤمها الموظف في رحلة للمتعة ، تحت ستار تكليفه بمهمة رسمية على حساب الدولة) . وأما السفير ماكلينتوك . فقد كان في حالة أجاد أحد موظفي السفارة عندما وصفها قائلا : « في خضم هذه الامواج المتلاحقة من المتطفلين غصبا على شؤون السفارة ، فان السفير ماكلينتوك ، قد اضطلع بمهام أكثر المناصب في السلك الدبلوماسي قساوة وفظاظة وقرفا ، »

وفي الثامن من أيار (مايو) ١٩٥٨ انطلقت الشرارة الاولى التي فجرت الصراع كله في لبنان عندما قام مجهول باغتيال صحفي ناصري اسمه « نسيب المتني » . وكان المتني يشكل مصدر ازعاج كبير لشمعون ، مما دعا اعمداه الاخير الى اتهامه بتدبير قتل الاول (وذلك حسب ما جرت عليه العادة عند اللبنانيين حين اصدار الاحكام) . وبلغ عدد الضحايا في حوادث العنف خلال الاسابيع القليلة التالية لحادث الاغتيال أكثر من عشرين قتيلا في أنحاء متفرقة من البلاد . وجاءت تلك الاحداث ملائمة للمخطط الذي كان يريد المناوؤن لشمعون تنفيذه ، واعتبروا وقتها مناسبا جدا . واحتج شمعون (وببسل ايفلاند) على أن عملية اغتيال المتني كانت مدبرة من قبل المناوئين له ، واستدل بالحجة القائلة ان رد فعل المعارضة كان من السرعة ، والاحكام في الاعداد ، بحيث يؤكد أنه لم يكن مجرد أمر عارض أو تصرف مفاجئ . وانما كان الرد مهيأ ينتظر حادثة كحادثة المتني حتى يفلت من عقابه ، وينطلق الى أهدافه . والحقيقة أن كلا من أنصار شمعون وأعدائه يتساوون في حمل أوزار تلك الحادثة المشؤومة وتبعاتها . وقد برهنت الاحداث المتلاحقة على هذا فعلا . فعندما قامت المعارضة بوضع المتاريس عند النقاط الحيوية لمدينة بيروت ،

وسدت منافذ الطرق الرئيسية ، وأغلقت الحوانيت ، وحفرت الخنادق حول مناطق تجمعها ، وحاولت فعلا أن تشل الحياة التجارية والاجتماعية في البلاد ، كان رد أنصار شمعون سريعا ومائلا . وفي غضون بضعة أيام ، غدا لبنان مسرحا لحرب أهلية شاملة شملت البلاد كلية . الا أن تلك الحرب كانت شبيهة بلعبة الشطرنج ، فلا تضع أوزارها حتى يستقيل « الشاه » (١) أو يُقال .

وأما المعارضون لشمعون (ولا مانع من اطلاق اسم « المتمردين » عليهم ، لخروجهم على حكومة شرعية قائمة) فقد كانوا فئتين : فئة الزعماء الحقيقيين الذين كانوا يمثلون مناطق كاملة اشتهرت بعائنها لشمعون ، وفئة الزعماء الذين يغلب طابع الحياة السياسية لمدينة بيروت على أنصارهم من الأفراد المنتسبين للأحزاب والجماعات السياسية المنظمة ، و « القبضيات » والمريدين الماجورين . وكان من الفئة الاولى كل من صبري حماده من سهل البقاع ، ورشيد كرامي من مدينة طرابلس ، وكمال جنبلاط من طائفة الدرور . وقد طلبوا من المصريين تجهيزات عسكرية ومعدات أخرى حتى يتمكنوا من الدفاع عن أنفسهم . واتضح أخيرا أنهم ، باستثناء جنبلاط ، قد تمكنوا من تدبير شؤونهم بمساعدات يسيرة . الا أن الجيش اللبناني تعثت قيادة اللواء فؤاد شهاب قد رفض مساندة شمعون ، ولم يفعل أكثر من إلقاء الأطراف المتقاتلة بعيدا عن الالتحام مع بعضها البعض . ولم يكن لدى شمعون الاعداد الكافية من المدنيين المسلحين حتى يقف في وجه كل من كرامي وحمادة . ووجد جنبلاط نفسه وجها لوجه مع عناصر الحزب القومي الاجتماعي المدججه بالسلاح ، والتي بصفتها يمينية الاتجاه ، قد خاضت غمار المعركة بدافع من كراهيتها لناصر أكثر من حبها لشمعون .

وكانت الفئة الأخرى من الزعماء تشتمل على « البيارة الأربعة » وهم صائب سلام وعبدالله اليافي وعدنان الحكيم وعبدالله المشنوق . ولم يكتف هؤلاء الزعماء بطلب التجهيزات العسكرية من المصريين ، بل ألحوا في طلب المساعدات المالية بغية شراء الدعم والتأييد لأنفسهم . وفي الوقت الذي قام

(١) يقصد « بالشاه » الرئيس شمعون .

(العرب)

المصريون بتلبية الاحتياجات الضرورية لكمال جنبلاط ، فقد اقتضت استراتيجيتهم تقديم دعم كثيف « للبيارات الاربعة » حتى يتمكنوا من استقطاب الاحياء الشعبية في المدينة ، والسيطرة على الفوغاء في الشارع ليسهل -بالتالي- التحكم بالمنطقة الرئيسية في لبنان ، الا وهي مدينة بيروت نفسها . ولقد اناط المصريون مسؤولية الاشراف على شؤون مخابراتهم العامة في بيروت بمسؤول ذي كفاءة عالية وخبرة رائعة في مجال اختصاصه . وكان يعاونه في هذا فريق من المسؤولين المهرة أيضا . وقد شكلت المخابرات المصرية فريق عملها في الميدان من المتشردين السوريين الذين جندهم رئيس المخابرات في سوريا ، عبد الحميد السراج ، وارسلهم الى لبنان متسللين عبر الجبال . وكان السراج يشكل همزة وصل مثالية بين المحترفين من المصريين وغوغاء الشارع في لبنان . وهكذا ، فلم ينتصف عام ١٩٥٨ (حزيران ، يونيو) حتى كانت المعارضة قد حشدت ضد شمعون ومؤيديه من الغربيين طاقات هائلة وقدرات ضخمة ، ولم يكن يومها قد مضى أكثر من شهر واحد على اندلاع نار الحرب الاهلية في لبنان .

وبقي المسؤولون الغربيون فترة من الزمن هائمين على وجوههم وسط زحام الاحداث في لبنان ، لا يدرون ما يفعلون . كما بقيت جهودهم دون تنسيق ، وآراؤهم دون توحيد . وقد وصفت احدى النشرات الدورية الخاصة الحالة يومها قائلة : « لقد كثر اللفظ حول حقيقة الاحداث المتلاحقة في لبنان ، وتباينت الآراء حول أسبابها ودوافعها . كما ظهر تضارب في المواقف الادبية تجاه الاحداث وأشخاصها . واختلط الحابل بالنابل ، فلم تعد تدري من يُسيّر دفة الأمور ويمسك بزمام الموقف » . فقد أيد السفير ماكلينتوك فكرة التجديد للرئيس شمعون (ولم يتلصقا عن الاعراب عن رأيه هذا امامه) ، الا أنه سرعان ما عدّل عن رأيه هذا الى آخر معاكس له تماما . وبذلك أضحى السفير على خلاف في الرأي مع كل من بيل ايفلاند ، ووكالة المخابرات المركزية الامريكية ، ومعظم طبقة رجال الاعمال الذين أصروا على فكرة التجديد وتمسكوا بها . الا أن البقية الباقية من طبقة رجال الاعمال ، وخاصة خبراء مكاتب العلاقات الحكومية ، التابعة لكبريات شركات البترول ، أعربوا عن رأيهم في الاحداث اللبنانية وقالوا ان الامر كله لا يعدو مجرد تمرد على القانون وخروج على النظام تقوم به الفوغاء ، وأنه مهما تفاقم الاحداث (على حد قول مسؤول

باحدى شركات البترول) فمن الضروري مقاومة العنف والارهاب ، وعدم فسخ المجال أمامهما للوصول الى أية مكاسب ، أو تحصيل أية مغانم . وعلى الأقل ، فقد تمكنت احدى شركات البترول من تحقيق لقاء بين زعماء المعارضة الحقيقيين (أمثال حمادة وكرامي وجنبلاط بدون « البيارته الاربعة ») وبين أنصار شمعون المعتدلين ، واتفقوا فيه على وجوب التوقف عن تخريب « بلدهم الحبيب » ، وعلى ضرورة جسم النزاع بينهم بالوسائل السلمية . كما أعربوا عن ترحيبهم بانضمام السفارة الامريكية الى هذه البادرة السلبية ، وعن رغبتهم في أن تضطلع ببعض المهام فيها .

ومن الجدير بالذكر أن تلك السلسلة من الخلافات التي برزت بين كبار المتنفذين الامريكيين حول سياسة الحكومة الامريكية واستراتيجيتها ، قد لعبت دورا بارزا في بلورة الموقف الامريكي الجديد (منذ ١٩٥٨) الذي كان له أكبر الأثر في تحديد طبيعة علاقاتنا مع ناصر وغيره من الحكام الوطنيين ، الذين أخذوا في انتهاج سلوكه واتباع طريقه . ولقد بدا هذا الأمر واضحا تماما بعد انتهاء الأزمة اللبنانية مباشرة (مع أن اثنين من سفرائنا في القاهرة ظهروا على أنهما لا يعلمان عنه شيئا) . وما أن أطلت شمس الستينات حتى أدرك كل مراقبي « لعبة الأمم » (والمصريون كذلك) أن هذا الاتجاه الجديد قد غدا مسيطرا . كما وأنه قد استدعى تغييرا كاملا لطبيعة « لعبة الأمم » ، غير أن اللاعبين أنفسهم لم يدركوا هذا الا بعد حين .

وكان الاتجاه المسيطر على الموقف الامريكي الجديد هو النفور من العنف والابتعاد عن الارهاب كوسيلتين من وسائل نيل المطالب ، مهما كانت الدوافع لهما سامية والأسباب عادلة . ولاضفاء الهيبة على هذا الاتجاه الجديد ، وزرع الرهبة منه في قلوب الآخرين ، كان لا بد من اقامة الدليسل على أن سياسة العنف سياسة خاسرة ، وأن مشاريع أصحابها لن ترى النور ، وذلك حتى يتعظ الآخرون بهذا ويرتدعون . ولقد رفع الدبلوماسيون الامريكيون المحافظون لواء الدفاع عن هذه الفكرة (وأيدهم في هذا كل طبقه رجال الاعمال) ، وعززوها باعتقاد آخر سليم . فقد دعوا الى سحب الثقة نهائيا من أولئك الذين لا يرون بدلا عن سياسة العنف كوسيلة لتحقيق أهدافهم ونيل مطالبهم ،

مهما كانت سامية وعادلة ، والى عدم منحهم ايها ثانية مهما كانت الظروف او اقتضت الاعتبارات . لقد كره الجميع سياسة العنف ، واشماؤوا من دعايتها ، واجتمعوا على مقاومة كل من تسول له نفسه باللجوء اليها . وعليه ، فكل من هومل بمثل هذه السياسة ، له أن يدافع بقوة ضدها ، وعلى الآخرين الاصغاء لشكواه دفاعا أم هجوما . ولقد فاز هذا الاتجاه الجديد بموافقة جميع الامريكيين الذين لهم علاقة بالازمة اللبنانية ، ولم يخرج عن هذا الاجماع احد منهم ، رسمي أو غير رسمي . الا أن شكوك الدبلوماسيين ورجال الاعمال في صلاحية هذا الاتجاه الجديد وفي مدى انسجامه مع الدوافع البشرية الفطرية بقيت في تفاوت غير يسير .

ولقد عبر أحد موظفي السفارات عن موقف دبلوماسيها (بالمقارنة مع موقف رجال الاعمال) عندما توجه الى ساندي كامبل (في شركة التابلاين) قائلا : « وماذا تتوقع غير ذلك ؟ فوالله لا يدع اللبنانيون العنف حتى تدع الكلاب مطاردة الهرة » . لقد كان الدبلوماسيون الامريكيون ، وديبلوماسيو ما وراء الكواليس ، يعتقدون أن سياسة الارتشاء والارهاب ، ودغدغة غرائز الانسان الخسيسة ، ليست سوى أحد الملامح المألوفة لمسرح الاحداث في لبنان . فقد تأقلم اولئك الدبلوماسيون مع ذاك النوع من « لعبة الأمم » التي تسودها السياسة السالفة الذكر ، ولمسوا أنها قد حققت نجاحا باهرا بدون أدنى ريب أو شك ، ولهذا فقد كانوا على طرفي نقيض مع رجال الاعمال الامريكيين . وسبب هذا أن علاقة رجال الاعمال بأصدقائهم من اللبنانيين كانت مجرد علاقة منافع مادية ومصالح تجارية ، وهذا النوع من المعاملات لا يمكنه أن يجري الا في أجواء يسودها الهدوء وتطفي عليها نزعته جر المغانم وزيادة الارباح . ولهذا كانت رسائلهم الى رجال الكونغرس لا تظهر سوى اصرارهم على مخالفة رأي الدبلوماسيين ومعارضتهم له . (وكان رجال الكونغرس بدورهم يوجهون الرسائل ثانية الى وزارة الخارجية مدعومة بتأييدهم وتشجيعهم لموضوعها) .

وأما اميل البستاني (مقال مليونير مسيحي) وفوزي الحص (مقال مليونير مسلم) فقد كانا من دعاة « النظام والقانون » ، ومن الذين يتمتعون بشقة رجال الاعمال الغربيين واحترامهم . وقد بحثنا معي امكانية التوسط لدى الرئيس ناصر ، لما بيني وبينه من صداقة وحسن صلة ، وذلك لايجاد حل

مناسب للآزمة اللبنانية يسمح لكل من المصريين والأمريكيين بسحب تأييدهم على الترتيب ، « للبيارة الأربعة » ولحكومة شمعون . كما أن على الحل المناسب أن يترك الباب مفتوحاً على مصراعيه أمام العناصر المعارضة لشمعون والمؤيدة له للتوصل إلى تسوية سلمية بينهما لإنهاء الصراع ، وإنفاذ ما تبقى من البلاد من الخراب والدمار . وكان لي اتصال سابق مع كلا الرئيسين شمعون وناصر ، وذلك قبل أن تتفاقم الأحداث وتبلغ الأزمة ذروتها في لبنان . وبعدما لمست استحسنان إحدى كبريات شركات البترول لفكرة الوساطة (وكان ذلك في حزيران ، يونيو) عازمت أولاً على مفاتيحة الرئيس شمعون بالفكرة ، ومن ثم الرئيس ناصر . ولم يكن جلياً همي في البداية ترويج الفكرة والدعوة لها بقدر ما كان الوقوف على مدى استعادهما للتجاوب مع الفكرة حقاً .

وكميل شمعون بمطلعه الوسيم ، وشعره الأشيب ، ومظهره الذي يشابه تماماً مظهر الرئيس اليوغوسلافي تيتو ، كان من دعاة « العربية » قبل أن يسمع ناصر بهذه الكلمة بزمان بعيد . ففي الجامعة الأمريكية في بيروت ، حيث ولدت فكرة القومية العربية وترعرع دعاؤها (١) ، كان شمعون من الدعاة المتحمسين « للوحدة العربية » ولمجابهة عربية واحدة ضد المطامع الصهيونية . وللسنوات خلت ، بات الرئيس شمعون متحرراً من فكرة القومية العربية كقضية سياسية مطروحة للتنفيذ . ويعتقد شمعون أن فكرة القومية العربية ما هي إلا أداة في يد أكثر رجال السياسة المسلمين فساداً ، ناهيك عن أن معظمهم من المهاجرين الدائرين في فلك سلطات القاهرة . كما يستبد الخوف بشمعون من أي نجاح قد يحرزه السياسيون من دعاة الوحدة العربية في تحقيق أي من أشكالها التي - على حد اعتقاده - ستجعل من المسيحيين في لبنان أقلية مضطهدة (٢) في وسط بحر من المسلمين المستائين .

(١) إن أكثر من تسعين بالمئة من قادة حركة القومية العربية الاقحاح هم من خريجي الجامعة الأمريكية في بيروت . ولا تزال هذه الجامعة (وكانت سابقاً تسمى «الكلية الانجيلية السورية») ناشطة في تقديم مثل هذه الخدمات لدول منطقة الشرق الأوسط . (العرب)

(٢) تخلى بعض المسيحيين من هذه العقدة عندما قرروا قيادة الحركة القومية وما يتفرع عنها من منظمات بأنفسهم . وكان منهم السادة : ميشال عفلق وجورج حبش ونابيف حواتمه وأنطون سعادة (الذي وإن اختلف في الفكرة فلا يختلف في الجوهر) . (العرب)

وأبدى ناصر تفهما لقلق شمعون ومخاوفه . وكاد أن يظهر عطفا زائفا على مثل تلك الأفكار . وليس هذا على ناصر ببعيد . فهو لم يقرن الإسلام بفكرة القومية العربية الا بدافع المصلحة وبمحض الصدفة . فناصر لا يتمتع بدوافع عقائدية تملئ عليه مثل هذه الأفعال . ولقد وفرت فكرة اقتران القومية العربية بالإسلام لناصر فرصا ملائمة ، ووضعت تحت تصرفه وسائل مريحة ، مكنته من الاستفادة من فكرة القومية العربية دون أن يستفيد منها الإسلام . الا ان ناصرا احتج على فكرة بقاء شمعون على الحياد . فالصراع بين « التقدميين » من العرب و « المحافظين » لا يحتمل الحياد . ولم ينس ناصر مقالة الوزير دالس في فكرة الحياد هذه . فقد رآها الأخير فكرة « لا أخلاقية » في مضمار الصراع بين الشرق والغرب . وهكذا لم تختلف حجة ناصر عن حجة دالس بكثير . فالحياد عند الاثنين « لا أخلاقي » ، الا فيما يرغبان . ولم يتخل ناصر عن اعتقاده (ودون أن يكون عنده دليل) أن لبنان يستخدم بصورة متزايدة كقاعدة للعمليات ضد (١) الجمهوريه العربية المتحدة الفتية ، (وكان عبدالحيد السراج ، رئيس المخابرات والامن القومي في سوريا (الاقليم الشمالي) قد أقنع ناصرا بهذه الفكرة منذ أول اجتماع اداري بينهما) . وبغض النظر عن كل هذا وذاك ، فان ناصرا لم ينس أبدا الحقيقة المشؤومة أن شمعون كان « خارجيا » . فالأخير ، وان لم ينضم لحلف بغداد (وما كان هذا ليعني شيئا لو حدث) فقد كان في طليعة المرشحين « بمبدأ ايزنهاور » ، بل لقد فتح له صدره ، وهش له وبش .

وفي العشرين من حزيران (يونيو) قمت ، بصحبة فوزي الحصى ، بزيارة للرئيس شمعون ، حتى أحصل منه على تفويض بتبليغ الرئيس ناصر موافقته على الالتقاء برشيد كرامي وصبري حماده وكمال جنيلاط ، في محاولة مخلصه للتوصل الى هدنة معهم مقابل موافقة ناصر على ايقاف دعمه « للسيارة الاربعة » . الا أن اعتداد شمعون بإمكانية التدخل الأمريكي عند الطلب (كما ينص على ذلك مبدأ ايزنهاور) جعلته أقل تقبلا للفكرة السابقة ، وأكثر ابتعادا عنها . وكان أثر هذا علينا مذهلا ، وجلست وفوزي صامتين . واستمر الرئيس في عرضه الاحداث قائلا : « لقد فقدت كل ثقتي في السفير الأمريكي . لقد

(١) وصف ناصر في إحدى خطبه عام ١٩٥٨ هذه الجمهورية بأنها « تصون ولا تهدد ، وتحمي ولا

تهدد » (المغرب)

تهدد » .

خذلني بعدما جعل من فكرة تجديد رئاستي أمرا عظيما . انني اثق كلية ببيل
يفلاند ، فقد كان يشد من عزيتي ، ويحثني على أن أقف صامدا دون تراجع أو
ضعف .

وتحت ضغط فوزي الحص واميل البستاني ، غادرت بيروت الى القاهرة ،
وقصدت ناصرا للاجتماع به مباشرة بعد تبادل سريع للآراء مع سفيرنا هناك
ريموند هير . وكنتيجة لمقابلتي ناصرا وسفيرنا ، فقد علمت أن فكرة اميل
البستاني وفوزي الحص قد خطرت لناصر ، وقدم بها الى السفير اقتراحا جاء
فيه : « لما كانت كل من الولايات المتحدة الامريكية والجمهورية العربية المتحدة
تمثلان الطرفين الخارجيين اللذين لهما علاقة بالازمة اللبنانية ، فانهي لا ارى
مانعا في عقد اجتماع يضم الطرفين ، وذلك للتوصل الى اتفاق على حل يفرضانه
على اللبنانيين » . الا أن السفير ريموند هير رد على اقتراح ناصر (بعد تبادل
الرأي مع واشنطن) بجواب تعمد فيه اسامة تفسير اقتراح ناصر جاء فيه :
« ان من دواعي سرور حكومة الولايات المتحدة أن تبذل قصارى جهدها للتوسط
في النزاع بينك وبين الرئيس شمعون » . الا أن ناصرا ، الذي اعتاد أن يوقع
السفراء الامريكيين في شركه ، دون تدمير منهم أو احتجاج ، قد تضايق من
هذه المكيدة التي دبرها له السفير هير . وعندما اجتمعت به أحسست أنه ما
زال يعاني من وخزها . ومع ذلك ، فقد أسهب ناصر في شرح آرائه حول الازمة
اللبنانية لينتهي أخيرا الى القول ، انه لو كانت الازمة اللبنانية تخصه وحده
دون سواه ، فإن ما يفعله هو تنصيب الجنرال فؤاد شهاب رئيسا للجمهورية
ورشيد كرامي رئيسا للوزراء . ومن ثم يخرق سفينة « البيارثة الاربعة »
ليفرقها بمن عليها ، فلقد أذاقوا سفيره (عبد الحميد غالب) الأمرين .
واختتم ناصر الاجتماع مقبلا : « ولو أن الأمور بقيت على حالها ، فلا بد من
الوصول بها الى نهاية ما ، نشهدا بام أعيننا ، ونرعاها بأيدينا . ولن يوقف
أحد منا دغمه للأطراف الموالية له ، وستبقى مصر لحلفائها ، والولايات المتحدة
لأعوانها » .

الا أنني أخبرت السفير هير ، أن كل أصدقائي في بيروت - الامريكيين
منهم واللبنانيين - سيصابون بخيبة أمل ، وسيظنون بجوابه لناصر الظنون .

فهم يرون في اقتراح ناصر الشكل الوحيد لاتفاق ينهي النزاع ويفيد الهدوء .
الا أن السفير اجابني موضحا أنه - شخصيا - قد آنس في نفسه ميلا قويا نحو
اقتراح ناصر . ولكنه كسفير لبلاده ، فانه لا يملك من الامر شيئا . فواشنطن
هي التي تقبل وترفض ، وعلى السفير السمع والطاعة . كما أن تبادل الآراء
مع واشنطن قد ترك عنده الانطباع أن طبقة رجال الاعمال في لبنان تعارض
بشدة أي رد لبناني على ناصر او جواب مرض له . ثم التفت الي السفير قائلا :
« ألم تكن قد وافقت على أنه لا ينبغي لطرف من الاطراف أن يفرض نفسه عنوة
يجلس الى طاولة المفاوضات ؟ اذا كان ناصر يرى ضرورة اجراء مفاوضات
حول القضية على مستوى الولايات المتحدة والجمهورية العربية المتحدة ، بدلا
من مستوى ناصر وشمعون ، فاخبره أن يأتينا بشروط بناءة ، ثم نحن حيالها
نلقاه » . واستشهد السفير هير بهذا الكلام من تقرير أرسله أحد كبار مدراء
شركة بترول أمريكية في بيروت . وتضمن ذلك التقرير الملاحظة التالية :
« لقد غدت المعركة في لبنان بين عملاء ناصر من طرف وأزلام شمعون من طرف
آخر . الا أن أزلام شمعون ما زالوا يتمتعون بصيغة قانونية ، فهم مع الحكومة ،
وليسوا ضدها » . ولم يكن السفير هير مؤيدا وجهة النظر هذه سوى تأييد
محدود ، الا أنه وصفها بأنها تمثل « الموقف الجديد » في واشنطن الذي أضحي
(الى حد كبير جدا) تحت التأثير الجديد لتلك التقارير غير الرسمية الصادرة
عن رجال الاعمال الامريكيين في بيروت . وكانت هذه التقارير تصل الى وزارة
الخارجية مرفقة باستحسان المقررات الرئيسية لشركات البترول ، كما كانت
تتلقى الدعم من رجال الكونغرس الذين كانت الشركات تزودهم بنسخ عنها
مباشرة) ومن رجال ذوي نفوذ واسع في أروقة الحكومة والذين هم بنفس
الوقت أعضاء في مجالس ادارة تلك الشركات . وأما بخصوص تنصيب ناصر
للجنرال شهاب رئيسا للجمهورية ، ولرشيد كرامي رئيسا للوزراء ، فقد كان
اعتقاد وزارة الخارجية الأمريكية وطبقة رجال الاعمال الامريكيين أن اعتقال هذين
الرجلين سدة القيادة دليل ، ما بعده دليل ، على انهيار سلطة القانون ، وفقدان
النظام والامن في لبنان .

وقفلت عائدا الى لبنان . وهناك وجدت أن عملية ضخمة كانت في طور
الانجاز والتنفيذ . وبعبارة أوضح ، فقد كان هناك مجموعة عمليات محدودة ،

ومعدومة التنسيق ، وعاجزة عن تحقيق أية نتائج لانها لانت تضم أطرافا لا يدري كل منها ما يريد من الآخر ويسمى له (.) فقد قامت مجموعة أغنياء المسلمين اللبنانيين تحت اشراف فوزي الحص ، بالاسهام في مجهود مشترك لشراء الانصار من حول البيارة الاربعة ، تخفيفا لحدة التوتر . (ولم تكن هذه العملية باهظة التكاليف ، وذلك لان المصريين كانوا قد علقوا مساعداتهم المالية في انتظار نتائج تحقيق يجري حول مزايدات تزعم الانباء أن أحد « البيارة الاربعة » يزاولها) . كما تطوع عادل عسيان ، رئيس المجلس النيابي الشهير ، للتوسط بين المعتدلين من أنصار شمعون والمعتدلين من معارضيه . وأثناء غيابي عن بيروت ، أخبر السفير الأمريكي الرئيس شمعون أن الادلة على تدخل الجمهوريه العربيه المتحدة لم تكن مقنعة ولا حاسمة (كما أن مراقبي الامم المتحدة لم يعثروا على أي دليل لهذا الغرض) . ولهذا فان نزول القوات الأمريكية في لبنان أمر غير وارد البتة . وهكذا أضحى الرئيس شمعون منبسط الهمة ، مهبط الجناح (على حد قول فوزي الحص وهو فرح بهذا جذلان) ، وغدت فكرة التوصل الى تسوية للنزاع أكثر احتمالا وأقرب منالا ، أرغب بذلك شمعون نفسه أم بقي رافضا .

ولم تكن فرصة نجاح العملية السابقة قليلة . الا أن انقلاب العراق قد قلب الوضع رأسا على عقب . وحدث هذا في صبيحة الرابع عشر من تموز (يوليو) عام ١٩٥٨ . وتلقت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية أنباء تفيد أن عملية ذات شعب ثلاث قد بدأت لتوها ضد العائلة المالكة ونوري السعيد في العراق ، وضد الرئيس شمعون في لبنان ، وضد الملك حسين في الاردن . وهي بمساعدة الجمهوريه العربيه المتحدة ، بل وبتحريضها . وبناء على هذا ، قرر السفير الأمريكي أن للرئيس شمعون الحق في طلب المعونة العسكرية الأمريكية استنادا الى نصوص « مبدأ ايزنهاور » . وقدم شمعون للامر طلبا ، وقطع السفير بوصول المساعدة عهدا . وضرب لها موعدا لا يزيد عن ثمان وأربعين ساعة زمتنا . ونسي السفير ان الاسطول كان على مسيرة يوم واحد بعدا . وهذا ما حدث فعلا . فقد وصل الاسطول في أقل من أربع وعشرين ساعة ، وتدفق الجنود منه أفواجا أفواجا ، بوجوه متجهمة وبنادق مصوبة . وعلى شواطئ بيروت الجميلة كان الناس تحت أشعة الشمس ممتددين ، وفي مياه البحر

يسمحون . وسرعان ما علت الدجشة وجوههم ، وأضحوا في ارتباك لا يدرون
ما يفعلون . انهم في استقبال جنود البحر واقفون ، وبهم صديقة مريحون .
وأما الصغار من الصبيان ، فانهم في زرافات قادمون ، « وللملكة » بانعون .
وفي تلك اللحظات ، كان عادل عسيران مستقلاً سيارته الكاديلاك ، وهي مكيفة
المواء . ينهب بها الارض نهبا وهي متجهة نحو الشمال . لقد كان على موعد ،
ومع رشيد كرامي بالذات . ويريد أن يحصل منه على موافقة للصلح والسلام .
وفجأة وجد نفسه وسط الزحام ، يراقب الاحداث من خلف الزجاج . فينظر
فلا يرى الا جنودا امريكيين ، على موجات متدفقين ، وعلى الساحل « الفينيقي »
معسكرين .

وشهدت أمواج الاثير بعد نزول القوات مشادة بين السفير الامريكي وقائد
قوات الانزال البحرية . وطبعاً ، فقد تبادلوا فيها التهم ، ولم يكتراثا . وكان
الخلاف يدور حول « من يتلقى الاوامر من الآخر ؟ » . وتمخضت الشادة عن
وصول القائد البحري الى مقر اقامة السفير ، وهناك أعطى التصريح البديع :
« اننا قد أنقذنا البلاد من كساد اليم ، وأسعفنا الاقتصاد من وضع مهين ! »
وجرت هناك مشادات أخرى ، وتراشق الاطراف الشتائم . فبين الدبلوماسيين
الذين لا يعلمون بالجرأة الا في حفلات الكوكتيل ، والعسكريين الذين اعتادوا
لغة الحديد والنار ، ما صنع الحداد . انهم لا يتبادلون فيما بينهم الا الاستهزاء ،
ولا يتخاطبون الا بلغة التهكم والسخریات . لقد وقف الى جانب العسكريين
كل من الرئيس شمعون ووزرائه ومعظم المسيحيين اللبنانيين ، وطبقة رجال
الاعمال الامريكيين ، ووكالة المخابرات المركزية . فقد كان الكل لهم مناصرين ،
وللنجاح لهم متمنين .

وفي الوقت الذي كان يريد السفير ان يظهر جنود البحر الامريكيون مدى
وفاء الولايات المتحدة بالتزاماتها تحت ظل « مبدأ ايزنهاور » ، ويركزوا على
فكرة انسحابهم عاندين ، حال استيفاء العملية أغراضها بأقل خسائر ممكنة
(ودون أن يتبع ذلك استعمار) ، فان الرئيس شمعون كان يريد أن يقوم جنود
البحر بفرز لمنطقة المسلمين في البسطة ، فيمنشطوها من جميع عناصر المعارضة
(ودون تمييز بين المعارضين حقاً وبين المدسوسين منهم في الصفوف) ، وأن

يتحركوا من ثمّ لسد المنافذ أمام المساعدات السورية المتسللة عبر الحدود وفي بطون الاودية وعلى رؤوس الجبال . بيد أن الرعب قد دب في قلوب رجال الاعمال الامريكيين في بيروت نتيجة التقارير الرهيبة التي نقلت اليهم خفايا انقلاب العراق . واضحووا تقريبا على اتفاق مع الرئيس شمعون بخصوص ما يجب اتخاذه من اجراءات ، وان اختلفت دوافع الطرفين . وفلا ، فقد أجمع رجال الاعمال على أن للرئيس شمعون الحق بتقرير ما يروق له ، دون أن يظهر أي لين ، أو يبدي خضوعا للارهابيين في بيروت .

وأخيرا رجح موقف السفير . فبواسطة سلسلة من التحركات الجديرة بالثناء والاطراء ، تمكن السفير من ترسيخ أقدام جنود البحر الامريكيين في كل أنحاء بيروت ، ودون اصطدام مع الارهابيين أو التحام مع الجيش اللبناني . (وكان حقيقة قد ضمن مسبقا مساعدة الجيش اللبناني) . ومكث جنود البحر ثلاثة أشهر في لبنان ، أنفقوا خلالها الملايين ، وبسهولة وطدوا العلاقات مع اللبنانيين . ومن ثم قفلوا راجعين ، دون أن يطلقوا رصاصة واحدة في غضب أو طيش كالمجانين ، (على حد قول ماك لينتوك سفير الامريكيين) . وكثير من أولئك الذين كان عندهم أول المام بتعقيدات الحالة هناك ومضاعفاتها قد قدروا السفير حق قدره ، وعدوا العملية من أبرز مآثره . الا أن تقارير أخرى كانت تصل الى واشنطن من مصادر غير السفارة في بيروت . ومع أن هذه التقارير قد كتبتها أقلام بعض من لا يملكون الا فهما محدودا للاحداث الدائرة هناك ، فقد كان بعضها مقنعا للغاية (وخاصة تلك التي كتبت بأسلوب رجال الاعمال الشائع الاستعمال) ، كما وأنها تظهر اختلافا وتباينا صارخين مع تقارير السفير ، تلك التي كان يرسلها بأسلوبه الادبي البليغ . وعندما شرع بعض رجال الصحافة من اصحاب النفوذ والتأثير بنشر تلك القصص (الشبيهة بالتقارير) عن تقصير السفير وفشله ، قرر الوزير دالس ، جريا على عادته في حل المشاكل ، أن يرسل أحد كبار المسؤولين لاحقاق الحق ورفع الظلم .

وكان المحقق يومها روبرت مورفي . وروبرت هذا ذو شهرة واسعة (وذلك يوم وصوله الى لبنان) على أنه اعتاد على اهمال قيود مهمته وعلى اعتماده على خبرته وحصافته في اصدار الاحكام بناء على ما يسمى بمعاملة « نظرة جديدة على

مشرح العمليات . • وعندما قرر الوزير دالس ارسال مورفي الى بيروت ، كان الاخير منكبا على دراسة تشكيلة واسعة من المسائل (وكان يعمل اثنتي عشرة ساعة يوميا) دون أن يمت أي منها بصلة الى الشرق الاوسط . وبعبارة أخرى ، فقد منح لقب المستشار السياسي لقائد أركان حرب القوات الامريكية في لبنان شكلا . وكانت مهمته حقيقة هي جمع الشخصيات والتقريب بين وجهات نظرها ، مستفيدا من علو منصبه وخبرته الطويلة « كدبلوماسي بين المتحاربين » (عنوان ترجمته لحياته) وكان عليه أن يفعل ما يراه ضروريا ومناسبا لتميز مصالح الولايات المتحدة التي برزت فجأة نتيجة نزول قواتها في لبنان ، (وقد أخبر مورفي عن هذا في كتابه عندما شرح أهداف مهمته) • الا أن بعض الظرفاء من طبقة رجال الاعمال كانوا يرددون أن مهمة مورفي في بيروت لم تكن سوى « منع وقوع انقلاب في داخل السفارة الامريكية » هناك . ومهما كانت الصعوبات التي حالت دون تفهم مورفي للحالة الراهنة وللتأويلات المتضاربة لها تفهما شاملا وعميقا ، فانه قد قام بدون شك بمحاولة نزيهة لايجاد الحلول لها دونما تحيز لآحد أو تشبث برأي .

ومن التفاهة أن نفوض في تفاصيل مهمة المستر مورفي في بيروت . فموضوع كتابنا هذا هو دبلوماسية ما وراء الكواليس ، وليس فن الحكم والادارة . الا أنه يجدر بنا أن ننوه الى أن مورفي كان يتوجه في تصرفاته بوعي من تلك المقطوعة الاثرية لمبادئ الحكمة والحصافة القائلة : « انني استمع الى جميع الآراء المتطرفة ، ولجميع الاطراف المتضاربة ، بأذن صاغية وصدر مفتوح . وفي النهاية ، فانني غالبا ما المس أن . » الحقيقة « في الوسط ، وعلى الطريق الواصل بينهم » • والاطراف المعنية هنا هي : شمعون وكان يومها رئيسا للجمهورية ، و « البيارة الاربعة » الذين كانوا على رأس عصابات الارهاب المدعومة من قبل سفارة الجمهورية العربية المتحدة . وقد رجوت مورفي في خلال المقابلة التي سمح لي بها معه (ولم تزد على ثلاثين دقيقة) أن يقتصر في علاقاته مع زعماء المعارضة على أولئك الذين يستلون دوائر نفوذهم حقا ، ويبتعد عن أولئك الذين تحوم الشكوك حول اوضاعهم وخاصة أولئك المحسوبين على سفارة الجمهورية العربية المتحدة . ومع أنه قد أصفى الي بلطف وأدب . الا انه لم يمض ساعة من الزمن على لقائنا معا حتى كان مورفي في طريقه للاجتماع

بأكبر عملاء القاهرة في لبنان . وقد ازدهر نفوذ هذا الأخير ثانية وزاد بعدما شارف على الانقراض كليا منذ ظهور محلولات الوساطة وانتهاء النزاع . ومع أن الاجتماع كان مقررا له أن يبقى سرى (كما قال ذلك مورفي فيما بعد) إلا أنه لم يكن في صالح ذاك السياسي بالذات أن يبقى الأمر كذلك . بل ، وعلى العكس ، فقد ظهرت صور الاثنى معا وهما يتصافحان ، وللآراء يبادلان ، ووزعت في الشوارع والاحياء ، وعلقت على الجدران ، وكان مكتوبا عليها تعليق بعنوان : « مثل الرئيس ايزنهاور يتعاطف مع الثورة ! » .

ومع أن معظم الكتاب الذين علقوا على الاحداث اللبنانية قد اجمعوا على اعتبار نزول جنود البحر الى الشواطىء اللبنانية ماثرة دبلوماسية بارعة ، إلا أن ذلك لم يكن أكثر من مجرد رأي عالمي لا يمت الى مسرح الاحداث الحقيقي بصله . لقد برهنت تلك الحادثة على تمسك الولايات المتحدة بالتزاماتها ، وأنها على استعداد لأن تمد يد المساعدة لأصدقائها بطريقة عجز السوفييت عن محاكاتها والقيام بمثلها تجاه أصدقائهم . وأما على مسرح الاحداث في المنطقة ، فلقد جاءت نتائجها مطابقة لما كان ناصر يعلم به ويشنهي ، حتى بدا وكأن جنود البحر جاؤوا الى لبنان لخدمة أهداف ناصر وتحقيق مآربه . فأولا ، ان كلا من رئيس الجمهورية شهاب ورئيس الوزراء كرامي ، وهما الرجلان اللذان استلما دفة القيادة بعد انتهاء الاحداث ، كانا نفس الرجلين الذين أرادهما ناصر أن يكونا في هذين المنصبين . وثانيا ، فقد استقر الارهاب في نفوس الناس على أنه السلاح الفعال ، ودون ازدراء له أو استمزاز منه . وفي خلال الايام الاولى لانتهاء الازمة ، كانت جميع الطوائف الدينية والفئات السياسية ترفع شعارات تقول : « علينا أن ننتزع بالقوة ما لنا من حقوق ، فالحكومة لا تنوي ردها الينا ، ولن تساعدنا على ذلك » . وكان هناك من يقول داخل سفارتنا : « ان اللبنانيين ليسوا سوى أفراد في مجتمع عصابات » ، ومن السخف أن تتوقع منهم نتائج أحسن من ذلك . ومع هذا فقد سنحت الفرصة لاقامة قواعد وأنظمة أساسية ولسيبتها هناك ، ولم يكن ليقفل من هذه الفرصة الحقيقة أن علاقاتنا مع زعيم اربابي لم تكن لتختلف عن علاقاتنا مع رئيس لجمهورية البلاد . وثالثا ، فقد مات « مبدأ ايزنهاور » بعد الازمة اللبنانية ، وأضحى أثره بعد عين . ونقص عدد « الخوازيج » واحدا ، وودع ناصر القلق منه واستراح

ولسنوات مقبلة لم تعد حكومة لبنانية تفكر بعقد صفقات مع الغرب حتى لا تكون مدعاة لاثارة متاعب جديدة ومبررا لتدخل ناصري جديد في لبنان . فناصر يستطيع ذلك كلما أراد ، وقد يفعله دون تردد أو احجام .



وعندما شارف عام ١٩٥٨ على الانتهاء كان ناصر قد بلغ ذروة القوة . ولقد اعني بكلمة « القوة » ، في كتابي هذا ، امتلاك الفعالية العظمى في مجال الصراع مع الدول الكبرى لصالح مصر ، ومصر لوحدها . وعلى حد قول أحد المعلقين ، فان ناصر! قد فشل في ضم لبنان الى الجمهورية العربية المتحدة ، كما فشل في ضم الاردن لها بعد قيامه بمحاولة انقلاب أخرى هناك بعد انسحاب القوات البريطانية منها (وكانت قد حطت رحالها هناك عندما نزل جنود البحر في لبنان) . وحدث انقلاب في السودان أطاح بالحكومة هناك في غفلة من المخابرات المصرية وأعوانها ، ووضع السلطة في يدي حكومة « مستقلة » عن القاهرة . وشن الحبيب بورقيبة ، رئيس الجمهورية التونسية ، هجوما عنيفا على ناصر . وهكذا بدا ناصر في الاحوال غارقا وفي المتاعب غائضا ، تمصفا به الانواء ، وتنزل به النوازل من كل حذب وصوب من العالم العربي . الا أن ذلك لم يكن صحيحا ، ولم يكن ناصر ليمبا به . فهو حقيقة لم يكن وراء حكم العالم العربي ، ولقد أخطأ من ظن ذلك . وان نظرة عابرة على البرقيات الواردة الى وزارة الخارجية في واشنطن (وكان يشار فيهما الى ناصر باسم « موضنة المستقبل ») ، أو احصاء سريعا للمساعدات المالية والفنية التي كان يومها ناصر يتلقاها من الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي ، كان كافيا لان يدرك المرء ان ما رآه من هزائم متلاحقة حلت بناصر قد عادت على الاخير بأرباح طائلة ومنافع لا تعد لها ولا حصر . لقد بلغ مجموع المساعدات الاجنبية التي نالها ناصر ، من الولايات المتحدة والدول الشيوعية (دون سواها) في السنوات الاربع التالية لعام ١٩٥٨ أكثر من مليار من الجنيهات المصرية (أي حوالي ٢٣٣ مليارا من الدولارات) ، بالرغم من كل تلك التقلبات التي طرأت على علاقته مع الاتحاد

السوفييتي أولا ومع الولايات المتحدة لاحقا • لقد عزت واشنطن نجاح ناصر الى كونه « عاملا تحرض الاطراف على طلب وده وضمان جانبه » • وأجمع على هذا الرأي كلا الفريقين القائلين بفشل ناصر أو بنجاحه في الحرب الباردة التي دارت رحاها في عام ١٩٥٧ - ١٩٥٨ •

ومع ذلك ، فان تدخل ناصر في الازمة اللبنانية قد اثار ضغائن أوساط رجال الاعمال الغربيين وأحقاد مؤسساتهم التجارية • لقد كان بعض هذه المؤسسات لا يتحرج في أن يتحالف مع الشيطان في سبيل كسب دراهمهم معدودات ، الا انها جميعا تتوجه في حقيقة تصرفاتها بادراك عملي وفهم مرن لاطماع « الشيطان » ذات المدى البعيد • ان عددا غير يسير من الشركات التجارية التي لا تطمع الا بمنافع آنية وقصيرة المدى قد أنشأت علاقات تجارية مع مصر منذ عام ١٩٥٨ • وفي الوقت نفسه ، فان ازوقة التجارة العالمية في واشنطن بدأت تركز بشدة على كل ما هو « ضد ناصر » ، وأخذت تضايق باستمرار موظفي وزارة الخارجية الذين يظهرون عطفًا على ناصر وميلا له ، وكانوا يتبعون معهم وسائل التهديد ، كنقلهم من وظائفهم ، ان لم يلتزموا بالصمت • ولم يستثنوا من حملتهم هذه حتى أولئك الموظفين الذين كانوا يرون في ناصر بعض الخير وليس كله شرا بشر • ولاعتبارات عالمية يجهلها رجال الاعمال وان علموا بها فلا يستسيغونها ، فان حكومتنا قد أمسكت في السنين الاربع التي تلت عام ١٩٥٨ عن اتباع سياسة معادية لناصر كليا (١) • كما أن قيام ناصر بتأدية بعض الخدمات لنا خارج نطاق « لعبة الامم » كان من بين العوامل الرئيسية التي أدت الى تخفيف حدة ضغط الاتجاه المعادي له على حكومة الولايات المتحدة • الا أن هذا الاتجاه المعادي له ما لبث أن عاد ثانية الى سابق قوته ، بل ولقد زادت ضراوته ، الى الحد الذي أثر على قوة ناصر نفسه في « لعبة الامم » تأثيرا مباشرا فشله مرونة حركته التي كانت تعتمد كليا على مهارته في أن يزج بنا في دوامة السباق والتنافس مع السوفييت •

(١) تذكر الاخبار أن القنصلية الامريكية في حلب (سوريا) قامت بتشجيع مؤيدي ناصر ضد حركة الانفصال التي قامت في دمشق في ايلول (سبتمبر) ١٩٦١ على أيدي بعض الضباط، الذين حل بهم أخيرا ما حل بزعماء الثورة الفرنسية في القرن الثامن عشر • (المغرب)

السياسة الناصرية في الخارج تمتص ثروات الشعب في الداخل

... وثقلت الوبئة والعلظة باعطة جدا بل وقاسية ، واذا قصر الانسان بعلمها تركته
وهيّا عندها وسلطة لها .

ومع أن تدخل المصريين في أزمة عام ١٩٥٨ اللبنانية قد أثار حفيظة طبقة رجال الأعمال الغربيين ، فإن الناصريين والدبلوماسيين الغربيين كانوا ينظرون الى الأحداث اللبنانية على أنها جزء من جبهة أعرض بكثير . وكما ذكرنا آنفا ، فقد رد ناصر على توقيع حلف بغداد بشمن حملات قاسية ضد نوري السعيد في العراق والملك حسين في الاردن وكميل شمعون في لبنان بغية اسقاط أنظمتهم والاطاحة بهم . وقبيل نشوب الأزمة اللبنانية ، كان « أزام » ناصر قد حرّضوا اللاجئين الفلسطينيين في الاردن ضد الملك حسين ، كما أفلح ناصر باغراء الملك سعود بالتكفل بأعباء الحملة ماليا . الا أن الحكومة الامريكية أوفدت كيرميت روزفلت الى المملكة العربية السعودية لاقتناع الملك سعود بإيقاف معونته المالية . وبعدها توجه كيرميت الى الاردن لبحث أوضاع الملك ولإيجاد الطرق لدعم نظامه الذي كانت تعتقد الحكومة الامريكية أنه أقل أنظمة « الخوارج » الثلاثة - نوري وشمعون وحسين - استقرارا وصمودا . وقد حالف النجاح روزفلت في مهمته باقتناعه الملك سعود أن ناصر قد خدعه عندما أغراء بمعاداة الملك حسين من جهة وبشرائه الصحف الشيوعية في كل من دمشق وبيروت من جهة أخرى . كما تمكن روزفلت من اقناع الملك سعود بحضور اجتماع القمة الذي كان ناصر قد دعا لانعقاده في القاهرة في كانون الثاني (يناير) ١٩٥٧ ، وبممارسة الضغط على كل من ناصر وصبري العسلي (رئيس وزراء سوريا يومها) لتقديم مساعدة مالية للاردن كبديلة للمساعدة البريطانية التي خسرها الملك حسين نتيجة رفضه الانضمام لحلف بغداد (تحت ضغط من ناصر) .

وهكذا فستتوفر للملك سعود الفرصة للتأكد من مدى جدارة شركائه بثقته وذلك من خلال وفائهم بالتزاماتهم المالية تجاه الاردن . الا ان الملك سعود قد أفسد اللعبة عندما خُدِعَ بالمداهنات الأمريكية أثناء زيارته لواشنطن ، بعد اجتماع القاهرة ، مما دعا ناصرا أن يسحب ما وعد به من معونة مالية . وهكذا نجحت لعبة الايقاع بين المصريين والسعوديين ، وتبعتها لعبة أخرى للايقاع بين الاردنيين والمصريين فقد كان الملك حسين قد انضوى تحت لواء ناصر وانضم الى « جمعيته » . الا أن روزفلت قد انتزعه من بين برائن ناصر ثانية . وقد ادعى ناصر فيما بعد أن روزفلت قد مرّر معلومات معينة الى كل من أبي حوار وسليمان النابلسي أغرتهم بالتحضير لانقلاب ضد الملك . وعند التنفيذ وجدا أن كل تلك المعلومات كانت مزورة وملفقة كما وجدا الملك في انتظارهما (١) . وهكذا تم لروزفلت ما لم يتم لناصر .

وفي عام ١٩٥٣ ، شرعت اذاعة القاهرة ببث برامج خاصة تحت اسم « صوت العرب » كوسيلة من وسائل تشييد ناصر لصرح « أسطورة القومية العربية » وفضح أعدائها والغرباء عنها ، ولترسخ في الادهان مواصفات « عملاء الاستعمار » حتى يسهل على الجماهير في المنطقة كشفهم واماطة اللثام عنهم (وكانت تقصد أيضا مطابقة هذه المواصفات أم لا على كل من شمعون وحسين ونوري) . وبعد توقيع حلف بغداد مباشرة ، رفع « صوت العرب » من عدد ساعات البث اليومي ساعتين ، كما بدأ يركز على التحذير من أعداء « أسطورة القومية العربية » ، بدلا من التركيز على « تشييد صرحها » . ومنذ ذاك الوقت وبرامج اذاعة القاهرة تزداد قوة وبنا وتركيزا (فيما تحتويه من معلومات) . وفي عام ١٩٥٧ كانت اذاعة القاهرة تدعو الى أعمال الشغب والعنف وتحرض على الاغتيالات جهرا بافتضاح . وقد جاء مرة في احدى اذاعاتها : « وأخيرا ، فلقد عثرنا على الخائن نوري ، وان كانت العزة والكرامة تجريان من العراقيين مجرى الدم في العروق فان عليهم أن يقتلوه ويطرحوا أشلاءه الى الكلاب » .

(١) لقد تكررت هذه العملية ثانية عندما حاولت عناصر عسكرية تابعة لاحد الاحزاب الدينية في الاردن القيام بانقلاب ضد الملك . فقد توجه الضابط المكلف باحتلال الاذاعة الى العصور الملكية وتناول القهوة بصحبة الملك (١٩٦٩) .

(العرب)

واستقرت صحيفات « صوت العرب » انتباه أجهزة المخابرات البريطانية والأمريكية بعدما تم تسجيلها من قبل « هيئة معلومات الاذاعات الأجنبية » ، القابعة في جزيرة قبرص ، والتي تلتقط كافة برامج اذاعات الشرق الاوسط ومعظم اذاعات افريقيا واذاعات بعض مناطق الاتحاد السوفييتي وتسجلها . وعندما دعا مذيع « صوت العرب » الى اغتيال نوري السعيد ، انكب خبراء الدعاية ومحللو المعلومات في كل من لندن وواشنطن (وحتما في كل من باريس وبكين وموسكو وبضع عواصم أخرى) ، على دراسة برامج اذاعة القاهرة بجد واهتمام غربيين لم يشهد العالم نظيرا لهما منذ أيام هتلر . وعلى نحو ارتجاعي ، فقد تم تمحيص هذه البرامج الاذاعية أكثر من مرة لتحديد قوة تأثيرها الخارجي ، وللوقوف على حقيقة المخطط الذي وراهها ، وللعثور على مواد اذاعية صالحة لشن حملات مضادة للدعاية المصرية . ومن الغريب أن تلك البرامج الاذاعية كانت لا تبدو أكثر من مجرد هراء وسفسطة اذا ما محصت جملة جملة ، الا انها سرعان ما تبدو وكأنها حملة متكاملة ومنظمة بمهارة فائقة عندما ينظر اليها ككل . وفي اوائل عام ١٩٥٦ ، قامت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية بتمويل دراسة حول ردود فعل المستمعين لبرامج القاهرة الاذاعية في كل أنحاء العالم العربي . وانتهت الدراسة الى النتيجة التالية : ان اذاعة القاهرة قد حظت بأكبر نسبة من المستمعين بدوا كانوا أو حاضرة ، ومارست تأثيرا جيدا على العرب فساقتهم سوق التنويم المغناطيسي تحريكا وتوجيها . وتجاوز تأثير اذاعة القاهرة الى المثقفين الذين هم آخر من يتوقع منهم استحسان برامجها واستساعة صيحاتها فانساقوا معها ايضا دون أن يجدوا لسلوكهم تفسيراً مقبولا . وقد أخبرني يوما أحد خبراء الدعاية أن أي تاجر شرقي ذي ميول غربية يترك مذياعه مفتوحا على اذاعة القاهرة ، سرعان ما تساوره الشكوك تجاه الغرب لسماعه أقصر البرامج ، كما أنه يشعر بميل وعطف نحو حجاج ناصر ، ونظراته . وعلى حد قول علماء « الدوافع والبواعث » ، فإن نداءات اذاعة القاهرة كانت نداءات « لاشعورية » وكانت بدون شك ذات تأثير متصاعد باطراد .

ولم يكثر نوري السعيد للامر . وكان جل رد اذاعة بغداد على حملات القاهرة الضارية ، هو تكرار اذاعة أغنية هزلية شهيرة حول « البوسطجي » ، قاصدة بها التهمك على ناصر (لكونها مهنة أبيه) والنيل منه . الا أن أثر اذاعة

الاغنية لم يكن ضد ناصر ، بل على العكس لصالحه ، فقد احرزت تأثيرا لا يقل عن تأثير برامج اذاعة القاهرة ذاتها . ووفق « صوت العرب » يردد نفس الاغنية ليظهر الدرك الذي انحدر اليه راديو بغداد . وبالمقابل قام راديو بغداد باعادة تسجيل لصيحات اذاعة « صوت العرب » التي تعرض العراقيين على اغتيال نوري السعيد ليظهر بدوره الدرك الذي انحدرت اليه اذاعة القاهرة . وفي خضم كل هذا التلاسن المتبادل لم تكن الدعاية المضادة لراديو بغداد أكثر من قشة في مهب الرياح حتى أدركها خبراء الدعاية الغربيون وعدّلوها .

وقامت حكومة الولايات المتحدة الامريكية ، بتجربة الوان عدة من الدعاية المضادة لاذاعة القاهرة ، التي زادت من قوة بثها في أوائل عام ١٩٥٦ حتى تغطي مناطق أوسع من افريقيا . وتعرض الخبراء الامريكيون لامكانية استخدام الاذاعة اللبنانية لهذه الغاية الا أنه سرعان ما أفلح الجانبان اللبناني والامريكي عن هذه الفكرة خشية تقاوم الاحتكاك بين المسلمين والمسيحيين في لبنان . كما أن الإبقاء على لبنان خارج هذا الميدان من ميادين الحرب الباردة ، سيكون أكثر تقبلا وأشد ترحيبا . وقد خطرت ببال الحكومة الامريكية فكرة اقامة محطة بث جديدة في أرضه بتركيا ، أو مساعدة البريطانيين في رفع قوة بث اذاعتهم في قبرص (وفي الحقيقة فقد أحرز بعض التقدم في هذا المجال الاخير) . وسرعان ما بدت فكرة اقامة محطة اذاعة جديدة في المنطقة لمنافسة محطة اذاعة القاهرة كفكرة نقل مدينة التمثيل الشهيرة « هوليوود » الى مدينة دي ميوني (في آيوا ، إحدى الولايات الجنوبية في الولايات المتحدة) الثنائية المقفرة الجديدة بالقاهرة تموج بأفواج الممثلين والمغنيين والمخرجين والكتاب والفنيين ، ولن يتوفر ذلك في أية مدينة عربية أخرى الا بشق الانفس ، وبعد ربح من الزمن . وفي خضم هذه الأفكار المتضاربة ، لمعت بارقة أمل عندما طرحت فكرة تدمير أجهزة ارسال محطة اذاعة القاهرة واسكاتها نهائيا . وهذا ما حدث بعد ذلك فعلا . ففي أثناء أزمة السويس في تشرين الاول (اكتوبر) عام ١٩٥٦ ، قام أحد طياري سلاح الجو الملكي البريطاني بالقاء وابل من القنابل عليها ، الا أنه أخطأ الهدف ولم يصبها .

ومهما بلغ أثر دعاية اذاعة القاهرة قوة وعنفا ، فإن تكاليف تشغيل الاذاعة غدت باهظة وأكثر مما تطيقه الميزانية المصرية . وكان من نتائج ازدياد نداهات

اذاعة « صوت العرب » ، تضخم نشاطات أجهزة المخابرات المصرية احتدام معاركها السياسية ، وبالتالي : ارتفاع التكاليف وتكدس الاعباء المالية . ومن العسير أن يحصي المرء جملة ما تكبده المصريون من نفقات كثيرة أثناء الأزمة اللبنانية في عام ١٩٥٨ . الا أن بعض المطلعين الغربيين على تلك العمليات قد كشفوا النقاب عن نفقات تجاوزت أرقامها الملايين من الدولارات . كما أن الحكومة اللبنانية قد أفاضت اللثام بعد انتهاء الأزمة عن أدلة مقنعة تفيد أن أحد « البيارة الاربعة » قد تلقى ما لا يقل عن سبعة ملايين دولار دون أن يشاركه فيها أحد . وعند جمع مثل هذه الأرقام معا وضم أرقام نفقات كل أجهزة المخابرات والمباحث والامن العام في القاهرة إليها يفدو حاصل نفقات أجهزة الامن القومي والعمل السياسي المصرية أكبر بكثير من أرقام نفقات مثيلاتها في الدول الغربية (على حد قول بعض هذه الأجهزة) التي كانت متواضعة في عامي ١٩٥٧ و ١٩٥٨ .

وليسست النفقات المباشرة للعمل السياسي بكثيرة ، الا أن المحافظة على متانة خطوط المجابهة وضمان الصمود في ميادين المارك السياسية - وخاصة داخل البلاد - يتطلب الكثير ويمتص الثروات ويرفع من أرقام الميزانيات . ولا أزال أذكر شجون الحديث الذي دار بيني وبين أحد ضباط ناصر المسؤولين ، وقد قال لي يوما : (لو حلت بمصر كارثة سلختها عن بقية العالم ، وجعلت منها جزيرة نائية في وسط بحر هائج لا يهدأ له قرار ، وأبقت لنا « نيلنا » وتربتنا وبقية مصادر طبيعتنا ، فأننا - نحن المصريين - لن نعاني من أسى أو نقاسي من ألم . سيزرع البعض قطنا ؛ ويحيك الآخر نسيجا . ستبذر الأرض ذرة وأرضا ، ويحصد الفلاح ما نبت من زروع وألقي من بذور . وسيعالج بعضنا الاضرار ، ويصنع الآخرون الحذاء ، وسيعنى الاساتذة بالناشئة ، ولن نعرف للمشردين وجودا . ولكن عندما نصر على أن نكون قوة عالمية ، فسنبقى في الدواوين ، ووراء المكاتب جالسين ، مستهلكين أبدا غير منتجين أو مصنعين . ان المرء لن يتصور جوعا ، ولو كان على جزيرة نائية ، مجده وقاحلة ، طالما أنه لا يطعم بجار له ولا يحشر أنفه في شؤون صديق ، وبعبارة أوضح ، طالما لبس هناك من نفوذ يقلق على ضياعه ، ولا داع لمراقصة « دهاة الغرب » على مسرح « العلاقات العالمية ») .

ولكن لم يكن لمصر سبيل لان تعزل العالم وتعيش على انفراد • ولو انه قدر للمصريين هذا وغدوا « انمزاليين » راضين أن يقتاتوا بما تخرجه لهم ارضهم وما تدره بلادهم عليهم من خيرات - كما تمنى ذلك آنفا أحد ضباط ناصر - فان العالم من حولهم لن يدعمهم وشأنهم ولن ينفك عن الضغط عليهم بشتى الأساليب • وحتى حكومة الولايات المتحدة الامريكية ، التي ما فتئت تشجعهم من وقت لآخر على العودة الى مبدأ « مصر أولا » ، فإنها لم تمنع ناصرا تأييدها الحقيقي الا على أساس النظرية القائلة « ان ناصرا سيفدو مثالا يحتذى به في بقية أنحاء العالم العربي » •

ونظرية « الزعامة القدوة » قد ملكت على الامريكيين تفكيرهم وملأت عليهم حياتهم • وان كانت الغبطة تملأ قلب الحكومة الامريكية ويفررها السرور كلما عاد زكريا محي الدين الى الظهور على مسرح الاحداث في مصر - كتسلمه منصب رئيس الوزراء أو نائب رئيس الجمهورية أو رئاسة أية لجنة أخرى - فليس سبب ذلك عطف زكريا على الامريكيين وميله لهم (فهو لم يكن كذلك يوما ، ولن يكون) بل سببه أن زكريا هو أحد افراد بطانة ناصر القائلين بمبدأ « الزعامة القدوة » ومن المنادين بمبدأ السيطرة على العرب وقيادتهم ، عن طريق البناء والاعمار ، واتباع الوسائل الايجابية وليس عن طريق العنف وتحريض الارهابيين ضد رؤسائهم وحكام بلادهم •

ومن وجهة نظر اقتصادية ، لم يكن الامريكيون يفكرون بأن الاوضاع في مصر سوف تتغير تغيرا جذريا • لقد كانت نظرتهن أن مصر ستبقى اقتصاديا كما كانت تقريبا قبل قيام ناصر بانقلابه ولكن مع تحسن وتقدم في جوانب الحياة ومعالمها ، وأرادوها أن تلعب دور «براسكاه» (١) في حياة « نيويورك أوربا » • وستكون معالم الاقتصاد المصري كما يلي :

● تصدير المواد الأولية : اعتقد الامريكيون أنه لن يكون بمقدور المصريين تصنيع أجهزة الراديو والسيارات وغير ذلك بنفس تكاليفها المتدنية التي يمكنهم

(١). مركز انتاج زراعي في وسط غرب الولايات المتحدة • ونيويورك مركز صناعي ضخم (المغرب)

شراؤها من الدول ذات الخبرات الطويلة في مجال الصناعة • ويشارك المصريون بهذا الوضع أمم كثيرة أخرى تخلفت عن ركب الثورة الصناعية بأشواط بعيدة • كما اعتقد الأمريكيون أنه لن يكون هناك أية فرصة لادراك المصريين السدول المتقدمة صناعيا و للحدق بها • ففي نفس الوقت الذي يتكب المصريون فيه على تطوير أنفسهم وتصنيع بلادهم - دون أن يكون لديهم أية معطيات أولية في هذا المضمار - يكون الألمان والإيطاليون والفرنسيون - دون ذكر اليابانيين (١) - قد قطعوا أشواطا أكثر بعدا وأصعب منالا • ومهما كان تصميم المصريين على تصنيع أنفسهم واصرارهم على اللحاق بغيرهم ، فإن الهوة الفاصلة بينهم وبين الدول المتطورة صناعيا ستزداد اتساعا ، ولن تضيق أبدا • أما اذا التفت المصريون الى تطوير وتحسين مواردهم الطبيعية فسيبيعونها للأمريكيين بالعملة الصعبة وسيبتاعون بها ما يشاءون من المنتجات المصنعة التي هم في حاجة اليها •

● التصنيع الخفيف : على المصريين أن ينضموا الى نادي الصناعة ، الا ان ذلك يجب أن يكون ضمن حدود طاقاتهم وأن يكون معتمدا على انتاجهم الزراعي وأن يضمن لهم قدرا كائيا من العملة الصعبة • وكان الأمريكيون معارضين لمبدأ « التصنيع للتصنيع » أو ما يسمى « بصناعة العزة والكرامة » مثل إقامة معامل الصلب والحديد ومصانع السيارات التي تظهر أبسط الحسابات على أنها خاسرة وغير مربحة •

● المشاريع الحرة : لقد ارتاع المستشارون في الشؤون الادارية الذين خدموا في مصر في الايام الاولى لحكم ناصر لضخامة جهاز الموظفين في مصر وعجزه عن تادية واجبه • وبدا لهم جليا أن السبيل الوحيد لخلق مشاريع صناعية وأخرى لتوفير العملة الصعبة ، هو فتح الباب على مصرعيه أمام الافراد للمنافسة والابداع وايجاد الحوافز لهم • وباعتقاد اولئك الخبراء ، ان كل ما يمكن للحكومة تقديمه ، هو ترك مثل اولئك الافراد أحرارا يكدهون ويبدعون • وإذا كانت الحكومة ولا بد ناصحة لهم ، وموجهة لنشاطاتهم ، فإن عليها أن تفعل

(١) العرب

(١) يقصد ان اليابانيين قد فاقوا القياس والمقارنة •

ذلك بقصد زيادة انتاجهم وليس بقصد اعاقتهم وملاحقتهم بتهمة تهريب الاموال والارباح .

● الاستثمارات الاجنبية ، الخبراء الاجانب : رأى الامريكيون أن الفرصة سانحة أمام المصريين للاستفادة من رغبة رجال الصناعة الغربيين في الهرب من كابوس الضرائب المرتفعة داخل بلادهم وفي دخول مصر لاقامة مشاريع صناعية بالاشتراك مع المصريين ، أو لعقد اتفاقيات تمنح المصريين حق انتاج صناعاتهم داخل مصر ، أو لاقامة مصانع خاصة بهم (لا تستخدم الا عمالا مصريين) . وقد تراهى يومها ، أن هذه الفرصة ستوفر للمصريين واردا جيدا من العملة الصعبة ومجالا واسعا لتشغيل اليد العاملة في بلادهم ومدها بالخبرات اللازمة . كما أنها تفتح الاسواق أمام كافة المنتجات المصرية سواء التي أنتجتها مصانع الشركات الاجنبية أو المصانع الوطنية والتي يمكن تصريفها معا بنفس الطرق والوسائل .

● مجتمع مدني وجيش صغير : لقد أدركت وزارة الخارجية الامريكية ضرورة امتلاك ناصر جيشا قويا لدعم قاعدة القمع وللمساعدة في المحافظة على الامن الداخلي ، وللاستعانة - الى حد ما - ببعض ضباطه في ادارة المؤسسات الحكومية المدنية التي تعاني فسادا عاما وانهارا شاملا . ويرى الغربيون - الذين لا يهتمون بغير الجانب الاقتصادي لمصر - أن الغاية من وجود حكم قوي في البلاد هي حفظ النظام وتطبيق القانون ، وهذان لا يتطلبان جيشا ذا تعداد كبير كما هو حال طبقة « العسكرية » التي أرادها ناصر دعما « لقاعدة القمع » وضمانا لبقاء النظام . لقد تعلم رجال الاعمال وعلماء الاقتصاد الغربيون في مجتمعاتهم أن الحكومة تتغير من وقت لآخر وبصورة طبيعية نتيجة ثقة يحجبها البرلمان عنها أو انتخابات تجري في البلاد . الا أن ناصرا لم يتعلم هذا . لقد كانت نيته البقاء في الحكم والخلود فيه .

وتظهر محاضرات المناقشات التي دارت بين مختلف الرسميين وغير الرسميين الغربيين وبين المسؤولين المصريين خلال سنوات حكم ناصر الاولى ، انه ليس هناك أي تناقض بين فلسفة ناصر يومها وبين الافكار الآتفة الذكر . كما أن عدم وضع ناصر تلك الافكار موضع التنفيذ يعود الى قلة خبرته وعدم لمسه اية أهمية

لها . ولكن بعد انتهاء أزمة عام ١٩٥٨ اللبنانية بدا أن ناصرا يحمل أفكارا جديدة من صنعه وانتاجه ، ولا تمت الى المبادئ الآتفة الذكر بأية صلة اطلاقا . لقد كانت الازمة اللبنانية أول ما استرعى انتباه رجال الاعمال الغربيين عامة واثار حفيظتهم . فليومها ، لم يكن قد شعر بنمو الثورة وانتشارها سوى بعض شركات البترول . ولكن حوادث لبنان أثارت انتباه أكثر من مائة وعشرين شركة أمريكية علاوة عن عدد غير قليل من الشركات البريطانية والاوروبية الاخرى كانت تتخذ من بيروت مقرا لها ومنطلقا لاعمالها في منطقة الشرق الاوسط . وقد اضطرت يومها أن تعيد النظر بأوضاعها فجأة ودون سابق انذار . وفي ضوء النتيجة التي انتهت اليها الازمة اللبنانية ، كان السؤال الوحيد الذي أخذ يقلق بال رجال الاعمال الغربيين ويحير البابههم دون أن يعثروا على جواب شاف له هو : « ما هي أفكار ناصر ؟ وما هي آراؤه عن اقتصاد المنطقة التي يأمل بالسيطرة عليها ؟ وما مدى تأثير هذه الآراء وتلك الافكار على أوضاع شركائنا واستثماراتنا ؟ »

وفي حزيران (يونيو) عام ١٩٥٨ ، كان لي ولشريكى ثلاثة زبائن : شركة بترول ، ومصرف ، وشركة طيران . وقبل نهاية أيلول (سبتمبر) من نفس العام تقدمت لنا عشرات الشركات الامريكية بطلبات لدراسة الاتجاهات التي يتوقع لها أن تسود في المنطقة بعد «انتصار» ناصر في صيف عام ١٩٥٨ في لبنان (ولم يفكر أي رجل أعمال بأن ذلك لم يكن أي شيء آخر غير « انتصار ») . ولم يقتصر هذا على شركتنا فقط ، بل ان كل الشركات الاخرى التي تزاول نفس مهنتنا قد تلقت طلبات مماثلة . فقد أضحي الموقف مقلقا ، وأخذت كافة الشركات الامريكية التي لها استثمارات رئيسية في المنطقة الى جانب شركات أخرى كانت على وشك توظيف أموال طائلة هناك ، تدرس الوضع عن كثب . كما قامت معظمها بإجراء دراسات مستفيضة في مقراتها الرئيسية بدافع من نفسها عن تطورات الاحداث في المنطقة . وكم ضايق هؤلاء وزارة الخارجية في واشنطن بطلباتهم المستمرة وأسئلتهم المتواصلة عما يدور في منطقة الشرق الاوسط من احداث وعما تجمع لديها عنها من معلومات .

وبعد انتهاء الازمة اللبنانية وانقشاع عمامتها ، بدأت كسل من وزارة

الخارجية الامريكية وطبقة اصحاب المصالح الامريكية في الشرق الاوسط تسلك طرقا مستقلة عن بعضها البعض . ولكن لم يبدُ هذا جليسا حتى عهد ادارة الرئيس كينيدي ، ونزول قوات ناصر في اليمن . لقد كانت النظرة السائدة يومها في اروقة وزارة الخارجية الامريكية ، أن ناصرا لم يحرز حقيقة أي « انتصار » في لبنان . فالحكومة التي تربعت على عرش السلطة هناك كانت حيادية حقا ، « ومبدأ ايزنهاور » - وان كان ميتا - قد حقق هدفا جديرا بالاهتمام والانتباه . وبخصوص سلوك ناصر مستقبلا ، فاننا - نحن الامريكيين - كنا نفضل ناصرا على أي زعيم آخر يمكن أن يحل محله نتيجة انقلاب يطيح به أو ثورة تجتث نظامه . وأما من الزعماء العرب الآخرين ، فما كان أحد من أولئك الذين كانوا في السلطة يومها يستهوي فؤادنا ويسحر البائنا أكثر من ناصر . كنا نفضله على قابس العراق (الذي خاض معه ناصر غمار صراع مرير لانه حاول الخروج على ناصر لصالح الشرق بعدما خرج نوري عليه لصالح الغرب) ، وعلى الملك سعود . وحتى على الرئيس اللبناني شهاب (الذي كان ينظر اليه بعض دبلوماسيينا على انه « نجيب ولكن لا ناصرا معه » (١)) . وبغض النظر عن المصائب التي كانت تحل به كل ثلاثة أو أربعة أعوام ، فان ناصرا كان يزداد قوة وصمودا . فهو هناك ، ودائما هناك ، والتفكير بغيره عبث ، والعبث حرام .

أولا : ان قيام ناصر بدور « نيراسكا » (أي انتاج المواد الاولية الزراعية) وغيره يقوم بدور « نيويورك » (أي الصناعة) لا يمكن أن يخدم أبدا أي من أهدافه التي كان يحلم بها . فهو يريد أن يبقى في الحكم ، ويريد الحكم أن يبقى له . وهذا من أول أهدافه وأغل أحلامه . ولتحقيقه ، فهو لا يقبل بحكومة متواضعة الحجم وجهاز اداري قليل العدد عظيم الفعالية ، لانهما لا يساعدها البتة على ضمان الحكم واستقرار السلطة . فناصر لا يرى أن هدف الجهاز البيروقراطي في دولته هو لخدمة الامة والسهر على مصالحها ، وانما هو أحد أركان « قاعدة القوة » التي يركز عليها سلطانه - فالالاف المؤلفة من الموظفين ليسوا موظفين وانما هم لبنات في هيكل الحكم وصرح عظمته . انهم الشعب وقواعد النظام ومركزاته . يبلغون المليون في التعداد ، وتمج بهم أحياء القاهرة ويموجون في شوارعها .

(١) تعني الجملة أن شهاب كالثواء نجيب في مصر ولكن لم يكن مع شهاب من يلعب دور جمال عبد الناصر .

يؤلفون طبقة كاملة من طبقات الأمة ، ويرفدونه بحشود هائلة من الاتساع والافصار . وهم فوق كل هذا وذاك ، أعضاء حزبه الوحيد ، ولا يحرم من الأمة أعضاء فيه . أما أن يقتصر ناصر على مائة وثمانين ألفا من المواطنين (وهذا أقصى ما سمحت له به مؤسسة أمريكية للاستشارات - كان ناصر قد طلب منها دراسة الوضع عن كثب - لايجاد ادارة فعالة) ، فإن هذا لن يفي بالفرض ، ولن يحقق الهدف . وكذلك الامر بالنسبة للجيش ، فناصر لا يكتفي بجيش صغير العدد محصور المهام (مثل احياد الاضطرابات وقمع المظاهرات داخل مدن البلاد) ، يقل عن خمسين ألفا وليس أكثر . فهو حقا لم يرد جيشا ، بل أراد خلق طبقة من العسكر ، « عسكريتاريا » ، وما كانت لتكون « طبقة » الا اذا تجاوزت في التعداد ستمائة ألف أو تزيد .

ثانيا ، فالاقتصاد الذي جل همه تصدير الخام من المواد واستيراد الجاهز من الصناعات ، لا يعني سوى أن الذين يعيشون في ظلّه ليسوا أكثر من مواطنين من الدرجة الثانية ، ولا يختلفون عن حالهم في ظل الاحتلال البريطاني الا قليلا ، ولهذا فلا يمكنهم أن يختالوا تيها ويتبخثروا زهوا ، لاعتقاد ناصر أنهما من الضروريات لشعبه . وليس هذا فحسب ، بل قد أدرك ناصر أن اقتصادا كهذا ستتحكم فيه عوامل كثيرة وسيبقى تحت رحمة الزبائن وهوامهم . فالتغيرات الطارئة على أسعار القطن وسوقه ، ذات تأثير غير يسير على الاقتصاد المصري ، وكم سبق أن هزته من أركانها هذا . الا أن تأثيرها على البلاد المستوردة له طفيف جدا ، بل يكاد أن يكون معدوما . وناصر لا ينسى كم استفلت القوى الأجنبية نقاط الضعف هذه . فهو لا يزال يذكر جيدا كيف عامله اصدقاؤه من السوفييت ، ولم يعض على هذا زمن بعيد . لقد استفلوا ما حل بسوق القطن في الغرب مرة من كساد وما أصابه من ركود ، فاشتروا كل ما بوسعهم أن يشتروه وزادوا في أسعار قطن مصر حتى يفوزوا بحصة الاسد من جملة صادراتها في بطوحها اليهم ويخضعوا اقتصادها لهم . الا أنهم بعدئذ خفضوا الاسعار وابعوا القطن في أسواق العالم . وأحس ناصر بفعلهم هذا ، ولم ينسه . لقد تعلم كيف يتلاعب المتلاعبون باقتصاده ، وكيف تحصل القوى الكبرى منه « اقتصاد ما وراء الكواليس » . وهكذا أيقن ناصر أن اقتصادا يبنى على انتاج الخام من المواد وبيعها معرض للخطر دائما ، كما أنه اجتماعيا ، أمر للقدر محط وللنفس مثل .

وثالثا ، فقد اعتقد ناصر أن الامة التي تقتصر مهمتها على مد الدول الصناعية بالمواد الاولية ، وفيها معظم رأسمالييها من التجار وليس من الصناعيين والمستثمرين للاموال (كما هو الحال في الغرب) ، لا تلبث أن تنتج مجتمعا فيه طبقة من الاغنياء الفاسدين الذين لا يشعرون بواجب تجاه وطنهم ولا يساهمون في زيادة دخله ورفع انتاجه ، بل انهم للارباح في سويسرا تاركون ولاموالهم الى الخارج مهربون . وعلى خلاف ما يحلم به ناصر من مجتمع « الفرد لكل ، والكل للفرد » ، والذي لا وجود له الا في « جزيرة الاحلام » ، أو في مجتمع ناصر « الاشتراكي » ، فإن المجتمع الذي يبنى اقتصاده على النحو الذي أسلفنا عنه – نحن الامريكيين – لن يفكر في غير عطور فرنسا وسيارات السبور من أوروبا وتمضية أيام عطلته على شواطئ الريفيرا . وهكذا كانت حقا القشرة الخارجية للمجتمع المصري قبل قيام ناصر بانقلابه . ولم يكن حرص ناصر على ازالة آثار طبقة التجار الاثرياء أقسل من حرصه على خلق طبقة « أصحاب الدواوين » (البيروقراطية) وطبقة « العسكريين » ، وبالتأكيد ، فقد كانت طبقة العمال الكادحين « البروليتاريا » على رأس القائمة وفي مقدمة الصورة .

ويقودنا السياق الى النقطة الرابعة . فعندما أشار خبراء مؤسسة التمويل العالمية (١) على ناصر ، أن يركز اهتمامه على المحافظة على أسعار الجنيه المصري ، وأن يستغني عن المصانع التي سترهق المستهلك بأسعار أعلى من الاسعار المنافسة لها في الخارج ، أجاب يومها قائلا : « ان التصنيع هو هدف بحد ذاته ، وليس فقط وسيلة لانتاج البضائع وتصنيع المواد » . ان الامة التي تحترم نفسها هي تلك التي تملك مجتمعا متكامل الجوانب ، فيه الموظفون والجنود والضباط والمفكرون والمهرجون والمبنيون والاداريون والعمال ، وكل بنسبة ثابتة لا تفسد تماسك المجتمع ولا تفقده سلامة توازنه . وأخير ناصر مرة زائرا أمريكيا قائلا : « ان اخترع امرؤ وسيلة ما لانتاج الغذاء وتحضيره صناعيا بصورة لم يعد هناك حاجة الى فلاحين ليزرعوه ويحصده ، فانكم – معشر الامريكيين – سترفضون هذا بالتأكيد . وليس ذلك لشيء سوى انكم تأبون أن تختفي طبقة الفلاحين من مجتمكم . ولنفس السبب فاننا نريد خلق طبقة من

(١) ربما صندوق النقد الدولي .

(المغرب)

العمال الكادحين ولو اضطررنا الى اقامة مصانع لا لزوم لها عندنا ولا حاجة لنا .
بها . .

ولنفس الغاية ، وبالاهمية ذاتها ، يصير ناصر على خلق طبقة الاداريين .
وكان حريصا على خلق « ثورة ادارية » كالتى يتكلم عنها جيمس بورنهام في
كتابه . وفي مصر كانت أولى مدارس علم الادارة في الشرق الاوسط ولم يكن
سواها هناك . وكانت تطبق مناهج مدرسة ادارة الاعمال في جامعة هارفرد
(وجامعات شهيرة أخرى) وتستعير بعضا من اساتذتها . وأما اساتذة علم
ادارة الاعمال المصريون فقد أتموا تدريبهم في الغرب ، وكانوا يترددون على بغداد
والخرطوم وطرابلس وحتى بيروت حيث يلقون المحاضرات ويعقدون فصول
الدراسة . وهناك أدلة عديدة تظهر أن ناصرا قد أنشأ بضعة معامل - على
الاقل - لا لسبب سوى تضخيم سلك الاداريين وزيادة عددهم (وناصر يصير
على انكار هذا) . وسألت مرة مدير ادارة (المعهد القومي لتطوير شؤون
الادارة) : « لماذا تركت بعض المصانع الحديثة (١) مستمرة في العمل ؟ فأجابني
قائلا : « حسنا ، اننا بحاجة اليها . لقد أبقيناها كمخابر نجرب فيها مختلف أنظمة
الادارة » . وقد علمت فيما بعد أن عددا آخر من تلك المعامل قد ترك مستمرا
في الانتاج بعدما قرر له أن يفلق أبوابه ، وكان ذلك بسبب التماسات
واستعطافات قدمها معهد الشؤون الادارية نفسه .

واهم ما نذكره أخيرا في هذا المجال هو أن « الاستعراض الكبير » أكثر
تأثيرا وأكبر صيتا من « الاستعراض الصغير » (٢) . فقد برهن الاول على أنه
أكثر اذراا للمساعدات الاجنبية للفت أنظار دافعيها واسترعائه لانتباههم
مباشرة . أو أنه يدفعهم لبذل المساعدات نتيجة التأثير الذي يحدثه داخل أروقة
« مجموعة دول الحياذ الايجابي » ، وبالتالي يحركهم على أسس سياسية بحتة .
لقد دافع عدد من علماء الاقتصاد الأمريكيين عن الرأي القائل ان بإمكان مصر
أن ترسي قواعد اقتصادها على أسس زراعية مع التخفيف من اعتمادها على

(١) التي تساوى نفقاتها ونفية نتائجها ، فلا تجني أرباحا . (المغرب)

(٢) الاستعراض الكبير أي المشاريع الكبرى والاستعراض الصغير المشاريع المتواضعة والمشاريع

هنا هي المصانع والمعامل والسدود وسكك الحديد . . . الخ . (المغرب)

محصول القطن وزيادة انتاجها من المحاصيل الغذائية الاخرى . كما ان بإمكانها ان تدخل مرحلة التصنيع بوضع مخطط منظم ودقيق يفيد البلاد أكثر مما تفيدها تلك المعامل المنشورة هنا وهناك بفوضى وعدم تنظيم . الا ان علماء الاقتصاد اولئك ، قد أدركوا (بل وقرروا) أن المساعدات الاجنبية الضخمة لن تستدوها الا « استعراضات ضخمة » ، وأن « الاستعراضات المتواضعة » لن تأتي الا بمساعدات محدودة ويسيرة . لقد أخبرني مرة أحد اولئك المسؤولين عن شؤون المساعدات الخارجية قائلا : « النألا نفضل خط الطامحين على خط المتواضعين المتزين ، سوى أنه لا يمكننا اغفال قدر وأهمية من نمنحه مساعداتنا » . وهذا حقيقة ما كان يفكر به ناصر أيضا . لقد كان يحلم بالحصول على أكبر قدر من المساعدات ويأبى أن يكتفي بالنذر اليسير . ولهذا فعندما يسمع ناصر عبارة ذاك المسؤول فإنه سينساها كلها ولن يرسخ في ذاكرته منها سوى « لا يمكننا اغفال قدر وأهمية من نمنحه مساعداتنا » .

عندما انكب المستثمرون الغربيون (والذين كان يحتمل أن يوظفوا ثرواتهم) على دراسة أوضاع الشرق الاوسط بأكمله بعد صيف عام ١٩٥٨ المضطرب ، اعتقدوا أن « مشاريع ناصر الكبرى » داخل مصر ليست سوى نوع من « الاقتصاد الامبراطوري » . وقد نعتها بهذا الاسم جيلبرت بورك في مقالة نشرها في مجلة « فورتن » في تشرين الاول (اكتوبر) عام ١٩٥٨ وقرأها يومها كافة رجال الاعمال الامريكيون الذين عندهم أدنى اهتمام بشؤون الشرق الاوسط . وكشفت المقالة يومها على أن جهود ناصر في وضع العرب واحدا تلو آخر تحت سيطرة القاهرة ليست سوى أحد طرفي مخطط ضخم ، وأن طرفه الآخر هو جعل مصر المركز الصناعي لامبراطورية عربية حديثة . واستنادا الى هذه المقالة وعدة دراسات أخرى وزعت على مدراء كبريات شركات البترول والبنوك وفتات أخرى من رجال الاعمال ، فمن الخطأ ، تفسير خطط ناصر في التصنيع وبرامجه الواسعة في التحويل الاشتراكي وخلقه لطبقتي « أصحاب الدواوين » « والعسكريين » وغيرهما على أساس من مصالح مصر فقط وتقدمها ، ولو أن مصالح مصر لوحدها تجسدت في الجزء الطافي من جبل جليد في بحر ما فإن القسم المغمور منه (١) لا يشير الى غير نية ناصر التحكم بكافة

اقتصاد العالم العربي وموارده الطبيعية دون استثناء البترول منها . ولم يكن اعتقاد اوساط رجال الاعمال في الغرب غير ذلك .

والمتجردون من المراقبين والنزيهون من اصحاب الفن والخبرة الذين دأبوا على متابعة تحركات ناصر ودراسة تصرفاته (وليس لهم اهداف تجارية او غايات سياسية) ، لم يقتنعوا أن اهداف ناصر وغاياته هي تماما تلك التي تنبأ بها غيرهم آنفا . لقد كان جل اعتقادهم أنها أشد خطرا وأكثر ازعاجا ، وهاكم مناقشتهم للاحداث :

أولا : قدر هؤلاء المراقبون رغبة ناصر في انتهاج سياسة مستقلة واستحسنوها . وفهموا تماما أنه لا يمكن لحاكم أية دولة مستقلة فعلا أن يرضخ لمشيئتنا - نحن الامريكيين - ويفعل ما نريده له .

ثانيا : وأدرك هؤلاء المراقبون (على خلاف رجال الاعمال) أن البقاء في الحكم هو من اهداف ناصر الاساسية وغاياته الرئيسية ، وأن ذلك يتطلب وجود حكومة قوية وقاعدة قمع متينة .

ثالثا : واقتنع هؤلاء المراقبون أن حصول ناصر على مساندة جماهير الشعب له .. (وهذا ما يزيد قوة قاعدة القمع) يستلزم القيام بأعمال سياسية لا تروق لنا نحن الامريكيين ، فللمصريين أذواق سياسية لا تشابه أذواقنا ولا تنسجم معها أبدا .

رابعا : ولمسوا حاجة ناصر الماسة الى فكرة « الحياد الايجابي » ليتخذها ستارا عقائديا عند دفع كل من الروس والغرب الى التنافس على كسب وده وضمان جانبه (وهذا ما أظهرته النتائج حقيقة) .

خامسا : ومع أن المراقبين قد استاءوا من ضم ناصر عدة أمم أخرى إلى « رابطة دول الحياد الايجابي » لزيادة فعاليته وتقوية نفوذه وقلقوا للجوئه الى العنف والارهاب لاختضاع « الخوارج » واعادتهم الى الصف ، الا أنهم لم يفاجأوا بها أبدا بل كانوا لها متوقعين وبها متنبئين .

وإذا كان القاريء شاكيا بحقيقة ادراكنا لكل ما سبق ذكره أعلاه ، وعلمنا

به كلية ، فله أن يراجع قوائم مساعداتنا الخارجية لناصر حتى يتثبت من الأمر ويقتنع به . فقد زادت مساعداتنا الخارجية له في السنتين التاليتين عن أية سنتين سابقتين لهذا زيادة ملموسة وكبيرة ، لتأكدنا من التزامه بالمبادئ الألفية الذكر وأصراره على انتهاجها دون شذوذ أو انحراف .



ولكن ناصرا لم يكن من الموفقين ، ولم يكن الحظ له من المبتسمين . لقد سجن نفسه في حلقة مفرغة ما خرج منها ، ولن يكون من الخارجين . وقلقت عليه حكومتنا (الحكومة الأمريكية) قلق الحبيب على الحبيب ، وشغل بال الاصدقاء ، فلم يغمض لهم جفن ولم يهدأ لهم قرار . أراد ناصر « الاستعراض الكبير » ليكسب به احترام العالم ويربح المساعدات . غير أن « للاستعراض الكبير » تكاليف ولابقائه حيا مصاريف . وللعالم الخارجي طاقات وأساليب ، فهو عن « الاستعراض الكبير » عازف ، ولنفقاته غير مستجيب . لقد تعطلت عجلات « الاستعراضات الكبرى » عن السير ، وتوقفت محركاتها عن العمل ، وغاصت بمن عليها في وحول ومستنقعات لن تنجو منها الا بأعاجيب ومعجزات .



تعدّ القوى العالمية وانتباء أسطورة القطبين

... وتقلب الاحوال وتحل بك الازمات حتى تفسى طريدا لا دور لك ، وقد كنت عزيزا
منعما .

مع انتهاء أزمة عام ١٩٥٨ اللبنانية ، أخذ الضغط يتزايد على حكومة الولايات المتحدة حتى توقف مساعداتها لناصر . وفي الوقت ذاته شرع الدبلوماسيون الامريكيون في الدول العربية يعربون عن امتعاضهم من « مبدأ ايزنهاور » ولم يظهروا له تأييدا أو حماسا . كما أخذوا ينادون بفكرة « القبول بحقيقة وجود ناصر » وأوضحوا في رسائلهم الرسمية الى وزارة الخارجية « أن العالم العربي في عام ١٩٥٩ لم يعد كما كان أيام لورانس العرب » . وكان الانطباع السائد عندي أنه لولا رجاحة عقل ناصر ومساوعته الى تسوية النزاع بين الاقليم الشمالي من الجمهورية العربية المتحدة (سوريا) وبين شركة خطوط التابلاين التي تملكها نفس شركات البترول الاربع الكبرى (وهي ستاندر أويل أوف نيو جرسى وستاندرد أويل أوف كاليفورنيا وموبيل وتكساكو) التي تملك أيضا شركة آرامكو (شركة الزيت العربية الامريكية) في المملكة العربية السعودية ، فإن رواق معارضي ناصر كاد ينجح في احكام الحصار حوله وفي حملته عليه . ولم يكن هذا رأيي فقط ، بل كان يشاركني فيه عدد من الدبلوماسيين الامريكيين الذين كنت أتباحث واياهم في مثل هذه الامور . ولا يزال سلوك ناصر مع كافة شركات البترول العاملة في بلاده سلوكا مثاليا وخاليا من الاخطاء والآثام حتى يومنا هذا (١) . رحتي في الاوقات التي

(١) يقصد المؤلف أن ناصرا لم يحاول أن يضع المراقيل في طريق شركات البترول العاملة في بلاده . فلم يناد بتأميم ممتلكاتها أو الحد من تهريب أرباحها أو برفع أسعار ما تصدره من بترول وذلك عكس ما يشار في البلاد العربية الاخرى المنتجة للنفط . (المعرب)

كانت أروقة كبريات شركات البترول تُكره رجال الكونغرس على سماع شكواها من دبلوماسيينا الذين كانت لهم مواقف لينة مع ناصر، كان مدراء شركات بترول أخرى في تماس مباشر مع ناصر يصرحون سرا في مجالسهم أنهم يفضلون معاملة كبار المسؤولين المصريين - مع ما بينهم من تفاوت في الآراء والتفكير - على معاملة أخلص أصدقائهم من الزعماء العرب الآخرين وأصدقهم . وفي الوقت الذي اضحى من الصعب أن يحمل مدراء الشركات في مقراتهم الرئيسية في الولايات المتحدة مثل هذا الرأي السابق الذكر (ولشركات البترول رايان ، أولهما رأي المدراء الذين هم وراء مكاتبتهم في واشنطن ، وثانيهما رأي خبراء الميدان ، وهذا الوضع شبيه بوضع وزارة الخارجية نفسها) فان جدارة المصريين وكفاءتهم (بالمقارنة مع عدم اتزان المسؤولين السوريين وخداعهم الفاضح) قد دعت قسما غير يسير من أوساط رجال الاعمال الامريكيين الى التخفيف من حدة عدائهم لناصر ونزاعهم معه .

وجاء بعدها عهد الرئيس كينيدي . فبعد شهر ، أو ما يقارب الشهر ، من تقلده السلطة رسميا ، وجوبا على رسائل التحية والمجاملة التي أرسلها لكل رؤساء الدول العربية ، استلم الرئيس كينيدي رسالة « من رئيس أفقر دولة في العالم ولكن أعرقها قدما الى رئيس أغنى دولة في العالم ولكن أحدثها سنا » . وكانت هذه الرسالة (التي ظن محللو وزارة الخارجية الماهرون الذين لهمهم سابق تجربة وخبرة بهذا النوع من الرسائل أنها من حياكة الرئيس ناصر نفسه) تعلق على أوجه الشبه في السن والتكوين العائلي وغير ذلك بين الرئيسين (كينيدي وناصر) ، وانتهت بالاقتراح أنه ليس من اضاءة الجهد والوقت بشيء ، أن يقف الرئيس كينيدي على الفوارق الصارخة بين ادارة دولة كمصر وادارة أخرى كالولايات المتحدة . كما أنه من دواعي سرور الرئيس ناصر أن يستقبل مبعوثا موثوقا من الرئيس كينيدي حتى يطلعه على الحالة في مصر ويسهل له دراسة أوضاعها ومشاكلها عن كثب .

ولم يقف الرئيس كينيدي موقف اللامبالي ، بل هزت الرسالة مشاعره وتحمس لها كثيرا . كما أنه أرسل جوابا عليها بدون تأخير أو تسويق مهثد الطريق أمام حوار بينه وبين الرئيس ناصر . غير أنه مضت شهور عديدة قبل

ان يقبل كنيدي اقتراح الرئيس ناصر ارسال أحد أصدقاء الاول الى مصر لاجراء فحص دقيق لمصاعب الادارة ومشاكلها . وفي ايار (مايو) عام ١٩٦٢ قرر كنيدي أخيرا ارسال صديقه الحميم وأستاذه القديم (ادوارد ماسون) الى القاهرة . وماسون هذا كان أستاذ كنيدي في علم الاقتصاد عندما كان الأخير في جامعة هارفرد ، كما ان ماسون قد ألف كتباً عدة ونشر مقالات كثيرة حول اقتصاد الدول المتخلفة ، ولم تكن نظراته حول هذا الموضوع بعيدة عن نظرات كنيدي نفسه . وعلاوة على ذلك ، فان كنيدي واثق من انه ليس في قلب ماسون كراهية لاجراءات ناصر الاشتراكية أو حقدا عليها وخصوصا انها كانت قيد التنفيذ في مصر (مثل تأميم الشركات المصدرة للقطن وتأميم المصارف وشركات التأمين وما لا يقل عن مئتي مؤسسة تجارية وصناعية) ولهذا فليس من المحتمل أن يكون (ماسون) متحيزا في حكمه على أوضاع ناصر وتصرفاته .

وأخيرا وصل البروفسور ماسون الى القاهرة . ومنذ اليوم الاول لوصوله أخبره ناصر أن له الحق كاملا في أن يدقق في أمور البلاد وشؤونها كما يفعل هو (أي ناصر) نفسه ، كما أن له أن يعرف كل شاردة وواردة دون تحرج أو تكلف حتى يلمس المصاعب كما يلمسها ناصر بنفسه ، وطلب منه ناصر أخيرا أن يطلع على كافة تفاصيل حلول ناصر لمشاكل البلاد . وأتاح ناصر لماسون حرية التجول والتدخل وبرهن على ذلك بأن طلب من نوابه وكافة وزرائه وكبار المسؤولين الرئيسيين تزويد ماسون بتقارير شاملة وافية عن شؤون البلاد وأوضاعها . وفي خلال لقاءاته مع ماسون ، كان ناصر يسأله قائلا : « مستر ماسون ، هل تظن أننا نتصرف بغير الطريقة التي كنت ستسلكها لو كنت حاكما لهذا البلد ؟ » وكان ماسون يجيبه : « كلا ، ، وغالبا ما كان يضيف عليها « كلا ، سيدي الرئيس » .

وفي حزيران (يونيو) عام ١٩٦٢ عاد ماسون الى واشنطن ليخبر الرئيس كنيدي أنه - وجدانيا - لم يعثر على خطأ في تصرفات ناصر الرئيسية وأنه ليس لديه ما ينتقده أو يجعله هدف نقاش وجدال . لقد أقتنع ناصر بأن كل تصرفاته التي كانت الولايات المتحدة تنكرها عليه ليست سوى مخارج منطقية يضطر ماسون نفسه الى سلوكها منطقيا لو كان في منصب ناصر . وكان من بين تلك

التصرفات تأميم ناصر لاجزاء ضخمة من الاقتصاد المصري ، واتخاذ اجراءات
ديكتاتورية مثل فرض رقابة صارمة على الصحافة ، واعتقاله السياسيين المخالفين
له في الرأي ، وشن الحملات الدعائية ضد الزعماء العرب المواليين للغرب على حد
اعتقاد ناصر . وقال ماسون : « لقد كان ناصر يعاني من صعوبة الاختيار
وقساوته ، وكلما وقف عند مفترق الطرق وجد أن عليه أن يختار أكثرها صعوبة
وأوعرها مسلكا » .

ولم يكن ذلك كل ما قاله ماسون . ففي إحدى جلسات الاستجواب التي
عقدت في وزارة الخارجية ، رفض ماسون أن يفسر فهمه لمشاكل ناصر وتبريره
للحلول التي يتبعها الأخير على أنه توصية منه لتقديم مساعدات أكبر لناصر
وقال : « ان مسألة انسجام سلوك ناصر وأسلوبه مع المصالح الأمريكية شيء
آخر تماما » . وأما المسؤولون الذين استجوبوا ماسون ودونوا ما اكتشفه في
مصر من حقائق ومعلومات فقد جزموا أنه مهما كانت أعذار ناصر في تبرير
سلوكه وتصرفاته وأنه لا سبيل له الى فعل غير ذلك ، فإنها بالتأكيد معادية
للمصالح الأمريكية وغير منسجمة معها أبدا . وعليه فعل الأمريكيين أن يختاروا
اما :

(١) تغيير الظروف ،

(٢) تبديل مصالحهم وتعديلها ،

(٣) الاطاحة بناصر واستبداله بأخر يتصرف بصورة أخرى تحت نفس
الظروف مهما كان تصرفه غير منطقي ،

(٤) توجيه تصرفاتنا في المستقبل وتخطيط أعمالنا في المنطقة على أن ناصرا
عدو لنا وعلينا أن نعامله بطريقة ما بغض النظر عن صحة تصرفاته
وانسجامها مع مصالحه .

وفي هذه الاثناء تم نقل كل موظفي وزارة الخارجية الذين كانوا يتوزعون
الادوار حول طاولة « لعبة الامم » (والتي كانت من طراز « ناصر - دالس »)
باستثناء واحد أو اثنين . وأما الجمع الجديد الذي حل محلهم فكان يتحلى
بصفة « الاخلاقية » في ممارسة ادواره في « لعبة الامم » . ولهذا فقد وجد من

الحرج أن يقبل امرؤ ما أن أمة ما أضحت عدوة له لمجرد انها تصرفت وفق مصالحها الخاصة بها فضلا عن أن تلك الأمة تدخل في عداد الدول المتخلفة التي أيسد الرئيس كنيدي علنا تحررها من الاستعمار ونيلها لاستقلالها . ولقد رفض بعض أولئك المسؤولين التسليم بفكرة امكانية وقوع مثل هذه الحادثة على الأقل . وأما البعض الآخر والذين كانوا أكثر « واقعية » منهم « أخلاقية » ، فقد حققوا تأييدا لرايهم القائل ان ناصرا انسان مزعج وخطير ، وعلى هذا يجب أن يعامل . وحاولوا أيضا أن يفتشوا عن أسباب تقنعهم بأن ناصرا لا يسيء الى الغرب فحسب بل والى بلاده نفسها ، سوى أنهم لم يعثروا على أثر لتلك الاسباب في تقرير البروفسور ماسون نفسه .

وفي مقابل كل هذا وذاك ، ظل تفكير المختصين بشؤون الشرق الاوسط في كل من البيت الابيض ووزارة الخارجية في واشنطن وديا تجاه ناصر طوال عهد ولاية الرئيس كنيدي . وبقيت نظراتهم له مليئة بالمعطف نحوه كلما أفلحوا في مقاومة ضغط أوساط رجال الاعمال الامريكيين وتحديدهم (ومن لف لفهم من رجال الكونغرس) فقد كانت شكواهم من تطايات ناصر العامة التي يهاجم فيها الامريكيين ويمتدح السوفييت مستمرة ، وكذلك كان قلقهم من مفاخراته السياسية (منذ أزمة لبنان) التي أمسوا على علم تام بها . وبعد انفصال سوريا عن الجمهورية العربية المتحدة في ايلول (سبتمبر) عام ١٩٦١ ، لم تعد حصافة ناصر ومعاملته الحسنة لشركة التابلاين عنصرا هاما في موضوعنا بعدما امتصت نقمة شركات البترول على ناصر وخففت من حدتها . وأدرك ناصر هذا ، وبقي كله أملا أن تتمخض زيارة ماسون عن نظرات عطف مثمرة تمتد الى تأييد ملموس وزيادة ملحوظة في المساعدات دون أن تنورط السلطة التنفيذية في حكومتنا في مأزق تضعها في صراع وجها لوجه مع سلطات الكونغرس .

وبعد عدة أسابيع من عودة ماسون الى واشنطن أعرب لي ناصر عن ارتياحه البالغ للزيارة التي تمكن من خلالها الامام بمشاكل حكومة الولايات المتحدة (كما شرحها ماسون له) كما استطاع عن طريقها نقل وجهات نظره الى الرئيس كنيدي حول المشاكل المصرية وحلولها . وفي ايلول (سبتمبر) قام جون بادو ، السفير الامريكي في القاهرة ، بزيارة لناصر اعترف فيها أمامه بأن تقرير ماسون

عن مساعداته في القاهرة قد أثار موجة من الاضطراب والتباين في الآراء بين المسؤولين الأمريكيين وأصبحوا في ارتباك لا يدرون ما يفعلون . كما أن السفير بادو أخبره أن الحكومة الأمريكية شرعت يومها في إعادة تقييم الدوافع والبواحد كمحاولة منها لاتخاذ موقف ما من الخلافات الأمريكية المصرية التي لم تفقد حججها الاخلاقية بعد . ولم يكن سفيرنا في القاهرة يومها سوى « أكاديمي » (١) ليس بينه وبين ناصر أي وجه شبه سواء في طريقة الكلام أو في طبيعة التفكير . وقد سلم السفير يومها تلك الرسالة لناصر مصحوبة بتأكيدات ودية - اعتاد عليها الطرفان - أن حكومتنا لا تبغي للمنطقة سوى السلام والازدهار والاستقرار وأنها تستلهم في هذا شعورها بالمسؤولية الاخلاقية التي يتسم بها التخطيط السياسي في عهد ادارة الرئيس كنيدي .

كان حديث السفير ذا وقع على نفس الرئيس ناصر ، بل وأدخل في نفسه روعة أربكته فلم يعثر له على جواب . وعندما التقيت به في اليوم التالي كنز خارجا عن طوره ومحتما غيظا . فناصر لم يكتثر لاكتشافنا إلبالي أن المصالح الأمريكية والمصرية ليست دائما في انسجام وونام ، وذلك لانه ترعرع في كنف اعتقاد الوزير دالس أن ما هو خير للولايات المتحدة هو خير للعالم أجمع ، وقد اعتاد على ذلك منذ أيامه الأولى في مصر . سوى أنه اضطرب لعلمه أنه بالرغم من وجود الرئيس كنيدي على رأس الادارة في واشنطن ، فلا تزال وزارة الخارجية تعتبر نفسها أنها تخوض غمار حرب تدور رحاها بين « الخير والشر » . كما أننا - نحن الأمريكيين - قد أخفقنا في التوصل الى قرار بدافع من مصالحنا الشخصية وبدون أن يملكنا شعور بالحاجة الى انتحال موقف أخلاقي ذي طنة ورنة لتبرير ذلك . وأردف ناصر قائلا : « طالما أنكم تخدعون أنفسكم بكل هذه التبريرات الاخلاقية ، فإن شعوري بعدم الارتياح أثناء وقوفكم معنا لا يقل عنه أثناء مجابهةكم لنا . أنكم فقط تريدون أن تلعنوا لعبتكم معنا » .

وخلال عهد الرئيس ايزنهاور ، فإن علاقات ناصر مع حكومة الولايات المتحدة الأمريكية لا تظهر سوى أن ناصرا كان يرى « اللبنة » على أنها مجرد مواقف عادية لا علاقة لها بعلم « الاخلاق » ، وأن كل طرف فيهما (ناصر أو

**الولايات المتحدة) لا يصر الا على تحقيق اهدافه والمحافظة على مصالحه لولا
وأخرا . وهذا ما عبر عنه زكريا محي الدين في إحدى محاضراته قائلا :**

« ان لعبة الامم هي المواقف والتصرفات التي تتبناها الامم .
جريا وراء مصالحها وطمعا في تحقيق اهدافها القومية بأية وسيلة
غير الحرب . انها تضع مسبقا في اعتبارها أن مصالح الاطراف كلها
متضاربة متباينة مهما بلغت درجة الصداقة وتوطدت الاواصر بينها .
ان أي ربح تجنيه إحدى تلك الامم لن يكون الا على حساب أمة
أخرى ، واللاعب الماهر فيها هو الذي يحصل على كل الفئانم لصالحه
ويدخل في ائتلافات آنية وتجمعات تكتيكية مع غيره من اللاعبين
الذين تجمعه معهم مصالح ومنافع مشتركة . وعليه أن يوزع الاعباء
على الخاسرين باجمعهم حتى لا يصيب الطرف منهم أكثر من طاقته ،
وبهذا لن تسوء حالته الى حد يدفعه الى القيام بردود فعل عنيفة
ومتطرفة ، أو الى حد يضطره الى الكف كليا عن المشاركة في اللعبة
وبالتالي اللجوء الى الحرب واستخدام القوة » .

وبالتأكيد فان ناصرا كان ملما بكل هذا وعلى اطلاع تام بكل ما يجري
داخل « لعبة الامم » بغض النظر عن عدم سروره منها وارتياحه لها أثناء عهد
الرئيس ايزنهاور والوزير دالس . وبعد تربع الرئيس كينيدي على عرش البيت
الابيض طرأ يومها تغيير جديد على « لعبة الامم » ، وتوجب على ناصر أن يمد
نفسه ويهيئها للكفاح ضد ما يسمى « بالاعتبارات الاخلاقية والمواقف
الوجدانية » .

ومنذ الايام الاولى لولاية الرئيس كينيدي حتى يومنا هذا وناصر حائر ازاء
الطريقة التي تظهر بها تحركاتنا « في لعبة الامم » ، لا اخلاقية وغير موضوعية
بالمقارنة مع اهدافنا - نحن الامريكيين - في جر المغانم وجني الفئانم . وهي
فضلا عن هذا كانت دائما تظهر تجاوبا ايجابيا مع تحركاته داخل اللعبة التي
كانت تعود على مصر بفوائد ومغانم كثيرة . لقد افسحت حكومتنا المجال
امامه ليربح « لعبته » بدون أن تظهر وكان لها « لعبة » خاصة بها وبدون أن
يחס الفدر بهذه « اللعبة » أو يلمس منها شيئا . وقد اعترف ناصر بهذا عتدما

قال ان أي محط سياسي في زيارة للكرة الأرضية قادما من المريخ سيصاب بنفس هجمته نتيجة تفحصه للتحركات الأمريكية المصرية في اللعبة وهو ينظر اليها من خلال منظور المنافع الشخصية والمصالح الذاتية .

وفي أواخر عام ١٩٦٢ تحولت حيرة ناصر الى قلق متزايد عندما لمس أن لعبة الأمم ، أضحت نوعا جديدا من الصراع وباتت كل من المصالح الأمريكية والمصرية في تعارض بيثن وتضارب جلي يضطران الحكومة الأمريكية أن تقف في وجه ناصر بصورة أكثر جدية وأشد عتيا . والطريقة التي اعتدنا فيها أن نؤيده ثارة ونعارضه أخرى (وقد ظننا أنها لا تتفق ومصالحنا) قد تركت ناصرا في حالة حذر منا وترقب لشرنا وامتدت حتى عشية انتهاء الحرب العربية الاسرائيلية في حزيران (يونيو) ١٩٦٧ . واستمرار عابر للحوادث التي بدأت في أيلول (سبتمبر) عام ١٩٦٢ - شهرا من بعد حديث ناصر مع السفير بادو - توضح ذلك وتجعله جليا .

في هذا الشهر بالذات (أيلول ، سبتمبر) مات امام اليمن وخلفه ابنه الامير البدر . ولم يمض أسبوع على تنصيب البدر اماما حتى قام ضباط من الجيش اليمني بانقلاب أدى الى السيطرة على الحكم واحتلال محطة الاذاعة والاعلان عن اعدام الامام البدر . ونتيجة لذلك أعلنت مصر وبقيّة الدول العربية باستثناء الاردن والمملكة العربية السعودية (١) اعترافها بالجمهورية اليمنية الجديدة . وخطا الاتحاد السوفييتي والصين الشعبية وغيرهما من الدول الشيوعية نفس الخطوة . وهكذا بدا الانقلاب وكأنه من توجيه شيوعي مما أدى الى اعتباره خطرا يهدد المصالح الغربية في الجزيرة العربية الغنية بحقول النفط وآباره . غير أنه سرعان ما عرف أن الامام الجديد لم يعدم وأنه ما زال على قيد الحياة يجمع القبائل لشن هجوم معاكس على الانقلاب . وهنا قام ناصر بايفاد بعض المستشارين العسكريين على وجه السرعة لدعم النظام الجديد ومساعدته . وما لبث أن أرسل في أثرهم أعدادا صغيرة من الجنود ومن ثم أتبعهم بحشود هائلة من الرجال والعتاد ومن مختلف صنوف الأسلحة . وفي هذه اللحظات

(١) اعترفت المملكة العربية السعودية بالنظام الجمهوري باليمن في توز (يوليو) ١٩٧٠

بدأت الحكومة الأمريكية مترددة بين الاعتراف بالنظام الجديد لتعليص النفوذ المصري والسوفييتي والصيني في اليمن (على حد قول ناطق بلسان وزارة الخارجية الأمريكية) أو عدمه (كما كان البريطانيون ورجال وزارة الدفاع الأمريكية يرغبون) .

وبقي ناصر طوال مدة ترددها قلقا متلهفا ، يشور تارة ويهدأ أخرى . وأكثر ما كان يقلقه ويثير فضوله هو تفكيرنا وراء تريثنا وليس ارتياحه بقرارنا الأخير . وناصر قد لمس هذا من لقاءاته مع السفير جون بادو كما اشتم رائحته من تقارير سفيره في واشنطن وتحليلات الصحف اليومية . وبناء على وجهة نظر ناصر ، فإن الاعتبارات التي تحول دون اعترافنا بالنظام الجمهوري في اليمن تصلح في نفس الوقت لأن تساق كحجج وبراهين على سلامة فكرة الاعتراف بالنظام الجديد ، والعكس صحيح . وفي كانون الأول (ديسمبر) عام ١٩٦٢ ، قام السفير بادو بزيارة لناصر وطلب منه تأكيدات على أن اليمن لن تستخدم كقاعدة لشن حملات عسكرية على المملكة العربية السعودية أو المراكز البريطانية في جنوب الجزيرة العربية . إلا أن ناصرا قد أصيب بالدهشة إزاء هذا الطلب ولم يتردد البتة في إعطاء السفير ما شاء من تأكيدات وضمانات . وفي ١٩ كانون الأول (ديسمبر) عام ١٩٦٢ قامت الحكومة الأمريكية بالاعتراف بالنظام الجمهوري في اليمن السعيد .

ولم تكن نظرة ناصر إلى الأوضاع في اليمن - واليمن فقط - تختلف عن نظرتنا له . فلو أن اليمن انزلق إلى البحر رويدا رويدا ، وغاص فيه شبرا شبرا ، وأصبح أثرا بعد عين ، فما أظن أن الجنس البشري سيفطن له ، وإن حدث فلن يعاني من ألم أو يشمر بوخزة ضمير . ومن جهة أخرى ، فقد أدرك ناصر أنه ما من امرئ يستطيع أن يجني أية مكاسب في منطقة ما عن طريق انتفاضات محلية وحروب عصابات ما لم يكن له فيها موطن قدم وله يقربها محط رجال . « فالتعصبون » (١) لا يصلحون لمثل هذه المهمات ولا يفيدون في مثل تلك الملمات ، بل وغالبا ما يتلاشون تلاشي الأسهم النارية في الأثر وهي تندفع عاليا في سماء ليل بهيم . أما إذا اختفى وراء الستار انتهازيون (لا متعصبون) ،

(١) سبق الكلام عنهم في الفصل التاسع

(المغرب)

وفي اللحظة الحاسمة الى المسرح يقفزون ، وللقيادة بعدئذ يتسلمون ، فالامر عندئذ يهون ، وربما قدما يسير . فناصر لم يكن باليمن من المهتمين ، بل كان الى كل الجزيرة من المتطلعين . فاليمن عنده موضيء قدم لا هدف وأمل . وكذلك أيضا حكومتنا الامريكية ، فهي ليست حريصة على اليمن ولا ينبغي عليها ان تكون كذلك . فجلّ قلقها قد تركّز على أمن عدن واستقرارها . وكانت من انتشار « موضة المستقبل » في الجوار خائفة ، فالملك والمملكة بجنب اليمن ، والامير في الكويت ، وليست امارته نائية لا تعصفها عاتية ، فامارات الخليج ومشيوخاته للطريق واصلة وبين الكويت واليمن رابطة ، فضلا عن أنها للجرثومة حاضنة وبالداء مرعبة . وناصر رأى ذلك يقينا بعد ما نظر ، ثم عبس بعدها وبسر فلم يصدق أننا - نحن الامريكيين - لا نرى ما يراه . والحق أننا نظرنا ، وبنفوس عينه فعلنا ، ولكننا لم نكن لنفصح عن هذا وهو بنا من المتربصين ، وطفقنا عن « الشيوعية » متكلمين ، ومن « توجيهها » لحكم اليمن متخوفين ، اذ الحكومة فيه فتية ونخشى ان تكون للشيوعية مطيئة .

ولسنوات متتاليات ، تأرجحت العلاقات الامريكية المصرية بين الحسن والسيء ، فلم تقفز الى قمة أو تتردء الى هاوية . وفي خلال ذبذباتها لم تكن تنطوي على علاقة ظاهرة بالتحركات المصرية أكثر مما كانت عليه في الماضي . وأما « حوار » ناصر مع السفير بادو - وكان تابعا لعلاقات ناصر الودية مع الرئيس كينيدي - فقد تفسّخ وبات ضربا من الترهات والسفسفات يتبادلها الاثنان متناوبين وكاد ينقطع نهائيا لولا احترام ناصر لشخص السفير وذاته . وفي آب (اغسطس) عام ١٩٦٤، حل لويس باتل محل جون بادو كسفير لحكومتنا في القاهرة . ولويس هذا موظف من موظفي الخدمة الاجنبية المحترفين يتمتع بخبرات مكتبية رائعة ، غير أن فهمه « للعبة الأمم » ليس أكثر من اعتقاد خرافي يصور له أن وكالة المخابرات المركزية تشرف (عن طريق اللعبة) على عمليات تخريبية تغطي كافة المنطقة وأنها كانت وراءه لكنها أخطاته . وبعد حوالي اسبوع من وصول باتل الى القاهرة ، أشعلت مظاهرات الطلبة النار في مكتبة كينيدي التذكارية فانت على ما فيها من كتب ومجلدات . وفي نفس الوقت ، أسقط سلاح الجو المصري طائرة « جون مكوم » أحد ملوك النفط في تكساس وصديق حميم للرئيس جونسون . وبعد كل هذا وذاك ، وقف ناصر ليلقي

خطابا لاذعا في جماهير مدينة القاهرة دعا فيه السفير الامريكى الى « شرب ماء البحر الابيض المتوسط » ، ان كانت لا تروقه مثل تلك التصرفات . وتكدست يومها الاستفزازات حتى بلغت الذروة وأثارت أعضاء مجلس النواب في الكونغرس فتداعوا الى اجتماع قرروا فيه قطع المساعدات عن مصر وايقاف ارسال الغذاء لها . ولربما يتراعى أن بادرة كهذه ليست سوى نكسة حلت بالعلاقات الامريكية - المصرية يومها غير أن مجلس الشيوخ عدل قائمة المساعدات ثانية و أعاد اسم مصر الى طليعتها .

وبعد شهر من الزمن (في ايلول ، سبتمبر) ظن ناصر أنه قد سدء صفقة مهينة لنا عندما حرض مجموعة من الدول الافريقية على قطع علاقاتها و اياه مع بريطانيا ، وظن أن عملا غير مباشر كهذا لا يقل قساوة وإهانة عن أي عمل مباشر آخر ضد الولايات المتحدة . غير أن تصرفه هذا قد أقنعته بصورة قاطعة أن التصرفات الامريكية تجاه مصر تسير في طريق غامضة عسيرة الفهم ، هذا ان كانت هناك طريق . فما أثار دهشة ناصر وأورثه حيرة على حيرته السابقة أنه لم يمض سوى يومين على فعلته تلك حتى ارسل الرئيس جونسون مبعوثه الخاص افريل هاريمان الى القاهرة عكّه يفلح في توسط مصر لدى فيتنام الشمالية للافراج عن الاسرى الامريكيين هناك . وبعد ثلاثة ايام أعلن السفير الامريكى في القاهرة أن شحنات القمح الامريكى الى مصر ستبقى متدفقة دون انقطاع او نقصان . وهكذا بدت حكومة الولايات المتحدة متغافلة عما حدث ، وكان العلاقات مع اخلص حليفاتها ما نالها سوء أو مسها اذى .

وفي صيف عام ١٩٦٥ أخبرني ناصر أنه قد « رفع يديه واستسلم » ولن يحاول ثانية أن يسبر غور التحركات الامريكية . وأما محمد حسنين هيكل ، صديقه الحميم ، فقد نشر مقالة في صحيفة الاهرام معبرا عن رأيه في أن السياسة الخارجية المصرية (وهي المفامرات المصرية في جزيرة العرب وحلات القاهرة الاذاعية ضد الملك فيصل والملك حسين والمضايقات المستمرة للمواقف البريطانية والامريكية في الشؤون العالمية) ليست سوى « توظيف مثير » للجهد المصري . فقد عادت على مصر بمنافع سياسية وأخرى عملية ملموسة ، فحصلت مصر على مساعدات عسكرية من الاتحاد السوفييتي دون أن تخسر المساعدات الاقتصادية

عن الولايات المتحدة . وفصلنا بين مسألة المساعدات الاقتصادية وبين الاعتبارات السياسية ، قد حاز على اعجاب ناصر وقبوله ، ولم يقصر في ذلك ، وعبر لي ناصر عن هذا بنفسه . ولكنه بقي مرتابا في أن يكون ذلك هو كل ما نفعله ، ولن يرقح باله وتهدأ نفسه حتى يقف على كل ما نريده حقا من وراء علاقاتنا معه ونبغيه . وبخصوص مقالة هيكل حول « السياسة الخارجية المصرية : توظيف منبر ، كاشفني ناصر براهيه فيها (كما كاشف غيري) وقال انه لا يرى بأسا عليها ، سوى أنني علمت أنه عثف كاتبها وأنبه عليها سرا . ومع كل ذلك فقد بقي مصرا على أن علاقاتنا معه ما زالت تنطوي على اسرار دفينه وتعقيدات بالغة غير ملم بها ، ولا واقف عليها .

وفي ايلول (سبتمبر) ١٩٦٥ ، افلح زكريا محي الدين ولفيف من ضباط ناصر باقناع الاخير بتوفير تفاعل اعمق بين المواقف المصرية والمواقف الامريكية ، وستحسن الحكومة المصرية صنما ان نظرت اليها وكأنها مواقف واحدة . لقد كان يومها أكثر من ثمانين بالمائة من خبز سكان المدن في مصر من مساعدات القمح الامريكي ، كما ان المال اللازم لمصر من العملة الصعبة (حوالي ألف مليون دولار) لتنفيذ المشاريع الانمائية لا يمكن الحصول عليه الا من المؤسسات المالية التي تحتفظ حكومة الولايات المتحدة بأكبر نصيب من أسهمها . ومن خلال تقارير السفير المصري في واشنطن مصطفى كامل ، أدرك ناصر أن الرأي العام الامريكي في تصاعد مستمر ضده وأن الذين يعطفون عليه من موظفي وزارة الخارجية الامريكية بلغوا يرزحون تحت ضغط متزايد عليهم . وعلى حد زعم السفير كامل ، فإن وزارة الدفاع الامريكية أصبحت فريسة للبريطانيين وتحت مطلق تأثيرهم . وبات اعتقاد وكالة المخابرات المركزية أن ناصرا عميل سوفياتي ، وأن مكتب شؤون الشرق الأدنى الملحق بوزارة الخارجية قد أمسى هشيما تذروه الرياح وبات لا يملك مما كان عنده ذرة تأثير أو نفوذ . وازاء كل هذه المضاعفات وجد زكريا أنه لا سبيل لاجاد قناع مشترك وبئشاء مع الولايات المتحدة دون الوصول الى الرئيس جونسون وأن خير مسلك لتحقيق هذا هو انشاء علاقة شبيهة بعلاقة ناصر - ماسون . وعلى حد علم زكريا فإن أكثر الناس حظوة عند الرئيس جونسون هم اصداقاه من ملوك النفط التكسانيين . ولزكريا صديق منهم ، بل وصديق حميم ، كان سابقا وزير مالية الولايات المتحدة ، وهو روبرت

أنفوسون • ومرة ، فان روبرت هذا قد أعطى زكريا سر تحريك « ملوك النفط المليونيريين » وقال له : « عليك بما يسهل صرفه في بنوكهم • انهم واقعيون ولن يقبلوا الا حقائق ملموسة ، وبغير هذا لن تجد اليهم سبيلا » •

وبعبارة اخرى ، أدرك زكريا أن « لعبة الأمم » ليست سوى هراء وهذيان، وعلى مصر أن تكف عن المشاركة فيها وتنكب على تطوير نفسها وتحسين اقتصادها ، وتختل - ولو لمدة - عن مصالحها في العالم العربي وفي العالم الافريقي الآسيوي • وبهذا السلوك لا بغيره تفلح في كسب ود أصدقاء الرئيس جونسون من « أصحاب الملايين » وتفتتح حقبة جديدة من العلاقات الطيبة مع الولايات المتحدة خاصة والحكومات الغربية والمؤسسات المالية عامة ، دون أن تخاطر بعلاقاتها مع الاتحاد السوفيتي وتخسر صداقته •

ولم يكن لدى ناصر يومها أفكار اصلح وأراء أنسب • ففي تشرين الاول (اكتوبر) عام ١٩٦٥ أصدر قراره بتميين زكريا رئيسا للوزراء، ووطد العزم على أن يترك له تسيير دفة الحكم في البلاد • وشرع زكريا يومها بتنفيذ سياسته المعروفة باسم « مصر أولا ، وأعلن أن على مصر أن تنصهر قيادة العرب عن طريق « الزعامة القدوة » • ود القدوة، هنا هي في ايجاد حكومة أكثر فعالية واستغلال اعظم للموارد الاقتصادية وفي تحقيق مقائم أكثر للشعب ، وليست « القدوة » مجرد تسلط سياسي أجوف على الدول الاخرى • واعترف زكريا رسميا بوضع مصر الاقتصادي السيء ، فاتخذ اجراءات تقشفية صارمة لاقت قبولا ورواجا عند عامة الشعب فاكسبت الحكومة شهرة ومحبة ، (وقد أدهش هذا ناصر نفسه) • وأجرى زكريا تمديدات على اتفاقيات الحكومة مع شركات البترول فحصل عائدات أكبر للمصريين وشحن الشركات بدفعة من النشاط لتوسيع أعمالها وزيادة انتاجها • ودخل في مفاوضات مع انبنك الدولي ومع هيئة التمويل العالمية ومع صندوق التمويل الكويتي لتطوير العالم العربي ومع بنوك رئيسية خاصة يمكن أن تكون مصدرا حسنا للمصلحة الصعبة على أساس من « حقائق ملموسة » وليس « اعتبارات سياسية » • وأما نجاح زكريا في اقناع ناصر بالتوصل الى اتفاق مع الملك فيصل حول قضية اليمن السعيد (وذلك قبل أشهر من استلامه منصب رئاسة الوزراء) فقد دفع به الى حث المشير عامر الى التمجيل بسحب

الجنود المصريين من هناك (وكانت هذه مغامرة زكريا اليتيمة في تدخله بالشؤون المصرية خلال فترة ولايته كرئيس للوزراء) . ولو أن الحكومة الأمريكية قد فوجئت زكريا حقا بقائمة اقتراحات لما ينبغي عليه انجازه لما كانت القائمة تتضمن شيء ما فعله هو حقا . وهكذا فقد غامر زكريا بسمعته وجازف بها ، وكانت نتيجة « سياسة مصر أولا » أنه قد فاز بلقب « العميل الأمريكي » .

ولم يكن رد الفعل الأمريكي تجاه سلوك زكريا حارا ومشجعا ، فالسفير باتل لم يقيم بزيارته الا مرة للمجاملة عندما تسلم زكريا مهام منصبه كرئيس للوزراء ، ومرة أخرى صحبه فيها دافيد روكفلر ، ومذالك لم تتكرر زيارته الا مرة أو مرتين وفي ظروف رسمية محضة . ولم يتشرف زكريا برؤية طلعة السفير البهية حتى حان وقت انتهاء خدمة الاخير في القاهرة فجاءه مودعا حسب ما تقتضيه الاعراف والتقاليد . وفي نفس الوقت لم تنقطع المشاورات بين كبار موظفي السفارة الأمريكية في القاهرة وبين موظفي وزارة الخارجية المصرية حول مختلف الشؤون العالمية واحداثها . وكم دارت احاديث بينهم حول الاوضاع السياسية في اليمن وفيتنام وآسيا وأفريقيا . ولم يكن مستشارو القصر الجمهوري عن هذه الاحاديث ببعيدين ، فشاركوا فيها بكل نشاط واكتراث . وهكذا سقته الأمريكيون بانفسهم النظرية القائلة ان حكومتنا تهتم بمصر « لاجل مصر فقط » ، واعادوا الى ذهن ناصر ان الحكومة الأمريكية تبدي اهتماما بالاوضاع المصرية بقدر المظهر التي تظهر به مصر على مسرح الاحداث العالمية ، وهذا حقا ما عبر عنه هيكل في مقالته الشهيرة : « السياسة الخارجية المصرية : توظيف مشر » .

وايقن زكريا أخيرا ، أن التفاعل الاعمق بين المواقف الأمريكية والمصرية قد بات عكس ما كان يحلم به ويتمناه . فالملك فيصل قد شرع في الدعوة الى إقامة تحالف اسلامي للوقوف في وجه الشيوعية » (وبالتالي للوقوف في وجه ناصر) وذلك بعد أن سحب المصريون خمسة عشر ألفا من جنودهم في اليمن . كما أن الملك خشي أن تخف في واشنطن حدة المعارضة ضد ناصر التي كانت قد تكسبت ليومها . وكنتيجة متوقعة لهذا ، قام ناصر بإعلاء الجنود الى اليمن ثانية وفتح باب النزاع والشقاق مع الملك فيصل على مصراعيه . وفي تلك

الإنهاء ، أخفق زكريا في التأثير على أصحاب الملايين الذين كان يأمل منهم أن يساعدوا على انتشار مصر من ضائقها المالية . فقد صرح « أصحاب الملايين » الأمريكيون أنهم لا يفضلون توظيف أي من أموالهم في مصر إلا إذا أقدمت الأخيرة على تخفيض قيمة عملتها (وهذا غير مقبول عند زمرة أصحاب الديون) وعلى إيقاف كافة مشاريع « صناعة العزة والكرامة » الخاسرة (وهذا لا يتناسب والاحوال السياسية في الداخل) . وقد أخبر أحد « أصحاب الملايين » زكريا قائلا : « انه لا يكفي أن تكون مصر بلدا مغريا للتوظيف المالي وصالعا للاستثمار ، بل يتوجب عليها أن تكون أصلح كل تلك البلدان ، التي منحت أيديها لنا تتلقفنا من كل الجهات ، متى نفكر فيها - أي مصر - وفيكم . يا حضرة رئيس الوزراء » .

وهذا ما حدث تماما . فقد بعيت « لعبة الأمم » مستمرة وحتى مع الولايات المتحدة (وقال لي زكريا انها مستمرة « وخاصة » مع الولايات المتحدة) . وكم لام زكريا نفسه لارتياحه يوما بحقيقتها وقدرتها ! ولم تكن لتعني شيئا عنده ، فقد ظن بعتمية وجوده طريقة قياسية ما ، يطبقها المرء دائما ويصمم خط سيره بحسبها دون أن تتغير الطريقة أو تتبدل ، ودون أن يصاب أيضا بخيبة أمل كلما أراد أن يسبر الأغوار ويعرف الأسباب . ومهما كان ، فلقد بلغت الاوضاع مبلغا دفعت بنواب الرئيس الثلاثة - عامر وزكريا وعلي صبري - أن يختلوا برئيسهم ناصر في تشرين الاول (اكتوبر) عام ١٩٦٦ حتى يضمنوا « تفسيرا عاما » ، للاحوال والاحداث .

وكلمة « التفسير العام » قد ترجمها المتأثرون بمسارات الوزير دالس وديباجاته الى الانكليزية على أنها « إعادة التقييم للاحداث المسؤلة والاضاع المتردية » . والمعقبة أن « التفسير العام » شيء آخر تماما . « فإعادة التقييم للاحداث المؤلة والاضاع المتردية » على طريقة دالس ليست سوى عمل أخلاقي بحث يتمثل في « صراع الضمير » لاقتناع المرء بشيء ومحاولته إبرازه على أنه شيء آخر كليا . واما « التفسير العام » فهو عمل واقعي لا علاقة « لعلم الاخلاق » به ، وهو نوع من المراجعة التي يجريها قائد عسكري أو رئيس لريق كرة قدم عندهما يهرك أذ استراتيجيته التي اعتاد على تطبيقها في الماضي لا تصلح للمستقبل فيطلب تعطيل اللعب مؤقتا حتى يتسنى له إعادة تحديد أهدافه وفهم حقيقة

العثرات القابعة في طريقه والمساعدات المطروحة أمامه (والتي ربما تكون قد انصهرت ذات مفعول مضاد) ولاستنباط استراتيجيات جديدة يتخذها طريقا له ومنهجيا . وفي الوقت الذي كان ناصر عاكفا مع نوابه الثلاثة على اعداد « التفسير العام » ، فان البنوك وشركات الطيران وشركات البترول وغيرها من الشركات الامريكية كانت هي الاخرى بصدد اعادة تخطيط استراتيجياتها بعد ان شعرت انها لن تتمكن من صيانة مصالحها الا عن طريق العمل مستقلة - الى حد ما - عن العلاقات الدبلوماسية بين المصريين والامريكيين . وكان على بعض أجهزة حكومة الولايات المتحدة ان تحذو حذو الشركات تأمينا للمصالح الامريكية وبغض النظر عن تلك القيود التي كانت تفرضها « الاعتبارات العالمية ، الاخلاقية منها او القانونية » (مثل معاهدة الامم المتحدة والاعراف الدبلوماسية المتبعة) . وهكذا قفزت الى المسرح « لعبة » من نوع جديد عجزت بعدها الدبلوماسية التقليدية ان تمارسها أو تؤدي أدوارها .

وكما ذكرت آنفا في هذا الفصل ، فلم تكن تلك المرة الاولى التي رقد فيها أحد المشتركين في « اللعبة » من الامريكيين أو المصريين لاجراء تقييم عام وتقدير شامل . كما انها لم تكن تلك المرة الاولى التي يستعان فيها « بغير الرسميين » وبغير الدبلوماسية التقليدية « لتأخذ بنواصي الامور ولكن من « خلف الكواليس » وسرا ولتحل محل الدبلوماسية التقليدية التي لم يبق لها سوى مهمة مراقبة تصرفات حكومتنا وتحديد ما اذا كانت في انسجام اخلاقي مع القواعد الشائعة داخل البلاد وخارجها . ولهذا « التفسير العام » خاصة أهمية فائقة لانه وجد نتيجة ظهور ملامح أربعة جديدة « للعبة الأمم » ، تعززت أركانها حتى قادت الى الحرب العربية الاسرائيلية في حزيران (يونيو) عام ١٩٦٧ . كما انها لا تزال قائمة تدفع بذبول الحرب الى التفاقم ثانية ، وتطرح قضايا ومسائل مشابهة في أماكن أخرى من العالم . والملامح الاربعة هي :

١ - انتهاء اسطورة القطبين (اللذين كان كل من ناصر ونكروما وسوكرانو وغيرهم يصفونهما في دوامة التنافس لكسب ودهم) وظهور أقطاب جديدة أخرى في العالم .

٢ - انعدام الامن والنظام في كافة أرجاء العالم العربي مع ضياع آخر

الآمال في الوصول الى « وحدة عربية » مهما كان لونها وشكلها ،

٣ - نفاذ صبر الاسرائيليين مما دعاهم الى التصريح في اوائل عام ١٩٦٧ قائلين : « اننا لن نصبر بعد الآن ، وكفانا كل هذا ، فسنترى بالعرب الدوائر ونفتنم أول فرصة سانحة لننقض عليهم ونغيّر ما حولنا ونجعله كما نريد ونهوى » .

٤ - وقرر السوفييت أن يتخلوا عن فكرة الوقوف على الحياد في الصراع العربي الاسرائيلي وباتوا على اعتماد لان يتعاونوا مع أية حكومة عربية تلتقي معهم عند منتصف الطريق .

وبكل تأكيد فان هذه التحولات في الاحداث العالمية تتطلب استراتيجيات من نوع جديد ولكل الاطراف اللاهية على المسرح عامة والمصريين خاصة . وخير دليل على حاجة المصريين الماسة لاستراتيجية جديدة يقفزون بها الى مسرح الاحداث برشاقة وخفة جديدين هو ما قاله صحفي امريكي بارز لاحد الدبلوماسيين المصريين وجاء فيه : « اننا - نحن الامريكيين - لم نعد ننظر الى ناصر على أنه مصدر ازعاج لنا أو قلق ، بل ان ناصرا لم يعد كذلك » . وكان هذا في اواخر عام ١٩٦٦ ، آخر عام قبل عام الحرب الخاطفة .

- ١٣ -

النصاية

الحرب العربية الإسرائيلية حزيران (يونيو) ١٩٦٧ وزيولها

... وغيرها ، فكل حال يزول ...

ترى ما هي الاستراتيجية اللاتقة بزعيم مثل ناصر ليلعب بها على المسرح العالمي للاحداث العالمية ؟ سأفترض أنك تقبل النقاط التالية :

● أن ناصرا هو من ذلك النوع من الناس الذين يهمهم أن يتمتعوا بقوة شخصية واسعة والا لما كان بوسعه أن يمسك بدفة الحكم ، ويبقى عليها مسيطرا ؛

● وأن من المنطقي لزعيم كهذا أن يلجأ الى الاستعانة بأجهزة العنف والارهاب (قاعدة القمع) وأن أجهزة كهذه يتضمن قوامها بالضرورة آلافا مؤلفة من الموظفين وجيشا جرارا لا تستطيع مصر تحمل نفقاتهم ضمن قدرتها العادية ؛

● وأن الحصول على تأييد جماهير الشعب المحرومة التي تملأ شوارع مصر وتمج بها مدنها ، اتخاذ مواقف لو نظر اليها امرؤ ذو عقل وبصيرة لما وجدها مجدية أو مثمرة ؛

● وأن دعم الشعب لناصر يقوم على حياده ، وحين يكون حياديا فلا مناص من أن يعتبر الحياد ليس هدفا فحسب بل واستراتيجية لا بد منها لمجابهة « القوى العظمى » ومواجهتها ؛

● وأنه عندما بدأت استراتيجية كهذه عملها (وكان الغرب ، وليس ناصر ، هو الذي دفعها الى العمل) فعل ناصر أن يصل بفعاليتها الى القمة عن طريق اشراك اطراف أخرى معه لتواجه كلها « القوى العظمى » كوحدة متماسكة ؛

● وحالما تينع ثمار استراتيجية « التكتلات » (وهذا ما حصل فعلا) فعل
ناصر أن يضرب بعنف كل من شق عصا الطاعة عنه وخرج على « تكتله »
أو فكر بانشاء « تكتل جديد » ؛

● وأخيرا ، ففي الوقت الذي يعتبر المحللون المحنكون في لندن واشنطن
وموسكو أن سلوك ناصر لمثل هذا المسلك أمر معقول ومقبول ، فإن
بقية العالم قد سئمته وضجرت منه حتى تكاد إحدى تلك الدول العظمى
أن توقف مجاملتها فجأة وتقول : « فليأخذ الآخرون هذا الرجل ، فلقد
نلت منه ما يزيد عن طاقتي ويفيض عن كفايتي » ، وهنا يتقدم آخرون
ليتلغوه لقمة سائغة ، ويبتلعوه هنيئا مريئا .

ومن السهل ابداء الجواب لأي امرىء لم يسلك هذا الطريق . والجواب
مماثل لجواب مسألة فيها رجل كان يجني خمسين ألفا من الدولارات في العام ،
ثم انخفض دخله فجأة الى اثني عشر ألفا . ففي هذه الحالة عليه أن يقلص طموحه
الى حدود معقولة ، ويرضئ نفسه قدر ما يستطيع بدخله الجديد . وهذا
بالضبط ما اقترحه بعضنا - وخاصة روبرت اندرسون ، وزير المالية السابق
لحكومة الولايات المتحدة والصديق الحميم للرئيس جونسون - على الرئيس
ناصر . وفي كانون الثاني (يناير) عام ١٩٦٧ ، رتب اندرسون - بالتعاون مع
أحد أعضاء سفارة الجمهورية العربية المتحدة في واشنطن وهو محمد حبيب -
قائمة بأسماء كبار المولدين ورجال الاعمال الذين لهم نفوذ وسطوة ، وكلهم من
أصدقاء الرئيس جونسون ، ومهد محمد حبيب الطريق أمام ناصر لدعوتهم الى زيارة
القاهرة . وفي شباط (فبراير) وصلوا القاهرة ، وأعجبوا الى حد بالغ ليس
بمستقبل مصر الاقتصادي فحسب بل والرئيس ناصر شخصيا . ونقلوا
انطباعهم الحسن الى الرئيس جونسون عندما عادوا الى واشنطن . وبدا الى حين
كان من الممكن لحكومة الولايات المتحدة والرئيس ناصر أن يبدأ من الصفر علاقة
جديدة يتخلى فيها ناصر عن فكرة انشاء « التكتلات » (مع أنه على مسرح
الاحداث الجديدة يمكنه أن يكون حياديا قدر ما يرغب ويهوى) ويقلص طموحه
الى ابعاد معقولة مركزا اهتمامه على بناء مصر ، وسوف تدعمه حكومة الولايات
المتحدة ماليا ليكون قادرا على هذا ، ولن يقصر رجال المال والاعمال الأمريكيون عن
مد يد المساعدة لتتضافر الجهود وينشط العمل .

الا أن تفاؤلا كهذا لم يضع في حسابه قوة الدفع الضخمة لحركة ناصر
هفه والتي تتصاعد بازدياد ، ولا الحدود التي ستوصله اليها تلك القوة الدافعة

كما تدفع بطائرة ضخمة فتوصلها الى أجواء عالية • هل يخفض ناصر عدد افراد جيشه الى خمسين ألفا ؟ هل يخفض ناصر عدد « طبقة الموظفين » الى مائة وثلاثين ألفا ؟ هل سيعيد ما أمه من صناعات الى أصحابها الشرعيين ؟ هل يعلن حل « الاتحاد العربي الاشتراكي » تاركا للحظ اختيار وريث له ؟ انك حينما تأتي الى تنفيذ مثل هذه الاجراءات، ستجدها فجأة من « رابع المستحيالات تفكيراً وتنفيذاً »، ولو أن ناصراً رآها هكذا فليس ذلك لانه قد أضحي « مجنون سلطة » أو أنه قد فقد عقله •

ولم يكن تأثير الاتحاد السوفييتي بقليل • فالسوفييت يمتازون عنا بعدم حاجتهم لممارسة أي ضغط على ناصر مباشرة ، لان سلوكه وسياسته في المنطقة يوافقان رغباتهم ويجدان هوى في أنفسهم دونما تحوير أو تعديل • ومرة قال، ناصر لسفيرنا في القاهرة : « انني أفعل ما أفعله في اليمن وأماكن أخرى ، وسأفعله ، ولو لم يكن الاتحاد السوفييتي على قيد الحياة وفي حيز الوجود » • الا أن مصالحنا في المنطقة ومسؤولياتنا تجاه أصدقائنا هناك لن تسمح لنا أبداً أن نفرض الطرف عن ناصر وأن نصم عنه الأذان •

وهكذا ، فبعد أن غادر ملوك المال الامريكيون عاندين الى واشنطن ، استحوذت أحداث المنطقة على انتباه ناصر واهتمامه الى حد جعل الرجوع الى برنامج « مصر أولا » بعيداً عن تفكيره بعد المشرق عن المغرب •

ان سلسلة الاحداث التي ابتدأت في تلك اللحظة واستمرت حتى نشوب الحرب بين العرب واسرائيل في حزيران (يونيو) ١٩٦٧ مفصلة تفصيلاً بديعاً في كتاب والتر لاكور واسمه « الطريق الى حرب عام ١٩٦٧ »، وهذا الكتاب من أهم ما كتب حول هذا الموضوع بالذات • فالبروفسور « لاكور » ذو خبرة واسعة بمصالح السوفييت في الشرق الأوسط وله بها المام غزير ، ولهذا فهو من أقدر من يكتب موضحاً الاسرار التي انطوت عليها سياستهم هناك (ولن أستطيع ذلك بنفسى) • لقد أراد الروس من ناصر أن يقوم « باستعراض عضلاته » وليس أكثر من ذلك بل ودون أن تورطه استفزازاته تلك في « حرب حقيقية لا تبقي ولا تذر » • ولعلي أصدق هذا على ضوء ما سمعته من الكثير من أصدقائي المصريين وأجد ميلاً في نفسى لموافقة البروفسور لاكور على تفسيره الواضح البسيط حول

بداية الحرب واشتعال نيرانها وقد قال في ذلك : « لقد تعثر ناصر وانجرف نحو درك الحرب انجرافا ، ولم تكن اسرائيل قد تهيأت لها قلبا وقالبا بل وكانت مضطربة وحيرى . « وأما أجهزة مخابرات السوفييت فلم تكن تتمتع بالكفاءة اللازمة ولم يكن تخطيط الروس وتقديرهم سليمين قديرين بل وكانا ضعيفين . وكانت امريكا هي الاخرى عاجزة عن فعل أي شيء . « سوى انني أود أن أضيف هنا قائلا : « ان ناصرا لم يتورط في الحرب تورطا ولم يدفع لها دفعا ، ولم تكن اسرائيل مضطربة حيرى بل كانت للصدام متوقفة وللحرب متشوقة . « لقد أمسك ناصر بزمam الأمور جيدا وظل لها مخططا ، وبالمناسبة بها منفذا ، حتى لحظة تنازل نائب الرئيس زكريا محي الدين – وبالنيابة عن ناصر نفسه – عن مطالب مصر في مضائق تيران ، استجابة لنداء الامم المتحدة ، بساحة نفس ورحابة صدر . غير أن الاسرائيليين لم يكونوا راغبين في ترك ناصر يجني ثمار تلك الواقعة فوجهوا لمصر الضربة القاضية في نفس الصباح الذي كان مقررا فيه مغادرة زكريا القاهرة قاصدا نيويورك مع أنهم كانوا قد قطعوا على أنفسهم عهدا أن يمسكوا عن الحرب حتى يصل زكريا الى هناك . وللسنوات غير قليلة بقى الاسرائيليون يتدربون على انقضاءهم ذلك ، ولو لم ينفذوه يوما فما كانت الفرصة لتسبح لهم مرة أخرى أو تتوفر لهم ثانية ظروف مثل .

وها انذا أساهم بتقديم ما شاهدته بأم عيني في القاهرة ، فقد كنت جاهلا لما كان يجري يوما في تل أبيب أو واشنطن ولم يكن علمي بمجريات الأمور في موسكو الا عن طريق أصدقائي من المصريين . وهذا ما علمته :

١ – كان شغل ناصر وضباطه الشاغل قبل الحرب بشهرين خراب اقتصاد البلاد وانهيائه . ففي بداية تلك ، السنة (١٩٦٧) قام فريق من الباحثين يعملون لشركتي باحصاء أدق الارقام التي توفرت عن مقدار العملة الصعبة والذهب المخزون في مصر عام ١٩٥٢ يوم قام ناصر بانقلابه . ثم أضافوا اليه مجموع المساعدات الاجنبية (من قروض وهبات) التي تلقتها الحكومة ، وأضافوا اليه ايضا مجموع ما أذخرته مصر من ثمن الصادرات بين منتصف ١٩٥٢ وحتى نهاية عام ١٩٦٦ ، وأنقصوا من المجموع الحاصل النفقات والمصروفات (الخارجية و ثمن الواردات) فكانت النتيجة أن معدل عجز مصر التجاري قد بلغ حوالي أربع مائة

مليون دولار سنويا وقد استنفذ تقريبا كل تلك السراردات بما فيها قروض استدانته الحكومة وعجزت عن اداها . وعلى حد قول البروفسور لاکور فان احتياطي مصر قد تدنى حتى اصحى حوالى اربعين مليونا من الدولارات كذهب مخزون وستة واربعين مليونا من الدولارات بشكل عملات صعبة . ولو أن امرأ حاول أن يبحث حثيثا في القاهرة عن تلك الستة والاربعين مليون دولار ، لما كان له - لدعشته - أن يثر على أكثر من مليونين أو ثلاثة يجب دفعها لتسديد ثمن مشتريات طارئة لا مناص منها . فكم من معامل أغلقت أبوابها لنقص في قطع التبدیل التي لا تكلف أكثر من بضعة ألوف من الدولارات . وأوقفت يومها شركة الطيران العربية المتحدة أربعا من طائراتها.الكوميت السبعة لنقص في قطع الفيار مع أن هذه الشركة تعتبر أحد مصادر العملة الصعبة في مصر . ولو أن الحكومة المصرية باعت يومها كل ما تبقى لديها من ذهب ما كان ليكفيها هذا لاكثر من شهر واحد تسدد به ثمن ما اعتادت عليه من واردات وتدخر منه دراهم معدودات . وفي التقارير الاقتصادية الربع سنوية للسفارة الامريكية في القاهرة تجد رأيا أن الحكومة المصرية كانت مفلسة فعلا قبل عام من الزمن (أي.في أوائل ١٩٦٦) . وأما الساخرون من بين المراقبين الاجانب الذين حنكتهم الظروف ومرستهم الاحداث فقد قالوا يومها : « لقد اعتدنا على سماع هذا النغم القديم أعواما ، ولكن مصر دائما تجدمنطلقا لها ومخرجا من هذه الازمات » . غير أن هذه المرة كان من الواضح جدا ان الجمهورية العربية المتحدة قد هوت الى الحضيض ، وعندما أدرك السوفييت أن مساعدات الغرب قد نضبت والمنافسة بينهم وبين الامريكيين قد انتهت بدؤوا بتقديم المساعدات شيئا فشيئا ، وبمقادير قليلة وحسب ما يروونه من ظروف مناسبة وأحوال ملائمة .

٢ - وكنت أعتبر ولستين عديدة ، أن نظام ناصر أكثر النظم حصانة ضد الانقلابات في العالم العربي، ولا أزال أرى ذلك . الا أنه في آذار (مارس) ونيسان (ابريل) عام ١٩٦٧ بدا بدون أدنى شك أن ناصرا قد وصل الى طريق مسدود ، وأنه كان وضباطه بذلك عالمين . وبدا يومها في مصر أن « الاستعراض الكبير » قد انتهى ، وقررت حكومتنا (وكانت قد قدمت ليومها أكثر من خمس مائة مليون من الدولارات كمساعدات منذ انتهاء الازمة اللبنانية ١٩٥٨) أنها لن تقدم مساعدات جديدة الا على أساس من طرق استثمارها والاستفادة منها وليس على

اساس من الضغط السياسي . ولو جمع الخيال ما جمع فلن ينجح هذا الأسلوب الجديد في مصر . ولقد عبّر « وورد اليوت » (وهو معام من واشنطن ويكتب في مجلة « السياسة العامة » التي تصدر عن جامعة هارفرد) عما يجول حقيقة في عقول كل موظف غربي يعمل في « ديوان المساعدات » وكل اصحاب البنوك الغربيين عندما قال : « ان اصرار ناصر على القفز الى مسرح السياسة العالمية ليلهو هناك قد كلف المصريين نفقات باهظة كان يمكن استغلالها بشكل أجدى في مجالات أخرى » وعلى كل دولة تساعد مصر أن تدرك أنها بذلك تقدم دعما لناصر لتحقيق أطماعه وآماله خارج بلاده ، كما تساعد على ضم ممالك جديدة لعرشه الغزير بها » .

والناحية الهامة هي أن كبار المسؤولين المصريين في الجهاز الحاكم في الجمهورية العربية المتحدة أدركوا أخيرا تلك التحولات في مواقفنا ووجهات نظرنا . ولا شك أنه خطر لبعض اصدقاء ناصر المخلصين (مع أنني كنت اعتقد باستحالة قيام أي انقلاب ضده) أن يجعلوا منه « سوكارنو » ولو على مضض منه (كما عبّر عن ذلك سي سولزبيرجر) . فقد وقعت اندونيسيا في معضلة مشابهة لوضع مصر فكان الحل لها هناك أن رفعوا سوكارنو الى مستوى رئيس مجلس ادارة واستلم امنا عامون توجيه أمور البلاد وشؤونها وأعادوا بناء البلاد ثانية بعدما تردت الحالة فيها حتى بلغت حد الافلاس . وقد علمت من مصادر موثوقة لدي أن مثل هذه الفكرة قد بحثت جديا للخروج بالبلاد من مصاعبها ومصائبها وأن رجالا لا يشك بولانهم لناصر قد تكفلوا بوضعها قيد التنفيذ ، ولا استبعد أن يكون أحدهم قد بلغ حدا من التهور والطيش لأن ينقلها لناصر ويبلغه اياها . ومن خلال معرفتي بناصر فأنني كنت واثقا أن مشروعا كهذا لن ينجح أو يرى بصيصا من نور . فناصر لن يرحل بتدمر أو شكوى ، ولن يتقوض نظامه وينهار الا بضربة عنيفة وضجة مدوية ، ويومها ستنازل الآلهة اعداءها وتدور رحى حرب ضروس لا تبقي منهم أحدا ولا تذر لهم على الارض ديارا .

٣ - ولم يعد ضباط ناصر يكثرثون بما يفكر العرب بالنظام المصري ، وأخذ حرصهم على سمعته يقل رويدا رويدا . الا أنهم أضحوا في قلق متزايد ازاء الصورة التي أخذ العالم المتحضر يرسمها عنهم وهي شبيهة بقصة افيلين واه

المسماة « بالمؤذي الشرير » . ولكن ناصرا كان حريصا على أن لا يفقد ماء وجهه أمام العرب - والعرب على الأقل - أو يبدو من الخاسرين . وقبل أيام من فراخي من القاهرة في وجه الكارثة التي بدأت تلوح يومها في الأفق سألت أحد أشد أتباع ناصر تمصبا له قائلا : « لماذا يصر ناصر على الظهور بنظهر زعيم كبير بين جملة أفراد خاسرين ؟ » ولم يستطع أن يجيبني بأكثر من : « من كل قلبي ، أتمنى لو كنا ندري ذلك » .

وكان هذا مهما لناصر . ولهذا فعندما استغزه السعوديون والاردنيون معلنين انه لم يبد أي تأثير بفقرات الاسرائيليين المتزايدة على سورية والاردن ، تحرك ناصر واشغل نفسه بدعاية اذاعية مضادة وأهل مسائل بلاده الاقتصادية الهامة . وغالب اعتقادي أن وصف الاردنيين له خاصة بالجبن والاختفاء خلف قوات الطوارئ التابعة للامم المتحدة قد دفعه الى اغلاق مضائق تيران في وجه الاسرائيليين . وعلى هذا يعلق البروفسور لأكور قائلا : « لقد كان من واجب السوريين وناصر أن يعلموا أن اطلاق التهديد من موقف الضعف أمر خطير » ، سوى أنني اعتقد أن السوريين وناصر يجهلون خطر مثل تلك السياسة بل وتجاملوها بنجاح لسنوات عديدة خلت . (وحتى بعد الهزيمة النكراء التي حلت بهم في حزيران (يونيو) عام ١٩٦٧ ، فما زالوا يتحدثون بلهجة القوي المنتصر . ولا يقع اللوم عليهم في هذا فلهجتهم القوية تبدو طبيعية بل ومفيدة أحيانا .)

٤ - وأخيرا ، فهناك مشكلة سوريا . ففي السابع من نيسان (ابريل) عام ١٩٦٧ كانت بعض الطائرات السورية تحلق فوق المنطقة المجردة من السلاح فرأت بعض الجرافات الاسرائيلية تحرث وتزرع . فاعتنمت الطائرات السورية الفرصة وانقضت على الجرافات تصليها وابلا من رصاصها وقنابلها ، ولم لا فالسوريون لا يقومون الا على أمثالها قصفا ولا يجيدون لغيرها نزالا . ومهما كان، فقد كان الانغراء يوما طائغيا ، فدمرت الجرافات عن بكرة أبيها وقتل من المزارعين نذر غير يسير . ولكن لم تكد غارة السوريين تنتهي حتى ظهرت في الجو بضغ طائرات من الميراج الاسرائيلية ولحقت بالطائرات السورية الى دمشق وأسقطت ستا منها فانتشر حطامها في ضواحي المدينة وفي الجوار . وتآلم السوريون من ذلك ، وأطلقت صحفهم والحكومة صيحات الحرب والنار . وأخذت الاذاعة

السورية في الاسابيع التالية تدعو الى الحرب علنا والى التحرير جهارا بشكل يجعل كل من لا يعرف السوريين ان يظن بهم خيرا وانهم على مهاجمة الاسرائيليين لا محالة معصمون . وسكذا أعطى السوريون الاسرائيليين كل ما أرادوه من أدلة وبراهين ليظهروا انفسهم بمظهر المدافعين عن انفسهم والمنادين بالسلام . (وكان السوريون يدفعون بالاتفاقية العسكرية التي وقعوها مع المصريين في تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩٦٦) .

وعقد المصريون هذه الاتفاقية وهم يظنون ، والروس معهم ، انهم يحسنون صنعا . الا ان سعيهم قد ضل ولم تخفف شيئا من مفالة السوريين ، بل وكان أثرها عكس ما توقعوا تماما . فقد ظن السوريون ان الجيش المصري رهن اشارتهم ، فاندفعوا تحت حماية الاتفاقية يزارون ويزمجرون ، ولولاها لبدا حماسهم في تلك الفترة متهورا حتى في منظارهم انفسهم . وأضحى جليا في بداية ايار (مايو)، ان السوريين وليس ناصرا قد أخذوا يندفعون الى حافة الحرب .

ومع انني كنت فاقد أي اتصال مع السوريين يومها ، فقد أخبرني أصدقائي من المصريين الذين كانوا على صلة بهم ان الأوائل قد ضمنوا ان النصر سيكون حليفهم في الحرب القادمة ، شريطة أن يكون المصريون معهم فيها . هذا عن السوريين ، واما عن المصريين فاني اعتقد ، خلافا لكثاب كثيرين ، انهم لم يلمسوا من انفسهم القوة الكافية لهزيمة اسرائيل . لقد أخبرني ناصر نفسه ، وقبل اسبوع واحد من الحرب ، عن محادثة جرت بينه وبين المشير عامر عنقه فيها قائلا : « انك - عزيزي عامر - متخلف ما لا يقل عشر سنين عن العصر الذي أنت فيه . كيف ستلحق هزيمة بجيش حديث وحسن التدريب مثل الجيش الاسرائيلي وجيشك لم يتمكن لسنوات أن يخضع شراذم اليمينيين من المدمنين على المخدرات ! » وأزيد على هذا ان النظرة الآتية الذكر لم ينفرد بها ناصر وحده بل أبدى كبار ضباطه شكاً كبيراً في قدرة الجيش المصري على العمل وكفاءته في القتال . ولا أزال أذكر ما خاطبني به أحدهم قائلا : « ان استطاعت مصر الإفلات من هذه الازمة بنصر دبلوماسي فستدع السوريين يخوضون غمار الحرب لوحدهم ان بقوا ليومها مصريين على ذلك دون تراجع أو خوف » .

كان الضباط المصريون يعلمون ، ويعلم الامريكيون المقيمون في القاهرة،

وأنا من بينهم، وكذلك كان يعلم كل المراقبين من ذوي الاطلاع أن فرصة ناصر في احراز نصر ديبلوماسي مؤزر تعادل فرصة خسارته . وقد اقلق خطاب ناصر في ٢٩ ايار (مايو) عام ١٩٦٧ كثيرا منا حيث قال فيه : « لقد باتت استعداداتنا كاملة ، ونحن الآن مهيثون لمواجهة اسرائيل .٠٠٠ ولقد أصبحنا قادرين على معالجة قضية فلسطين بأكملها .٠٠٠ » وكذلك قوله : « سوف نقرر نحن وليس هم زمان للمركة ومكانها .٠ وصحيح أن أشكول رئيس وزراء اسرائيل قد صرح في ١١ ايار (مايو) بما لا يقل فحواه خطورة عن ذلك ، غير أن عبارة ناصر أضافت حجة للاسرائيليين فوق الحجة التي وهبهم اياها السوريون ليقوموا بالضربة الاولى ، بل لعلها جعلت من المحتم عليهم فعل ذلك . وعندما غادرت القاهرة في تلك الاثناء عائدا الى لندن ، أخبرت أصدقائي من المصريين قبل سفري بأنني أراهن حتى الدولار الاخير الذي أمتلكه بأن ناصرا سوف يواجه هجوما صاعقا كذاك الذي وقع على بيرل هاربر . قلت ذلك وأنا أعلم أن بعثة زكريا محي الدين الى نيويورك قد قررت أن تكون صباح الخامس من حزيران (يونيو) وأن الاسرائيليين قد قطعوا على انفسهم عهدا للرئيس جونسون أنهم لم يقوموا بتسديد أية ضربة لمصر قبل أن يرى العالم زكريا في نيويورك ويسمع منه ما يريد أن يقوله . وكما قلت سابقا فلقد كانت فرصته خمسين بالمئة ، لا تزيد عن هذا أبدا . ولكن ناصرا قامر وغامر ولعله قد خسر الرهان .

ولامرى أن يسأل : هل ربحت اسرائيل الحرب ؟ انني أرجع هنا الى قول « اندريه بوفر » ، وهو استراتيجي فرنسي عظيم يعترف النصر فيقول : « هو اما أن تحطم عدوك تماما أو تجعله في موقف يقبل ما تمليه عليه من شروط الاستسلام » . فإذا أخذنا بهذا التعريف وجدنا الاسرائيليين لم ينتصروا حقا وذلك حينما نراقب الكلام الذي جرى بينهم وبين العرب في أعقاب الحرب . كما أن موقف ناصر في بلاده بعد الحرب أصبح أشد صلابة من موقفه لو لم تقع الحرب . وإذا اتضح هذا لم يعد لاحد أن يسأل : ماذا سيكون موقف ناصر لو تكررت المأساة ؟ ان الجواب على هذا السؤال في رأيي واضح لكل من قرأ هذا الكتاب بامعان وغاص بين سطوره .

بعد كل هذا ناتي الى هذا السؤال : الى أين تمضي بنا علاقاتنا مع ناصر

انطلاقاً من هذه الاحداث ؟ لقد كنت احاول في كل هذا الكتاب ان ابين ان ما يقوم به ناصر كان دائماً طبيعياً ويمكن التنبؤ به ان أخذنا بعين الاعتبار تلك الظروف التي كانت تحيط به . وكان يسلك طريقاً يسلكه فيما أظن كل امرئ يحمل عقليته وثقافته ، هذه العقلية والثقافة التي دفعتته ابتداء الى سدة الحكم ، وعرش القيادة في داخل بلاده . انني احب ناصراً محبة شخصية ، وما من احد احب الي قضاء سهرة مليئة بالحديث والنوادر من قضائها معه . انه من أكثر من عرفت من بين الزعماء جراً ، لا يقلل الرشوة ولكنه لا يؤمن « بعلم الاخلاق » ، والتعصب للمبادئ ، وعلى طريقته الخاصة ، فانه ميال للخير العام والاصلاح الاجتماعي وما أظن انني قد التقيت بمن يفوقه في هذا من الزعماء . وروح النكتة متوفرة عند ناصر الا أنه لا يتصرف بدافع من غل أو حقد أو هوى أو غير ذلك من الدوافع الدنيا . لقد مهدنا – نحن الامريكيين – الطريق لناصر ، ولقد سلك ناصر هذا الطريق ولم يكن من المخالفين . ولو أننا رسمنا له طريقاً مختلفاً فلعل الامور كانت ستجري على غير هذا النهج . ويبقى دور ناصر في « مستقبل الامريكيين ومستقبل أمريكا » معتمداً على نوع المستقبل الذي يخبئه لنا القدر .

واخيراً ، ما هو مستقبل « لعبة الأمم » ؟ لست أدري ان كان « مركز اللعبة » في وزارة الخارجية في واشنطن لا يزال قائماً أم أنه قد تلاشى واضمحل ، لكنني متأكد ان عدداً لا بأس به من كبريات الجامعات الأمريكية مهتمة بممارسة هذه « اللعبة » ، والتدرب على ادوارها . الا انني أجزم أن كثيراً من رجال الدبلوماسية الأمريكية (الذين كانت لهم دراية سطحية ضحلة بشؤون الشرق الاوسط في عام ١٩٤٧) قد اكتسبوا خبرات فائقة في هذا المجال وقطعوا فيه شوطاً بعيداً . لقد كانت نظرتنا للمناورات السياسية المجذبة التي تنبمها الدول المتخلفة أنها أساس الحياة الديمقراطية التي بدورها من أهم مقومات السلم والرخاء . الا أنها باتت الآن في نظرتنا ذات صبغة مستقلة لا تمت الى كل ما ذكرناه بصلة ، ولكننا مع الاسف لم نحظ بمعرفة هذا قبل عشرين عاماً . ولكننا من الآن فصاعداً لن ننظر الى تلك المناورات السياسية للبلدان المتخلفة الا بنفس الطريقة التي يعالج بها الطبيب سقيماً عليلًا . وبالتأكيد فان نظرة الطبيب له ستكون مشوبة بالهم والقلق ولكن دون تورط منه فيها أو تدخل . وانني أعتقد انه في المستقبل سيكون في كل سفارة أمريكية موظف خاص أو سكرتير « ثالث »

ليس له من مهمة سوى اقتفاء أثر الخلافات الداخلية والنزاعات بين سكان البلاد .
ولن يكتب المحللون السياسيون على دراسة تقاريره الى واشنطن بل ستنقل مباشرة الى أيدي علماء الانسان وتاريخه الطبيعي . فتلک التقارير لن تحتوي غير سرد لآخبار ومعلومات حول ما يدور من صراع بين « عادات الآلهة وطقوسها المقدسة » وبين « الهياج العصبي ضدها والنرفزة منها » أو ما يدور من نزاع بين « الاشتراكيين الوطنيين » وبين « الوطنيين الاشتراكيين » . وسيغزو شغلنا الشاغل الاجابة على أسئلة مثل : ماذا ستفعل حكومة « آزانيا » (الحكومة العابثة اللاهية) ازاء تضخم عدد السكان ، هذا ان كان لديها ما تفعله ؟ ما هي الاجراءات التي على هذه الحكومة أو تلك أن تتخذها لتطوير وسائل الزراعة في بلادها ؟ وما هي المسالك التي يجب أن تسلكها حكومة ثالثة حتى ترفع من قوة انتاج القوى العاملة في مصانعها ؟ الا أننا سنتوجه في سلوكنا مستقبلا بالفكاهة التالية :

« أمة من أمم الارض عازمة على انزال رجل على القمر وایجاد عقار مضاد لمرض السرطان وللحشرات الراشحة ، كما تنوي أيضا إيجاد حلول لكل مشاكل تضخم عدد السكان وشح المواد الأولية . ان أي امرئ يرغب بالمشاركة فليتفضل ، ولن يحول دون ذلك لون أو دين أو جنس . كما أن أي امرئ يفضل أن يشغل نفسه بأهداف وغايات أخرى كحرق السفارات الاجنبية ورفض « المادية » الغربية أو أية غايات أخرى بغية « التحرر من الاستعمار » فلن نضن ببركاتنا عليه ، ولعلمه فان « التحرر من الاستعمار » هو ذاك الشيء الذي باستطاعتنا ان نوزعه على غيرنا وبجرعات كبيرة » .



انتهى الكتاب وقد وضعنا « الملحق » حول « مشاكل السلطة والأنظمة الثورية » في بدايته .

(القريب)

محتويات الكتاب

| صفحة | |
|------|---|
| ٤ | إهداء المؤلف |
| ٥ | لمبة الأمم |
| ٦ | ملاحظة للقارئ |
| ٧ | تعاقب الأحداث |
| ١١ | مقدمة المؤلف |
| ١٧ | الأنظمة الثورية ومشاكل السلطة : |
| ١٧ | ١ - المقدمة |
| ٢٢ | ٢ - العهد الثوري : |
| ٢٦ | الأنظمة والقوانين |
| ٢٧ | قوى الأمن الداخلي |
| ٢٨ | أجهزة المخابرات |
| ٢٩ | الدعاية والإعلام |
| ٣٠ | القوة العسكرية |
| ٣١ | ٣ - عهد ما قبل الدستور : |
| ٣٣ | المنظمات الشعبية : ما هي ، غايتها |
| ٣٤ | كيف يمكن تحقيق هذه الغايات |
| ٣٦ | الدستور الجديد |
| ٣٨ | ٤ - الخاتمة |
| ٤١ | (١) مركز « لمبة السلم » في واشنطن |
| ٥٧ | (٢) مخططاتنا قيد التنفيذ في سوريا ١٩٤٧ - ١٩٤٩ |
| ٨٠ | (٣) فشل في سوريا وأمل في مصر ١٩٥١ - ١٩٥٢ |
| ٩٤ | (٤) حليفنا المستقل : ناصر في الحكم |

صفحة

| | |
|-----|--|
| ١١١ | (٥) الطراز الناصري للحكم ووسائل القمع |
| ١٢٩ | (٦) الطراز الناصري للحكم ووسائل البناء : |
| ١٤٥ | الدعاية |
| ١٤٧ | الحزب السياسي الواحد |
| ١٤٨ | الآلاف المؤلفة من الموظفين |
| ١٥٠ | الأسطورة |
| ١٥٤ | (٧) ناصر والحياد الايجابي |
| ١٩٣ | (٨) ناصر واتحاد المحايدين الايجابيين |
| ٢٢٨ | (٩) الناصرية والارهاب |
| ٢٥٧ | (١٠) عندما تمررت الشخصيات في لبنان عام ١٩٥٨ |
| ٢٨٠ | (١١) السياسة الناصرية في الخارج تمتص ثروات الشعب في الداخل |
| ٢٩٦ | (١٢) تعدد القوى العالمية وانتهاء أسطورة القطبين |
| ٣١٣ | (١٣) الحرب العربية الاسرائيلية، حزيران (يونيو) ١٩٦٧، وذيولها |
| ٣٢٤ | المحتويات |

الكتاب

إذا أردت أن تفهم « لعبة الأمم » فعليك أن تضع نصب عينيك القواعد التالية :

١ - انّ من أول أهداف أية أمة كانت أن تبقى في اللعبة ولا تخرج منها .

٢ - وغالبا ما تتصرف الأمة بصورة لا تهدف معها الى احراز أي نجاح في داخل اللعبة بقدر ما تهدف الى استمرار التأييد الجماهيري لرئيسها .

٣ - ومن السذاجة الخاطئة بمكان أن 'يفسّر أي تصريح رسمي حول السياسة الخارجية بصفاء النية و'خلوص السريرة' ، فالمنافسة شرط أساسي لأي زعيم في اللعبة ، فهو يظهر ما لا يُبطن ، ويقول شيئا ويعني به شيئا آخر .

٤ - انّ اظهار 'حسن النية' والتصريح بوجود أهداف مشتركة للأمم متعادية لا يهدفان الاّ الى تحسين الأوضاع الداخلية أو الى ممارسة ضغط على فريق ثالث ، ويتندر أن يحملا معهما أي أمل مخلص لتحقيق ما يعلنان عنه حقيقة .

٥ - انّ مداعبة دولة عظمى لأمة ضعيفة وملاطفتها لها غالبا ما تتمخضان عن التفات الأخيرة نحو الخصم الرئيسي للدولة العظمى وذلك لتدفع بهما الى التنافس على كسب ودّها وعندئذ تنتهز الفرصة لتجني الأرباح وتحقق المكاسب .

٦ - وعندما تصبح الأمة الضعيفة ذات قوة دبلوماسية عن طريق استقلالها ذلك التنافس بين الدول العظمى على كسب ودّها فانها تتبوأ هي الأخرى مركزا استراتيجيا يساعدها على احراز قوة أكبر عن طريق التهديد بالقيام بمغامرات ترغب عنها الدول العظمى .

المؤلف

مايلز كوبلاند : يعمل الآن مستشارا اعلى لمؤسسة ضخمة مختصة في العلاقات الحكومية . وقد شغل منصب نائب الفصّل في سوريا ، كما انه عاد الى واشنطن في عام ١٩٤٩ ليسانع في تنظيم وكالة المخابرات المركزية الاميركية التي انشئت يومها . ومعا جدر بالذكر ان القسم الاعظم من حياته العملية كانت في منطقة الشرق الاوسط .

The Game of Nations

Nasser's Egypt by an exceptionally influential American observer with unrivalled opportunities of working close to Nasser and the leaders of Nasser's Egyptian revolution, provides a *case-study* for a whole new strategy of international politics. Without doubt the most informative and intimately revealed picture of the Nasser regime, its personalities and the *Machiavellian game* involving a small country at a vital strategic position in time and space and the great powers of the earth.

Miles Copeland